



Bibliotheca Alexandrina



00118571

حافظ رمضان



هناك تاريخ الانسانية

الجزء الأول

كيف تطورت المدنية في العالم



هالك تاريخ الانسانية

الجزء الأول

DL

كيف تطورت المدينة في العالم

الاهداء

يغري المؤلفون على أن يهديوا ثمرات قرائتهم إلى من يقديرون
تدرا أو يرون له يدافعوا عملوا ، ولما كنت قد استوحيت
بالهول ما خططت للأجيال القنادمة من عبر الأجيال الغابرة ،
استلهمت ريفاً لأرواح حوله وحيف العصور في ساحة.
فإني أهدي كتابي هذا إلى :

ناجيت أبي الطول ، البعيدة عما تمر من الدهر القريب
متاباً خلد من الصخر ، الذي أبدع أقدم تمثال عرفه التاريخ ،
عسى أن يكون في هذا الأهداء ، بعض الاعتراف بفضل كل خادم
لإنسانيته بقي عمله ، ونساع اسمه ، وكل عامل منسبي ، وكل جند مجهول

حفظه وحفظه

الحديث الأول

لقد أويت في إحدى ليالي الخريف إلى مضجعي مبكراً على خلاف عادتي ، واستيقظت في السحر بعد أن أخذت قسطي من الراحة والنوم وقد أحسست في نفسي رغبة في الخروج إلى العراء أستقبل النسيم العليل ، وأقر عيني بجمال الشروق ، وأتجع مكاناً قصياً بعيداً عن الضوضاء أتم فيه بال عزلة الهادئة ، وأستجلى مباهج الطبيعة وجمالها . فخرجت والناس نيام ، ووليت وجهي شطر أهرام الجيزة ثم انحدرت في سفحها نحو اليمين وإذا بي أجد نفسي أمام أبي الهول ، وقد أخذتني روعة لم أره ، جلست شاخصاً إليه والمعبد خلفي حتى تنفس الصبح ورأيت وجهه يستقبل مطلع الشمس فتذكرت أنشودة (رع) أبي الآلهة عند المصريين الأقدمين ، تلك الأنشودة المدونة على ورق البردي والتي تقول : « أنت إله السماء ، تطلع على العالم فتملاً القلوب فرحاً ، وترسل أشعتك في الوجود فتملاً النفوس بشراً ، والعيون نوراً . فالسلام عليك أنت الأبدى السرمدي » .

وتذكرت ما جاء عن النور في التوراة : « إن النور هو أول ما خلق في الوجود » .

وتذكرت كذلك ما جاء في الذكر الحكيم من سورة النور :

« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دريُّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » .

فالنور أساس العبادة عند الأقدمين تبعته الشمس مصدر الحياة ولا يقع تحت حواسنا الخمس فلا نلمسه ولا نشمه ولا نتذوقه ولا نسمعه ، وإذا كنا نبصره فإننا لا نراه إلا في صورة واحدة من صورته الكثيرة التي تقع تحت عدسات العلم الحديث ولا تقع تحت حدقات أبصارنا . وأخيراً ألم يكن النور رمزاً لتلك القوة التي تنبعث في نفوسنا عند ما يتجه العقل والقلب نحو خالق الكائنات ؟

وبينما أنا غارق في هذه التأملات إذ سمعت هاتفاً يقول لي :
« ألا ترى الرابض أمامك في جسم الأسد ورأس الإنسان ! إنه لرمز الإنسانية في حياتها المادية والروحية » . فالتفتُ أمامي وإذا بي أرى أبا الهول وقد راعني ما بأنفه وشفتيه من التشويه فأخذت أسائل نفسي : « أية يد همجية يا ترى تلك التي امتدت إليه فمسخت ابتسامته الحلوة وجعلت منها ابتسامة ساخرة من الإنسانية ؟ » .

أهي يد الإنسان أم الطبيعة ؟ .

أهي يد الممالك في تمريناتهم الحربية ؟ أم يد الفرنسيين في مناوراتهم العسكرية ؟ .

ثم تذكرت أن الممالك كانوا يعتقدون أن لحارس الصحراء أسراراً
غامضة وكانت معتقداتهم تلقى في رُوعهم الرهبة منه لا الرغبة في
الاستخفاف به ، والاعتداء عليه .

وتذكرت أن الفرنسيين قد جاءوا مصر ومعهم نخبة مختارة من
علمائهم يريدون البناء لا الهدم ، والتنقيب لا التخریب .

ثم قلت لنفسي : لماذا وقع التشويه على رأس الإنسان وهو رمز
العقل ولم يقع على جسم الأسد وهو رمز القوة ؟ أوقع هذا الاعتداء
لأن القوة تهاب القوة ولا تخشى العقل ؟ .

ثم تذكرت أن الصحاري المجاورة قد أسفت عليه الرمال مراراً
فلم يبد منه غير رأسه ، وقلت : عسى أن يكون هذا هو سبب وقوع
الاعتداء على الرأس .

ثم تذكرت أن تحتمس الرابع قد أزاح عن جسمه الرمال عند
رؤيا تحتمس
مارأى في نومه^(١) (رع) الإله الأكبر يقول له : « أريد أن أعطيك
يا بُنَيَّ ملك مصر بعد أن تُزيح الرمال عن جسم أبي الهول » . ففعل
تحتمس ونال ما وعد به . وجلس على عرش مصر قبل تولية من هم
أكبر منه سنّاً من إخوته وامتد ملكه شرقاً إلى ما بين النهرين وجنوباً
إلى الشلال الثاني في بلاد النوبة .

ولقد ذكرتني قصة هذه الرؤيا بما كان للرؤيا من بالغ التأثير
رؤيا يوسف
الصدّيق
في نفوس قدماء المصريين وبما نال يوسف الصدّيق من الإعزاز

(١) قصة هذه الرؤيا منقوشة على قاعدة تمثال أبي الهول .

والمقام الكريم عند فرعون بعد أن أفتاه في رؤياه^(١) .

تذكرت هذا ثم بدرت مني التفاتة إلى أقدم تمثال لم يعرف له التاريخ عهداً ولا ناحتاً ، فبدت لي عيناه الحجريتان اللتان كانتا تتجهان نحو الأبدية اللانهائية وكأنما تتحولان نحوي وتدعوانني إلى المحادثة فوقفت دهشاً وأطرقت رأسي وأخذت أسائل نفسي :

أي حديث يا ترى ذلك الذي يجري بيني وبين هذا الذي عاصر الكليم والمسيح وعرفهما رسولان يجهدان النفس في هداية الناس وسعادة الإنسانية ولا يحفلان بما تركز في طباع البشر من عنت وجحود وعقوق وعدوان ؟ .

وأي موضوع يمكن الخوض فيه مع الذي شهد غزوات قُبِيز وفتوحات اليونان والإسكندر وقيصر والرومان وشهد فتوحات العرب ورأي صحابة محمد (ﷺ) يدخلون مصر آمنين وهم يحملون علم الأمن وينشرون لواء العدل ويحررون الفكر ويطلقونه من عقاله .

وماذا أقول لمن شهد غزوات الترك والفرنجة (من فرنسيس

(١) هذا ما جاء به القرآن الكريم في قوله تعالى :

« وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات يا أيها الملا أفئتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون » . فلم يستطع أحد من وزرائه ولا من علماء مملكته إفتاءه وقالوا له جميعاً : « أضفأت أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ولكن يوسف وقد علمه الله تأويل الأحاديث قال : « تررعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمت لهن إلا قليلاً مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يقات الناس وفيه يعصرون » . فسر من علم يوسف وأعجب بتأويله « وقال الملك : اثبتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلفه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين » . فبما قدر يوسف وعزت عند الملك مكاته وأصبح ذا حظ عظيم وقال : « اجعلني على خزان الأرض إني حفيظ عليم » .

وانكلير) وهو رابض في مكانه يشهد أحداث العالم متلاحقة ، كما
يستقبل رمال الصحراء هادئاً مطمئناً وتجري مياه النيل تحت قدميه
فتفصل إساءة المسيء حتى لا يبقى لها أثر اللهم إلا في صحائف التاريخ ؟ .
وكيف أرتب الحديث مع ذلك الذي عزف الإنسانية في مهدها
وشهد عبر المتقدمين ، وخبر أحوال المتأخرين ، ورأى الأكاسرة
والقيصرة والأباطرة والجبابرة يقوى شأنهم ويضعف وينبئ ذكركم
ويحمل وتقبل الدنيا عليهم وتدبر ، ويحصد الموت ويطويهم الدهر
وليس لهم من دنياهم إلا الأحاديث والذكر ؟ .
وكيف أبدأ القول مع من رأى الأمم والشعوب تشقى وتسعد ،
وشهد المدينيات شرقية وغربية تمتد وترتد ، وهو باق كما هو لا يتغير
ولا يبلى ؟ .

وبقدر ما كان شوقي عظيماً إلى الحديث والمسامرة مع أبي الهول
كان اضطرابي أعظم وحيرتي وارتبائي أكبر .

كيف بدأ
الحديث
وينما أنا غارق في حيرتي إذ غلبني الناس فرأيت فيما يرى النائم
أبا الهول قد تحرك نحوى ودنا مني حتى صار قاب قوسين أو أدنى ، ثم
توقف عن السير فقلت وهو يقول لي برفق : « لا تضطرب ولا تفزع
ولا يطل بك التفكير » ، وأخذ يقص على تاريخ الإنسانية من بدء
المدينيات القديمة ، فوعيت مما سمعته :

إن الإنسان قد ظهر في أول نشأته على وجه الأرض محاطاً بقوى
الطبيعة التي يجهل أسرارها فدفعته غريزته في حب البقاء ، وحمله خياله

الفطرى بسبب وهمه وضعفه على أن يتصور أن وراء تلك القوى
أشباحاً على مثاله في حب الذات ولكنها أكبر منه خلقاً وأعظم قوة ،
ولا يلحقها الفناء مثله ، فكان يغمض عينيه ويضع أصابعه في أذنيه حذر
الموت من الصواعق .

تقديس
الظواهر
الطبيعية

ثم أقام الإنسان لكل أمر استعصى عليه فهمه إلهاً خاصاً فلما
تمدت الآلهة وتمعدت أمامه وسائل الزنى لجأ إلى السحرة والكهنة
ليدلوه على الآلهة التى تستطيع أن تجلب له الخير وتدفع عنه الشر . فضل
بذلك ضللاً مبيناً وظل غارقاً فى ضلاله أحقاباً طويلة . ويظهر من
ذلك أن الإنسان هو الذى خلق معبوداته الأولى وأقام الوسطاء بين
الأرض والسماء .

وإننا لنحار فى تكيف عقائد الهمجية الأولى وضبط قواعدها
لأنها كانت تظهر فى مكانٍ غيرها فى مكانٍ آخر ، وفى زمانٍ غيرها فى
زمانٍ آخر ، وكانت تظهر أحياناً فى مكان وزمان واحد ، متباينة بين
قبيلة وقبيلة ، وأسرة وأخرى ، وهى لا تخرج فى مجموعها وتفصيلها عن
سخافات وخزعبلات منشؤها الجهالة والوهم .

عقائد
الهمجية
الأولى

فلما بدأت الإنسانية تنهض كالطفل يحبو ويتعثر فى خطواته
نشأت المدينيات الأولى بين أقوام من البشر يقطنون على شواطئ
الأنهار .

المدينيات
الأولى

ولقد وُجد منذ آلاف السنين على شواطئ النيل وبين النهرين
وفى شمال المعجم وغرب التركستان وجنوب بلاد العرب أقوام شيدوا

المعابد والهياكل وأسّسوا المدن والممالك . ووجد مثل هؤلاء الأقوام في الهند والصين وجزيرة كريت ، كما وجد أمثالهم في أمريكا الوسطى ، ولا يبعد أن تأتينا الاكتشافات العلمية بأمثال تلك المدينت الأولى في بقاع أخرى من الأرض .

غير أن المدنية الفرعونية التي نقش تاريخها على الأحجار وكتب على أوراق البردي والتي حلت رموزها بعد اكتشاف حجر رشيد إبان الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٩ م ، وكذلك مدنية ما بين النهرين (دجلة والفرات) التي رسم تاريخها على الفخارها بمثابة منارتين تهديانا إلى معرفة تطور الإنسانية في تلك الأحقاب الغابرة من الوقت الذي بدأ الإنسان يعيش فيه باعتباره كائناً مدركاً ، بعد أن تغلب على عوامل الطبيعة (معضلة الوجود) وعلى أعدائه من صنوف الحيوان المفترس التي كانت تهدد الجنس البشري بالانقراض والزوال في عصور ما قبل التاريخ .

مدينة
الفراعنة

ولقد بنى المصريون الأقدمون الهياكل والمعابد وشيدوا المدائن وخضعوا لسلطان الكهنة الذين كانوا يرصدون الكواكب ويحددون مواعيت الزرع وينقلون أوامر الآلهة ، كما خضعوا لسلطان الفراعنة - أبناء الآلهة - في غزواتهم وحروبهم وتشيد أهرامهم .

وقد حكمت مصر ست وعشرون أسرة من الفراعنة في مدى ثلاثة آلاف من السنين ، وكان مقر الحكم في منفيس ثم انتقل إلى طيبة . ووصلت مصر إلى أوج مجدها ومدنيتها في عهد تحتمس الثالث ورمسيس الثاني ، ثم تدهورت حالها زمنًا طويلاً ، ولم تبلغ مجدها

السالف إلا في عهد أمراء سايس^(١) ثم سقطت في أيدي الفرس في سنة ٥٢٥ ق . م .

وكانت مصر في تلك العصور الغابرة مقسمة إلى مقاطعات لكل منها معبود خاص قد يكون على صورة حيوان . وكان الكهنة عند غزو مقاطعة لأخرى يحاولون التوفيق بين معبودات المقاطعتين بأساليب خيالية في غاية من الغرابة ، مثال ذلك : أنه عند ما غزا أوزوريس مقاطعة أخته إيزيس حار الكهنة في أيهما يكون معبود الشعب ، وهداهم تفكيرهم أخيراً إلى حل هذه المشكلة بتزويج الأخوين المعبودين إرضاء للجميع .

أفلا ترى في هذا أسلوباً من أساليب الحكم في الإنسانية منذ القدم ؟ .

ثم ألا يدلنا تاريخ الغزاة والفاحين على أنهم كانوا يستخدمون مشاعر الشعوب وعقائدهم في السيطرة عليهم ؟ .

ألم تعرف أن الرومان كانوا يضعون تماثيل (أوجست) بجانب تماثيل المعبودات في البلاد التي خضعت لحكمهم وهم لا يعرفون عن تلك المعبودات شيئاً ولا يؤمنون بها ؟ .

أولم تر أن رؤساء العشائر المتبربرة التي هاجمت الدولة الرومانية كانوا يسعون في تتويج أنفسهم بأيدي قساوسة الرومان ليخدعوا الشعوب وليظهروا أمامهم بأنهم هم السادة الشرعيون للبلاد الخاضعة للدولة الرومانية ؟

(١) سايس بالقرب من بلدة بسيون بمديرية الغربية بالدلتا .

أو لم تعلم أن ملوك فرنسا من أسرة « كابت » كانوا يمسحون
جباههم بزيت الإناء المقدس في كنيسة « ريمس » كما كان يفعل الملوك
الشرعيون الذين أقصوهم عن الحكم وحلوا محلهم ؟ .

أو لم يرو لنا التاريخ أن نابليون بعد أن منحه نواب الشعب سلطة
الملوك طبقاً للتقاليد الديمقراطية جعل البابا يتوجّه وفق الطقوس الدينية
لتكون سلطته شرعية من جميع الوجوه ؟ .

وأخيراً أليس ما تراه في عصركم الحاضر في تتويج ملوك انكلترا
في كنيسة وستمنستر عند اعتلائهم عرش الإمبراطورية البريطانية
مظهراً من مظاهر استمساكهم بتقاليد دينية قديمة لا تزال باقية عندهم
إلى يومنا هذا ؟ .

ويظهر لنا مما تقدم أن كهنة الفراعنة كانوا أساتذة العالم في تسخير
مشاعر الشعوب وعقائدهم الدينية للسيادة الدنيوية ، غير أن عقائد
المصريين الأقدمين كانت في بادئ الأمر خليطاً من سخافات القبائل
الهمجية الأولى والمعتقدات الجديدة التي أضافها الكهنة في ظروف
ومناسبات خاصة فكانوا يعتقدون مثلاً :

١ — أن (أوزوريس) غزا مقاطعة أخته (إيزيس) وكلاهما إله
معبود وقد زوجه الكهنة منها فنشأت عند قدماء المصريين عادة زواج
الأخوين .

٢ — إن (ست) إله الظلام قد غدر بأخيه (أوزوريس) وقتله
وألقي بجثمانه في النيل فانتشلت أخته وزوجه (إيزيس) وأعادت جثمانه

إلى الدلتا ثم عثر (ست) على جثة أخيه (أوزوريس) فقطعها إرباً ونشر رُفاته في جميع أنحاء مصر فأخصبت أرضها ثم جمعت (إيزيس) هذه الرفات واستعانت بأكسير الحياة في إعادة زوجها (أوزوريس) إليها حياً فعاد وأخصبها ووضعت منه ابنة (هورس) .

٣ - إن (هورس) معبود الأقاليم البحرية قد حارب عمه (ست) إله الظلام انتقاماً لوالده (أوزوريس) وإن عين (هورس) اليمنى هي الشمس وعينه اليسرى هي القمر ، فإذا كسفت الشمس أو خسف القمر هاج المؤمنون به وماجوا .

٤ - إن (هورس) تحالف مع والده (أوزوريس) إله الزرع والحصاد والنيل ، ولما كان الزرع ينمو ويحصد والنيل يفيض ويهبط كان (أوزوريس) يموت ويحيا تبعاً لذلك ولذا كان (أوزوريس) قادراً على أن يلقي الناس أسرار البعث بعد الموت .

ويخيل إلينا أن هذه الأساطير العجيبة خليط من أقاصيص القبائل الهمجية الأولى مضافاً إليها ما زاده كهنة الفراعنة في وقت كانت فيه الإنسانية في طور طفولتها . وهذه الأساطير تكشف لنا اليوم عن صورة تكاد تكون مطابقة للفرائز البشرية والمعتقدات التي رأيناها تسود الإنسانية في أدواها وتطوراتها المختلفة

ويرى بعض الكتاب والمؤرخين في قصة (أوزوريس) و (إيزيس) و (هورس) أساساً لنظرية التثليث التي وجدت في المسيحية فيما بعد . ثم ألا ترى أن قتل (ست) لأخيه (أوزوريس) شبيه بقصة

(قايل وهايل) ورمز لشهوة الاعتداء السائدة في الإنسانية منذ القدم ؟
ثم كيف أن (أزوريس) وهو إله معبود يقتل فيموت ثم يحيا
ويرتفع إلى السماء ؟ .

وماذا عسانا نجد هنا من الفوارق بين أساطير المتقدمين في
(أزوريس) وأحاديث المتأخرين في السيد المسيح ؟ .

والواقع أن الديانة المصرية القديمة قد مرت بأدوار كثيرة في أزمان
مختلفة حتى ليجد الإنسان في نفسه رغبة أكيدة في أن يُرجع إلى أصول
الديانة المصرية القديمة جميع مبادئ وأصول الأديان التي عرقتها
الإنسانية بعد ذلك . فقد كانت عقائدهم الأولى كما عرفنا مجموعة من
شتات الخرافات القديمة وإضافات الكهنة . ولما اتسع ملك الفراعنة
بالتفوحات والغزوات أصبحت معبوداتهم القديمة (مثل النيل) لا تصلح
لأن تكون آلهة للشعوب الجديدة التي تعيش بعيدة عن النيل ، ولذلك
تطورت دياناتهم وتبدلت آلهتهم بآلهة جديدة وإن كانت تمت بصلات
إلى معبوداتهم القديمة . ويدل على ذلك ما وجدناه في أنشودة الإله
الجديد (آتون) التي تقول : « أنت إله الجميع تعنى بنا وبهم — أى
الشعوب البعيدة عن النيل — ولهذا أقمت النيل في السماء لينزل عليهم
بأمواجه كالبحر من رؤوس الجبال فيروى الأرض » .^(١)

ويزيد هذا التطور وضوحاً ما حدث في دين الفراعنة بتأثير

(١) إشارة إلى المطر .

ظروف ومناسبات طارئة ، منها ثورة الكهنة على ملوك الفراعنة عند ما تزوجوا من نساء أجنبيات .

فعند ما تزوج تحتمس الرابع ابنة ملك ميتانيا . (وكانت أجنبية)
ثار الكهنة ووجدوا أنفسهم أمام مشكلة هي : كيف يكون أبناء
الأجنبيات ملوكاً وآلهة للمصريين ؟ .

وأخيراً وصلوا إلى حل هذه المشكلة بأن وضعوا طقوساً دينية
معينة تقام في كل معبد وجعلوا في المعبد حجرة خاصة تقيم فيها الملكة
الأجنبية حتى يهبط عليها الإله المصري ليخصبها وبهذا تصبح ذراريتها
أبناء إله .

وظل هذا الحال متبعاً حتى تولى الحكم (أمينوفيس) الرابع
المعروف بأخناتون الذي تزوج من نفرتيتي ، فلم يرتض الحل الذي وضعه
الكهنة وثار عليهم وحاربهم وصادر أملاكهم وعبد إلهاً جديداً هو
(آتون) وعدّه القوة الكامنة التي تنبعث من وراء الشمس والتي تسير
العالم وتسيطر على مصيره . وأسس مدينة مقدسة جديدة لتكون مقراً
لتلك الديانة وهي مدينة (أخيتاتون) المعروفة « بتل العمارنة » .

ولا ريب في أن هذه الديانة الجديدة ماهي إلا تطور كبير وتوجيه
للفكرة الإنسانية نحو التوحيد والتخلي عن فكرة الوثنية المادية الأولى .
ولا شك في أن ما ابتدعه الكهنة من الطقوس الدينية حلاً لمشكلة
أبناء الملكات الأجنبيات وثورة (أمينوفيس) على هذه الطقوس
والمقائد السائدة إذ ذاك لدليل على استعداد الإنسانية في تلك العصور

القديعة لقبول تطورات دينية تتمشى مع مقتضيات هذه الظروف حتى لا تتعارض النظم السياسية مع العقائد الدينية التي كان لها المقام الأول .
وأكثر من هذا وذاك ما حدث من التطور في عقائد المصريين الأقدمين ، فبعد أن كان فرعون يعتقد هو ومن حوله من الطبقات الممتازة أنهم المتمتعون وحدهم بالحياة الأبدية ، وهم وحدهم الذين لهم حق احتكار المحافظة على أجسادهم في مماتهم قبل بعثهم ، وبعد أن دعاهم اعتقادهم هذا إلى بناء الأهرام والقبور المشيدة ، وتحنيط أجسامهم ، واحتكار الطلاس التي تهى لهم الحياة الأبدية السعيدة ، رأينا هذه المعتقدات قد أخذت تصطبغ بصبغة المساواة وقد حمل ذلك الملوك على التخلي عن أهراماتهم والاكتفاء بنحت قبورهم في سفوح الجبال .
وشاركهم الشعب السعادة في الآخرة بما وضعه الكهنة من كتب الموتى التي أودعوا فيها أسرار الحياة الروحية الأبدية والتي أخذ الناس يحصلون عليها بشرائها من المعابد وتدوين أسمائهم فيها لتصبح أرواحهم متمتعة بالحياة الأبدية بعد موتهم والاكتفاء بذلك عن إجهاد أنفسهم في حل رموز تلك الكتب وإدراك محتوياتها .

ومما لا جدال فيه أن هذا الانقلاب كان بمثابة حادث تاريخي في الإنسانية قرر مبدأ المساواة بين جميع الطبقات ، وإن كانت مساواة أمام الموت .

ولقد كان الانتقال من الماديات في شكل التحنيط وإيداع الطعام والشراب في المقابر مع المملوك إلى كتاب الموتى بما فيه من طلاس

وروحانيات حادثاً مهماً في تاريخ التطور البشرى يتمشى مع تقدم الفكر
الإنسانى على مر الأيام ، ولذلك كانت أناشيد هذا العصر خالية من
خرافات الوثنية المادية الأولى ، وكان عليها طابع من مذهب الروحية
المجردة (ما دامت الروح وحدها هي التي تتمتع بالحياة الأبدية) . وإنا
لنورد هنا بعض تلك الأناشيد على سبيل المثال :

١ - لقد وجدت أنشودة على ورق البردى تقول : « إنك تمر في
الحياة . بقلب هادئ ثم تلحق بالغرب (أى بلاد الأموات) وروحك
مثل أرواح السابقين من الأمراء والآلهة السرمديين » .

٢ - وتوجد أناشيد أخرى تثبت الإيمان بالحساب في الآخرة
كالأنشودة الآتية :

« أواه يا قلبي الذي جئت معي في الدنيا . أرجو أن لا يقيد ضدى
شئ يوم الحساب » .

ثم تقول الأنشودة والميزان منصوب : « إننى لم أسرق ولم أقتل
رجلاً ولا امرأة ولم أكذب ولم أزن ولم أنطق بالكفر . . الخ » .

وفي الواقع إن الدولة الفرعونية القديمة قد سقطت من جراء
اضطرابات داخلية لا يزال أمرها غامضاً على المؤرخين . ثم انتقلت
مصر بعد ذلك إلى طور الرقي فبلغت أوج مدنيته وعظمتها بالرغم من
إغارة الهكسوس (وهم الملوك الرعاة) عليها نحو قرن من الزمان ولم
يأفل نجم تلك المدينة الزاهية الراقية إلا حوالى سنة ١٠٠٠ ق . م .
ويتبين لنا مما تقدم أن الإنسانية قد نهضت على شواطئ النيل

وتقدمت بخطوات واسعة في عهد ملوك طيبة بين سنة ٢٠٠٠
وسنة ١٠٠٠ ق. م. وأن المعتقدات الدينية قد تهذبت حيث زالت عنها
ترهات المعتقدات الأولى وخرافات الهرمية . ولم يقف أثر هذه المعتقدات
عند هذا الحد بل ظلت مستمرة في تطورها رويداً رويداً ورائدها
تمجيد الإنسان ورفعه إلى مرتبة الألوهية ، وقد سبق وادى النيل في هذا
المضمار كلاً من اليونان والرومان . ودليلنا على هذا التطور ما نراه واضحاً
في الأناشيد المصرية القديمة لذلك العصر ومنها الأناشودتان الآتيتان :

١ - « إن قلب المرء هو معبوده وإلهه وإن قلبي مطمئن لما صنعتُ
فَلَا كُنْ مِثْلَ (الإله المعبود) » .

٢ - « أجسام تذهب وأخرى تبقى من عهد الآباء ، والأجداد ،
والملوك . الموتى راقدون في أهراماتهم والعظماء مدفونون في قبورهم ،
فماذا صنع بهم ؟ وأين الآن مستقرهم ؟ لا يأتي أحد من الآخرة ينبئنا
بما فيها أو يخبرنا عن حاجاتهم لتطمئن قلوبنا حتى تدق الساعة التي نلحق
فيها بهم . فَلْتَكُنْ فَرِحاً وَاتَّبِعْ رَغْبَتَكَ مَادَمْتَ حَيّاً وَافْعَلْ فِي الْأَرْضِ
مَا أَنْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ ، وَلَا تَجْعَلْ قَلْبَكَ مُضْطَرَباً حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمُكَ فَالْآلِهَةُ
مَعَ الْقُلُوبِ الْمُطْمَئِنِّينَ وَ (أَزُورِيس) لَا يَسْمَعُ الْعَوِيلَ ، وَالشُّكْوَى لَا تَنْجِي
إِنْسَاناً فِي قَبْرِهِ . فَكُنْ سَعِيداً ، وَلَا تَكُنْ مُضْطَرَباً ، وَلَا تَبْخُلْ فَالْإِنْسَانُ
لَا يَحْمِلُ مَعَهُ مَالَهُ ، وَمَنْ ذَهَبَ لَا يَعُودُ » .

مدينتان
الشرق الأدنى
المعاصرة
لمدينة القراعنة

وعندما كنت أسمع ما يهمس به أبو الهول خطرت لي هذه
الخواطر حول مدينتنا القديمة ، فإن غزو الفراعنة للبلاد المتأخرة لحدود

بلادهم الشرقية قرَّب صلة التعارف بين المصريين وبين الشعوب التي تقطن بين النهرين وسوريا وفلسطين .

ومنذ خمسين قرناً (٣٠٠٠ سنة ق.م) كانت (كلدة) لا تقل عن مصر مدنية ثم أغارت عليها قبائل سامية وأسست مملكة بابل (بيت الله) وكان لبابل في العصور القديمة شهرة (منفيس) و (طيبة) في مصر .

وبلغت (بابل) أوج مجدها في عهد الملك (حمورابي) سنة ٢١٠٠ ق.م. ثم أغارت عليها قبائل الحيثيين ومن بعدهم الكاسيون . وكان ملوك آشور تابعين لملوك بابل .

وفي سنة ١٢٥٠ ق.م. قهر الآشوريون البابليين وأصبحوا أعظم أمراء عهدهم واتخذوا (نينوى) عاصمة لملكهم .

ولقد استقل (بُخْتَنْصَرُّ) ملك بابل ملكه وقهر (نيقو) فرعون مصر واسترد منه سوريا ثم استولى على بيت المقدس ، وظلت بابل مملكة مستقلة حتى أغار عليها الفرس في عهد كورس فسقطت سنة ٥٣٩ ق.م.

ولقد أثبتت آثار مصر الفرعونية صلة الفراعنة بشعوب البلاد المتاخمة لحدودهم الشرقية ولا بأس من أن نأتي هنا على بعض هذه الآثار :

(١) قد ورد ذكر قبائل المؤابيين وهم الذين ذكرت التوراة عداءهم لبني إسرائيل منقوشاً على جدران آثار الأقصر .

(٢) وورد ذكر نهر الشريعة منقوشاً على جدران معبد الكرنك ونهر الشريعة هذا هو الذي يفصل اليوم شرق الأردن عن فلسطين

والذى أقام على شاطئيه القديس يوحنا المعمدان وصب من مياهه على رأس السيد المسيح .

(٣) ماورد فى صلوات رعمسيس الثانى فى حربيه ضد الحيثيين فى شمال سوريا حينما فرّ عنه جنده فى موقعة قادش وقد ناجى ربه بقوله : « أين أنت يا أبى آمون ؟ هل ينسى الأب ابنه ؟ إني أناجيك يا أبت آمون وأنا وحيد وسط شعوب عديدة قد تأمرت علىّ . وخذلنى جندى وذهبت عرّباتى وناديتهم فلم يجبنى أحد . ولكنى أجد آمون أعظم من ملايين الجند وأكبر من آلاف العربات فهو الذى ينصرنى . فلبى الإله آمون دعوة ابنه قائلاً : « أنا معك وجهاً لوجه يارعمسيس أنا آمون أنا أبوك وساعدى يشد أزرّك . أنا القوى الأعلى الذى يحب البسالة والجرأة . لقد عرفت فىك قلباً شجاعاً فأنا راض عنك . فظهر آمون لمعوتى وألقى صرخة فرح عندما دفعنى لمقاتلتهم » . وعندئذ لم يجد أحد من هؤلاء الأعداء ساعداً للقتال ولا قلباً للنزال ، وارتعدت فرائصهم فلم يُحكّموا تصويب سهامهم ولم يقووا على رميها ، فألقيتهم فى اليمّ يغوصون فيه كما تغوص التماسيح » .

ولقد أثرت صلة التعارف التى كانت بين المصريين وشعوب البلاد المتاخمة لحدود بلادهم الشرقية ، فى عقائد هذه الشعوب الدينية لأن الإنسان متصل الحلقات فى عقائده الدينية منذ المدينيات الأولى . ولهذا ترى شبهاً كبيراً بين عقائد المدنية الكلدانية (السامرية) وما بين التهرين وبين عقائد الفراعنة — وإن تباينت أسماء الآلهة وتضاربت

أساطير العقائد — فقد كانت لهم في كل مدينة معبود حتى تعددت معبوداتهم بتعدد مدنها، ومثال ذلك أن (مردخ) كان معبود أهل بابل كما كان (آشور) معبود الآشوريين . وكان لكل معبود رسول وهذا الرسول هو الملك الذي يسيطر على قومه ويشيد المعبد للإله ويقدم له القرбан ويغزو باسمه المقاطعات المجاورة ويؤوجه من بناته .

ولقد وصف هيرودوت الغرفة التي كانت تقيم فيها ابنة الملك المختارة لأن تكون زوجاً للإله المعبود كما وصفت التوراة صورة من هذه العقائد ^(١) .

ولقد كانت قبائل العبرانيين قرية من الكلدانيين لأن إبراهيم عليه السلام جاء من (أور) في أرض الكلدان وهو الذي أمره ربه أن يقتدى ابنه بذبح عظيم ففعل كما جاء في الكتب المقدسة والقرآن الكريم .

ويقول بعض المؤرخين إن عادة تقديم الضحايا البشرية للآلهة كانت شائعة معروفة في (أور) حتى جاء (أورخان) ملك (أور) فأبطل تقديم الضحايا البشرية للآلهة واستبدل بها الذبائح الحيوانية — وعلى كل فإن الافتداء بالذبائح الحيوانية ليس إلا ارتقاء بالفكر الإنساني في ذلك العهد .

(١) جاء في سفر التكوين — الإصحاح السادس — (١ — ٤) ما نصه : « وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا فقال الرب : لا يدين روعي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة — كان في الأرض طغاة في تلك الأيام وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً هؤلاء الجبابرة الذين منذ الدهر ذروا سمهم » .

ولم يستقر لى إسرائيل بعد إبراهيم عليه السلام — وهم أحفاده — .
قرار، لأن الأمم المجاورة لهم من الكنعانيين والأشوريين والبابليين
كانوا أشداء أقوياء، وكان بنو إسرائيل مشتتين بين اثني عشر سبطاً
وكانوا يجتمعون فى الأعياد والأسواق فى بقعة محايدة بين قبيلتى يهوذا
وبنيامين فلما كثر عددهم وقلت مراعيهم انتشروا نحو الجنوب .
وتروى التوراة خبر التجائهم إلى الحثيين ليأوؤهم . ثم إلى المصريين
ليستوطنوهم . وقصة يوسف الصديق وآل يعقوب فى مصر مفصلة
تفصيلاً كاملاً فى التوراة (من أول الإصحاح الثامن والثلاثين إلى آخر
سفر التكوين) وفى القرآن الكريم فى سورة يوسف عليه السلام .
وقد أفردت التوراة جزأين هما التكوين والخروج لشرح قصة موسى
عليه السلام تلك القصة التى فسر القرآن أمرها فى عدة سور منها
سورتا الأعراف وطه .

وإنه ليدو عجيباً أن تثبت الكتب السماوية حوادث هاتين القصتين
فى غير موضع ويقيم بنو إسرائيل رديحاً طويلاً من الزمن فى مصر ،
ومع كل هذا لا يوجد أثر واحد يشير إليها فى النقوش الهيرغليفية
على الأحجار المصرية الفرعونية أو على أوراق البردى . ومن أجل هذا
يقول العلامة (اليزيه ريكلوس) فى مؤلفه (الإنسان والأرض) فى الجزء
الثانى صفحة ٦٢ : « إنه عندما أخذ علماء العاديات المصرية يدرسون
آثارها ويقرأون نقوشها ويجمعون تاريخها كان المؤمنون بالتوراة
يعتقدون أن آثار مصر ونقوشها ستقدم شهادة صادقة على صحة وقائع

هذه الأقايصص المدونة في كتابهم ، ولكن آمالهم قد ذهبت هباء خلو
هذه الآثار والنقوش مما يؤيد صحة ما جاء بكتابهم .

وإننا مع احترامنا للعلامة (ريكلوس) لا نستطيع أن نوافقه على
ما ذهب إليه من إنكار القصص المدونة في التوراة وجعل ما جاء بها
موضع شك بحجة أن الآثار المصرية لم تثبتها وذلك :

أولا - لأننا نعلم أن النقوش المصرية القديمة كانت تدون بعرفة
كتبة الكهنة أو كتبة ملوك الفراعنة وأولئك وهؤلاء كانوا لا يدونون
إلا ما يروقهم ويتفق مع سياستهم فكتابتهم في هذا تشبه البلاغات
الرسمية في وقتنا الحاضر ولذا لا يصح أن نسلم بها وتتخذها معولا
لهدم ما جاء في الكتب السماوية ، كما لا يجوز لنا أن نعطيها من الأهمية
غير قيمتها لأننا نعرف الأغراض التي كانت تتوخاها وترمي إليها .

ثانيا - لأن جميع ما ترجم إلى الآن من الكتابات والنقوش
الهيرغليفية قليل جداً لا يقام له وزن بجانب تاريخ المصريين الحافل
بالحوادث في ستين قرناً ، ومعقول جداً أن يسقط كثير من مجموع
ما أمكن ترجمته إلى الآن من حوادث مصر في تلك العصور الغابرة
المعنة في القدم .

ومهما يكن من شئ فإن ما ذهب إليه العلامة (ريكلوس) لا يحول
بيننا وبين الاعتماد على التوراة ما دامت أغراضنا التي نرمي إليها هي تتبع
التطورات الإنسانية وتدرج الأفكار والعقائد في العصور المختلفة .

ومما لا شك فيه أن التوراة كتاب تداولته أم كثيرة منذ آلاف

السنين ويؤمن به ملايين من الناس وقد تطورت به عقائدهم فهو بلا ريب أحد الينايع التي نستقى منها عند بحثنا في العقائد الإنسانية في تلك العصور الغابرة .

كذلك لا ريب عندنا في أن الفكرة الدينية لم ترق في الإنسانية إلى درجة التوحيد الكامل إلا في عهد بني إسرائيل .

صحيح أن الفراعنة قد أدمجوا في وقت ما آلهتهم إدماجاً قريبهم من طريق التوحيد وكادت عقائد بابل تتجه في النهاية إلى فكرة التوحيد في صورة من الصور، لأن اللوح الذي كتب في سنة ٢٠٠٠ ق.م. وقبل موسى، يدل على أن جميع آلهة بابل لم تكن إلا صوراً متنوعة من (مردخ) ولكن التدرج في العقائد لم يتم تطوره ولم يتسرب إلى جمهرة الشعوب ولم يثبت على الدهر إلا بعد أن نادى به أنبياء بني إسرائيل وثبتوا عليه وقتاً طويلاً .

لذا لا نكون مخطئين ولا مسرفين إذا قلنا : إن عهد بني إسرائيل هو عهد ظهور التوحيد للإله والتعدد في الأنبياء والرسل .

ولما كانت رحلات بني إسرائيل قد امتدت شمالاً إلى (جيران) بالقرب من جبال (طوروس) وشرقاً (إلى بابل) وغرباً إلى (سوريا) وجنوباً إلى (مصر) كان مما لا شك فيه أن هذه الرحلات قد أثرت في مدارك هذا الشعب المتنقل بين النيل والفرات ، وجعلته يفقه أصول العقائد المختلفة في أمم متباعدة كانت في هذه العصور مهد المدينيات الأولى فلما حط هذا الشعب رحاله في شبه جزيرة سيناء قبل أن يصل إلى أرض

الميعاد كانت هذه المرحلة الأخيرة مرحلة تدبر واستجسام أمام مرتفعات من الجبال ذات ألوان جميلة ، تعلوها سماء صافية الأديم ، وفوق صحراء رائعة مترامية الأطراف وقد بعث ذلك في النفس المستجمة إعجاباً وهدوءاً وفي الجسم المضني راحة ، وفي العقل الحائر تفكيراً وتدبراً ، وهناك تلقى موسى أوامره ربه .

ومما تجب ملاحظته ، أن القوانين العبرية تشبه قوانين (حمورابي)^(١) - وقوانين (حمورابي) ذاتها هي مجموعة لشرائع أخرى كانت موجودة في عهد السومريين والأكديين ومن عاصرهم أو جاء بعدهم من الشعوب التي استوطنت ما بين النهرين . وفي عهد (حمورابي) كان هناك ميل صادق إلى تنسيق هذه الشرائع وتقنينها وتبويبها وقد جمعت في ثنتين وثمانين ومائتي مادة وسميت بقوانين حمورابي .

وتتميز مجموعة (حمورابي) هذه عن غيرها من المدونات القديمة بـمميزات منها :

- ١ - أنها لم توضع في أسلوب شعري كقانون الألواح الرومانية وقانون (مانو) الهندي وإنما وضعت في أسلوب علمي يماثل أسلوب القوانين الحديثة .
- ٢ - أنها على صغر حجمها جاءت مشتملة على :

- (أ) الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وتبني ووصاية .
- (ب) المعاملات من بيع وشراء وإجارة ومزادعة واستيداع .

(١) كشفت حفريات مسيو دي مرجان في سنتي ١٩٠١ و ١٩٠٢ في مقاطعة سوس بالعراق عن مسألة من الحجر الأسود يبلغ ارتفاعها نحو مترين وربع المتر قد نقش عليها صورة الملك حمورابي واقفاً بين يدي الإله شماس يتلقى منه الشريعة التي نقش على وجهي المسلة .

(ج) العقوبات لجرائم الاعتداء على النفس والمال .

(د) الأحكام التجارية والحرية .

٣ - إنها خلو من الأحكام الدينية اللهم إلا بعض امتيازات مدنية للراهبات في معاملتهن .

ولذا قد اعتبرها علماء تاريخ القانون أنها أول صحيفة مدونة (أى قانون مدون) فى تاريخ علم الحقوق .

ولم يكن استيطان هذه البقاع من الأرض مقصوراً على المصريين والسومريين وبنى إسرائيل فى هذا العهد فقد وجدت شعوب عاشت بعيدة عن مواطن المدينت الزراعيّة وكانوا من البدو الرحل الذين يعيشون من تنقلهم بين مراعى الصيف ومراعى الشتاء ولم يعرفوا ما عرفه أهل الحضرة من العناية بالهياكل والمعابد والركون إلى كهنة يدبرون لهم شئونهم الروحية .

وقد كثر الغزو فى هذا العهد وابتليت الشعوب بحروب طاحنة مستمرة .

فالأكاديون (فى عهد ملكهم سرجون) قد أخضعوا السومريين نحو قرنين ولم يخلصهم من حكمهم إلا حمورابى الذى حكم السومريين حوالى سنة ٢١٠٠ ق . م .

وأغار الهكسوس (المعروفون بالملوك الرعاة) على مصر وأخضعوها لحكمهم واستوطنوها ولم يخرجوا منها إلا بثورة أهلية حوالى سنة ١٦٠٠ ق . م .

واستوطن الفينيقيون (وهم قبائل سامية) شواطئ البحر
الأبيض وأسسوا مدينتي صور وصيدا وموافي تجارية كقرطاجنة
واستحدثوا من كل من الكتابة السومرية والرسوم الهيروغليفية
طريقة كتابة جديدة أكثر بساطة وسهولة من الكتابة القديمة . وقد
عبرت حروفهم الهجائية بحر إيجه ودخلت بلاد اليونان وهناك أدخل
عليها بعض التحسين ونقلت إلى إيطاليا فصقلها الرومان حتى انتهت
إلى الحروف الهجائية اللاتينية .

وبالرغم من قيام الفينيقيين بهذا العمل الجليل لم تعرف لهم عقائد
دينية ذات أثر في تطور المدنية .

ويطول بنا الحديث إذا ما استقصينا حوادث الغزو والتطاحن
في هذا العهد الذي نسميه بحق عهد التنازع بين مدينتي النيل والفرات
وحسبنا أن نعرف أن هذا التنازع قد دام نحو ألف سنة وشمل شعوباً
سامية أخرى كالبابليين والأشوريين والحيثيين والسومريين وظل
الجميع في حروب دأمة بين مد وجزر ونصر وقهر حتى دهمهم العنصر
الآري وانتزع من أيديهم شعلة المدنية لينير بها طريق الإنسانية في
تطوراتها المقبلة .



الحديث الثاني

تطور
الحضارة عند
الإغريق

لقد جاءتني دعوة من (دار الفنانين) لحضور حفلتهم الساحرة في أول أبريل سنة ١٩٣٩ بسفح أبي الهول فخشيت أن تكون دعوتهم من دعابات إبريل ولكني وطدت العزم على إجابة الدعوة لحضور الحفلة وقلت في نفسي إذا كانت الدعوة أكلوبة ولم أجد حفلة فإني واجد أبا الهول لا محالة... وكيف لا أجده وهو رابض في مكانه لم يعرف التاريخ له بداية . تؤمه منذ أجيال بعيدة شعوب من أمم مختلفة ، يزوره أفراد منها في أية ساعة من ساعات النهار أو الليل فيجدونه في مكانه لا يخلف لهم وعداً . يستقبل الجميع من ألمان وأسبان وإنجليز وفرنسيين وأمريكان بابتسامته العذبة الساخرة وكأن لسان حاله يقول :

« لأي داع جعلتم في مصوِّراتكم الجغرافية بداية خطوط الطول جزيرة الحديد بألمانيا أو مدينة مدريد بأسبانيا أو ضاحية جرينويتش بانكلترا أو مدينة باريس بفرنسا ولم تتخذوا مكاني لكم جميعاً بداية لخطوط الطول وأنا المقيم قبل أن تقام المدائن والعواصم والرايض مكاني وقد عفت آثار طرواده وقرطاجنه . »

وما وافت ساعة الاجتماع حتى كنت في مكاني بين الحاضرين أشهد معهم حفل دار الفنانين وفي نهاية الحفل أطلقت الدھوم النارية وحجب

عنى دخانها الكثيف جمهور الحاضرين فى الحفل فسبحت فى تأملاتى
وأخذتني سنة من النوم رأيت فيها أبا الهول يقبل على هاشا حتى صار
أمامى فوقف تبدو منه ابتسامة حلوة عريضة كأنه يرحب بمقدمي ويأنس
بوجودي . وقد أحسست فى نفسي بشجاعة لم أعهد لها فى مقابلتي الأولى
له وخاطبته قائلا : لقد حدثني عن تاريخ الإنسانية فى مصر وبابل وفينيقيا
مما أذكره ولا أنساه ، وإنى لأرجو منك الآن أن تحدثني حديثاً جديداً
عن شعوب أخرى لعبت دوراً مهماً فى حضارة الإنسان ، فبدأ عليه من
الدهش ما لا عهد لي به وأشار إلى شبح وراءه وقال لي : ألا تعرف من
هذا الذى تراه خلقى ؟ فنظرت إليه ملياً وقلت له : لعل تخيلته وما عرفته .
فقال : إنه أبو التاريخ (هيرودوت) سلّه عما تريد فعنده الخبر اليقين .
فتقدمت إليه بالتماسي من أبي الهول ولمحت ما بدا عليه من ارتياح
وسرور وقد انبسطت أسارير وجهه وشرع يقول :

إن حضارة الإنسان سلسلة متصلة الحلقات من بدء الخليقة إلى
اليوم وهى تنتقل فى موجات من قطر إلى قطر وتزداد فى كل مرة قوة
وسرعة وتصطبغ بصبغة تؤهلها شيئاً فشيئاً لأن تصبح حضارة عالمية
كما ترون فى وقتكم هذا .

هيرودوت
يتكلم

فقلت له : وأين ذهبت المدنيات الأولى ؟ وكيف عفت آثارها ؟
وما الذى طغى عليها ؟ وقد أجابنى بقوله : عندما آذنت شمس مدنيات
مصر وبابل وفينيقيا بالأفول أخذت شعوب هذه الممالك فى أسباب
التدهور والاضمحلال وظهر على مسرح تلك المدنيات القديمة جنس

آخر من البشر هو العنصر الهندي الأوربي (وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه أثار على أوروبا والهند معاً) وهو أيضاً البشرة كالعنصر السامي ولكنه يتكلم بلغة أخرى هي أم اللغات الأوربية إذا استثنينا اللغة المجرية والفنلندية والصقلية .

ويسمى هذا العنصر أيضاً بالعنصر الآري وكان يقطن بالقرب من بحر قزوين ثم انتشر شرقاً وغرباً واستقر بعضه في أعالي هضبات إيران وتزع بعضه إلى سهول أوروبا ووديانها ثم انحدر بعض المستقرين في هضبات إيران نحو شواطئ نهر السند (الهند الانكليزية) . وأسس من بقي منهم على تلك الهضاب مملكتي (ميديا وفارس) اللتين بقيتا إلى عهد كسرى الذي سيطر على مملكة ميديا واتسع ملكه في عهد خلفائه حتى شمل كل آسيا الغربية ومصر التي فتحت في عهد قمبيز في سنة ٥٢٥ ق . م . ولم تقف غزوات الفرس عند هذا الحد ، بل اتجهت غرباً نحو أوروبا وهناك اصطدمت شعبة العنصر الآري الآسيوية بشعبته الآرية الأوربية في الركن الجنوبي الشرقي من أوروبا ف وقعت بينهما (الفرس والإغريق) حروب عرفت في التاريخ بالحروب الميديّة ، وقد انتهت بانتصار الإغريق ، الذين تناولوا شعة المدينة من الشعوب الشرقية التي سبقتهم إليها وأورثوها بعدُ إلى الإمبراطورية الرومانية .

فقلت له : وكيف تطورت المعتقدات الدينية عند الفرس ؟

فأجاب قائلاً : كان الفرس قبل زرادشت مضطربين العقيدة لا يعبدون إلهاً واحداً ، إذ كانوا يعبدون مظاهر الطبيعة ويرمزون لها

بالنار المقدسة ويشعلونها في معابدهم وظلوا على هذه الحال حتى ظهر
رئيسهم ونبيهم زرادشت في القرن الثامن قبل الميلاد، فأحدث لهم ديناً
جديداً جاء فيه . إنه لا يوجد في العالم إلا إلهان : إله الخير وهو
(أهورامزدا) ويرضيه العمل الصالح . وإله الشر وهو (أهرمن) وقد
تنازعا وكتب النصر في النهاية لإله الخير (أهورامزدا) فكان جديراً
بأن يعبد وحده وبذا تطورت معتقداتهم الدينية وارتقت .

فقلت له : أليس لهؤلاء كتاب مقدس ؟

فأجاب بأن لهم كتاباً مقدساً يعرف بـ (الأفيستا) وقد وضع فيما
بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ولم يخل من القصص الخرافية
المعروفة عند الأقدمين .

فقلت لهيرودوت : قلت لي إن شعبي العنصر الآري اشتبكنا
في حروب انتهت بانتصار الإغريق وتناولهم شعلة المدنية التي كانت
تحملها الشعوب الشرقية التي سبقتهم إلى المدنية فهل الإغريق هم الذين
تناولوا شعلة المدنية من الشرقيين مباشرة ؟ .

فأجاني قائلاً : لا أستطيع أن أقول ذلك لأن الإغريق من الشعبة
الآرية الأوربية التي لم تستقر في شبه جزيرة اليونان إلا بعد أن تغلبت
على شعب آخر من الإيجيين وهم من التجار والبحارة الذين استوطنوا
جزر بحر إيجه وكريت ، وكانوا واسطة التعارف بين شعوب المدينيات
الشرقية القديمة والشعوب الأوربية التي أخذت ترقى وهي على شواطئ
البحر الأبيض عن طريق تناولها لتلك المدينيات رويداً رويداً .

فالإيجيون هم الذين اتصلوا بالشرق أولاً منذ أسسوا لهم امبراطورية بحرية عاصمتها (نوس) على الشاطئ الغربي من جزيرة كريت ، وهم الذين تناولوا شعلة المدينة من الشعوب الشرقية وظلوا يحملونها حتى غزتهم قبائل آرية همجية نزحت من شمال أوروبا إلى شبه جزيرة اليونان وجزر بحر إيجه واتصلت بهم (بالإيجيين) وأخذت عنهم صناعة الأسلحة وبناء السفن . ولما قوى شأنهم واشتد بأسهم حاربوا الإيجيين وغزوا جزرهم ومدائنهم وطاردهم وحلوا محلهم ، ولم تمض عشرة قرون حتى كانوا هم سادة اليونان وجزر بحر إيجه وسواحل آسيا الصغرى ، ثم هدموا آخر معقل للمدينة القديمة باستيلائهم على مدينة طروادة في القرن العاشر قبل الميلاد ، وتناولوا شعلة المدينة التي كانت بيد الإيجيين ، والتي أناروا بها طريق المدينة الأوربية ، وهؤلاء هم آباء الإغريق .

فقلت له : وبماذا كانت تسمى هذه القبائل الآرية الهمجية ؟ ومن أى عنصر هي ؟ وهل يوجد دليل قاطع يثبت أنهم هم الذين غزوا الإيجيين وحلوا محلهم ؟

فأجبنى بقوله : هذه القبائل الآرية كانت تسمى قديماً بقبائل الهيلين (Hellins) وهى فرع من شجرة العنصر الآرى الذى كان يقطن فى الأصل بالقرب من بحر قزوين ولا شك فى أن هذه القبائل هى التى غزت الإيجيين وطاردهم ، فالإلياذة والأوديسة المنسوبتان إلى الشاعر (هوميروس) تحدثاننا بأسلوبهما الخلاب عن فتح مدينة طروادة . وإذا كانت أقاصيص الإغريق وأناشيدهم لم تتحدث عن إحراق مدينة نوس

عاصمة كريت فإنها قد تحدثت عن الملك مينوس وقصره الفخم بجزيرة كريت، وهو المعروف باللايرنت (لما حواه من المداخل الكاذبة والمخارج الخادعة) مما لا يدع مجالاً للشك في أن قبائل الهيلين (القبائل اليونانية) هي التي حلت محل الإيجيين وانتزعت من أيديهم مشعل المدينة الذي سبق لهم تناوله من شعوب طيبة وبابل . ولقد كانت قبائل الهيلين همجية قبل أن تتصل بالإيجيين ، وما كادت تتصل بهم حتى خلعت رداء الهمجية وارتدت حلة المدنية وما كادت تحل مكانهم في حكم البلاد حتى أسست مدينة أخرى بنظم تخالف المدينيات الأولى في الحكم والسياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد . ولعل أعظم الأسباب في هذا التباين أن شعوب النيل والفرات كانت خاضعة للملك في مصاف الآلهة ، وكهنة كانوا وخدم منبع العلم والحكمة ، إذ كان الفراعنة آلهة وأبناء آلهة ، وكان ملوك بابل وما بين النهرين رسل آلهة جبارة وكان الملوك والكهنة يسكنون قصوراً لا تعلم عامة الشعب عنها شيئاً ولا تعرف إلا الخضوع لأوامر ساكنيها .

أما الهيليون فكانوا قبائل متعددة كالأبوليين والإيجيين والأيونيين والدوريين وقد استوطنوا مع تعددهم هذا بلاداً جبلية وجزراً مبعثرة ولذا لم يكونوا شعباً واحداً يحكمه ملك يسكن قصرأ بعيداً ولا يرى من شعبه إلا نادراً ، بل كانوا شعوباً كثيرة أسسوا ممالك صغيرة كانت في الأصل قرى تدرجت إلى مدائن ، وكان سكان كل مملكة يجتمعون في صورة (مجلس أسرة) ليدبروا شئونهم فيختارون قائداً للجند

إذا ما حاربوا ، ويفضون خصوماتهم إذا ما شجر بينهم خلاف ، وهم جميعاً
متساوون في الحقوق متعارفون بينهم .

ولا ريب في أن طبيعة مثل هذه الحياة تقضى بأن يكون عدد
سكان هذه المدائن محدوداً ، ولهذا قال أرسطو : « إن خير وطن هو
ذلك الذي يصل فيه صوت الخطيب إلى سمع آخر مواطن » . كما تقضى
مثل هذه البيئات المحدودة العدد بأن يكون عمل كل فرد عرضة لنقد
جميع أفراد عشيرته ولهذا نمت في نفوس الأفراد عادة الإتيان
والاعتدال في تلك الممالك الصغيرة .

وعلى الرغم من أن هذه الممالك كانت منفصلة بعضها عن بعض
مستقلة بذاتها مثل أثينا واسبارطة وكورنت وطيبة وساموس وميليت
فقد كانت تربطها روابط أدبية ومادية وثيقة فالأنشيد والأقاصيص التي
يُتغنى بها وتتحدث عن مجد الآباء والأجداد كانت تُتلى في هذه المدن
وترتل بين سكانها قبل أن يتعلم الهيليون الكتابة من الإيجيين ويدونوها ،
وكانت الألعاب الأولمبية تجمع أكثر سكان هذه الممالك في صعيد واحد
(Olympus) كل أربع سنوات وتقرض على المتحاربين منهم هدية أثناء
هذه الاجتماعات ، وقضت عليهم المعاملات التجارية بعقد المحالفات
والمعاهدات بينهم — وهذا النظام بعينه هو الذي كان سائداً في جهة
أخرى من العالم وهي جزيرة العرب ، حيث كانت تعقد الأسواق الأدبية
في الأشهر الحرم ، (أشهر الهدنة بين الأفراد والجماعات) في عكاظ
ومجنة وذى المجاز يتبارون في الأدب ، ويتفاخرون بالنسب — ولقد استمر

التخاصم والتنازع بالرغم من كل هذا بين هذه الممالك حتى في أشد الأوقات خطراً عليهم : وأعظم مثل لهذا التنازع ما كان بين إسبارطة وأثينا . ولقد كان التباين بين هاتين المملكتين عظيماً لا لأسباب جغرافية واستعمارية وتقليدية فحسب ، بل لأسباب هامة أخرى منها :

أن إسبارطة كانت ضيقة الصدر لا تعرف التسامح ولا حسن المعاملة ولا الرحمة لغير (الدوريان) وذلك لأن قبائل الدوريان بعد أن استقروا في شبه جزيرة (البلوينيز) — أي الجزء الجنوبي من اليونان — أخذوا يطاردون السكان الأصليين ويسومونهم الخسف . ولقلة عدد الدوريان كان جل اعتمادهم على قوتهم وبأسهم ولهذا شرع لهم (ليكورج) القوانين التي تعزز قوتهم فكانت جماعة الإسبارطيين أو المملكة الإسبارطية تأخذ أولاد الدوريان وهم في السابعة من عمرهم لتدربهم على القتال وأنواع البأس والقوة ليكونوا أشداء على من يعيشون معهم من السكان الأصليين ، وهم أكثر عدداً منهم وأشد بغضاً لهم .

ومنها أن أثينا كانت أوسع صدراً وأكثر تسامحاً من إسبارطة وكانت موطن قبيلة الأيونيين الذين كانوا يرحبون باللاجئين إليها من القبائل الأخرى .

ولئن كان الرق معروفاً في كليهما إلا أن وطأته في أثينا كانت أخف جداً وأهون مما كانت عليه في إسبارطة .

ولقد طلب الأثينيون من (دراكون) أن يُشرع لهم تشريعاً يكون لهم منهاجاً يسرون عليه ، فسن لهم قانوناً كان غاية في القسوة والصرامة ،

إذ كان الإعدام عقوبة للسرقة ولو كانت بسيطة ، وترتب على ذلك أن
كثر عندهم الإعدام حتى قيل : « إن أثينا لا تملك من الحبال ما يكفي
لشنق المجرمين » . وقيل أيضاً : « إن قوانين داركون لم تُنحط بالمداد
وإنما خطت بالدم » . ولذا لجأ الأثينيون إلى (سولون) ليُشرع لهم
تشريعاً يتناسب وحالتهم وقتئذ ، فأراد حماية الشعب من الأرستقراطيين
وهم جماعة الأغنياء الذين اشتروا بأموالهم الأسلحة واستخدموا الجنود
المرتزقة كمُدّة لهم ليسيّطروا على الحكم ، وأراد كذلك حماية الفقراء من
تعسف القضاة الذين كانوا يُختارون من طبقة الأغنياء بلاراتيب ، فوضع
نظام حكم الشعب بالشعب ، وجعل لكل فرد الحق في طلب ثلاثين
من العدول المحلفين للفصل في خصومته ، وكان هذا أول أساس للنظام
الديمقراطي في العالم كما أنه يعتبر مبدءاً لنظام العدول المحلفين .

ولا يبدأ التاريخ المدوّن عن الإغريق إلا من هذا الوقت الذي
وجدت فيه إسبارطة الإرسقراطية بجانب أثينا الديمقراطية .

وقد أثبت هذا التاريخ أن (فيدون) أحد الحكام المسيطرين في
(ارجوليد) قد سكّ العملة باسمه ليتاجر مع فينيقيا وآسيا الصغرى .

وأن بيزيسترات بعد أن تمكن بدهائه وبمساعدة الجنود المرتزقة
من السيطرة على أثينا أخذ يوجه جهود الشعب الأثيني إلى إنشاء
امبراطورية يونانية عظيمة عن طريق التوسع الاستعماري ، ولهذا
اهتم بيزيسترات بتنظيم إنشاد الشعر الهومييري وإقامة أسواق أدبية
لإلقاء هذه الأشعار وهذا مما أذكى شعور اليونانيين على اختلاف قبائلهم

وممالكهم ، ولمقاومة النفوذ الفارسي بصفة خاصة ، ذلك النفوذ
الذى كان سائداً فى الشرق مهد المدنات الأولى .

ولما حذا الإغريق فى هذا العهد حذو الفينيقين فى إنشاء
المستعمرات على سواحل آسيا الصغرى بقصد التجارة ، رأى الفرس
ضرورة إخضاع تلك المستعمرات لسلطانهم فبدأت الحروب المديدة بين
الفرس والإغريق وحاول الفرس غزو شبه جزيرة اليونان ثلاث مرات
فى أوقات مختلفة فلم يفلحوا .

ولكن هذه الانتصارات الإغريقية أثارت روح الحسد والموجدة
بين أثينا وإسبارطة فنشبت بينهما حروب دامية دامت ثلاثين سنة
وانتهت بسقوط أثينا بالرغم مما بذله (بركليس) زعيم الديمقراطية فى
تحصين أثينا التى فشا فيها الطاعون فقتل على نصف سكانها ، وبسقوطها
استولى الإسبرطيون على أسطولها ، وهدموا قلاعها ، ودمروا أسوارها .
ولكنهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا منها الفكر اليونانى والمدنية الإغريقية
والتأثير الأدبى .

وبعد الحروب الداخلية بين أثينا وإسبارطة التى انتهت بالقضاء على
الأولى وإضعاف الثانية ظهر فيليب المقدونى فأخضع الدويلات اليونانية
لحكمه ثم بزغ نجم ابنه الاسكندر الأكبر تلميذ أرسطو الإغريقى ،
فأتم ما بدأه أبوه وقضى على المنازعات القائمة بين الممالك القديمة بإخضاعها
لأمره ، ودفع الشعب اليونانى إلى فتوحاته الجديدة لإنشاء امبراطورية
عالمية مكونة من فينيقيا ومصر (التى توج فيها باسم ابن الإله آمون)

وفارس والهند ، وجعل من هذا العالم مستعمرة مقدونية مصطبغة بالمدينة الإغريقية . ولذا نشر اللغة الإغريقية وبنى المدن على الطراز الإغريق ، ثم دهمه الموت في قصر حمورابي ملك بابل في سنة ٣٢٨ ق . م .

وهنا نفخ هيرودوت صدره ، وشَمَخَ بأنفه وقال :

لعلك بعد هذا لا تشك في أن للإغريق مركزاً ممتازاً في تاريخ الإنسانية وهم الذين ورثوا مدينة الفراعنة والبابليين والإيجيين ، واعتنقوا المعتقدات القديمة لهذه الشعوب بعد أن هذبوها لتلائم تطور الزمن . وإذا كان الجنس البشري قضى لمجرد البقاء أحقاباً طويلة في كفاح شاق بين قُوى الطبيعة العاتية ، والنزاع الدموي مع بقية الحيوانات الفاتكة ، وإذا كانت أول مرحلة بعد هذا الجهد الطويل إنما هي مرحلة الإحساس بالحيرة والدهش حتى جاءت المدينيات الأولى ، وجعلت الإنسانية تضع تأويلات ميثولوجية لقوى الطبيعة ، وكانت هذه التأويلات تتغير من حين لحين تبعاً للمستوى العقلي في كل عصر ، فإن جماعة المفكرين من الإغريق الذين كانوا يسكنون الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى قد وجهوا الفكر الإنساني نحو معرفة المادة الأولى التي يتركب منها كل ما في هذا الوجود ، وبهذا تجاوز الفكر الإنساني حدود الميثولوجية ، فلم يعد الناس يتساءلون عن خلق العالم ، بل تساءلوا عن العناصر الأولية التي يتكون منها هذا العالم .

فقلت له : إن هذا الانتقال من المرحلة الميثولوجية إلى مرحلة العلم والفلسفة لم يكن انتقالاً تاماً وليس الإغريق وحدهم هم الذين ابتدعوه .

فثلاً :

١ — إن الماء الذى وجد فيه (طاليس) أصل كل شئ يذكرنا بأوزوريس وقد نقلها عن العقائد المصرية .

٢ — وإن النار التى رجع إليها (هرقليطس) الأشياء كلها تذكرنا برع إله الشمس . وعلى هذا يستطيع الباحث الصبور ، أن يعيد ما محته الدهور من صحائف التفكير الإنسانى ، ولا أظنك تنكر أن التفكير العلمى والفلسفى الإغريق مدين إلى حد كبير للتفكير الميثولوجى السابق عليه ، كما أنه مدين لمصر الفرعونية وبلاد ما بين النهرين .

فقال هيرودوت^(١) : إن الفكر الإنسانى قبل الإغريق كان ضالاً فى ميدان الخرافات الممجية فهده الإغريق إلى ميدان البحث العقلى . ويؤيد هذا ما ذهب إليه الفيلسوف (اكرزيفون) — من سنة ٥٧٠ إلى سنة ٤٨٠ ق . م . — من أنه لا يوجد إلا إله واحد لا يشبه المخلوقات الأخرى فى شئ ، وقد حمل حملة شعواء على تعدد الآلهة فى عصره وعلى التشبيه الدينى الذى جعل الآلهة على مثال الإنسان . وهو الذى وضع عبارة (الكل واحد) و (الواحد هو الله) وهى نظرية الحلول والاتحاد ووحدة الوجود .

وترى بين مفكرى الإغريق الفيلسوف (ليوسيباس) وهو الذى وضع النظرية الذرية التى نسبت إلى تلميذه الفيلسوف (ديموكريتس)

(١) كان هيرودوت مقرأً بحضارة المصريين وتفوقهم على قومه وبأن الإغريق نقلوا كثيراً من ديانة المصريين كما هو معروف من كتابه .

ولذلك أطلق عليه اسم (أبو الفيزيقا) . وهو الذى يرى أن الذرات ليست ساكنة بل متحركة وبهذا قد ذلل الصعوبة التى كانت تعترض المفكرين إلى عهد (نيوتن) وهى : كيف تحركت المادة الساكنة لأول مرة ؟ وبذا كانت النظرية الذرية هى التى وضعت تفسيراً ميكانيكياً للكون قائماً على أساس المادة والحركة .

فقلت له : يعزو الكثيرون هذا التطور فى الفكر الإنسانى إلى ضعف عامل الدين عند الإغريق ، ولكن يبدو لى أن السواد الأعظم من هذا الشعب كان متديناً ومؤمناً بكثير من المعتقدات القديمة فقد اعتنق الإغريق شتى المعتقدات القديمة وقدسوا الغابات والأنهار والحيوان وكانوا يرون أن الإله (أبُلُون) كان فى الأصل ذئباً وأن (زوس) كان أوزة وأن (أرتيمس) كانت دُباً وأن (ديمتر) كانت فرساً كما كان عندهم إله لإنعاء الزرع وإله لطرد الذباب . فلما تكونت الممالك الصغيرة أصبح لكل منها ديانة خاصة رسمية ، كما كانوا يرون أن لزوس — وهو الإله الأعظم — زوجاً هى (هيرا) وكانت (أثينا) للحرب و (أفردويت) للحب . أما الإله زوس فكان يحكم فى الأجواء لأنه هو الرعد وأن أخاه (بوسيدون) يحكم فى البحار وأن (أبُلُون) هو إله التنبؤات وأن أخته (أرتيمس) للصيد والقنص وأن (هيفاستوس) يحكم النار ويصهر المعادن .

وكانت لهم آلهة كثيرة ، ومعتقدات معقدة ، لا يمكن معها إيجاد نظام أو أسلوب تظهر فيه الروابط ، ولذا كانت الميثولوجية الإغريقية

عبارة عن فوضى الأديان ومتناقضاتها ، إذ نجد مثلاً آلهة تزح من الشمال وتندمج في الأسرة المقدسة ، كما نجد أبطالاً من البشر يصعدون إلى مقام الآلهة استجابة لرغبة الشعب مثل هرقل .

فقال هيرودوت : إن الطبقة الممتازة هي التي استنكرت وحدها سخافة تلك المعتقدات ، وهي التي حاولت تفسيرها وتأويلها تأويلاً ميثولوجياً تهذيبياً ، ثم ألبستها رداء الشعر والأدب لتظهر رواءها . وفي اعتقادي أن ما سمّيته فوضى الأديان هو الذي أيقظ الفكر الإنساني ونفض عنه غبار القرون القديمة وحمل الأوساط الممتازة عندنا معشر الإغريق على أن يُحكّموا العقل ويشوروا على مألوف التقاليد والمعتقدات . ومما لا شك فيه أن الحروب الميدية وهجرة مفكري الإغريق من شواطئ آسيا الصغرى قد أثارت اهتماماً كبيراً واسع المدى بالعلم في جهات أخرى من شبه الجزيرة اليونانية ، وقد تجلّى ذلك فيما تجاوب بين الطوائف الكثيرة من المفكرين والفلاسفة حيث قام الحكماء بوجهون تقدمهم للعقائد السائدة ، ويحملون غيرهم من المفكرين على محاولة حل المشاكل الكبرى للحياة البشرية .

جاء (بركليس) رجل أثينا العظيم يقيم بناء ما خربته الحروب ويعيد تشييد (الأكروبول) ويجمع في أثينا الشعراء والفلاسفة والبنائين والنحاتين والرسميين ، وأذكت أثينا عبقریات مثل (أناكساجوراس) وهو أول من وصف الشمس والكواكب وصفاً علمياً . كما أنجبت عباقرة الفلاسفة أمثال : (سقراط) و (أفلاطون) و (أرسطو)

وإذا كان سقراط قد حكم عليه بالإعدام وسقي السم ، إلا أن تعاليمه بقيت حية ماثلة ، فقد حمل لواءها أفلاطون أكبر تلاميذه (من سنة ٢٧٠ إلى سنة ٣٤٧ ق . م .) بجرأة عظيمة ودعا الناس للخروج على العقائد السائدة في عصره ، وجعلهم يعتقدون أن في استطاعتهم التغلب على مفسد السياسة والاجتماع ، وأن سبب بلأثم هو جهلهم بحقيقة قوتهم ، وهو الذي وضع كتاب الجمهورية كما تصورها . وكتاب القوانين الذي لم يتم وضعه ، غير أن آراءه كانت في الواقع أمانى لم تتحقق ، ثم جاء بعده تلميذه أرسطو يقرر أن الإنسان لا يعرف حقيقة أمره حتى تتسع دائرة معارفه . وتدق بحوثه . مما أدى بطبيعة الحال إلى الخوض في المباحث العلمية ، وله آراء معروفة في التاريخ الطبيعي والسياسة والأخلاق .

وبالإجمال نرى أن الإغريق قد خطوا بالإنسانية خطوة كبيرة وارتضوا حكم العقل في كل شيء ، ونبذوا ما عداه .

ولذا لم يكن الفكر الإنساني حراً طليقاً قبل تلك النهضة الفكرية . بل كان يرزح تحت أثقال من قيود المعتقدات السائدة ، والتقاليد القاعة حتى جاء أفلاطون وأرسطو ورفعاه عنه أثقاله وفكاً عنه قيوده . فقلت له : لا أنكر عليك شيئاً مما قلت ، ولا أكون مبالغاً إذا قلت : إن سادة الكهنوت المسيحي قد استخدموا الفكر اليوناني في مسائل التثليث والتجسد والفداء ، ولكن لا تنس خطأ الإغريق في أنهم كانوا يؤمنون بالنظريات المستندة إلى الإثبات المنطقي من غير ما اعتماد على العلوم التجريبية التي يعتمد عليها قادة الفكر في عصرنا الحاضر ،

ثم لا يغيب عن ذاكرتك يا أبا التاريخ أن تحرير الفكر الإنسانى من قيود المعتقدات التقليدية القديمة لم يكن من عمل الإغريق وحدهم ، بل شاركهم فى ذلك أبطال من معاصريهم من شعوب أخرى فى جهات نائية ، وكانوا فى ذلك كفلاسفة الإغريق سواء بسواء . إذ كان فى نفس القرن السادس قبل الميلاد وفى الوقت الذى كان فيه (هيراقليطس) ينشر تعاليمه الحرة بين الإغريق كان (اشعيا) أحد أنبياء بنى إسرائيل يبشر الناس فى الشرق الأدنى ، ويعمل فى سبيل تحرير العقل الإنسانى وكان (بوذا) فى الهند و (كونفشيوس) فى الصين ينشران عقائدهما الحرة فى الشرق الأقصى .

ومن هذا ترى أن موجة التحرر من القيود القديمة فى القرن السادس قبل الميلاد لم تكن قاصرة على اليونان ، بل امتدت من البحر الأبيض إلى المحيط الهادى .

وهنا صمت هيرودوت طويلا وأخذ (يعبث بعصاه فى الأرض) فى تفكير عميق ، واستعراض طويل ، ثم خرج عن صمته بنظرة فاحصة فانفجرت شفتاه عن قوله :

لقد حدثتك يا صاح عن الإغريق وفلاسفتهم ، وأثرهم فى تطور الفكر الإنسانى وتحريره من قيود المعتقدات القديمة السائدة إذ ذاك فأشركت معهم أبطالا آخرين . فعليك أن تحدثنى عن أبطال شعوب الشرقين الأدنى والأقصى الذين ذكرت أنهم لعبوا دورا مهما لا يقل شأنًا عما قام به فلاسفة اليونان فى سبيل تحرير العقل الإنسانى .

فقلت له : استمع إلى فإني أحدثك عن هؤلاء الأبطال وسأبدأ
الحديث بأنبياء بني إسرائيل :

(١)
أنبياء
بني إسرائيل

إن جماعة من بني إسرائيل خرجوا من بين صفوف الشعب
وأخذوا يعظونه ويوقظونه لكي لا يستسلم إلى ملوكه وكهانه الذين
كانوا يتآمرون مع أعدائه الأجانب من الغزاة والفاحين لاستعباده
والسيطرة عليه .

وكان هؤلاء الأنبياء يرسلون أقوالهم « عندما تجذبهم روحانيتهم »
كأنهم ينطقون باسم الله فكانوا يبدأون حديثهم غالباً بإحدى هاتين
العبارتين « اسمعوا كلام الرب » أو « هكذا قال الرب » .

وإذا رجعنا إلى أقوال بعضهم المدونة في التوراة مثل أقوال
(عاموس) و (ميخا) و (أشعيا) فإننا لا نتردد في الحكم بأنهم كانوا
يعملون لتحرير العالم من التقليد الأعمى للعقائد الإنسانية القديمة
وتخليص عقائد بني إسرائيل من كثير من شوائب الوثنية المادية والمظاهر
الكاذبة للطقوس الدينية^(١) .

وأنت تعلم يا أبا التاريخ أنه لم يستقر قرار لبني إسرائيل بعد خروجهم
من مصر إلا في عهد (يوشع) بعد وفاة موسى عليه السلام ، وقد استوطنوا
في أول الأمر أرض الكنعانيين (وهي هضبة واقعة بين البحر الأبيض

(١) يراجع سفر أشعيا الإصحاح الأول فهو يقول : اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم
اصفوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة لماذا لي كثرة ذبائحكم — يقول الرب تخمت من محرقات
كباش وشحم مسمات وبدم عجول وخرقان وتيوس — ما أسر حينما تأتون لتظهروا أمامي —
من طلب هذا من أيديكم أت تدوسوا دوري — لا تعودوا تأتون بتقديم باطلة البخور هو
مكره لي — رأس الشهر والسبت ونداء المحفل لست أطيق الإلم والاعتكاف إلخ .

ووادى نهر الشريعة عند منعطفه) واستمروا من ذلك العهد فى حرب
دأبه ، وقتال مستمر مع الشعوب الأخرى المجاورة لهم .

وتروى لنا التوراة فى سفر القضاة أقاصيص حماسية عن مغامراتهم
وانتصاراتهم بقيادة زعمائهم أمثال (يفتاح) و (شمشون) على القبائل
المجاورة لهم مثل الأموريين والحيثيين والفريزيين والكنعانيين والحوثيين
واليبوسيين وأهل مدين .

وتروى لنا كذلك التوراة وقائع كثيرة عن خذلانهم وتدهورهم
ويُعزى ذلك دائماً إلى خروج بنى إسرائيل عن تعاليم رسلهم ،
وانحرافهم عن شريعة موسى وإبراهيم عليهما السلام .

ثم تروى لنا التوراة أيضاً أن بنى إسرائيل قد التجأوا إلى نبيهم
(صمويل) ليختار لهم ملكاً ينضوون تحت لوائه فى قتالهم ضد
الفلسطينيين ، فاختار لهم (شاؤول)^(١) ولم يكن من أبناء (لاوى)
فرع النبوة ، ولا من غصن (يهوذا) أصحاب الملك . وعندما التقى الجمعان
خرج رجل من جيوش الفلسطينيين اسمه (جليات)^(٢) يطلب المبارزة
فانبرى له داود عليه السلام وقهره باسم إله بنى إسرائيل ، ثم تولى الحكم
وأسس مملكة إسرائيلية جعل قاعدتها (أورشليم) « بيت المقدس »
فى عام ١٠٠٠ ق.م . ثم تولى من بعده ابنه سليمان ، وهو الذى شيد المعبد
المشهور الشامخ البنيان العالى الأركان ويقول المؤرخون إن سليمان عليه
السلام تزوج من ابنة فرعون مصر وتحالف مع بلقيس ملكة (سبأ)

(١ و ٢) وهما اللواتى ذكروهما فى القرآن باسمى طالوت وجالوت .

وحيرام ملك (صور) الفينيقية .

ولا ريب في أن لهذا التحالف مع فينقيا أثراً كبيراً في تجارة العالم التي اتجهت منذ ذلك الحين من شواطئ البحر الأبيض إلى اورشليم ، وإلى الخليج الفارسي ، حتى الشرق الأقصى .

ولا يخفى أن طرق التجارة إذا كانت تنقل السلع بين الشعوب فإنها تنشر بينهم الآراء والمعتقدات .

ومعروف أن اورشليم وقعت تحت سيطرة الآشوريين زمناً ، فلما سقطت نينوى عاصمة الآشوريين في يد البابليين فتح (بُخْتَنْصَرُّ) ملك بابل مدينة اورشليم وانتهك حرمة بيت المقدس ، وعطل العبادة فيه ، وأسقط شرفاته ، وساق اليهود إلى منفاهم في مدينة بابل في عام ٥٨٦ ق . م . ولم يعودوا إلا في عام ٥٣٨ ق . م عند ما سقطت بابل بدورها في يد الفرس في عهد الملك (كورس) الذي سمح لهم بالعودة إليها .

ولقد يحار المرء عند ما يجد هذا الشعب الصغير قد حافظ بالرغم مما حل به من المحن على تقاليده وعقائده ، بل وأعياده وطقوسه الدينية في حين أن العقائد لم يكن لها وجود في الشعوب الأخرى المعاصرة له ، فيتساءل الإنسان أين : (أزوريس) و (مردوخ) و (آشور) و (أهورامزدا) ؟ بل أين البابليون والآشوريون والفينيقيون والفرس ؟ ، وكيف تندمج كل هذه الشعوب في غيرها وتتطور معتقداتها ، ويبقى بنو إسرائيل وحدهم بمقائدهم وطقوسهم ، حتى وأعيادهم كما كانوا في عهد موسى وإبراهيم وداود وسليمان ؟ .

ويعزو كثير من المفكرين تكوين وحدة بني إسرائيل ، وحفظ عقيدتهم طوال الدهور إلى كتابهم المقدس وهو التوراة ، غير أننا لا نجد في هذا مُقْنَعاً لأننا إذا فكرنا في تاريخ الشعوب الأخرى وجدنا أن لها كتباً كالتوراة ، فللفرس كتاب قديم هو الاقستا ، وللبابليين قانون حمورابي وكتاب الحكمة ، وللمصريين القدماء كتب منقوشة على الصخر الصلد باقية إلى اليوم ، فلم لم يحتفظ هؤلاء وأولئك بعقائدهم الأولى ؟

نخيل إلينا أن فكرة التوحيد التي دعا إليها أنبياء بني إسرائيل ، وعملوا لتخليصها من شوائب الوثنية هي سر هذا الارتباط الروحي القوي بين هذا الشعب الصغير . وبدء هي أن العقائد التي تؤسس على تعدد الآلهة والأصنام والمعابد تزول متى تحطمت الأصنام وتهدمت المعابد ، أما عقيدة التوحيد وعبادة إله واحد كائن أثره في كل مكان فهي عقيدة روحية باقية لا يحوها هدم المعابد ولا تحطيم الأصنام .

وإني أرى لزماً على — قبل أن أحدثك عن بوذا وتعاليمه وأثرها

(٢)
بوذا في الهند

في نفوس الملوك والشعوب ، وانتشارها في الهند والصين وما جاورهما انتشاراً دعا إلى حب السلم ونشر الثقافة — أن أقف بك قليلاً عند الفترة التي سبقت ظهور بوذا في الهند ، لتلم إلماً خاطفاً بما كان في الهند من طبقات متعددة ذات عقائد متنوعة وكتب مقدسة متغايرة ، تدل في مجموعها على مبلغ ما تضم هذه البلاد من ثروات دينية تحتاج في شرحها إلى دراسات مستفيضة ، وبحوث عميقة لا ينسج لها المقام هنا ،

ولذا نجتزئ منها بذكر أكثرها شيوعاً :

١ — العقيدة السلية : وهي تدعو إلى الزهادة في الحياة . ولا تقول بأن الحياة مملوءة بالآلام والمتاعب فحسب ، بل تقرر أنه لا معنى لها أصلاً ، ويجب على المتعبد أن يروض نفسه على إنكار الحياة ولذاتها . وهذه العقيدة تناقض تعاليم مؤسسى العقائد في الشعوب الأخرى ومنهم (زرادشت) الذى نرح إلى الهند ، وسبق لنا الحديث عنه . ويخيل إلينا أنه ليس لما فى هذه البلاد من الفروق الجنسية والعنصرية شأن فى هذه العقيدة السلية .

فالآريون فى الهند سلبيون ، وإخوانهم الآريون فى فارس إيجابيون . ولم يظهر للعقيدة السلية وجود فى أصول الديانات الأخرى إلا فى فترات قصيرة الأجل لا تذكر ، كما حدث عند فلاسفة الإغريق فى آخر عهدهم .

على أن هذه العقيدة لم توجد فى الهند ذاتها من أول الأمر عند الفتح الآرى ، بدليل الأناشيد الأولى المدونة فى كتاب (الاقيدا) والتى يطلب فيها من الإله (إندرا) الثروة والنصر وطول الحياة ، مقابل ما يقدم له من القرбан .

٢ — العقيدة البرهمية : وقد اعتنقها البراهمة وهم الذين يريّضون أنفسهم رياضة روحية وجسمية ، ويشربون شراباً مخدرأ يسمى (السوما) حتى ترتعد فرائضهم وتعترهم غيبوبة فيحلّ فيهم روح الإله ، وبهذا يصبح لهؤلاء المتعبدين قوة خارقة للعادة .

ومنشأ هذه العقيدة : أنهم يعتقدون أن كل كائن هو ذرة من
الروح العام يستمد وجوده منه ، ثم يرجع إليه في النهاية .
والروح العام عندهم أشبه بالموقد الذي يرسل الشرر في اتجاهات
عدة ، ولا يقنع متعبدو البراهمة بهذا الاعتقاد ، بل عليهم مزاولته عملياً
بالجسم والروح .

٣ - عقيدة التجسد المتكرر : ومنشأ هذه العقيدة قصة دينية .
موضوعها : أن الأرواح تمر بعد الموت في طريقها إلى السماء بالقمر
فتستقر فيه فترة من الزمن ، ثم يصعد بعضها إلى السماء ، ويعود البعض
الآخر إلى الأرض مع المطر ، فتجسد من جديد في أشباح آدمية أو
حيوانية تبعاً لأعمال أصحابها قبل موتهم . ومن هذا وجدت نظريات
كثيرة تبحث عن علاقة الروح بالجسد وكيف يكون الخلاص الروحي
من هذا الأسر المادي .

ونخيل إلينا أن هذه العقائد وتلك النظريات كانت كلها ممهدة
لظهور بوذا .

إن أصل اسم بوذا (سيد هارتا) ومعناه الملهم أو الموصى ، وهو
من أسرة شريفة تحكم في إحدى مقاطعات (هملايا) ، وكان كغيره
كارهاً للحياة ، ولذا اتجه فكره إلى البحث عن الخلاص من متاعب
هذه الحياة التي تتجدد بتكرار التجسد ، وبينما هو غارق في بحثه ، إذ
رأى في ذات يوم زاهداً يجوب البلاد ، وهو ساجح في تأملاته فاعتزم
أن يحذو حذوه ، إلا أنه ما كاد يهتّم بما اتواه حتى علم بأن زوجه

سودا
وذهب

وضعت مولوداً فقال لفوره : « ها هو ذا رباط جديد من أربطة الحياة يجب حله » . وبالرغم من الاحتفاء العظيم بمقدم هذا المولود ، فقد أصرَّ بوذا على ضرورة تطلق تلك الحياة المرحلة إلى حيث لا رجعة . وفعلاً ذهب في دجى الفسق إلى غرفة زوجه ليلقى آخر نظرة عليها وعلى ولدها الذى بين ذراعيها ، ثم امتطى صهوة جواده وأرخى له العنان ، وسار يطوى به الأرض حتى التقى فى طريقه بيأس رث الثياب ، نخلع عليه حلته وارتدى منه رداءه الممزق ، وأخذ يجوب الآفاق منقباً عن الحكمة التى ينشدها .

واستعان بوذا فى أول أمره بالصوم ، والقمع ، والتهجد ، والحرمان ليتهدى إلى طريق الخلاص فلم يوفق واقتنع بأن هذه الوسائل لن تصل به إلى ما يريد ، فعدل عنها وطلب الطعام ، وأعلن أن الإنسان لن يصل إلى معرفة الحقائق بغير جسم قوى وعقل نقي ، وترتب على ذلك أن هجره أنصاره الخمسة ، وبقي وحده فى عزله وقضى يوماً وليلة فى تأملات عميقة بددت شكوكه ، وكشفت له عن الحقيقة واضحة صافية ، فعاد أدراجه إلى مدينة (بنارس) وجمع حوله أنصاره الخمسة من جديد ، وأقام بمساعدتهم أكواخاً فى حديقة الشوادرن ليقيموا بها ، وليلقنوا الناس تعاليمه ، وأهمها :

أن السبب فى آلام الحياة كامن فى الشهوات الشخصية وأن الإنسان سيبقى حزيناً متألماً حتى يستطيع قهر شهواته ، وأن لتلك الشهوات ثلاث صور أصلية :

الأولى : الحساسية . والثانية : الرغبة في البقاء والخلود في

الحياة . والثالثة : شهوة الظفر والنجاح .

هذه هي تعاليم بوذا . وإني أرى أنها وإن كانت تتجه إلى وجهة أخرى بعيدة عن مباحث فلاسفة الإغريق ، كطاليس وهيراقليطس ، وبعيدة عن تعاليم أنبياء بني إسرائيل المعاصرين له ، إلا أنني أراهم جميعاً قد اشتركوا بتعاليمهم وفلسفتهم في تحرير الفكر الإنساني في ذلك العهد من قيود المعتقدات القديمة ، ولعمري إن في ذلك لارتقاء بالإنسانية ، وتمهيداً للمباحث العلمية التي ظهرت بعدُ .

ولقد ذاعت تعاليم بوذا في الهند وبلغت أوج شهرتها ومجدها منذ اعتنقها حفيد (شندراجربتا) وهو الملك (اسوكا) الذي اتسع ملكه في الهند فشمّل البقاع من الأفغان إلى مدراس ، وحكم ثمانية وعشرين عاماً ، عدل فيها - منذ اعتناقه تعاليم بوذا - عن الغزو والفتح فكانت كلها أمناً وسلاماً ، وقد وجه في خلالها جهوده إلى إنشاء المستشفيات والمتنزهات ، ونشر الثقافة في ربوع البلاد بين السكان ، وأرسل البعوث إلى كشمير ، وفارس ، وسيلان ، والإسكندرية ، وارتضى لنفسه أن يظل حكمه رمزاً للأمن والسلام . وكان هذا سبباً في نشر البوذية في الصين وسيام وبورما واليابان من أيام حكمه إلى وقتنا هذا .

إن تاريخ الصين القديم لأشد غموضاً من التاريخ القديم للهند والواقع أن المدنات الأولى في هذه البلاد الواسعة الأرجاء وجدت على شواطئ الأنهار أيضاً ، وأن الشعوب كانت في تلك العصور الأولى خاضعة

(٣)
كنفبوس
ولاو
في الصين

لسلطان الملوك والكهان، كما كان الحال في مصر وبابل وأمريكا الوسطى.
ويظهر أن القبائل البدوية الهمجية المعروفة بالهونس والمغول
والتار قد انحدرت من الشمال وهاجمت تلك المدن الأولى فاختلفت
العناصر البشرية كما حدث في شمال أوروبا وآسيا الوسطى .

وكانت الصين في سنة ١٧٥٠ ق.م. مقسمة إلى ممالك صغيرة تدفع
الجزية إلى امبراطور من الكهنة، من أسرة (شونج) يطلق عليه اسم
(ابن السماء) ، ثم انقرضت هذه الأسرة في سنة ١١٢٥ ق.م. وجاءت
بعدها أسرة (تشو) في عهد الملك (أسوكا) الهندي والبطالسة في
مصر. ثم انقسمت هذه البلاد إلى ممالك بلغ عددها في القرن السادس
قبل الميلاد نيفاً وخمسة آلاف مملكة . ويسمى مؤرخو الصين هذا
القرن (بعهد الفوضى) .

كنفشيوس
ومذبه

لقد وُجد (كنفشيوس) في هذا العهد المضطرب ، كما وجدت
فلاسفة اليونان في عهد انقسامها وكما وجد أنبياء بني إسرائيل في عهد
المنفى في بابل . (وكأن مصائب الشعوب هي التي تُرجى إلى قلوبهم
حرارة تبين عنها مذاهبهم وشرائعهم) .

وولد (كنفشيوس) هذا في سنة ٥٥٠ ق.م. وعاش في عهد ساد
فيه السلب والنهب، وأدرك أنه لن يستطيع منع الشرور بسن القوانين،
وأن خير علاج لهذه الأدواء المتفشية هو تغيير الشعور العام عند ملايين
السكان . ولم يلجأ إلى تأسيس دين ولم يدَّع أنه ملهم ولا أنه مبعوث
برسالة من القدرة الإلهية . ولعل الذي حمله على هذا ما يعرفه عن الصينيين

من أنهم وإن كانوا يصدقون بوجود الأبالسة والمردة من الجن شأن الشعوب الأولى في العصور الغابرة إلا أنهم قليلو العناية بالأديان ، ولذا اتجهت تعاليمه نحو الدعوة إلى الأخلاق الكريمة واحتمال المصائب كما يحتملها القديرون ، ونشر الفضائل بين أبناء جلدته وتخيّل نظاماً جديداً للحكم وأخذ يبحث - كما فعل أفلاطون بعد قرن ونصف - عن أمير يصلح لهذا الحكم الصالح فلم يجد ومات ولكن بقيت تعاليمه حية .

لاو وتعاليمه
لقد كانت تعاليم (لاو) أكثر غموضاً ، وهي ترجع في جملتها إلى الأسرار الخفية ولذا كانت مؤلفاته التي تركها مملوءة بالألغاز مما سهل على أنصاره أن يدخلوا عليها شوائب كثيرة من الوسوس والخزعبلات ، كادعائهم بأن لديهم إكسيراً لطول الحياة وغير ذلك من الخرافات التي لا يزال أثرها موجوداً حتى اليوم .

ولم تخل تعاليم بوذا وكنفشيوس من مثل تلك الشوائب بعد موتها ، لأن الشعوب مفضولة على الميل إلى تصديق الخرافات والأسرار الخفية ، ولا أدل على ذلك من أن بوذا وكنفشيوس أصبحا بعد موتها إلهين معبودين .

تعاليم بوذا في اليابان
يقول المؤرخون بأن الشعب الياباني خليط من شعوب كثيرة هبطت الجزيرة اليابانية واندمج بعضها في بعض فأتحدت أجناسهم وعاداتهم وأخلاقهم ثم هذبوها وصقلوها . وتقول أقاصيصهم القومية القديمة « بأن الأسرة الإمبراطورية الحالية يرجع تاريخها إلى خمسة وعشرين قرناً ونصف القرن ، وأنها من نسل (المينوتو) المدعو

(بالقدّيس الفاتح) الذي ينحدر من الآلهة التي خلقت العالم . وأن ثلاثة وعشرين ومائة امبراطور توارثوا حكم هذه البلاد جيلاً بعد جيل بلا انقطاع .

ولم يبدأ التاريخ المدوّن لهذه البلاد إلا بعد أن عرفت الكتابة الصينية ، ومعروف أن المدينة الصينية القديمة قد امتد ظلها إلى كوريا واليابان ولهذا يسمى الصينيون كوريا واليابان باسمين صينيين هما : « صحو الصباح » و « الشمس المشرقة » .

وقد انتشرت في اليابان عقيدة بوذا فقضت على دينها القديم المعروف بـ (شنتو) وهو نوع من عبادة الأجداد وتقديم الضحايا للأبطال من الأموات .

ومن العجيب أن تعاليم بوذا العادلة الرحيمة كانت أكثر انتشاراً بين الطبقة العسكرية اليابانية صاحبة البأس والقوة .

ويظهر أن الطبقة العسكرية قد أخذت العقيدة السلبيه في الحياة وفسرتها بعدم الاكتراث بالموت ، ومن هذا وجد الفداء والانتحار على طريقة (هيراكيري) كما وجد قانون الشرف العسكري الياباني . وبهذا مسخت تعاليم بوذا وانحرفت عن أصلها إلى العكس منه .

ويظهر من جميع ما تقدم أن الإنسانية قد أنجبت في القرن السادس قبل الميلاد أبطالاً من بني الإنسان متباعدين في الموضع ، ولكنهم يعملون جميعاً وفي عهد واحد لغاية واحدة ، وهدف واحد ، هو تحرير الفكر الإنساني من قيود الخرافات القديمة ، ففي الوقت

الذى كان فيه هيراقليطس وباقي فلاسفة اليونان ينشرون تعاليمهم الحرة بين الإغريق كان (أشعيا) وباقي أنبياء بنى إسرائيل يعظون الناس فى الشرق الأدنى ، ويوجهونهم إلى فكرة التوحيد ، كذلك كان (بوذا) فى الهند و (كنفشيوس) و (لاو) فى الصين ينشرون عقائدهم الحرة الجديدة فى الشرق الأقصى . فكان القرن السادس قبل الميلاد قد أيقظ فكر العالم من البحر الأبيض إلى المحيط الهادى ، وهز الإنسانية بعد أن قضت عشرين ألف سنة فى طفولتها حتى بلغت سن المراهقة وتحررت من قيود المعتقدات الخرافية القديمة .

ومن هذا يتبين لنا يا أبا التاريخ أن الإغريق لم ينفردوا بنشر التعاليم الحرة التى سمّت بالإنسانية . وقضت على القيود القديمة للفكر الإنسانى . وعند ما وصلتُ إلى هنا فى حديثى مع هيرودوت لمحت أبا الهول وهو يلقي بنظره بعيداً نحو مدينة منف فالتفتُ نحوها وإذا بى أرى شعباً يعدو نحونا مسرعاً وهو متقلدٌ سيفاً وعلى رأسه مغفر كأنه من قواد الرومان ورأيت أبا الهول يهيمُ باستقباله يبشاشته المعهودة ، ويشير إليه بالجلوس فى مكان هيرودوت الذى هم بالانصراف .



الحديث الثالث

أخبرني أبو الهول بأن هذا الزائر هو أكتاف امبراطور الرومان ، الذي أغرق أسطول كليوباترة في واقعة أكسيوم في عام ٣١ ق . م وقهر في الإسكندرية القائد المعروف (أنطونيوس) الذي أحب كليوباترة . فسنتح لي فرصة الكلام عن الدولة الرومانية التي تركت أثراً كبيراً في تاريخ أوروبا وتطور الحضارة فيها وكأن أبا الهول وقد أدرك ما يجول بخاطري يقول لي ها هو ذا أكبر أباطرة الرومان يحدثك عن تاريخهم .

فمعدنأطرق أكتاف برأسه وقال : بماذا أحدثك أشر ذلك تاريخ دولة لها شأنها وخطرها في تطور الحضارة أم أحدثك عن الانقسامات والحروب الداخلية التي سالت فيها الدماء أنهاراً ؟ أنظر إني جدي لأمي وهو القيصر يوليوس الذي رفع شأن الدولة الرومانية بفتوحاته العظيمة ولم يكن نصيبه في آخر الأمر إلا الاغتيال من أخص أعوانه ضرباً بالسيوف في مجلس السيناتو ، ولم أجد أماًي إذ ذاك سبيلا غير ترك معهد أثينا الذي كنت ألتقي فيه علومى والذهاب إلى روما للمطالبة بـميراث القيصر الذي كان قد تبنتني . لقد ذهبت وأنا أحمل لقب ابنه المتبنى ووارثه الشرعى كما أحمل في الوقت نفسه فكرة الانتقام له .

وعندئذ بادرت به بقولى : إن تاريخ الإنسانية مملوء بالدموع والدماء
والمآسى ، بيد أن هذا التاريخ نفسه يحمل بين طياته تقدم الإنسانية
والحضارة وارتقاءها ، وكثيراً ما شاهدنا أن المدينيات العظيمة قد تنشأ
عن معتقدات لم تكن فى الواقع إلا أقاصيص خرافية لا تتفق مع العقل
والمنطق ، ومثال ذلك أن المؤرخ (تيت ليف) الذى عاش بين
سنة ٥٩ ق . م وسنة ١٩ م روى لنا أساطير خرافية عن تأسيس
وإسكان مدينة روما .

وقد ذكر لنا فى تأسيس هذه المدينة أن (يانوس) «Janus» بن
(أبولون) «Appolon» أحد آلهة الإغريق أسس مدينة على تل
(يانيكول) «Janicule» وأعطى تل (الكايتول) «Capitole» إلى
(زحل) «Saturne» وهو إله الزمان بعد أن طرد من جبل (الأولمبيا)
«Olumpia» كما أنه زوج ابنته لابنه «Enee» المجاهد المعروف بمغامراته
العظيمة بعد سقوط (طرواده) . وقد أنجبت منه (أسكاني) «Ascagne»
الذى أسس مدينة (ألب) «Albe» وكان له ولدان هما (أميليوس)
«Amulius» و (نوميتور) «Numitor» . وقد عزل الأول الثانى عن
عرش مدينة ألب غير أن نوميتور المعزول كانت له ابنة اقترنت بالمريخ
«Mars» وهو إله الحرب وأنجبت منه توأمين هما (رومولوس)
و (ريموس) «Romulus et Remus» . وقد وضع أميليوس هذين
التوأمين على ضفة نهر التير «Tibre» ليدركهما الفيضان ويقضى عليهما
فجاءت ذئبة وتولت إرضاعهما وتعهدهما أحد الرعاة إلى أن اشتد ساعدهما

ووقفوا على قصتهما ، وعندئذ قاما بقتل أميلوس انتقاماً ، وأعادا جدهما
مونيتور إلى العرش .

وقد كافأهما جدهما بإقطاعهما جميع الأراضي المعروفة بالسبعة تلال
على شاطئ نهر التير فاعتزما إقامة مدينة جديدة عليها ، واستلهما الطيور
ليقفا منها على اسم من منهما يطلق على هذه المدينة الجديدة ، وحسد
ريموس على تل (أفانتان) «Avantin» وتسلق روميلوس تل (البلاتان)
«Platan» . وقد مر على الأول ستة من البراة . ومر على الثاني اثنا عشر
بازاً ، وبذا تعين إطلاق اسم روميلوس على المدينة ، فأخذ روميلوس هذا
يخط على الأرض بمحراث يجره ثور أبيض وبقرة بيضاء مكان السور
الذي أقيم فيما بعد لهذه المدينة ، أما ريموس فقد قفز فوق هذا السور
نكابة في أخيه روميلوس الذي بادر بقتله لفعلته هذه قائلاً : إن هذا هو
مصير كل من تحدثه نفسه بأن يتخطى هذا السور : وكان ذلك في عام
٧٥٣ ق . م .

ويقول لنا (تيت ليف) في كيفية إسكان مدينة روما : إن روميلوس
دعا السابين «Sabins» وهي قبيلة من العنصر الآري كانت تقطن بجوار
روما إلى اجتماع عام للألعاب الرياضية ، وهنا اختطف سكان روما القليلو
العدد بنات السابين وتزوجوا منهن ، فنشبت بين العنصرين حرب لم
تقف رحاها إلا عندما تدخلت بنات السابين بين آبائهن وأزواجهن ،
فتصالحوا وعاشوا على وفاق .

ولا ريب في أن هذه الأساطير تحمل طابع الأقايص الخرافية

القديمة عن آلهة الإغريق وسور الصين المشهور^(١) و (أوزوريس)
و (ست) وقصة (قايل وهایل) .

أبو الهول ولما وصلت إلى هذا الحد من القول لفتني أبو الهول إلى الحوار
الذي دار بيني وبين هيرودوت قبل مقدم أكتاف وتبيناً منه أن معتقدات
الشعوب إنما هي سلسلة متصلة الحلقات بعضها ببعض منذ القدم .

أكتاف وعندئذ بدأ أكتاف حديثه قائلاً : نعم إن الرومان قد ورثوا
عقائد الشعوب القديمة قبل أن يكون لها قوة الاعتقاد الديني فكان
الرومان يعنون بالطقوس الظاهرة والمراسم الخارجية دون أن يكون
لها تأثير قوى في نفوسهم ، فكانت دياتهم بادية بدئية جافة ليس فيها
غير المظاهر ، وكانت آلهتهم كثيرة لأعداد لها^(٢) وسبب ذلك أنهم

(١) هذا السور هو خط دفاعي لصد غارات التار أنشئ في شمال الصين في القرن الثالث
ميل الميلاد ، وطوله ٢٢٠٠ كيلو متراً وارتفاعه يختلف ما بين خمسة أمتار وعشرة أمتار ويسمح
عرضه لمرور ستة من الفرسان فوقه جنباً إلى جنب .

(٢) كان للرومان إله للباب وآخر لقبه الباب وسنة آلهة للأطفال يعلمونهم الصراخ والرضاعة
والأكل والشرب والخروج من المنزل والعودة إليه وكان الرومان كثيرى التفاؤل والنشأوم
فكانوا يستلهمون الإله قبل الإقدام على المهم من الأعمال وكان للحكومة إله مثل إله الأفراد
والعائلات فكان (يانوس) إله باب مدينة روما وكان تمثاله يحمل وجهين يتجه أحدهما إلى خارج
المدينة ويتجه الثاني إلى داخلها وكان باب معبد مغلقاً وقت السلم ومفتوحاً وقت الحرب ليخرج
منه الجيش الروماني لملاقاة العدو .

وكان عندهم الإله (جوبيتر) «Jupiter» مثل (زيس) «Zeus» عند اليونان وهو إله
السماء والجو والرعد . وكانت لهم آلهة للزرع والأعياد الريفية وكان من عاداتهم أن يحتفلوا في
آخر شهر ديسمبر بعيد زحل وهو إله البذر فيتبادلون الزيارات والهدايا ومن هنا جاء الاحتفال
بعيد رأس السنة الميلادية في وقتنا الحاضر .

وكان لمثلوك روما كهان ينشئونهم عن إرادة الإله بأن يرسموا بعصيم خطأ متجهاً نحو السماء
أو أنهم يلقون الحب للدجاج ثم يتكهنون عن إجابة الآلهة فيما يسألونهم عنه بما يبدو لهم من تغريد
الطيور أو من مبلغ شهية الدجاج في النقاط الحب وأكله حتى إنه يروى أن أحد قواد الرومان
حشى على جنده من الهزيمة عندما عافت الدجاج أكل الحب فأمر بأن يقدفوا الدجاج في اليم قائلاً :
« من لم يأكل يشرب » .

كانوا متسامحين إلى حد بعيد فكانوا يعترفون بجميع آلهة الشعوب التي اتصلت بهم وبذا اتسعت عندهم دائرة الآلهة وترتب على ذلك ظهور نتائج مهمة في نظامهم الاجتماعى والسياسى ، حيث اتسعت عندهم دائرة العائلة وأصبحت لا تضم الأبوين والأولاد فقط كما كان الحال عند الإغريق بل أصبحت تضم أيضاً كل سلالة الأجداد وذريتهم ، وكانوا جميعاً يحملون اسم الجد الأكبر بجانب أسمائهم . وقد اتسعت عندهم كذلك دائرة المواطنين تبعاً لاتساع دائرة الآلهة والعائلة ، فكانوا يقبلون الأجانب من الشعوب الأخرى ، وأصبحت روما وجهة أنظار هذه الشعوب التي استوطن بعضها روما بجانب الأشراف ، بينما استوطن العدد الأكبر منها تل (اڤنتان) «Aventin» ودعوا (بالليب) «Plebe» أى عامة الشعب مقابل البتريسيان أى الأشراف «Patricien» هذا ولقد كانت للأشراف امتيازات لم تكن فى أول الأمر ممنوحة لعامة الشعب غير أن الحروب التي لجأ إليها الرومان جعلتهم فى حاجة إلى جنود من عامة الشعب التي كانت تشور للمطالبة بالمساواة فى الحقوق قرابة قرنين من الزمان (من عام ٥٠٠ إلى ٣٠٠ قبل الميلاد) حتى نالت مبتغاها ، غير أن علاقة الدائنين بمدينهم . تلك العلاقة التي كانت تقضى باسترقاق المدين ، قد أثارت بينها اضطراباً كبيراً ، لأن هذه الطبقة من عامة الشعب هي التي كانت تجد أراضيها بوراً ، ومساكنها خراباً ؛ عند عودتها من الحروب . فكانت تلجأ إلى الاستدانة لإصلاح ما تخرب فى أثناء غيبتها ، وكان من الصعب عليها بعد ذلك توفية ديونها ، وبذا

كانت تقع تحت سيطرة الدائنين ، ولهذا ثار عامة الشعب على هذا النظام ، وانتهى الأمر بالاتفاق على إسقاط ديون الفقراء وإيجاد نظام القضاة «Tribuns» الذين كان يلتجئ إليهم كل فرد من الشعب فيحمونه بما لهم من حق إيقاف التنفيذ في كل ما يرونه ظلماً وهو ما كان يسمى بحق «Vets» .

وقد جرى العمل بهذا في إنجلترا عند إعلان القانون المعروف بـ (هابياس كورپوس) «Habeas Corpus» .

هذا ولما لم تكن قوانين روما مدونة فقد بدىء بتدوينها في عام ٤٥١ ق. م. وعرفت بالألواح الاثني عشرة التي قررت مبدأ المساواة أمام القانون ، ومبدأ أن الشعب هو مصدر السلطات جميعاً ، وكان للشعب مجلس السيناتو (الشيوخ) والجمعية العامة وكان السيناتو مكوناً من ثلاثمائة عضو ينتخبهم الملك من بين رؤساء العائلات ، ويؤخذ رأيهم في جميع الشؤون العامة ، ويصدقون على قرارات الجمعية العامة . وعندئذ قلت لأكتاف : لقد عرفنا مما ذكرته لنا أن عامة الشعب الروماني كانت تطالب بالمساواة وأن حاجة الأشراف إلى جمع الجنود للحرب قد ساعدها في الحصول على تلك المساواة في الحقوق ، ولم تقل لنا شيئاً عن تلك الحروب وأسبابها ونتائجها .

فقال أكتاف : لم تقم الدولة الرومانية بتلك الحروب في أول الأمر إلا دفاعاً عن نفسها ، ولم يبدأ تاريخ الرومان إلا من الوقت الذي أسس فيه اللاتين مدينة روما ، ولم يكن اللاتين من سكان إيطاليا

الأصليين ، وإنما جاؤا مع العنصر الهندي الأوربي الذي نزع من شمال أوروبا ، كما نزع غيره من الشعوب مثل الأتروسك «Etrusques» والإغريق إلى شبه جزيرة إيطاليا ، فكان وجود هذه الشعوب المختلفة في شبه الجزيرة داعياً إلى نشوب الحروب بينهم ، ولا يزال تاريخ روما في عهد ملوكها الأقدمين غامضاً ، غير أننا نعلم أن آخر ملوكها وهو (تاركان) العظيم «Tarquin le Superbe» قد أراد أن يستولي وحده على جميع السلطة فثار السيناتو وعزله ، وأسس الجمهورية في عام ٥٠٩ ق.م. وفي عام ٤٧٤ ق.م. أغرق الإغريق في (سَرَقُطَّة) بِصِقْلِيَّة أسطولاً لجماعة الأتروسك ، كما هاجمت هذه الجماعة في الوقت ذاته قبائل الغال من الشمال ، ورأى سكان روما أن الفرصة سانحة للتخلص من سيطرة الأتروسك باستيلائهم على مدينة «Vis» عاصمة بلادهم غير أن قبائل الغال عادت فهاجمت روما ونهبتها في عام ٣٩٠ ق.م. ولكنها فشلت في الاستيلاء على قلعة الكايتول ؛ بعد أن وقعت ذات ليلة في الصعود على سور تلك القلعة في غفلة من الرومان ، ويرجع سبب الفشل إلى أن الأوز الذي كان مخصصاً قرباناً لبعض الآلهة قد صاح صياحاً مزعجاً أيقظ الرومان فتنهبوا للأمر ، وردوا الأعداء على أعقابهم خاسرين . واستمر الرومان نحو سبعين سنة يمدون فيها سلطانهم على وسط إيطاليا ، حتى تمت لهم السيطرة في عام ٣٠٠ ق.م. على جميع الأراضي الممتدة بين نهر (الأرنو) «Arno» و نابولي . وفي هذا الوقت كان (بيروس) ملكاً على (ايير) «Pyrrhus roi d'Epire» وهو من أقارب

الاسكندر وأحد الذين تقاسموا مملكته وقد عبر البحر إلى إيطاليا لمساعدة مدينة (تارانت) Tarante، ضد روما، وقهر الجيوش الرومانية وردها إلى الشمال . غير أن هذا النصر قد لفت نظر قرطاجنة وهي الدولة التي أسسها الفينيقيون على شواطئ أفريقيا الشمالية وكانت في ذلك العهد أقوى دولة بحرية على البحر الأبيض ، ولا يرونها أن تجدد إزاءها في صقلية أحد الملوك الأقوياء من أقارب الإسكندر ، وفي الواقع ما كان لقرطاجنة أن تنسى ما حل بصور عاصمة الفينيقيين منذ نصف قرن من الزمان ، ولذا شجعت روما لمحاربة هذا العدو المشترك ، وأرسلت أسطولاً قطع طريق المواصلات البحرية على (يروس) فهزمه الرومان شر هزيمة وعاد إلى مملكته التي كان الغال يهاجمونها بعد أن اخترقوا صربيا وألبانيا . وأصبحت روما من ذلك التاريخ مهيمنة على مضيق (مسينا) وعلى بعد أربعة كيلو مترات من صقلية التي يرونها امتداداً طبيعياً لإيطاليا .

ولما كانت صقلية تحت نفوذ قرطاجنة^(١) وبها حامية من القرطاجيين بدأ النزاع بين هاتين الدولتين ونشبت بينهما حروب

(١) هي المدينة التي أسسها الفينيقيون على الشاطئ الإفريقي في عام ٨٠٠ ق. م. لتكون مركزاً تجارياً بسبب موقعها الجغرافي ، فلما استولى بختنصر ملك بابل على مدينة (صور) عاصمة الفينيقيين انقطعت صلة قرطاجنة بفينيقيا وأصبحت دولة مستقلة محكومة بجماعة الأغنياء حكماً يطلق عليه الإغريق كلمة (بلوتوكرات) من لفظة (بلوتوس) Ploutos، ومعناها الموسر أو الغنى . وعلى الرغم من أن نفوذ قرطاجنة قد امتد من سواحل أفريقيا إلى سواحل إسبانيا وفرنسا وجزر كورسيكا وسردينيا وصقلية فإن حكومتها كانت دائماً مزعزعة الأركان تحت رحمة المؤثرات المالية والاقتصادية فكان الشعب إذا راجت تجارته أيد الحكومة وإذا بارت أسقطها . ولقد حافظت قرطاجنة على مركزها الاقتصادي مدى خمسة قرون حتى ظهرت روما على مسرح التاريخ .

استمرت قرناً ونصف قرن وعرفت باسم الحروب (البونيقية)

«Les guerres Puniques» .

الحرب
البونيقية الأولى

لقد ظهرت روما على مسرح التاريخ عاصمة للشعوب اللاتينية ، وبدأت تتاجر مع صقلية وأخذ نفوذها يمتد إلى سواحل بلاد الغال ورأى القرطاجيون وكانوا رجال أعمال أن لا يقفوا أمام العاصفة مكتوفي الأيدي ، فبدأوا سياستهم بالاتفاق مع الرومان ، وقد عقدوا معهم منذ عام ٣٥٠ ق . م . عدة معاهدات تشبه في مجلتها معاهدات حسن الجوار وعدم الاعتداء ، وكان أهم ما تضمنته عدم تدخل الرومان في شؤون صقلية وعدم تدخل القرطاجيين في شؤون إيطاليا .

وقد أوفت قرطاجنة بعهودها وتخطتها بأن وقفت بجانب روما عند ما تدخل ييوس ملك إيبير لمساعدة مدينة تارنت ضد الرومان وقطعت عليه المواصلات البحرية مما أدى إلى هزيمته وانسحابه .

ولكن الرومان لم يقدرُوا هذا الصنيع ولم يُوفُوا بعهدهم لقرطاجنة واستولوا على مدينة مسينا بالرغم من قوة قرطاجنة البحرية وذلك بفضل الكلابات التي فكر في إنشائها قنصل روما (دييوس) «Deillius» وكانت ذات أثر فعال في إيقاف سير سفن القرطاجيين وانقضاء الجنود الرومان عليها وساعد على نجاحهم في ذلك استخدامهم بحارة الإغريق فأضافوا إلى انتصارهم البري انتصاراً بحرياً في شمال صقلية في عام ٢٦٠ ق . م .

وقد احتفل الرومان بهذا النصر في ساحة (الفوروم) وشجعهم

ذلك على غزو قرطاجنة في عقر دارها فبعثوا بجيش برى عبر البحر الأيضا ليستولى على قرطاجنة نفسها ولكنهم باؤوا بالفشل وأسر قائد هذه الحملة في عام ٢٥٥ ق . م . وانتهت بهذا أول حرب بين الدولتين خرجت منها روما مستولية على صقلية ، وصاحبة أسطول بحرى قوى ، تمكنت به من الاستيلاء على جزيرتى كورسيكا وسردينيا ، وعلى الجزء الأكبر من بلاد الغال الواقعة وراء جبال الألب .

الحرب
ثيوية الثانية

لم يكن فى وسع قرطاجنة بعدما انتهت الحرب الأولى غير الاحتجاج على تصرفات روما ، وحشها بعودها ، وغدرها بخليفتها فى الوقت الذى كانت فيه قرطاجنة مشغولة بإخماد فتنة أشعلها الجنود المرتزقة بالجيش القرطاجى بعد عودتهم من صقلية ومطالبتهم بأجورهم . ولما سكنت هذه الفتنة وجهت قرطاجنة جنودها لاحتلال إسبانيا بقيادة (هاملكار) Hamilcar فاستولى عليها فى بضع سنين ثم انتخب بعده ابنه (هانيبال) قائداً لجيشها ، وكان محبوباً من جيشه حباً لا مزيد عليه ، وعلى الرغم من أن هذا الجيش كان خليطاً من أجناس متعددة وشعوب مختلفة ، فإنه قد أذعن لإمرة هانيبال ستة عشر عاماً وهو يقاسى أهوالاً كثيرة ، ولم تنزع له ثقة فى قائده ، ولم يتسرب إليه الملل والضجر ، وكان هانيبال حريصاً على كدهاء فيليب المقدونى وشجاعة الإسكندر ، وهو الذى أدار الحرب الثانية ضد روما وقد دامت سبعة عشر عاماً من ٢١٨ إلى ٢٠١ ق . م . ورأى هانيبال أن يهاجم إيطاليا من طريق البر ولو كان شاقاً طويلاً ، لأن ثقته فى الجيش كانت

أعظم منها في الأسطول وكان يؤمل أن يدخل إيطاليا كمنقذ للشعوب
اللاتينية من سيطرة الرومان ، معتمداً على هذه الشعوب وعونها ،
فغادر إسبانيا في ربيع عام ٢١٨ ق . م . واجتاز جبال البيرينيه وقهر على
شاطئ نهر الرثون جيشاً للرومان بقيادة (سيبيون) Scipion . ثم تسلق
بجيشه جبال الألب غير حافل بالثلوج المتجمدة ولا بالشعوب المعادية ،
وتساقبت الأخبار إلى روما منذرة بالهزائم الساحقة في الوقت الذي
كان الرومانيون يستعدون فيه لاستقبال الأخبار السارة بانتصاراتهم
السهلة المحققة ، فاجتمع مجلس السيناتو وأرسل جيشين للملاقاة العدو
فقهرهما هانيبال في الحال ، وذاع خبر هذه الهزيمة فأنخلعت قلوب
الرومانيين وأرسلوا جيشاً ثالثاً بقيادة (فايوس) « Fabius » الذي رأى
أن يحرص كل الحرص على جيش لم يبق للرومان غيره ، فلم يشتبك في
معركة فاصلة ، وأخذ يكر بجيشه أحياناً ويفر أخرى أمام أبطال
هانيبال . ولكن هذه الحرب التي تشبه حرب العصابات لم ترق في نظر
الشعب الروماني المرتعدة فرائضه فرقاً وراء أسوار روما ، فعزل فايوس
وانتخب بدله (فاروس) بين تصفيق الشعب وتهليله (لأنه كان بطلاً
شعبياً وكان يخطب منتقداً أعمال سلفه) غير أن هذا التغيير والتبديل
في قيادة الجيش الروماني لم يغيّر من حقيقة الموقف ولم يغنياً قليلاً أمام
عبقريّة هانيبال الذي انتصر في النهاية أمام مدينة (كان) « Cannes » في
عام ٢١٦ ق . م . انتصاراً باهراً وألحق بعدوه هزيمة مروّعة لا مثيل لها .
وأخذ هانيبال يحجّوب إيطاليا من الشمال إلى الجنوب معلناً أنه

المنقذ لشعوبها من سيطرة الرومان ، وبالرغم مما أدركه من النصر ومما أذاعه من أنه لا ينبغي غير إنقاذ الشعوب اللاتينية من مخالب الرومان ظلت جميع شعوب إيطاليا (غير أهالي كابو وسرقسطة) مناصرة للرومان . فكانت هذه الحرب موازنة بين عبقرية هانيبال ، ونظام الرومان في سياسة حكم الشعوب .

الحرب
البونية الثالثة

ولما وجد هانيبال نفسه بين شعوب عديدة تحمل ولاءً لروما وغدراً له ، شعر بأنه سجين في البلاد التي فتحها عنوة وأخضعها قسراً ، وأيد هذا الشعور عنده ما أصاب أخاه هاسدروبال «Hasdrubal» من الرومان إذ أنه بعد أن تغلب عليهم في إسبانيا قصد إلى إيطاليا ليعين أخاه هانيبال وأرسل إليه رسله ينبئونه بمقدمه فوقعوا في أيدي الرومان الذين استعدوا للقاءه بجيش زاخر ، وحاربوه حتى قهروه ، ثم قتلوه وألقوا برأسه في معسكر أخيه هانيبال ، في وقت كان يترقب فيه قدومه لموته . وبهذا استطاع (سيبيون) أن يعيد إسبانيا لحكم الرومان وأن يجعل الرومان يوجهون حملة لغزو قرطاجنة التي دعى هانيبال للدفاع عنها فخف إليها بمن معه سراعاً وعبر البحر الأبيض وأقام ما استطاع من الحصون ، ولكن الرومان الذين عجزوا عن قهره في عقر دارهم تغلبوا عليه وقهروه في الأراضي التونسية في واقعة زاما «Zama» في عام ٢٠٢ ق.م. وعُقد صلح شأن لقرطاجنة انسحب على أثره هانيبال إلى مدينة (صور) ومنها إلى آسيا الصغرى ليؤلّب السوريين والمقدونيين على محاربة روما .

وبهذا النصر الذي نالته روما في الحرب الثالثة ضد قرطاجنة أيدت

روما توسع
ممتلكاتها

سلطتها على إيطاليا ، وبسّطت نفوذها على صقلية وسردينيا وقرطاجنة وجزء كبير من إسبانيا ، وأصبحت وحدها صاحبة السيادة على الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، فتحرّكت فيها شهوة الفتح ونزعات الاستعمار وامتدت مطامعها إلى جاراتها ، وأخذت تتحين لها الفرص لغزوها واستعمارها ، وساعدها على تحقيق أغراضها ما كان يتخبط فيه الشرق المطبوع بطابع المدنية الإغريقية إذ ذاك من الفوضى والانتقام بعد وفاة الاسكندر ، فقد تنازعه قواده وقسموه بينهم إلى أقسام ثلاثة هي :
١ - مصر وكانت تحت حكم البطالمة ، وكانت بينها وبين الرومان علاقات ودية منذ القرن الثالث قبل الميلاد . وقد وضعها روما تحت حمايتها تحت اسم التحالف والصداقة . وحملتها على تموينها بالقمح في حرب قرطاجنة .

٢ - مقدونيا وسوريا ، وللموكلهما مطامع سياسية فكان فيليب الخامس في مقدونيا يرمى إلى وضع اليونان تحت وصايته وانطاكيوس الثالث ملك انطاكيا في سوريا يطمح إلى مد سلطانه ونفوذه حتى نهر السند من الهند .

٣ - اليونان وكانت كالريشة في مهب الريح تتنازعها الاضطرابات الداخلية بين الأغنياء والفقراء ، وتكتنفها المنازعات الخارجية بين الممالك الصغيرة المكوّنة لها . وقد تمكنت روما بدهائها من استغلال هذه الحال فتولّب اليونان على مقدونيا ، وتخلق منها أنصاراً لها يؤازرونها ضد المقدونيين .

وعلى أثر انتهاء روما من حرب قرطاجنة أعلنت الحرب على مقدونيا بحجة تواطؤ ملكها فيليب الخامس مع هانيبال على روما وأحرزت بمعاونة بعض ممالك اليونان نصراً سريعاً في واقعة تساليا في عام ١٩٧ ق.م. وعقدت مع فيليب هذا معاهدة باسم التحالف والصداقة جعلته في الواقع تحت حمايتها .

وما كادت روما تنتهي من غزو مقدونيا حتى بدأت بالحرب ضد سوريا بحجة احتواء هانيبال بملكها وإقامته في بلاطه وانتهت في عام ١٩٠ ق.م. بانتصار الرومان الذين طلبوا من ملك سوريا أن يسلمهم عدوه هانيبال الذي كان قد فر وقتئذ وآثر أن يموت منتحراً بالسيف حتى لا يقع في قبضة أعدائه من الرومان .

لقد حاولت مقدونيا الانتقام من عدوها روما ، ولكنها غلبت على أمرها في موقعة (بدنا) في عام ١٦٨ ق.م. فخلا لروما الجوف ، واستبدلت سياستها المعسولة بسياسة مرّة ظاهرة القسوة ، لم تقتصر في تطبيقها على أعدائها بل طبقتها أيضاً على حلفائها وأنصارها ، فتناكرت لليونان الذين ظاهروها في غزو مقدونيا ، ولذا هبت الثورات في اليونان ومقدونيا ، وقامت روما بإخمادها جميعاً ، وأصبحت هذه البلاد ولايات رومانية بحثة ، ثم منحت روما بعض المدن اليونانية نوعاً من الاستقلال الداخلي تحت حمايتها .

وبالرغم من خضوع قرطاجنة لنفوذ الرومان كان هؤلاء ينظرون إليها دائماً بعين الريبة والحذر ، وكان كانتون الفنى حاربها لا يلقى خطاباً

إلا اختتمه بالعبارة المشهورة : « Delenda est Carthago » ومعناها يجب تخريب قرطاجنة ولهذا انتهز الرومان فرصة الخلاف بين قرطاجنة ونوميديا (الجزائر الآن) في عام ١٥٠ ق. م. وأعلنوا عليها الحرب بحجة انتهاكها حرمة معاهدة عام ٢٠١ ق. م. التي لا تسمح لها بمحاربة أحد إلا بموافقة روما فخفضت قرطاجنة بدون حرب ، وسامت عتادها الحربي للقائد الروماني الذي طلب منها إخلاء المدينة لإحراقها ، فثار القرطاجيون لكرامتهم ووطنهم وهبوا للدفاع عنه فدافعوا دفاع المستميتين عامين أرغمهم بعدها الجوع على التسليم والإذعان ، فدخل الرومان المدينة ونهبوها ، ثم أحرقوها وصبوا جام غضبهم على من بقي حيًا من سكانها فباعوهم في أسواق الرقيق ثم حرثوا مكان المدينة بالمحراث ، وبذروا الحبَّ مبالغة في إفنائها ومحوها من الوجود .

وما كاد الرومان ينتهون من قرطاجنة حتى أتموا استيلاءهم على إسبانيا وانهزوا فرصة استنجد مرسيلىا بهم في محاربتهم لسكان الجبال المجاورة حتى خفوا إليهم ، واحتلوا بلاد الغال وأسسوا مدينة إكس « Aix » وقهروا في عام ١٢١ ق. م. ملك (أرفرنس) « Arvernes » الذي كانت له السيادة على أكثر بلاد الغال ، وأخذوه غيلة ، وبعثوا به إلى روما وبهذا تم لهم الاستيلاء على جميع بلاد الغال من مدينة ليون إلى تولوز « طولوشة » وأصبحوا من هذا التاريخ مسيطرين على جميع شواطئ البحر الأبيض المتوسط الذي سموه « Mar Nostram » أي « بحرنا » .

وفي هذا الجزء من تاريخ الرومان عبر وعظات فإذا رجعنا بالذاكرة

إلى ما قبل هذا بخمسة قرون رأينا أن الدول السامية التي كانت زاهية
بمدنيتها قد انقرضت جميعها ، ولم يبق منها إلا بنو إسرائيل ، وكان
طبيعياً أن يشعر الفينيقيون والقرطاجيون وغيرهم بأنهم مرتبطون
بشعب بني إسرائيل الصغير برابطة لغاتهم المتقاربة وخصوصاً فإن التوراة
كان قد تم جمعها ، وفيها الكثير من الأقايص الخلاصة والوعود الطيبة
للأيام القادمة ، . فهي يُنبوع لتحطيم اليأس وشحذ الآمال للنهوض
والنشاط ، غير أن الرومان لم يمهلوا تلك الشعوب ، بل داهموهم بإغاراتهم
المتكررة على مدينة أورشليم فغزوها أول مرة في عام ٦٥ ق. م. ثم
في عام ٧٠ ب. م. وهدموا هيكلها ثم خربوها في عام ١٣٢ م. وأعادوا
بناءها وشيدوا معبداً للاله جوبيتر على أنقاض هيكلها .

هذا وعند ما وصل أكتاف إلى هذا الحد في سرد تاريخ الدولة
الرومانية أردت أن أستوقفه قليلاً لأتعرّف أسباب مجده هذه الدولة التي
وصلت بفتوحاتها إلى منزلة دولة عالمية . وقلت له إن الرومان يسيّد
الأباطرة لم يسيطروا على الشعوب السامية وحدها بل قهروا الشعوب
الآرية الأخرى ، وفي مقدمتها الإغريق الذين حملوا مشعل المدنية قروناً
فتناولته روما منهم ونشرته في أنحاء امبراطوريتها الشاسعة المترامية من
الإطلنطى إلى الفرات ، فهل لنا أن نعزو هذا المجد إلى أن الرومان
نجحوا فيما فشل فيه غيرهم إذ جعلوا دستورهم قائماً على العناصر الثلاثة
في نظام الحكم ، من حيث إنهم جمعوا في دستورهم الملكية
والأرستقراطية والديمقراطية فكانت الملكية تتمثل في شخص

الإمبراطور والأرستقراطية في مجلس الشيوخ (السيناتو) والديمقراطية في المجالس الشعبية وقوة الرأي العام ، وأمكن لروما أن توجد لنفسها صمّامات للأمان ، لم تجعل للثورات الداخلية تأثيراً يدعو إلى الانهيار كما حدث في الدول التي سبقتها ؟ .

فأجابني أكتاف قائلاً : يبدو لي أن نظام الحكم وحده لا يكفي لأن يكون سبباً في هذا المجد لأننا إذا دققنا البحث في تاريخ هذه الدولة نجد أنها بنّت عظمتها وقوتها في فترة من الزمن تبدأ منذ إغارة الغال على روما في عام ٣٩٠ ق . م . وتنتهي في آخر الحرب الأولى ضد قرطاجنة في عام ٢٦٠ ق . م . ففي هذه الفترة من الزمن كان النزاع بين الأشراف وعامة الشعب قد انتهى ، وزال عن روما خطر إغارات الأتروسك والغال وأصبح الرومانيون متساوين تقريباً في الحقوق والواجبات ، وكانت روما وقتئذ تحارب الشعوب المجاورة لا لغرض إبادة أو لمجرد السيطرة عليها ، ولكن للدفاع عن كيانها ، وليتمثلوا بأنظمتها وعوائدها وتقاليدها ، وليصبحوا من عشيرتها لا لتمثل بهم هي . فتصبح منهم ، أسوةً بما كان متبعاً عند الدول والممالك السابقة ، كما حدث للإسكندر عند قدومه إلى مصر حيث توجّج ابناً للإله آمون وكما حدث^(١) للبطالة الذين أصبحوا في مصر فراعنة ، وكما حدث للملك سوريا الذين أصبحت لهم حاشية تشبه حاشية بُخْتَنَصَّر .

(١) جمع بطليموس

فالرومان لم يندمجوا في هذه الفترة في غيرهم من الشعوب ، وإذا كانوا قد تناولوا مدينتي الشعوب الأخرى وخصوصاً الإغريق ، فإنهم مع ذلك ظلوا محتفظين بقوانينهم وعوائدهم التي نشروها بين الشعوب التي خضعت لهم ، ليصبحوا رومانين مثلهم ، وليشعروا بأن البلاد بلادهم ، ولهذا لم يفلح هانيبال في تقريق شملهم ، وانهارت عبقرية القائد القرطاجي أمام النظام الروماني .

فلما توسعت روما في فتوحاتها ، وتوغلت جنوباً في أفريقيا وشرقاً في آسيا واليونان وغرباً في إسبانيا لم تعد نظمها الأولى ملائمة لهذا التطور ، وإذا كان شكل الحكومة قد ظل بعد هذا التوسع جمهورياً إلا أن عامة الشعب كانوا قد فقدوا كل نفوذهم وسلطانهم ، لأنهم كانوا مجتدين يحاربون بعيداً عن بلادهم فلما عادوا وجدوا أراضيهم بُوراً ومساكنهم خراباً ولم يقووا على إصلاحها واستثمارها ومزاحمة كبار القواد وذوي النفوذ ، الذين استخدموا في فلاحه أراضيهم العدد الوافر من الرقيق الذي جلبته هذه الحروب .

وقد ترتب على عجز الزارع الروماني عن فلاحه أرضه وإصلاح مسكنه أن حلّ به البؤس والشقاء ، وأدّى ذلك إلى انعدام الطبقة الوسطى .

وزاد الطين بلة أن القواد الذين عادوا من غزواتهم ممجدين معظمين بالغن ذروة الثروة من الأسلاب التي اغتصبوها من البلاد المغلوبة قد صلفوا وطغوا واستبدوا وعاشوا عيشة البذخ والرفاهية ،

فدب الفساد وانتشرت الرشوة إلى حد أن الجندي كان يشتري بالمال إجازته وأيام راحته ، وكان الناخب يبيع صوته في الانتخاب ، وكانت أموال الدولة ذاتها مبددة منهوبة . ولا أدل على ذلك من أن (سيبيون) «Scipion l'africain» وهو قاهر هانيبال قد اتهم مرتين بتبديد أموال الدولة ، ولما مثل في المرة الأولى أمام مجلس الشيوخ أبى أن ينفي التهمة عن نفسه قائلاً : « تريدون اتباهي بتبديد أربعة ملايين وأنا الذي أضفت بعلى مائتي مليون إلى خزانة الدولة » ثم مرق يديه دفاتر الحساب وانصرف .

ولما تقدم في المرة الثانية أمام قضاته مصحوباً بأصدقائه قال : لقد منحت القوة في مثل هذا اليوم لأقدم لبلادي أعظم خدمة ، وانتصرت على قرطاجنة فيجب عدلاً أن توقف المحاكمات في مثل هذا اليوم ، وإني من أجل هذا سأذهب توا إلى الكايتول لأحيي جوبيتير ولأقدم شكرى للإله » وانصرف والشعب وراءه .

ولم يكن هذا الفساد قاصراً على روما نفسها بل جاوزها إلى الأقاليم ، فكان الحكام وطبقة الأشراف يستبدون بالشعب ويرهقونه ، ثم وجدت بجانب الأشراف طبقة أخرى هي طبقة الفرسان ، تلك الطبقة التي نشأت عقب صدور قانون سنة ٢١٦ ق . م . وقد حرّم هذا القانون الجمع بين وظائف الدولة وبين الأعمال المالية ، وترتب على ذلك أن تنازل كثير من الأغنياء عن وظائفهم ولقبوا بالفرسان فكان منهم التجار والمرابون الذين كانوا يقترضون المال في روما ليقرضوه

بفوائد باهظة ، وكانوا يعملون لحساب ذوى النفوذ من أعضاء الشيوخ
وكبار حكام الدولة^(١) .

ولقد وجدت بجانب هؤلاء طبقة ثالثة عرفت باسم بوبليكان
«Pablicains» وهى أشبه شىء بشركات مالية تقوم بالتوريدات العسكرية
وتحصل على نوع من الالتزام لتحصيل الضرائب ، فترهق الأهلىن ،
ولا ضابط لها فى ذلك .

وكان من نتائج هذا كله ، أن عمت الفوضى ، وانتشرت الفاقة ،
وزاد البؤس والشقاء ، ونشأت طبقة رابعة . هى طبقة المتسولين
المحترفين ، الذين يقفون على أبواب الأشراف ويصحبونهم إلى مكان
الاجتماع فى الفوروم مقابل حصولهم على ما يسمونه «Sportuli» أى
« فضلات المائدة » حتى لا يموتوا جوعاً .

ومع أن الحكام والأشراف كانوا يعلمون الأخطار التى كانوا
يستهدفون لها من غضب عامة الشعب ، إلا أنهم كانوا يعتمدون على
قوة الجنند وعلى الاحتفالات الرياضية التى يقيمونها ليلها بها الشعب
(وهى مسابقات بين العربات ومصارعات بين الإنسان والحيوان) .
وكانوا فوق هذا وذاك ينغمسون فى شهواتهم ولذائذهم وراء أسوار
قصورهم ، حتى إن مجلس السيناتو قد اضطر فى عام ١٨٦ ق . م . إلى إلغاء

(١) ولقد حدث أن أحد المراءىن المدعو سكاىوس «Scapius» كان يعمل لحساب الشيخ
«Brutus» وهو صديق الخطيب الكبىر «Cicéron» فأفرض جزيرة فىرس مالا بفائدة ٤٨ ٪ .
فلما غزت الجزيرة عن الوفاء بدينها استصدر الدائن أمراً بحصار أعضاء مجلس هذه الجزيرة
ونوجهت فصيلة من الحىالة لتنفيذ أمر الحصار الذى استمر حتى مات خمسة من أعضاء هذا
المجلس جوعاً .

العيد المعروف عندهم بعيد إله النبيذ الإغريق باكوس «Bacchus» ،
بسبب ما حدث فيه من جرائم الفجور والفسق ، وغير هذا مما يدل
على تفكك الأخلاق وانحطاطها ، وقد حمل هذا الشاعر اللاتيني
«Juvenal» على أن يقول يوماً : « لقد انتقم منا العالم الذي قهرناه بأن
أعطانا عيوبه وتقائصه » .

ويظهر مما تقدم أن الفتوحات العظيمة التي قام بها الرومان كانت
ذات حدين ، فبقدر ما درّت إليهم من خير وعظمة قد جلبت عليهم
عوامل الشر والانحطاط ، ولم تكن الثروات العظيمة التي حصلوا عليها
من البلاد المغلوبة إلا عوامل لتفكك أخلاق الأشراف ، وانتشار
الفساد واستغلال نفوذ الحكام . ثم إن هذه الحروب قد كانت سبباً
في انقراض الطبقة الوسطى وانتشار الرقيق ، والاستهتار بالقوانين ،
مما أدى إلى فساد النظم الرومانية في سياسة الحكم . فضاع بذلك جوهر
النظام ولم يبق منه غير مظهره .

وليس من شك في أن الاضطرابات والثورات هي وسائل
الشعوب إذا لم تجد وسائل أخرى لرفع ظلامتها ، ولهذا ترى تاريخ
الرومان منذ القرن الثاني إلى القرن الأول قبل الميلاد مملوءاً بالاضطرابات
الداخلية وتنازع القواد العسكريين للحصول على السلطة بغية الإصلاح .
وقد بدأ بالجهاد لهذا الإصلاح حفيدا سيبيون الأفريقي — «Scipion»

«l'africain» — وهما (كاوس) و(تبريوس) «Cajus et Teberius» اللذين
حاولا تحديد مقدار الثروة الفردية ، بقصد إعادة الطبقة الوسطى إلى

الوجود ، غير أن عناد الأغنياء ، وجود الشعب جملاً من هذين الأخوين
كبش فداء ، فقتلاً غدرًا ونال قاتلوهما كل ثناء .

ثم جاء بعد ذلك تنازع القواد للحصول على السلطة وهو ما نسميه :
« عهد الثورات الداخلية » .

عهد ثورة
الداخلية

فلقد بدأت هذه الثورات بالنزاع الذي قام بين قائدين هما (سيللا)
و (ماريوس) « Sylla et Marius » وكان سيللا على رأس الحملة العسكرية
التأديبية التي وجهت إلى شواطئ البحر الأبيض لإخماد ثورة (ميرياد)
Mitriade ، وكان ماريوس على رأس الحملة التي وجهت إلى شمال إفريقيا
لقمع ثورة (يوغرثا) « Jugurtha » . وكان كلا هذين القائدين طامعاً
في الحكم بحجة أنه ينشد الإصلاح ، فأقاما المذابح المروعة التي طغت
على كل فكرة للإصلاح . وقد كان (سيللا) من الأشراف يعمل
لإعادة نفوذ السيناتو وكان ماريوس محبوباً من عامة الشعب يعمل لهدم
سلطة الأشراف ، فاتّهب ماريوس غيبة سيللا وعاد إلى روما وأطلق
جنده على الأشراف فذبّحهم حتى إن (انكاريوس) « Ancharius » وهو
أحد أعضاء مجلس الشيوخ من الأشراف قد قُتل شرقتة لأن ماريوس
أبى أن يرد عليه التحية التي وجهها إليه . فكان ذلك إشارة منه بقتله .
وبعد أن دامت هذه المذبحة بضعة أيام عيّن ماريوس هذا قنصلاً للمرة
السابعة ، وأعلن أن سيللا « عدو عام » ولما مات في عام ٨٦ عاد سيللا إلى
روما قائلاً : « إنه قادم لتصفية حساب قديم » وبدأ ديكتاتوريته بمذابح
دامت بضعة أسابيع لا بضعة أيام ودوّنت القوائم بأسماء من لا يحميمهم

القانون، وأُحِلَّتْ دملؤهم، ولم تكن الكراهية الحزبية وحدها سبباً في
الانتقام بل كانت الثروة من أسبابه؛ حتى إن الثرى (كتتوس
أورليوس) Quintus Ouralius، قد ساقه القدر إلى الفوروم ليقرأ أسماء
المحكوم عليهم فوجد اسمه بينهم ولم يكن رجلاً حزيناً فصاح قائلاً :
« إن ثروتى تريق دمي » .

ثم قام بعد سيللا وماريوس نزاع جديد بين قواد آخرين هم (بجي)
(جراسوس) و(قيصر) وبجي هذا هو القائد الذى قضى على الثورة
فى إسبانيا، أما جراسوس فقد كان أحد ضباط سيللا وكلفه السيناتو
بقمع ثورة داخلية كان يقودها (سبرتا كوس) Spartacus، فقمعها
جراسوس بقسوة مريعة وشنق ستة آلاف من الثوار على طول الطريق
بين كابو وروما، ومن بقى من الثوار قضى عليه بجي عند عودته من
إسبانيا. ثم اتفق هذان القائدان على حكم الرومانيين، وفى هذا الوقت
اشتدت الثورات الداخلية بزعامة (كاتيليني) Catilinie، فحمل عليه
(سيشرون) وهو أكبر خطباء عصره حتى اضطره إلى الفرار من روما
ثم أسس سيشرون حزباً جمهورياً المناوئاً للقواد الديكتاتوريين، ولكنه
لم يفلح، وشكلت أول تريونفيرا (أى حكم الثلاثة) فى عام ٦٠ ق. م.
بين كل من بجي وجراسوس وقيصر وكان هذا الأخير أكثر ذكاء
وطمعاً من زميليه^(١) فبدأ عمله بالحصول على انتصارات عظيمة يستطيع

(١) ويقال إنه نجا من القتل صيلاً أثناء مذبحه «سيللا» بشفاعته أحد الجنود الصغار سنة كما
يقال إنه بكى عند قراءة تاريخ الاسكندر قائلاً : « لم أفعل شيئاً وقد بلغت سن الاسكندر
عند ما غزا العالم » .

أن يبنى عليها تنفيذ مطامعه ، ففتح بلاد الغال جميعها (فرنسا اليوم) ثم عبر بحر المانش وغزا الجزر البريطانية ، وفي هذه الأثناء مات جراسوس أحد زميليه في الحكم ، وقامت اضطرابات داخلية فقمعها بتي ، وحصل من السيناتو على سلطة واسعة أراد استخدامها للتخلص من منازعه (قيصر) الغائب عن روما ، وقد انقطع آخر رباط بينها ب وفاة جوليا « Julie » وهي زوجة بتي وأخت قيصر ، فأدرك قيصر خطورة الموقف وأسرع بالعودة إلى روما قبل أن يمكن خصمه من الاستعداد واضطر بتي إلى الفرار إلى اليونان فبعه قيصر وقهره في واقعة فرسال « Pharsale » بتساليا ، ثم لجأ بتي إلى مصر وقتل فيها غدرًا ، وبقي قيصر في مصر نحو سنة أقام فيها الملكة كليوبترا على عرش مصر بدلًا من أخيها بطليموس ثم قمع في آسيا الصغرى ثورة أقامها (فرناز) بن (متردات) « Pharnase fils de Mitridate » وبعث إلى روما بكلمته المشهورة « Vini Vidi Vici » ومعناها (جئت ورأيت وانتصرت) . ثم قمع ثورتين أخريين أشعل نيران إحداها أنصار بتي في شمال إفريقيا فقهرهم في واقعة (تابسوس) « Thapsus » والأخرى اندلعت في إسبانيا وانتصر فيها في واقعة (موندا) « Munda » .

قيصر في طريق المجد

ولقد كان الرومان يمنحون قيصر سلطة جديدة بعد كل نصر يناله ، فعين قنصلاً بعد عودته من إسبانيا ، وعُين ديكتاتوراً لسنة واحدة بعد واقعة فرسال وديكتاتوراً لعشر سنوات بعد واقعة تابسوس ثم ديكتاتوراً على مدى الحياة بعد واقعة موندا .

ولم يبدأ قيصر حكمه بالقسوة كما فعل سيلا قائلاً : « لا أريد أن
أخذو حذو سيلا وليكن عهدي مقروناً بالرحمة والكرامة . فأقام العدل
في المقاطعات وألغى نظام الالتزام في تحصيل الضرائب ، ومحا الفروق
في الحقوق الوطنية بين الرومان والأجانب ، وجعل من الغال والأسبان
أعضاء في السيناتو ولم يخل على خصومه الأقدمين مثل «Brutus»
بوظائف الدولة غير أنه ضرب بسلطانه وسلطته على نفوذ السيناتو
فتضاءلت بجانبه سلطة الجمهورية التي لم يبق لها غير اسمها ، وقد عز ذلك
على أنصارها وظنوا أن قتله يعيدها إلى شامخ مجدها ، فتآمروا عليه
بزعامة (كاسيوس) و (بروتوس) «Cassius et Brutus» واغتالوه في قلب
السيناتو في عام ٤٤ ق . م .

وما أن ذاع خبر هذا الاغتيال حتى قامت الاضطرابات فانهز
(مارك انطوان) «Marc Antoine» أحد ضباط قيصر فرصة هذا
الاضطراب الذي كان فيه قتلة قيصر وأنصارهم يفرون من روما خشية
انتقام الشعب منهم ، فوضع يده على الجيش وخزانة الدولة (ثم استأنف
أكتاف قائلاً :) وفي هذا الوقت تركت معهد أثينا الذي كنت أتلقى
فيه علومى ، وذهبت إلى روما كما قلت في مطلع حديثى وكنت أول
مستحق للعرش غير أننى قبلت أن أشارك في الحكم مع أنطوان وليد
«Lepide» وهو حاكم إسبانيا وأقمنا نظام الحكم الثلاثى الثانى في عام
٤٣ ق . م . «II Truinvirat» وهنا أطرق أكتاف رأسه إلى الأرض
طويلاً فنظر إليه أبو الهول وقال :

« لا ترعُ يا أكتاف وقل بأنكم بدأتُم عهدكم كذلك بالدماء
فدوتم قوائم المحكوم عليهم بالإعدام وقتلتم نحو الخمسين ومائة من
شيوخ السيناتو ونحو الألفين من الفرسان وكان بين ضحاياكم سيثرون
لمجرد خصومته لزميلكم أنطوان » .

فلم يجب أكتاف بشيء واستمر في حديثه يقول بأنهم : بعد
أن حاربوا قاتلي قيصر (بروتوس وكاسيوس) وانتصروا عليهما في اليونان
عادوا فاقسموا الملك بينهم في عام ٤٠ ق . م . فاختص أنطوان باليونان
ومصر وآسيا الصغرى واختص لبيد بأفريقيا أما هو فكان نصيبه إيطاليا
وفرنسا وإسبانيا ثم دعمنا هذا الاتفاق بأن زوجت أختي من أنطوان
وحكمت البلاد التي وقعت في نصيبي بالعدل والحكمة واضطرت إلى
محاربة سكستوس بُمبي « Sextus pompée » وهو ابن بُمبي وكان قد جهز
أسطولاً استولى به على جزيرتي صقلية وكورسيكا وأقام حرب القرصنة
وكان يهدد إيطاليا خطرُ قطع مواصلاتها البحرية ، وبعد أن انتصرت عليه
نهائياً في عام ٣٦ ق . م . قرب مسينا حصلت على تنازل لبيد لمصلحتي .
وإني أقمت المعابد ، وعنيت بأمر الزراعة والصناعة والتجارة ،
وشق الطرق وإيجاد جيش دائم للمحافظة على الدولة .

أما صهرى أنطوان فقد فشل في حربه ضد البارث « Parthes » وهي
القبائل التي نزحت من الشمال واستوطنت ما بين النهرين ، وكان فشله
هذا في عام ٣٦ ق . م . أي في الوقت الذي كنت فيه منتهراً على
قرصان سكستوس .

وفي الوقت الذي كنت فيه أرفع عرش روما إلى العلا ، كان أنطوان يجعل من عرش كليوبتره فراش غرام ، ويطلب من السيناتو في عام ٣٢ ق . م . أن يعتمد تنازله عن نصيبه في سوريا وأرمينيا الأولاد محبوبته ملكة مصر ، فذاع وقتئذ بين الرومان أن كليوبتره ستتحكم فيهم وستهدم الكايتول وستنقل مقر الحكم الروماني إلى الاسكندرية . ولقد عزوا إلى أنني أنا الذي أذعت كل هذا لأهيج الرأي العام على صهري ليخلو لي الجو وحدي ، ولكن تصرفات أنطوان تكفي وحدها لإثارة الشعب عليه ، ومن أجل هذا منحني السيناتو سلطة مطلقة فلم أعلن الحرب على أنطوان ولكني أعلنتها على كليوبتره فاندحرت أساطيلها في عام ٣١ ق . م . في واقعة اكسيوم البحرية على شاطئ اليونان الغربي ، ثم جئت إلى مصر وانتصرت جيوشي في الاسكندرية ثم انتحر أنطوان وحاولت كليوبتره أن تستميلني كما فعلت مع قيصر وأنطوان ولما لم تفجح انتحرت هي كذلك ثم عدت إلى روما وقد انتهت كل الحروب الداخلية .

وهنا أردت أن أوجه إلى أكتاف أسئلة كانت تجول بخاطري ، وشجعتني على هذا صراحة أبي الهول حين تكلم عن المذابح التي حدثت في مبدأ حكم أكتاف وزميله ، فقلت له : نعم : يقولون إن حكمك ياسيد الأباطرة خير حكم في الدولة الرومانية غير أن قهوزك الكبير وسلطانك العظيم قد اقلبا إلى درجة التآله فلم تحجم عن أن تكون معبوداً للشعب الروماني الذي أخذ يقدم لك الضحايا باسم معبودك الشخصي ، كما أخذت

المقاطعات الأسبوعية تضمك إلى المعبودة « روما » وتحتفل بكما سواء بسواء في الأعياد الدينية ، فأجاني أكتاف على الفور نعم ياسيدى هذا خيال الشعوب في أبطال الإنسانية ، ألم يكن قيصر إلهاً قبي؟ ألم يكن له تمثال في معبد (كيرينوس) « Quirinus » ؟ ألم تكن واجهة منزله على شكل المعابد ؟ ثم ألم يتوج الاسكندر في مصر ابناً لآمون إله المصريين؟ ثم ألم يرفع الإغريق أبطالاً من البشر إلى منزلة الآلهة ، ثم ألم يكن الفراعنة آلهة وأبناء آلهة ؟ . على أننى وقد رفعت شأن الدولة ، وقضيت على الحروب الداخلية فيها ، واحتفى بى الشعب احتفاء منقطع النظير عند عودتى إلى روما ظافراً منتصراً على جميع أعدائها ؛ فإننى مع ذلك عرضت تنازلى . غير أن السيناتو لم يقبل منى هذا التنازل ، ومنحنى فى حياتى لقب (الجليل) « Auguste » ثم رفعتى بعد وفاتى فى عام ١٤ بعد الميلاد إلى منزلة الآلهة كما مجدتى شعراء عصرى مثل (هوراس) و (فرجيل) « Horace et Virgile » قلت له لا ينكر أحد عليك ياسيد الأباطرة ما قدمته من خير لدولتك غير أنك زهوت بعملك ، فجنحت نفسك إلى الاستبداد والسيطرة . وإذا كنت قد استبقيت شكل الحكم الجمهورى فإنك قد أقمت فى الواقع الملكية المطلقة مكانه ، وإن كانت مقنعة . وإذا كان سيبون الأفريقى قد استهتر^(١) بالجمهورية وقوانينها كما حدثتنا عنه ، وأبى أن يدافع عن نفسه حين اتهم بتبديد أموال الدولة معتمداً على جنده وأنصاره ، فإن ماريوس وسيلابى وجراسوس وقيصر وأنطونوانت

الملكية المقنعة

(١) من الأفعال اللازمة للبناء للنجهول دائماً .

نفسك لم تفعلوا غير هذا ، وغاية ما في الأمر أنكم كنتم أحياناً تتفقون
فتنشئوا الحكم الثلاثي بينكم ثم تختلفون فتقيموا الدكتاتورية أو الملكية
المقنعة أو أية صورة أخرى من صور الحكم المطلق . ولا ريب في أن
تاريخ روما من عام ١٢٠ إلى عام ٣٠ ق . م . لم يكن في الواقع مجرد نزاع
بين الجمهورية والديكتاتورية ولكنه كان نزاعاً بين القواد العسكريين
الطامعين في الحكم والسيطرة على الشعب .

فقال اكتاف : ولكن لا تنس يا سيدى أن الشعب كان منهوك
القوى يقتله الفقر وتفتك به الأمراض ، وأن روما أصبحت في الواقع
طوال هذا العهد مسكونة بالعييد الأرقاء الذين جلبتهم الفتوحات
العظيمة ، وما كان هؤلاء العييد يفكرون في غير غذاء يومهم ، وبهذا
فقد الشعب كل حيويته ، أضف إلى هذا أن جمعية الشعب التي كانت
منذ نشأة الجمهورية تراقب أعمال مجلس السيناتو فقدت كل نفوذها .
لأن البلاد كانت قد تطورت ، فروما التي كان عدد سكانها محدوداً ،
والتي كان أبنائها يجتمعون على صوت الأبواق التي كان ينفخ فيها من
أعلا الكايتول إيذاناً باجتماع هذه الجمعية ، روما هذه أصبحت بعد
اتساع أملاكها واسعة الأرجاء ، وتضاعف عدد سكانها ، وأصبح
صوت الأبواق غير مسموع ، وغير مجدٍ للإيدان بالاجتماع ، ولم تخطر
وقتيئذ للرومان فكرة التمثيل النيابي ذلك التمثيل الذي لم تعرفوه في
عصركم الحاضر إلا بعد مضي ثمانية عشر قرناً .

فإذا كنا قد اضطررنا إلى تغيير نظام الحكم وجعلناه حكماً مطلقاً

مع المحافظة على مظاهر الجمهورية ، ورقابة الشعب ، فما كان ذلك إلا تبعاً للتطور الذى حدث فى روما وقتئذ على أن هذا التغيير فى ذاته يدل على قدرة الرومان فى تكيف نظمهم الداخلية بما فيهم من مرونة ، وكذلك كانت سياستنا مع الشعوب التى خضعت لحكمنا ، فقد ابتكرنا الروابط التى تربطنا بها تبعاً لمقتضيات الظروف والأحوال ، فمنهم من كانوا فى درجة الملكات ، ومنهم من كانت بيننا وبينهم اتفاقات هى فى الواقع من أنواع الحماية فى صورة التحالف والصدقة ، ومن هذا نشأت منذ عهدنا قواعد القانون الدولى التى تنظم العلاقات السياسية بيننا وبين الشعوب الأخرى .

قلت له : يجوز أن تكون مرونة الرومان سواءً فى نظام الحكم أو فى علاقاتهم بالشعوب الأخرى قد أطالت عُمر الدولة الرومانية التى كادت أن تكون دولة عالمية وعاشت نحو العشرة قرون غير أن مآسى هذه الدولة كانت فظيعة ، وسقوطها كان أفظع ، فقد زالت بزوالها كل المدن القديمة ووقفت الإنسانية بعد سقوطها فترة من الزمن كادت ترجع فيها إلى حالتها الأولى من الهمجية .

فقال أكتاف : إن هذا صحيح ولكن مآسى الدولة وفظائعها لم تأت بسبب تغيير النظام حيث أن صلاح الحكم أو فسادها إنما يرجع على الأرجح إلى قدرة الحاكمين أو صلاحهم أو فسادهم . فقد حكم الدولة الرومانية من بعدى ثلاث أسرمدى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد . حكمت الأسرة الأولى من عام ١٤ بعد الميلاد إلى عام ٦٨ وكان

الأسر التى
حكمت بعد
أكتاف

ملوكها (تيبير) و(كاليجولا) و(كلود) و(نيرون) — Tibère, Caligula.

— Claude et Néron

وحكمت الأسرة الثانية من عام ٦٩ إلى عام ٩٦ وكان ملوكها

(فربازيان) و(تيتوس) و(دومسيان) «Vespasien, Titus et Domitien»

وحكمت الأسرة الثالثة من عام ٩٦ إلى عام ١٩٢ وكان ملوكها

(تراجان) و(هدريان) و(أنطوان) و(مارك أوريل) و(كمود)

«Trajan, Hadrian, Antoine, Marc Aurel et Commode

وكان أكثر هؤلاء الملوك ظالمين مستبدين ومكروهين ، حتى أن

الشعب عند موت تيبير قد صاح في الشوارع قائلاً : «Tiberius ad

Teberime ومعناها : « ألقوا تيبير في التبير^(١) » .

وكان كاليجولا مبدراً إلى حد الجنون وهو الذي شيد مرططاً من

المرمر لجواده ، وجعل لهذا الجواد حاشية وأراد منح هذا الجواد

لقب قنصل .

أما كلود فإنه لم يرق إلى العرش إلا بعد أن دفع ثمناً له

ملاً طائلاً .

ولم يتورع نيرون عن قتل والدته أجريبين «Agrippine» التي رفعت

إلى العرش بقوة مكرها ودهائها . وقد ألقى على المسيحيين تهمة إحراق

روما فعذبوا من أجل هذه التهمة عذاباً أليماً . ولم تقف هذه الفضائح

إلا عند ما تقدم جيش الشرق ورشح للملك قائده فربازيان ثم أيده في

(١) نهر التبير .

هذا الترشيح جيش الدانوب فكان هذا الامبراطور خيراً مصلحاً أقام العدل وأعاد الطمأنينة إلى النفوس وشيد العمارات ونشر التعليم وكان يهزأ من جعل الأباطرة آلهة بعد موتهم ، وكانت آخر كلماته وهو على فراش الموت في عام ٧٩ هـ : « إنني أشعر بأني سأكون إلها » إشارة إلى قرب مَنِيَّتِهِ . أما ابنه (تيتوس) « Titus » فهو الذي فتح أورشليم عَنوة . وأما حفيده (دومسيان) « Domitien » فكان مستبدّاً متكبراً ، كثرت في عهده قضايا المؤامرات ضد العرش وقتل في عام ٩٦ وقد أعلن السيناتو اعتبار ذكره بغيضة ومحا اسمه من جميع الآثار العامة . ثم إننا نرى بجانب هؤلاء الملوك أسرة (انطونين) الذين كان حكمهم عصرآ ذهبياً . فقد وصلت روما في عهدهم إلى أوج عزها وسعادتها . وكان ملوك هذه الأسرة عادلين مصلحين حتى أن تراجان عند ما ناول السيف لأحد الحكام وهو يقلده منصبه قال له : « ليكن هذا السيف لي إذا أنا أحسنتُ وعلى إذا ما أسأت » .

ومن العجيب أنه لم يكن بين هؤلاء الملوك من هو ابن لسلفه بل كانوا جميعاً مُتَبَنِّينَ لهم عدا (كومود) وقد كان هديران مؤلماً بالمدينة الاغريقية ، وهو الذي شيد سوراً بلغ طوله مائة كيلومتر لحماية حدود الدولة من إغارة القبائل المتبربرة . ولم يتزعزع في عهده السلم إلا عند قيام ثورة اليهود في فلسطين ، وقد قمعها في عام ١٣٥ ميلادية وحرّم اليهود سُكْنَى أورشليم ففقدوا بذلك قوميتهم كشعب ، وظلوا مُسْتَتِينَ في أنحاء الامبراطورية . وهو الذي عُني بطبقة الفرسان ، ونقل إليهم

كل سلطة السيناتو ، وشكل من هؤلاء الفرسان إدارات متعددة
يجتمع رؤساؤها تحت اسم مجلس الملك لتدير شؤون الدولة ، وقد ضم
إليهم كثيراً من رجال القانون مثل (سلفيان) «Salavian» وهو الذي
استبدل بالأوامر العديدة مرسوماً واحداً ، ثم تخلى بحض إرادته عن
الحكم لمتبناه (انطونين) الذي لقب بالورع لتقواه ، وهو الذي عُني
بالعدالة ووضع المبدأ القائل بأن المتهم بريء حتى تقوم الأدلة على إدانته ،
وهو الذي منع تعذيب الرقيق بغير مسوغ .

وكذلك كان (مارك أوريل) ملكاً خيراً أقام المنشآت الخيرية
كملاجئ اليتامى والفقيرات ، ومن سخرية القدر أن يقضى هذا
الفيلسوف المحب للخير والسلم حياته في الحرب والقتال محافظة على
حدود مملكته . وقد وضع كتابه المشهور وهو في معسكره تجاه
القبائل المتبربرة .

أما ابنه كومود فقد كان غيباً قاسياً مدلاً بقوة عضلاته لا يأنف
النزول في الميدان لمصارعة الوحوش .

ومن هنا نرى أن الدولة الرومانية قد حُكمت مدى قرنين من
الزمان بملوك كان بعضهم من الأخيار العادلين ، وبعضهم من المستبدين
الظالمين ، غير أن كل هؤلاء الملوك يعتمدون في ارتقاءهم العرش على
قوة الجند ، فبعد أن كان القوادهم الذين يصرفون جنودهم كما يشاءون ،
أصبح هؤلاء الجنود هم الذين يؤثرون الملوك ويسندون عروشهم ،
ويقولونهم إذا شاموا .

هذا ولئن كانت الأسرة الأولى وهي الأسرة المتبنّاة لى مستبدة
وحاكمة بأمرها . فإن الشعب قد ارتضاها ، لأن حكمها كان على كل
حال أهونَ عليهم من العهد السابق ، الذى سادت فيه الاضطرابات
والثورات . وعلى كل فإن أمد هذا العهد لم يطل أكثر من نصف قرن
وأربع سنين ثم أعقبه حكم الأسرتين الأخريّين ، وقد دام نحو قرن
ونصف قرن ، وكان فى مجموعهِ عصر أمن وسلام وتقدم وارتقاء . وعلى
الرغم من أن أباطرة هاتين الأسرتين لم يكونوا من عنصر روماني لأن
بعضهم كان من الغال وبعضهم من أصل اسباني ، فإنهم قد أداروا حكم
الدولة بنزاهة وعدالة ، ووجهوا عنايتهم إلى إصلاح المقاطعات فعبدوا
الطرق العديدة وشذبوا الغابات الكثيفة ، وردموا المستنقعات ، وأقاموا
الجسور ، ونشروا اللغة والعادات اللاتينية فى أنحاء الإمبراطورية .
وأصبحت روما فى عهدهم مدينة المدائن بحماماتها البديعة ، ومسارحها
العديدة . وملاعبها الفسيحة . تجرى فى جنباتها العربات ، وتقام فى
أنحاءها المصارعات . ولقد أُنجبت روما فى هذا العهد أبطالاً من الفلاسفة
والكتاب أمثال الفيلسوف (سينيك) «Séneque» والمؤرخ (تاسيت)
«Tacite» والكاتب (بلين) «Pline» . وارتقت الزراعة والصناعة
والتجارة . وعمّ الأمن فى الأقاليم واستخرجت المعادن من بطون
الأرض . فلا ريب أن هذا العهد هو عهد ارتقاء ومجد وهو جدير بأن
يُدعى عصر السّلم الروماني .

يُبدّ أن الدولة الرومانية على رغم هذا العصر الذهبي كانت مهددة

بخطرين عظيمين هما فرضى العسكرية الداخلية ، وإغارة القبائل للتبريرة ، ثم لقد بلغ أمر التدخل العسكرى منتهاه بعد موت (كمود) فأصبح عرش الدولة يباع فى الشككات يَبَعُ السِّلَع . فيتولاه من يدفع فيه أعلا ثمن .

فلما تولى الحكم (سبتيم سيفير) «Septime Sévère» من سنة ١٩٣ إلى سنة ٢١١ نصح أولاده وهو على فراش الموت بالآل يعبأوا بشيء إلا بذل المال للجنود . وقد كتب ابنه (كارا كالا) «Caracalla» إلى السيناتو يقول : «عندى سلاحى وجندى فلا أعبا بما تفعلون» . وأصبح التاج الرومانى تتقاذفه أيدي الجنود زهاء نصف قرن من سنة ٢٣٥ إلى سنة ٢٨٥

وفى هذا الوقت ذاته كانت حدود الدولة الرومانية مهددة بالإغارات واستقلت بعض المقاطعات لتدافع عن حدودها .

ولقد سعى (ديوقلوسيان) «Dioclétien» الذى حكم من سنة ٢٨٤ إلى سنة ٣٠٥ وقسطنطين الذى حكم من سنة ٣٠٦ إلى سنة ٣٣٧ لإيقاف تدهور الدولة الرومانية ولكنهما لم يفلحا حتى أن قسطنطين استعان بالمسيحية فى حربه ضد أعدائه فنحهم حربة إقامة شعائرهم الدينية ، برسم ميلانوس سنة ٣١٣ قائلا : إنه رأى شارة الصليب فى السماء مقرونة بهذا النداء «In hoc signo vinces» ومعناها . إن النصر معقود بهذه العلامة . ذلك لأن قسطنطين رأى أن الشعب المنهوك القوى ، ومعه الرقيق كانوا جميعا يستمعون وقتلوا إلى وعظ القديس بولس ، ويُغذى الجمهور روحه

بتعاليم المسيحية بعد أن عزّ عليه أن يغذى جسمه بفضلات موائد
الأشراف . غير أن المسيحية لم تلبث بعد أن أصبحت وحدها الدين
الرسمي في الدولة ، أن انقلب المسيحيون آلات تعذيب لا للوثنيين
فحسب بل لإخوانهم المسيحيين الذين اعتنقوا مذهب أريوس «Arius»
وأصبحت الدولة الرومانية ميداناً للتقسيمات الدينية والسياسية
والعسكرية ، وفي هذا الوقت كانت الحدود الرومانية مهددة بإغارات
القبائل المتاخمة تهديداً خطيراً لجأت إزاءه الدولة الرومانية إلى استخدام
بعض هذه القبائل المتبربرة لحمايتها ، فأقطعت بعضها الأراضي على
الحدود وكلفتها بالدفاع عنها ، غير أن عبث جُباة الضرائب من الرومان
في الأراضي المحتلة بهذه القبائل دعا إلى الشكوى منهم في روما والهجوم
على روما إذا لم تسمع شكواها وأصبح بذلك مقر العرش الروماني مهدداً
ولذا رأى قسطنطين أن يؤسس مدينة القسطنطينية في عام ٣٣٠ في
مكان بيزنطة التي شيدها الإغريق قبل ذلك بألف سنة .

اتقسام الدولة
الرومانية

فكان هذا نذيراً بانقسام الدولة الرومانية . وقد بدأ هذا التقسيم
في الواقع في عهد (تيودوز) «Theodose» أحد أباطرة الدولة الرومانية
حيث أنه قد أعطى ابنه (هونوريوس) «Honorius» الدولة الغربية
وعاصمتها روما وأعطى ابنه (أركاديوس) «Arcadius» الدولة الشرقية
وعاصمتها القسطنطينية .

هذا ولم يأت القرن الرابع بعد الميلاد حتى حدثت أكبر إغارة من
قبائل الهون «Huns» على نهر الدانوب فاندفعت قبائل الجوت «Goths»

هاربة أمامها إلى مهاجمة الحدود الرومانية ، وغزا (الاريك) «Alaric»
مدينة روما ذاتها . ثم توالى الإغارات فجاءت قبائل (الوندال) و(البرغند)
و(الألمانيات) و (الفرنجة) «Les Vandales, les Bourgondes, Alamans et Francs»
وأصبحت روما تحت رحمة الطامعين فيها .

خسوف الدولة
الرومانية
الغربية

فانتقل مقر العرش إلى فرُضة (رافين) «Ravennes» الحصينة في
عام ٤٠٢ م وهناك تمكن في نهاية الأمر (أدواكر) «Odoacre» رئيس
جند المرتزقة من الجرمانيين من أن يعزل بغير عناء (رومولوس
اجستول) وهو آخر أباطرة الرومان في الدولة الغربية ، ثم أعلن نفسه
حاكما لروما في عام ٤٧٥ م ، فكان من سخرية القدر أن يحمل (رومولوس)
تاج مؤسس روما ، ليكون آخر ملوكها .



الحديث الرابع

يسوع المسيح والنصرانية

لقد عرّضت في نهاية أحد أسابيع فصل الصيف أن أذهب إلى الإسكندرية ترويحاً عن النفس ، وشاهدت عن قرب في أحد شوارع هذه المدينة العظيمة التي شيّدها ذلك العاهل الكبير (اسكندر الأكبر) خصّافاً (إسكافي) يعمل بجِدٍّ ونشاط والعرق يتفّسّدُ به جبينه وهو لاه في عمله دونه ، فأعاد هذا المنظر إلى ذاكرتي تلك القصة الدينية الطريفة عن دخول المسيحية حوالى سنة ٥٩ ميلادية في أرض الفراعنة تلك القصة التي تحدّثنا بأن مرقس الرسول عند عودته من أورشليم إلى موطنه الأصلي في منطقة الخمس مدن الغربية في صحراء برقه مجتازاً أرض مصر ، قد قابل في الإسكندرية خصّافاً يدعى أنافيوس واتفق أن اخترق مخصّفه إصبَعَهُ وهو يؤدّي عمله فأبرأها مرقس وكان من جرّاء هذا اعتناق الخصّاف المسيحية . وصار فيما بعد أول بطّاركة الكرسيّ السكندريّ ، وكان الدين الرسمي قبل ذلك هو الوثنية . وكانت الآلهة التي يعبدونها المصريون خليطاً من آلهة قدماء المصريين وآلهة الإغريق ، لأن البطالمة وهم من أصل مقدوني قد تقلّوا معهم كثيراً من عباداتهم وآلهتهم الوثنية وإني إذا ما تحدّثت هنا عن يسوع المسيح أو عيسى عليه السلام

فإني أتحدث عنه من ناحية التاريخ ضارباً صفحاً عن ناحية اللاهوت .
ذلك لأنه لا يصح للمؤرخ إذا ما أراد أن يسردَ حوادث التاريخ كما وقعت
أو كما رُوِيَتْ على الوجه الأقرب إلى الحقيقة إلا أن يجرّد نفسه (ولو
مؤقتاً) من العقائد فلا يخلط بين الدين والدنيا .

ولقد رأى بعض المؤرخين أن يسوع المنقذ للإنسانية أو المخلص
لها الوارد ذكره في التوراة وُجِدَ في الاسكندرية كواعظ ووُجِدَ قبل
ذلك في أورشليم كقائد عسكري حارب Vapasiér وقام بمعجزة إشباع
جيشه العرمم بالتمرّ القليل من الطعام كما أنّه وُجِدَ وقت حصار
أورشليم وهو ينادى : « ويل للمدينة ، ويل للمعبد » .

وقد استخلص هؤلاء المؤرخون من كل هذا أن يسوع المسيح
لم يوجد فعلاً وأن الذي وجد لا يخرج عن كونه صورة من مجموع
ما ينسجه خيال الشعوب من الأقاصيص القديمة السالف ذكرها .

غير أن الأناجيل الأربعة وكذلك القرآن الكريم وهى المصادر
الأولى فى هذا البحث تشعرنا بصحة وجوده وتعطينا صورة واضحة من
حياته وأعماله تزيل كل شك وتؤيد أنه وُجِدَ ووعظ فعلاً كسائر رسل
أنبياء بنى إسرائيل .

لهذا رأيت أن أعود إلى القاهرة لزيارة أبى الهول مستلهماً إياه
فيما أشكل علىّ وما كنت آخذ مكانى قريباً منه حتى خيل إلى أنه
يقول : لست اليوم بمحدثك عن شيء ولا أنت بمحدثى حتى تقرأ هذا
ففيه حديث اليوم والأمس وكأنه ناولنى كتاباً تبينته فإذا به صحائف

في التاريخ الإنساني ، ووجدت فيه أنه في عهد أوجست «Auguste» معبود
الرومان وأكبر أباطرتهم وفي الوقت الذي كان فيه عامة الشعب الروماني
بأئسين تعساء يتقاسمون غذاء المواشي ويسكنون حظائرهما ، ولد عيسى
عليه السلام . وفي عهد الإمبراطور «Thibere» وفي الوقت الذي كانت
فيه الشعوب التابعة لروما سواء في ذلك الغالبة والمغلوبة تهيم على وجهها
حائرة بين ميادين روما . وأسواق فلسطين ، بأئسة يائسة ، لا تدري
ماذا تصنع ، كان عيسى يعظ ويعدُّ بمملكة السماء التي أعدت للبائسين
واليائسين فلا ريب إذن أن فكرة مملكة السماء وهي أساس دعوة السيد
المسيح هي أكبر دعامة لأعظم ثورة أيقظت الإنسانية في ذلك العهد
المملوء بالمظالم والشرور ، فلقد كان البعض منغمساً في الشهوات الدنيئة
والبعض الآخر فريسة البؤس والفاقة فكانت ديانة الرومان جافة ليس
فيها غير الرسوم والطقوس الظاهرية ، ثم هي خالية من كل إيمان
صحيح ، وليست بذلك منقذة لمن حل به البؤس والشقاء .

هذا ولئن وُجدت عقائد أخرى اسيوية بجانب عقائد الرومان
وأهمها عقيدة بني إسرائيل إلا أن اليهود يرون أنهم هم وحدهم الشعب
المختار الذي ينتظر بحق مملكة إسرائيل ، وكانوا يجتمعون وحدهم في
معايهم لتلاوة التوراة ، وبذا لم تكن دعوتهم عامة للناس جميعاً ، ولم
تكن موجهة بالذات للفقراء وهم السواد الأعظم ، فكانت إذن الدعوة
المسيحية دعوة جاءت مطابقة لتطور اجتماعي جديد في الدولة الرومانية ،
وكان طبعياً أن تلقى آذاناً صاغية ومرتباً خصيباً لنموها وانتشارها سيما

وأنها تدعو الناس إلى التوبة من طريق الاعتراف بالخطايا والذنوب وتقدم وتغريهم بملكة السماء التي أعدت ليتمتع بها الأطهار والفقراء جميعاً ، وتعوضهم بآلام الفاقة والمخمة نعيماً وسعادة . وساعد يوحنا المعمدان على انتشار هذه الدعوة بطريقته في التعميد بالماء والاعتراف ، وهي أشبه شيء بالعهد الذي يأخذه مشايخ الطرق الصوفية على ذويهم ومن يعتنق طريقهم في وقتنا الحاضر إذ كان يجمع حوله الأنصار بهذه الوسيلة ، ويشرحهم بقوله : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » وكان يلبس رداء من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من الجلد وكان طعامه الجراد وعسل البر وكان يخرج إليه أهل أورشليم وتل اليهودية وجميع بقعة الأردن فيُعتمدون منه على نهر الشريعة معترفين بخطاياهم وذنوبهم وهو يقول لهم : « أنا أعتمدكم بالماء للتوبة وأما الذي يأتي بعدى فهو أقوى منى وأنا لا أستحق أن أحمل حذاءه وهو يُعتمدكم بالروح القدس والنار » . فلما اعتمد المسيح من يوحنا قويت دعوته وبعد أن قتل هيرود ملك اليهود يوحنا المعمدان التجأ الكثير من أنصاره إلى السيد المسيح الذي أخذ يبشر ويعظ على طول الطريق في الجليل واليهودية بعبارات كلها أمثال ورموز ثم دخل أورشليم ذاتها وأخذ يعظ في معبدها فاتهمه بنو إسرائيل بتهم لإثبات خروجه على شريعة موسى وإبراهيم .

ثم قرأت ما جاء في الأناجيل من أنه في مساء يوم الخميس من عيد الفصح وبعد تناول العشاء مع تلاميذه انسحبوا إلى جبل الزيتون وكان

رؤساء كهنة بنى إسرائيل قد أرسلوا أتباعهم للقبض عليه برقعة يهوذا
الإسخريوطى الذى دلّ عليه وعندئذ استل أحد تلاميذه سيفه للدفاع
فقال له يسوع : « اردد سيفك إلى غمده لأن كل من يأخذ بالسيف
بالسيف يهلك » . وبعد القبض عليه فر تلاميذه وتبعه بطرس وحده
من بُعد إلى دار قيافا رئيس الكهنة ثم حُكم عليه بالإعدام فى نفس الليلة
التي قبض عليه فيها واضطرّ الحاكم الرومانى «Ponce Pilate» تحت ضغط
الشعب اليهودى الهائج أن يصدق على الحكم وينفذ فيه حكم الإعدام
صلباً . وقبل أن يسلم الروح صرخ المسيح قائلاً هذه الجملة التى لم نعرف
منزاهها وهى : « إيلي إيلي لما شَبَقْتَنِي » . ومعناها يا إلهى يا إلهى لماذا
تركتنى . كذلك قرأت ما جاء فى القرآن الكريم : « وما قتلوه
وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

ثم رجعت إلى الأناجيل فعرفت كيف أن مريم المجدلية وامرأتين
آخرين ذهبن إلى مكان الجثة فلم يجدنها فيه ، ثم كيف رآه بعد ذلك
الحواريّون فوق الجبل فى الجليل .

وعرفت أن تلاميذ المسيح اجتمعوا بعدئذ فى أورشليم حول
القديس بطرس ولم يقطعوا صلّتهم باليهودية ولكنهم أعلنوا أن عيسى
هو المسيح المنتظر ، والمسيحية لم تنفصل فى الواقع عن دين اليهود إلا من
عهد القديس بولس الذى كان من الدّ أعداء النصرانية ، ثم أصبح بعد
اعتناقه لها من أكبر أنصارها ، وهو الذى قال بأن المسيحيين بعد أن
آمنوا بالسيد المسيح لم تعد بهم من حاجة إلى اتباع شريعة موسى ،

واليه يرجع أعظم فضل في نشر المسيحية ، لأنه أخذ يحوب الأقطار من آسيا الصغرى إلى اليونان ويُنتشَى في كل بلد كنيسة تضم جماعة منهم يَنتخبون من بينهم لمدى الحياة اسقفًا يساعده مجلس من الكهنة والشمامسة وكان هذا أساس نظام الكنائس وقتئذ .

ولم تصادف المسيحية في أول عهدها إقبالا من الطبقات الممتازة بل كانت هدفاً لجميع أنواع الاضطهادات والتعذيب لأن معتقبيها كانوا موضع الرّية لأنهم كانوا يجتمعون في يوم محاكمة المسيح صباحاً للصلاة وتلاوة الكتب المقدسة ، ويجتمعون مساء ليتقاسموا الخبز والنبيد وهو ما يسمونه بالأوخارشييه وهو سر القربان ، ثم يتناولون معاً طعام العشاء المقدس ، وهم يقصدون بهذه الطقوس إعادة ذكريات العشاء الأخير للسيد المسيح . وقد أثرت أساليبهم هذه وغيرها كاستناعهم عن دفن موتاهم في مقابر الوثنيين في النفوس فأصبحوا هدفاً لاتهمهم بأنهم يذبحون الأطفال ليمتصوا دماءهم وأن عشاءهم هذا ما هو إلا سكر وعريضة^(١) وزاد الطين بلة أن الرومان كانوا يؤلهون أباطرتهم ويضعون تماثيلهم بجانب تماثيل الآلهة، ويرون أن عبادتها وإحلالها محل التعظيم والتكريم فرض على كل روماني . فكان عمل المسيحيين في إغفالهم هذه الفروض والواجبات جريمة لا تغتفر ، وهي الخيانة العظمى للوطن فتعقبوهم وساموهم كل أنواع الخسف والعذاب من تقتيل فيهم وتمثيل بهم وإلقائهم للوحوش المفترسة وحرقتهم أحياء ، غير أن هذا الاضطهاد والتعذيب كانا

(١) كما كان يفعل الرومان في عيد باكوس إله الخمر .

يقابلان بالبشر والارتياح لما للعقائد الدينية من قوة سحرية . فلم يأت القرن الثالث حتى انتشرت النصرانية بين جميع طبقات الشعب . وأباح قسطنطين حرية إقامة الشعائر المسيحية بمرسوم ميلانو سنة ٣١٣م ثم إن الإمبراطور جوليان أراد إحياء الوثنية فلم يفلح لِقَصَرِ مدة حكمه التي لم تزد على سنتين من سنة ٣٦١ إلى سنة ٣٦٣ م . ولما تولى Theodore الحكم من سنة ٣٧٨ إلى سنة ٣٩٥ حرم عبادة الأوثان ألبته ولم يَبْقَ في الدولة الرومانية غير دين رسمي واحد هو النصرانية .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل امتدت سلطة الكهنوت المسيحي على الأباطرة أنفسهم حتى أن الأسقف القديس امبرواز Saint Ambroise منع يوماً ما الإمبراطور تيودور من دخول الكنيسة قبل أن يستغفر ويتوب علناً مما اقترفه من المذابح في إخماد فتنة كانت قائمة في تسالونيك Thessalonique في اليونان .

وفي هذا الوقت الذي انتصرت فيه المسيحية تمّ تنظيم الكنيسة على مثال النظم الرومانية فأقيمت كنائس في جميع الدوائر الإدارية للدولة وأنشئت في كل بلدة أبرشية على أن تكون جميعها تابعة لأسقف العاصمة ، وكان لبعض الأساقفة نفوذ عظيم مثل أسقف الإسكندرية وأنطاكية اللذين أُعْطِيا لقب (بطريق) غير أن أسقف روما كان له المرتبة الأولى لما نالته كنيسة روما من الشهرة بسبب شهيدتها القديسين بطرس وبولس اللذين عُذبا في عهد نيرون .

ولقد حدث في أوائل القرن الثالث أن بعض المتعبدين في الشرق

كانوا ينسحبون إلى الوديان البعيدة وبعض الصحارى ليقوموا بالعبادة بعيدين عن العالم ، وأولئك هم جماعة النساك . وقد زاد في القرن الرابع عدد الرهبان زيادة بالغة فأنشأوا الأديرة منذ سنة ٣٥٠

إغارات
القبائل
المتبررة
على الدولة
الرومانية

ولقد كان هذا التنظيم الكنسي المسيحي هو الذي حل محل النظم السياسية والإدارية في الدولة الرومانية بعد انحلالها ، وهو الذي كان سائداً وقت إغارة القبائل المتبررة المتاخمة للدولة الرومانية ، واستمر قائماً طوال القرون الوسطى .

وكان الرومان يعتبرون الشعوب التي لم تخضع لسلطانهم برابرة وكان شمال نهر الطونة وشرقي نهر الرين هي الحدود التي تفصل بين هؤلاء وأولئك .

ولقد وقعت على ضفاف هذين النهرين أكثر الإغارات على الدولة الرومانية من تلك الشعوب التي كانت أكثر قبائلها من العنصر الجرمانى المتوطن في الأراضى الواقعة بين نهري الرين والفيستولا وبين شمال نهر الطونة وبحر البلطيق ، وهي البلاد المعروفة اليوم بهولاندا وألمانيا والدانمارك وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وهنغاريا . ويمكن تقسيم هذه القبائل إلى ثلاثة أقسام مهمة هي :

الجرمان الغربيون ومنهم الفرنجة والألمان والسكسون .

والجرمان الشماليون ومنهم الدانماركيون والسكندنافيون .

والجرمان الشرقيون ومنهم القوط والوندال .

هذا عدا قبائل السلت Celtes الذين يقطنون بلاد الغال (فرنسا

الخالية) والجزر البريطانية وقبائل الصقلب Staves الذين يقطنون شرقي قبائل الجرمان فيما يسمى الآن روسيا .

وكان الجرمان كسائر الشعوب القديمة يعبدون قوى الطبيعة كما كان الإله الأكبر عندهم هو إله الحرب (فودان) أو (أودين) (Vodan) الذي لا يقبل في جنته إلا شهداء الحرب حيث يقدم لهم الخُورُ (العذارى) Les Walkyries مشروب الإذرُوميل L'hydromel .

وكان من عاداتهم أن يلتف الشبان حول الشجعان المبرزين من الفرسان ويرافقوهم في غزواتهم ، وهم لا يعرفون معنى للسلام ويعتبرون من الجبن والكسل أن يحصل الإنسان بعرق جبينه على ما يستطيع أخذه بإراقة الدماء .

وقد كانت هذه القبائل متاخمة للدولة الرومانية ، وكانت تعتدي على الحدود طلباً للعيش كلما قلت عندهم المرامي . واستطاعت الدولة الرومانية طوَال القرنين الثالث والرابع وأوائل القرن الخامس أن تصدَّ هجماتهم ، وواصل أباطرة الرومان خُطَّة أوغسطس «Augustus» الدفاعية ، فاكتفوا ببناء الحصون ووضع الحاميات على الحدود . فلما دبَّ الضعف إلى جسم الدولة الرومانية اضْطُرَّت أن تتخذ من بعض هذه القبائل المتبربرة عوناً لها على غيرها ، وبذا سنحت الفرصة للفرنجية ليصبحوا من رعايا الدولة الرومانية في البلاد الواطئة ، وتوصل قسطنطين إلى عقد معاهدة مع القُوط بأن يقدموا له أربعين ألف مقاتل وقت الحرب ، فأصبح الكثيرون من زعماء هذه القبائل قواداً وضباطاً

العلاقات
الأولى
بين الدولة
الرومانية
والقبائل
المتبربرة

في جيش الدولة الرومانية وفي نفس البلاط الإمبراطوري الروماني .
وبدَّهيَّ أن هذا التدخل قد مهد لهذه القبائل طريق الإغارة على
الدولة واحتلال بلادها فيما بعد ، على أنَّ وجود المتبربرة داخل حدود
الإمبراطورية الرومانية كان حتى عام ٣٨٤م قاصراً على استخدامهم
في الجيش والإدارة . أما بعد هذا التاريخ فقد بدأ تدخلهم الحربي الذي
أدَّى إلى استيلائهم على بلاد الدولة الرومانية .

بدء الإغارات
وأسبابها

ولقد بدأت الإغارات في أواخر القرن الرابع الميلادي وفي غضون
القرن الخامس تحت ضغط حادث تاريخي كبير ، هو ظهور شعب جديد
من العنصر الأصفر يسمى (الهون) كان يقطن بلاد منغوليا وقد قام
بهجوم فاشل على إمبراطورية الصين ترتب عليه خضوع بعض أفراد
حكم الصين واتجاه معظمه نحو الغرب حتى وصل إلى شواطئ بحر
قزوين وجنوب روسيا في منتصف القرن الرابع ، ثم التقى بقبائل القوط
الضاربة على شواطئ البحر الأسود كما عرفنا ، فاندفعت أمامه نحو
حدود الدولة الرومانية . وبعد أن أقامت زمناً بين نهر الطونة والبلقان
انتقلت إلى مقدونيا واليونان ، ثم اتجهت بقيادة رئيسها أالاريك
«Alaric» غرباً نحو إيطاليا ، ولهذا أطلق عليها اسم (القوط الغربيين)
وهي التي غزت روما وفتحتها عنوة ونهبتها في عام ٤١٠ ميلادية ثم
انتقلت بزعامه «Ataulf» أتولف بعد موت أالاريك إلى بلاد الغال وهناك
تزوج بآينة هونوريوس «Honorius» إمبراطور الدولة الرومانية الغربية ،
ثم انتقلت إلى أسبانيا وأقامت في مقاطعة أكتين «Aquitaine» وأسست

هناك أول دولة للقبائل المتبربرة في عام ٤١٩ م وكانت قد سبقتهم إلى هذه الأقطار قبائل أخرى هي الوندال والبرغند - Vandalis et Burgondes - . وقد أقام البرغند في بلاد الغال ، ونزح الوندال إلى أسبانيا ، وأقاموا في مقاطعة «Andolousie» أندلوسيا ثم قادها رئيسها جنسريك «Genseric» إلى شمال أفريقيا فاستولت على قرطاجنة وأسست مملكة أخرى متبربرة في عام ٤٤٢ م . وامتلكت الجزر الواقعة غرب البحر الأبيض المتوسط ، ثم انقضت على روما نفسها ونهبتها في عام ٤٤٥ م . وبعد ذلك أخذ يدب فيها الضعف وينتشر فيها الفساد إلى أن أخضعتها الدولة الرومانية الشرقية في عام ٥٤٣ م .

قبائل الهون

وإن ما تقدم لهو ملخص لما حدث من القبائل الجرمانية التي ساقها أمامها قبائل الهون أما قبائل الهون ذاتها فإنها بعد أن عبرت جبال الكريبات استقرت في عام ٤٤٥ م في وديان أوروبا الوسطى وهي المعروفة الآن ببلاد المجر . ولما تمكن زعيمها أتيلاً «Atilla» من أن يضم إليه القبائل التي اتصل بها أثناء زحفه ، أنشأ مملكة متبربرة قوية تواجه الدولة الرومانية الشرقية التي اضطرت أن تقطعه أراضي بلقانية وأن تمنحه لقب رئيس المليشيا ، ولكن أتيلاً لم يكتف بهذا بل اتجه نحو بلاد الغال (فرنسا الحالية) يهدم ويخرب ما صادفه في طريقه إليها ، وهم بالهجوم عليها وكان بعضها لا يزال تحت سيطرة الرومان والبعض الآخر في يد قبائل الجرمان من الفرنجة والبرغند والقوط الغربيين كما تقدم ، فأتحد الجميع على مقاومته تحت قيادة القائد الروماني اكيوس

«Actius» وهزموه في شالون في عام ٤٥١ م وقد تقهقر أتيلاً عن طريق
الطونه واخترق جبال الألب ودخل إيطاليا غازياً حتى وصل إلى ميلانو ،
ثم مات ، ففرقت القبائل التي كانت تحت زعامته من جرمانية وصقلية ،
وعادت كما كانت تشن غاراتها على الدولة الرومانية منتهزة فرصة ضعفها
وتوطدت سلطة الممالك الجرمانية في بلاد الغال وإسبانيا وإيطاليا مع
وجود الدولة الرومانية التي كان وجودها اسماً فقط إذ القوة الفعلية
كانت في أيدي القواد من المتبربرة ومن بينهم أدواكر «Odoacre»
الذي عزل روميلوس أوجستيلوس «Romulus Augustulus» آخر
امبراطور روماني في رافنا «Ravennes» وأرسل إلى القسطنطينية التاج
وبقية شارات الملك قائلاً : إن إيطاليا ليست في حاجة إلى امبراطور .
وقد منحته الدولة الرومانية الشرقية بالقسطنطينية لقب حاكم إيطاليا
ليكون هذا اللقب بمثابة اعتراف منه بسيادة الدولة الرومانية
الشرقية على إيطاليا ، تلك السيادة الاسمية إذ السيادة الفعلية كانت
في يده وحده كما تقدم وكان ذلك نهاية للدولة الرومانية الغربية
في عام ٤٧٩ م .

قبائل القوط
الشرقيين

كانت الدولة الرومانية الشرقية بالقسطنطينية أسعد حظاً لأنها
لم تسقط إلا بعد نحو عشرة قرون من سقوط الدولة الرومانية الغربية
على الرغم من الأزمات التي توالى عليها طوال هذه القرون ، فبعد أن
زال عنها خطر غزو قبائل الهون هاجتها قبائل القوط الشرقيين
«Les ostrogoths» التي كانت قد خضعت لحكم أتيلاً زعيم الهون

واشتركت معه في انتصاراته وهزأته، وأقامت زمناً على نهر الطونة الأوسط، ثم استقرت شرق بحر الأدرياتيك تحت حكم ملكها تيودوريك Théodoric، الذي قضى بضع سنين في القسطنطينية خبر في أثناءها أحوال البلاد .

ولما أراد الامبراطور زينو «Zeno» أن يتخلص من أدواكر حرص تيودوريك على غزو إيطاليا فغزاها وانتصر عليها في مواقع ثلاث، ثم اتفق مع أدواكر على أن يحكم البلاد معا إلا أن تيودوريك قد غدر بمنازعه أدواكر وقتله في أثناء الاحتفال بالصلح . وأصبحت إيطاليا في يد القوط الشرقيين يحكمها تيودوريك منذ عام ٤٩٣ حكماً صالحاً تربطه صلات المصاهرة أو المحالفة مع الممالك المتبربرة الأخرى التي أنشئت من بُرْغُنْد وفرنجة وقوط غربيين ووندال . وقد تبدد ملكه بعد موته في عام ٥٢٦

وعندما اضطرت الدولة الرومانية إلى سحب جنودها من الجزر البريطانية لحماية موطنها الأصلي من إغارات القبائل المتبربرة أصبح أهل هذه الجزر غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم، فأغارت عليهم قبائل الإنجليز والسكسون التي ترحلت من جرمانيا في القرنين الخامس والسادس، وسهل عليها التغلب على البريطانيين وأصبحت البلاد تُعرف باسم بلاد الإنجليز، وهي القبائل المغيرة التي كانت وثنية ثم اعتنقت المسيحية في عهد البابا جريجوري، وارتبطت بأسقفية روما، وكونت ممالك صغيرة متنازعة بقيت في نزاعها حتى تغلبت عليها (وسكس) أي

قبائل
الإنجليز
والسكسون

مملكة السكسون الغربيين في عام ٨٢٥ م وأصبح إيجبرت (Egbert) ملكا على إنجلترا جميعها حتى الفتح النورماندى .

قبائل
اللومبارد

أما قبائل اللومبارد فهي من الجنس الجرمانى التى استوطنت شمال إيطاليا الذى أطلق عليه اسم اللومباردى نسبة إليها ، ثم استولت على جميع إيطاليا ، ما عدا بعض المقاطعات مثل صقلية وقرسقة وشرطانية Cerdagne التى كانت محمية بأسطول الإمبراطورية الشرقية .

وكانت هذه القبائل وثنية فاعتنقت المسيحية وأصبحت من سكان إيطاليا وتمثلت حضارتها وهى التى حاربت فردريك باربروسة وغلبته على أمره فنخضع لسلطان البابوية كما ساذكر بعد .

قبائل
الفرنجة

أما قبائل الفرنجة فهى من الجرمان الذين كان الإمبراطور الرومانى جوليان (Julien) قد أقطعهم الأراضى الواقعة بين الرين والإسكُو (L'escut) وهم الذين دافعوا عن الدولة الرومانية فى وقت الإغارات عليها فى عام ٤٠٦ م كما دافعوا عنها ضد أتيلافى عام ٤٥١ . وقد انقسموا إلى فرنجة ساليان (Franc Saliens) التى توطنت فى هولاندة ، وفرنجة ريبوير (Franc Ripuaires) على نهر الرين وكتاها تنقسم إلى قبائل عديدة كان بعضها على نهر الإسكُو ، ومما يذكر أنه وجدت جثة ملك الفرنجة شلديريك (Cheldéric) مدفونة فى مدينة تورنيه (Tournai) مع جواده وسلاحه وجواهره .

وقد مد كلوفيس (Clovis) ابن الملك شلديريك سلطته على بلاد الغال وأسس أول عائلة ملكت فرنسا باسم عائلة: ميرونجيان (Merovingienne)

وكانت بلاد الغال قبل كلوفيس منقسمة ، فبلاد السين تحت العلم الروماني وهي آخر ما بقي للدولة الرومانية شمال جبال الألب ، وكان القوط الغربيون يقيمون جنوب نهر اللوار ، والبرغنديون في حوض نهر الرون ، والألمان في أعلى نهر الرين والغابة السوداء .

ووقعت كل هذه الممالك المختلفة تحت حكم كلوفيس الذي يُروى عنه أنه نذر أن يعتنق المسيحية إذا نصره إله النصراني على أعدائه ، فلما تم له النصر المنشود اعتنق مذهب الكنيسة الغربية في عام ٤٩٦ وتبعه كثير من شعبه ، وبدأت منذ هذا التاريخ العلاقات الطيبة بين الكنيسة بروما وبين ملوك الفرنجة ، ودامت قرونًا مكنت الفرنجة من تكوين مملكة عظيمة على يد أبناء كلوفيس الذين استولوا على نورنجيا وبرغندا وبفازيا ، وأخذ الفرنجة في الغرب يتأثرون حضارة الرومان وبقى الفرنجة في الشرق محافظين على عاداتهم الجرمانية وسمى الجزء الشرقي أوستراسيا والغربي نيستريا «Austrasia et Neustria» ، وكان العنصر الجرمانى متفوقاً في أوستراسيا التي نشأت منها الدولة الألمانية الحديثة بينما بقيت نيستريا وهي فرنسا تحت التأثير الرومانى .

ولما عظم شأن كلوفيس عين في بلاطه رئيساً مسئولاً عن إدارة القصر قد تمكن تدريجياً من أن يكون له شأن عظيم في الدولة لدرجة أن أحد هؤلاء وهو پيپين «Pepin» تمكن بهذه الوظيفة من أن يحكم في أوستراسيا ، واستولى بعد حروب على نيستريا ، ووضع أساس دولة شارلمان الكبير ، وجاء بعده ابنه شارل مارتل

«Charles Martel»^(١) من سنة ٧١٤ — ٧٤١ وسيأتي ذكره .

وكان اللومبارد في هذه الأثناء قد انتزعوا من الدولة الشرقية كل شمال إيطاليا كما عرفنا ، واعتدوا على الأراضي التي كانت يحكمها البابا وكان بين البابا والقسطنطينية عداً شديداً أدى به إلى الاستعانة برئيس بلاط الفرنجة وكان يبين «Pepin» قد أرسل وفداً إلى البابا يستفتيه فيمن يجب أن يكون ملكاً ، أصاحب اللقب القابع في قصره والذي لاحول له ولا قوة ؟ أم صاحب القوة والصولة الذي يدير شؤون الدولة ؟ وقد أفتى البابا لمصلحته وعندئذ جمع (يبيين) الأشراف ورجال الدين فوافقوا على خلع الملك وحملوا (يبيين) على الأعناق وولّوه ملكاً ، وعرفت أسرته باسم الأسرة الكارولية نسبة إلى ابنه شارل أوكارل . وكان لهذا التتويج شأن في نظرية الملكية التي كانت قبل هذا انتخاية بمعرفة الأشراف ، وأصبحت بعد موافقة الكنيسة التي توجت (يبيين) ملكاً تستمد حقها من الله وهي نظرية (الحق الرباني) .

وفي عام ٧٥٤ توجه (يبيين) إلى إيطاليا وحارب اللومبارد وهزمهم واسترد منهم ما استولوا عليه من الأقاليم ، وقدمه هدية إلى البابا وحفظ صكها في قبر الرسول بطرس وصار البابا يحكم ما بين رافنا وروما كأمر دُنويّ ، وهو ما عرف في التاريخ باسم (ميراث الرسول بطرس) .
والخلاصة من كل ما تقدم أن الممالك المتبربرة تأسست في أوروبا منذ أواخر القرن الخامس مع بقاء الدولة الرومانية اسماً بلا سلطة .

(١) المعروف عند مؤرخي العرب باسم (قارلة) .

واختلطت شعوب الرومان بشعوب القبائل المتبربرة فكانت المدنية الرومانية الراقية تعيش بجانب البربرية المتوحشة ، واقتسمت هذه الشعوب المتنافرة في الطباع والعادات الأراضي للزراعة ، والقصور للسكنى ، مما أدى إلى منازعات كثيرة ، أضف إلى هذا اختلاف العقائد بين هذه الشعوب ومع أن أكثر القبائل المتبربرة كانت قد اعتنقت المسيحية إلا أنها كانت تؤمن بمذهب أريوس «Arius» أسقف الإسكندرية ، ذلك المذهب الذي اعتبره مؤتمر نيقية «Nicée» في عام ٣٢٥ إلحاداً ، وكان الكاثوليك من الرومان يفضلون عليه الوثنية ، وقد حاول ملوك القوط والبرغند وغيرهم تذليل هذا الخلاف فلم يفلحوا ، وأصبحت بين هذه الشعوب خلافات دينية وسياسية واجتماعية كانت كلها من أهم أسباب انتشار الفوضى في ذلك العهد ، تلك الفوضى التي برزت خلالها فكرة إعادة الدولة الرومانية واستمرت ماثلة في الأذهان إلى أن تولى الحكم الإمبراطور جستنيان .

لقد انتهز جستنيان فرصة النزاع الديني بين الكاثوليك والأريوسيين — أي شعوب القبائل المتبربرة الذين تمذهبوا بمذهب أريوس — وظهر بمظهر حامي الكنيسة الكاثوليكية وساعده على ذلك فكرة إعادة الدولة الرومانية فاستطاع مدة حكمه من سنة ٥٢٧ — ٥٦٥ أن ينتزع من يد الممالك المتبربرة شمال أفريقيا بفضل قائده العظيم بليساريوس «Belisarius» الذي انتصر على الوندال في عام ٥٣٣ وعبر البحر إلى صقلية فاحتلها في عام ٥٣٥ ، واحتل جنوب إيطاليا وحارب القوط الشرقيين وفتح

الإمبراطور
جستنيان
في الدولة
الشرقية

رافنا في عام ٥٤٠ ، ثم فتح باقى إيطاليا على يد قائده نارسيس «Narsis» .
أما الصقلية فأقاموا في البلقان في البلاد المعروفة الآن باسم
يوغوسلافيا وبلغاريا واليونان ، واندمجوا في أهالى هذه البلاد .

ن ق ٢٤٠

وأغلق جستنيان جامعة أثينا مركز التعاليم الوثنية القديمة لشدة
كراهيته للوثنية، وأكبر فضل لجستنيان هو قيامه بجمع شتات القانون
الروماني ، وهو الذى وضع المجموعة المعروفة باسمه خالية من المتناقضات
ومما لا فائدة فيه . وهو الذى وضع كذلك مجموعة الأحكام التى أصدرها
أكبر المشرعين والقضاة فى عصره . ويقال إن هذا العمل قد استلزم
مراجعة نحو ألفي مؤلف قانوني وثلاثة ملايين من الأسطر .

وجستنيان هو الذى شيد كنيسة (صوفيا) وقال عند افتتاحها
« أحمد الله تعالى الذى جعلنى أقيم هذا العمل العظيم الذى تفوقت به
عليك يا سليمان » يشير بذلك إلى هيكل سليمان بأورشليم .

هذا ولم تكن كل هذه النهضة التى جاءت فى عهد جستنيان إلا
وقية أعقبها انحطاط دام قروناً طويلة مضت فى دسائس البلاط
والمؤامرات والمناقشات الأفلاطونية التى أصبحت علماً على بيزنطة ،
والتي تطورت من بحوث دينية إلى جدل عقيم ، أضف إلى ذلك تبذير
الأباطرة وازدياد قوة الشعوب الصقلية فى البلقان واللمبارد فى إيطاليا .
ولقد زاد الطين بلة عداوة دولة الفرس الساسانية التى قامت
فى سنة ٢٢٦ واستطاع ملكها أردشير الأول أن يسخر دين زرادشت
لتقوية عرشه فهاجم الدولة البيزنطية ، وانتزع منها إنطاكية ، ثم تجددت

قوة الدولة الساسانية في عهد كسرى قُبَاذَ الأول فاستولى الفرس على بلاد اليمن التي كانت تحت حكم الحبشة .

حضارة اليمن

تلك البلاد التي يُعَدُّ حكمها في الزمن القديم سَيْطَرَةً على مفتاح الطرق بين الشرق والغرب بل بين الشرقين الأدنى والأقصى ، فضلاً عما كان لهذا القطر من حضارة باذخة ومجد أثيل . وحسبك أن تنظر في آثارها في مأرب ، وصُرواح ، وبراقش ، ومعين ، وينون ، وظفار ، ويخصب ، وناعط .

فلقد كان لهذا البلد من مخازن المياه في حقول يخصب وحبره وشاحك ورَيْعَان وسد مأرب ما أشاد بذكره كتاب الانسانية الأول الذي ظهر بعد مُعْجَزاً مُوْجِزاً ، حين وصف أخطر حدث تاريخي في حياة اليمن ذلك هو خراب سد مأرب وتفرُّق قبائل سبأ حيث ترحلت بعد ذلك إلى الشمال والغرب ، وتزلت في الحجاز ومجد والعراق^(١) . وأزهى حضارة اليمن كانت في العصرين السبئي الأول (٨٥٠ -

١١٥ ق . م .) والسبئي الثاني ويدعى العصر الحِمْيَري (١١٥ - ٥٢٥ ب . م .) وهو عصر الفتح والقوة وكان الملك يُدْعَى (ملك سبأ ورَيْدَان) ورَيْدَان مَحْفِدٌ من محافدهم الكبرى وهو الذي سُمِّيَ بعد ذلك ظَفَار ، ثم ضُمَّتْ إلى اليمن حضرموت وغيرها فدُعِيَ « ملك سبأ

(١) القرآن الكريم حيث جاء فيه قوله تعالى من سورة سبأ : « لقد كان لسيا في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليلياً وأياماً آمنين .

وريدان وحضرموت وغيرها » وكان لليمن قاعدتان إحداهما في حضرموت والأخرى في اليمن ، وينقسم ملوكها إلى طبقتين طبقة الملوك وطبقة التبابعة ، فالملوك كانوا من وَلَدِ حِمَيْرٍ حتى صار الحكم إلى الحارث الرائش وهو أول من وحد هذه الدولة وجعل لها قاعدة واحدة ، وسُمِّيَ تَبَعًا ، وجرى تقليدهم بَعْدُ أَنْ يُلَقَّبَ (تَبَعًا) كلُّ من ملك الشَّحْر وحضرموت مع اليمن فإن لم يملكهما كان ملكا .

وقبل أن تتخذ الدولة الرومانية طريق البحر الأيض مسلكها لحمل تجارتها في القرن الأول من الميلاد كانت بلاد اليمن طريقها بين الشرق والغرب . ومن أشهر الملوك التبابعة أصحاب الحوادث الجسيمة في التاريخ سبعة :

١ - (الحارث الرائش) الذي وحد بلاد اليمن ، والذي غزا بلاد العراق ، ويدعى مؤرخوا العرب أنه غزا الهند والترك ويبدو لنا من النظر في اتجاه هؤلاء المؤرخين أنهم كانوا يسمون العراق هنداً ، بل لقد سمّوا بعض تخوم اليمن من جهة البحر كَعَدَنٍ بالهند .

٢ - (أفريقش بن أبرهة) وقد زعموا أنه باني أفريقية (تونس) وأنه غزا المغرب حتى بلغ المحيط الأطلسي .

٣ - (بلقيس بنت هدهاد) التي وردت قصتها مع سليمان في القرآن « سورة النمل » .

٤ - (شمر برعش) وقد اتسعت فتوحاته ولقب بذى القرنين .

٥ - (تَبَع بن حسان) وقد غزا يثرب واصطحب معه حبرين

دخول
اليهودية
اليمن

من اليهود بعد أن دَانَ باليهودية لنشر هذه الديانة في بلاده وفي عهده
عقد حلف بينه وبين ربيعة في الشمال .

٦ - (ذُو نُوَاسٍ) وهو الذي أفرط في حب اليهودية حتى فرضها
على أهل اليمن وكانت النصرانية في عهده أخذت تتسلل إلى بلاده عن
طريق التجار والرحَّالين الذين نجحوا في دعوتهم في نجران فحفر
الأخدود وأحرق أهل نجران واضطهد النصرانية^(١) .

٧ - (سيف بن ذى يزن) الحُمَيْرِي وهو الذي ذهب إلى كسرى
قَبَاذَ الْأَوَّلِ يستنجد به على الحبشة ، وكانت دولة الفرس تنافس الدولة
الرومانية النفوذ ، وتعلم أنها إذا استولت على اليمن ظفرت بِمِنْطَقَةِ
خصيبة ومركز ممتاز في جنوب الجزيرة وسواحل المحيط الهندي والبحر
الأحمر ، فأمدَّ كسرى سيف بن ذى يزن بجيوش لم تستطع أن تنتصر
على الجيوش الحبشية ومن ورائها الإمدادات الرومانية إلا في عهد
(كِسْرَى أَنْوْشِرْوَانَ) حيث أرسل إلى سواحل اليمن جيشاً من
المسجونين بقيادة (وَهْرَزَ) وكان قائد الأحباش يدعى (يكسوم) فلما
التقى بوهرز دارت عليه الدائرة فلما قتل انهزم جيشه فتعقبهم وَهْرَزُ حتى
دانت اليمن كلها لسيف ، ثم عين كسرى عاملاً من قبله كمندوب سامٍ
يدعى (بازان) وظل عاملاً عليها حتى ظهر محمد (ص) بدعوته في مكة
وهاجر إلى المدينة وأرسل كتابه المشهور إلى كسرى فبعث كسرى إلى

دخول
الإسلام

(١) وذكر القرآن قصته في قوله : « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم

عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود إلخ » .

البعثة
الإسلامية

بازان أن يبعث إلى محمد من يأتيه برأسه أو يأتي به أسيراً ، وحاول بازان أن يفعل ذلك لولا أن ثورة (شيرويه) على أبيه (أنوشيراوان) قد طوّحت بنفوذ الدولة الساسانية على اليمن ، ورأى بازان مبلغ ما تصيبه الدعوة الجديدة من نجاح منقطع النظير ، فأعلن إسلامه ، وبعث الدعوة في اليمن وبعث إلى النبي يستمدّه العون في ذلك ، فأمدّه بمعاذ بن جبل وعلى بن أبي طالب ، وعيّن النبي بازان عاملاً على اليمن من قبله ، ويسميه العرب (بذهان) . ذلك مجمل ما كان بين الدولتين الساسانية والرومانية من نزاع في هذا الجزء من العالم ، وفي المدة من سنة ٥٩٠ م إلى ٦٢٨ م انتصر الفرس كذلك على الروم وانتزعوا منهم دمشق والقدس وأخذوا الصليب المقدس في سنة ٦١٤ ثم استولوا على مصر سنة ٦١٩

نزاع
الدولتين
وانتصار
هرقل

١١٣

وما كاد الفرس يستولون على كل هذه الأملاك حتى تولى (هرقل) الحكم في بيزنطة إذ كان من قواد الجيش فثار على حكومة (فوكاس) الإمبراطور وكان من العوامل التي أطمعت الفرس في الدولة الرومانية فلما انتصر هرقل وتوجّج إمبراطوراً للرومان بعد سقوط فوكاس حارب الفرس وانتصر عليهم في معركة نينوى سنة ٦٢٧ م .

وبينما كان الروم منتصرين في الشرق كان الفرس يهددون القسطنطينية في الغرب ، وكانت كل هذه الأقطار مسرحاً لحروب دامية ومهداً لفوضى داعة .



الحديث الخامس

محمد - رسالته - الخلفاء الراشدون

وما أن وصلت إلى هذا الحد من قراءة الكتاب الذي ناولنيهِ أبو الهول حتى أُلقيتُ نظرة جائلة فما كانت عليه الإنسانية في أواخر القرن الخامس الميلادي وهالني ما رأيت ، وَوَدَدْتُ أَنْ أعرف كيف انتهت هذه المآسى التاريخية ؟ أو على الأقل كيف خَفَّتْ وَطَأَتْهَا إلى حين ؟ وكيف كان العالم يقاوم بِحيويته الداء العضال ، فتارة تتلاشى أعراض الداء ، وطوراً ينهزم البدن كليلاً من طول ما رزح الجسم تحت عوامل فنائه وهو يَأْبَى إلا أَنْ يستمسك بأسباب البقاء ؟ .

ولذلك اتجهتُ إلى أبي الهول عَلَى أَجْد من حديثه معي ما يُبين عن عوامل تلك الحياة ، وكَم كنت أحس بالسعادة والْبَلَهِيَّةِ حين التقيت على شوق جَم ، وشغف أعظم ، بِشَبَح رجل رُبْعَة (متوسط القامة) عريض ما بين المنكبين ، أحمر العينين ، يبدو من بريقهما مع نتوء جبينه الذكاء المتوقد ، والذهن اللّماع ، ومن !بتسامته اللازمة أَنه داهية ما كر صبور ، بعيد الغَوْر ، لا يحفل بالشدائد ، ورَأْيُنِي وقد سمعت صوته الأَجَش حين حيانا بلسان عربي مبين أَنني إزاء رجل في الطراز الأَعْلَى من الرجال ، قد توفرت له أسمى مناقبها ، وظهر من لباسه الأيض

عمر
ابن العاص

الناصع أنه يعيل إلى البساطة والنظافة له لحية كثة قد وخطها الشيب
مُضْمَخَةٌ بالحناء، يلبس عمامة قد ارتفع كوزها عن مقدم رأسه فبدت
ناصيته وقد انفرق شعره المرسل إلى شحمة أذنيه، يدهن بالطيب
وقد تَضَوَّع الجؤ بعيره، ترى من يكون هذا الرجل؟ .. إنه الفاتح
الرحيم، والسائس العبقري المُلهم، منشيء مصر الإسلامية (عمرو بن
العاص) فقدمه أبو الهول هاشاً، واضعاً يده بمخيلها على رأس عمرو وقائلاً:
— من هنا ومن هذا الرأس نبغت نوابغ الرأي والفكر والعبقرية
ثم يدنو يده إلى في عمرو:

— ومن هنا سمعت الدنيا صدق اللهجة، وفصاحة اللسان المغرب،
وقوة العارضة الحافزة المثيرة. فالتفت إلى عمرو وقلت:

— أيها الفاتح العظيم: لقد جئت إلى هنا إلى مثابة التاريخ الصادق
لأعرف كيف كانت الإنسانية في ظل هذه الحروب الدامية في الشرق
والغرب. وكيف كانت الحياة في هذا الجو الصاخب؟ ثم كيف أُتيح
للإنسانية أن تتجه في نضالها من الهدم إلى البناء؟ وكيف جرفها تيار
من الحياة والنهضة والمجد؟ ...

عمرو — إنك يا صاح إذا تدبرت ما وصلت إليه الإنسانية
في أواخر القرن الخامس تبين لك أن القارة الأوربية قد أصبحت
مسرحاً لحروب طاحنة بين شعوب مختلفة، اندثرت في غمارها المدنات
الشرقية واليونانية والرومانية، كما انطفأ سراج التفكير الحر، والبحث
العلمي، لأن القبائل المتبربرة التي هاجمت الدولة الرومانية لم تكن تعرف

كيف انتهت
الآسى
التاريخية

من المبادئ غير ما حواه قانون الغابات من سلب وقتل ونهب،
والكنيسة الكاثوليكية التي حلت بنظمها محل الدولة الرومانية الغربية
وإن كانت قد وقفت أمام المظالم والفظائع وخففت من آلامها إلا أنها
قد أقامت مبدأ التصديق والإيمان من غير بحث ولا تفكير.

وإذا وليت وجهك شطر الشرق وجدت أن دولتي بيزنطة وفارس
قد أعيد تأسيسهما على مبدأ العقائد الدينية، وكما أن أباطرة بيزنطة اتخذوا
لتثبيت عروشهم وتأييدها النصرانية ديناً لهم أخذ أردشير الأول
في فارس يتذرع بديانة زرادشت لتشييد حكم الأسرة الساسانية، وكلتا
الدولتين تدخلتا في ضمائر الناس، وفرضتا عليهم عقائد لا اختيار لهم
فيها، وبلاد الشرق من سوريا وفلسطين ومصر كريشة في مهب الريح
تقع فريسة لنهب جنود فارس تارة، وسلب جنود بيزنطة تارة أخرى.
ولا ريب أن الإنسانية في هذا القرن الخامس كانت متداعية
الأركان لعدم وجود دولة تحمي دمار البلاد، أو عقيدة يختارها الناس
لتكون عزاء لهم وتهدة لخواطرم مما هم فيه من ظلم وشقاء قلت :
— لا شك أن هذه الحال التي طمت على الإنسانية بشروورها لا تسمح
مطلقاً بأن تنقلب بين عشية وضحاها عالماً يَشُدُّ الخير، ويستبق إلى
بناء الحضارة العلمية والثقافية دفعة واحدة، وفور الصيحة الأولى،
فكيف استطاعت قوتكم أن تُغيّر من الناموس المنطقي للوجود.

عمر بن عبد العزيز: إن عالماً متداعياً من طول مازح تحت عوامل الظلم
والجور لقين: أن يتطلع إلى التغيير والتبديل، وكانت الإنسانية في هذا

الجسم الرقيق

المهد تتلّف على رسالة جديدة تأتيها ولكن من أين تتوقع أن تأتي
هذه الرسالة ؟ ... و

فقلت مقاطعاً : ماذا لو أتت من ناحية القبائل الجرمانية أو من
قبائل الهون أو من فارس أو الروم ؟

عمرؤ : إن هذه الرسالة لا تأتي إلا كما تكون القوة السليمة
في الجسم المريض لا تظهر إلا من أبعد أعضاء الجسم عن مكان العلة ،
وتلك هي الصحراء التي درَجْنَا عَلَى رَمْضَائِهَا ، ورتَعْنَا في سُهولِهَا
وحُزُونِهَا ، وتُرْبِي في أحضانها صاحب تلك الرسالة المنشودة .

كانت الصحراء ذلك المكان السليم في الجسم المريض ، فمنه جرى
تيار من الدماء النقية فتَكَ بِالْعِلَّة حين مرَّ في دورته الطَبِيعِيَّة على الأجزاء
المصابة ، ولذا لم تأت هذه الرسالة من ناحية القبائل الجرمانية وهي التي
هاجمت الدولة الرومانية ومحت آثار المدينيات القديمة ولم تأت من قبائل
الهون المتبربرة التي هدمت وخرَّبت كل ما صادفها في طريقها ، ولا من
فارس أو بزنطة وقد حرَّمتا الناس حرية الفكر ، وجعلتا بلادهم غنيمة
لمن يظفرو ويقهر ، لذلك ترى الرسالة المُبْتَغَاة قد جاءت من قلب الجزيرة
العربية ، جاءت من مكة على يد محمد (ص) الذي أنزل الله عليه :
« غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ،
فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ
الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ » .

ولقد أرسل إلى كلٍّ من هرقل ملك الروم وأنوشروان ملك

فارس وأصحمة نجاشي الحبشة يدعوم جميعاً إلى اعتناق دينه والإيمان
برسالته ، ولم يفتَهُ أن يرسل إلى المقوقس حاكم مصر يدعو بدعوته .
قلت : — وكيف نشأ بين ظهرانيكم النبي وكيف فعلت شخصيته
النبوية في أحداث التاريخ بقوتها ومريتها ؟ ...

أبرهة
ومهدم الكعبة

عمرو : — لقد وُلد محمد (ص) في عام ٥٧١ م أي في عام الفيل الذي
حاول أبرهة الأشرم أن يهدم الكعبة فيه ، وولد بعد وفاة أبيه بعدة
أشهر ، وأُسلمه جده إلى حليلة السعدية في بني سعد بالطائف على عادة
أهل الحضر إذ يبعثون بأبنائهم إلى البادية ليشتبوا على الفروسية والحرية
والصبر على المكاره إلى ما يتحلون به — بالممارسة — من مزايا البادية من
فصاحة العروبة وسعة الخيال ، وقوة القريحة ، ثم كَفَله جده الذي لم
يلبث أن مات فتعهد عمه وسافر به إلى الشام صبيّاً ، ولما بلغ أشده أَرادته
خديجة أن يقوم بتجارته بين مكة والشام لما اعاز به من الأمانة والصدق
والذكاء ، ثم تزوج منها وهو في الخامسة والعشرين وقد بلغت الأربعين
من العمر ، ثم قضى بعد زواجه خمسة عشر عاماً ليتمّ عمره أربعين بما
عُرِف عنه من سجايا وصفات قلما عرفت في غيره من عفة نفس وحب
للوالب ، حتى لُقّبَ بيننا بالصادق الأمين .

قلت : — إن هذا العمر الذي قضاه محمد وقضى فيه زهرة صباه
لم يكن ملكاً للتاريخ ولا لأحد — أعني أنه لم تُبذل تهاويله في دعوة
عامة ، ولا في إنشاء عالمي ، ولا قيادة إصلاحية — فكيف تمتلئ صحائف
التاريخ بعد ذلك بما يتعاضد الدهر شأنه ، ويتكاثره خطبه ، أهل أتيح

لمحمد بعد ريعان الشباب أن يُغيّر وجه التاريخ !!

كيف نزل
الوحي

عمرو : — كان محمد في صباه قد حُبّب إليه الخلاء والعزلة ، وكان يكره الملاهي ، ولا يشترك مع قومه في أعيادهم أو أسماهم ؛ بل كان يلجأ إلى غار حراء بالقرب من مكة ليقيم فيه شهراً كل عام منعزلاً مفكراً مُتَحَنِّناً . وبينما كان ذات مرة في هذا الغار إذ أُوحِيَ إليه وشعر بأن منادياً يقول له : « إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » . فرَجَفَ فؤاده بهذه الكلمات ورجع إلى خديجة يقص عليها في جزع ما رأى ، وأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان عالماً بالدين الموسوي حتى ترجم التوراة من العبرية إلى العربية فلما قص عليه القصص^(١) قال : « هذا هو الناموس الذي نزل الله على موسى » ثم أخذ محمد ينشر الدعوة سرّاً بين آله وصحبه فأمنت به زوجته وكانت أكبر عزاء له فيما لقي من عنت الناس ، كما آمن به أبو بكر وعليّ وآمن على يد أبو بكر عثمان وعبد الرحمن ورهط ، ثم آمن به عمر وحزرة . ولما رأت قريش شدة استمساكه بدعوته شكوه إلى عمه أبي طالب الذي لحق به بعض ما لحق ابن أخيه من أذى ، فأراد نصحه قائلاً :

بيان
ووبيات
وهجرة

— يا بني : ابقِ على وعلى نفسك . فأجابه :

— يا عمّ : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري

على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته .

(١) القصص بفتح المشاة الفوقية مفرد قصص بكسر القاف .

ثم اشتد اضطهاد قريش له بعد موت عمه وزوجته وكان موتهما
 رُزأَيْنِ في عام واحد امتحن بهما محمد . وتحذّته قريش أن يأتي بالمعجزات
 ولو آتني بها ما صدّقوه : « حتى ترقى في السماء ولن نؤمن لرُقيك حتى
 تنزل علينا كتاباً نقرؤه » . فأوحى إليه : « قل سبحان ربي
 هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ » .

وأخذ يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج حتى آمن به جماعة
 من يثرب عاهدوه على حمايته إذا هاجر إليهم ، وانتقل فعلاً إلى مدينتهم
 عام ٦٢٢ م ربيع الثاني من سنة ١ هـ بعد أن انتحرت قريش بقتله فأبقى
 عليّاً مكانه في فراشه متشحاً بردّه وذهب معه أبو بكر إلى (غار ثور)
 معرضين نفسيهما لغدر الأعداء والفتك بهما ، غير مباليين بذلك في سبيل
 القضاء على سخافات العقائد القديمة من تقديس الأحياء من محترقة الدين
 والمرتزة بالعقائد ، ومن تقديس الأموات من الأنبياء والقديسين
 والصالحين . أجل ، غير عابئين بهذه القوات التي تتجمع في طريق هذه
 الرسالة التي طوّحت بالوُسْطَاء والشفعاء ، وجعلت الإنسان مكرّماً أمام
 خالقه سواء مع أى إنسان آخر بالغاً ما بلغ من المنزلة والرفعة والسمو ،
 فلا قديس يُفَضَّى إليه المُتَجَانِف بما اقترف ، أو يطرق له باب الملكوت
 إذا اعترف ، ولا وَلِيَّ يقضى الحاجات ، أو تُوجَّه إليه الضّراعات ،
 إلا إنه لا وازع للانسان إلا من ضميره ^(١) .

(١) اقرأ إن شئت ما جاء في الكتاب : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » ، « قل
 إن الشفاعة لله جميعاً » « وما أنت عليهم بوكيل » « وما أنت عليهم بجبار » « وما أنت عليهم
 بحفيظ » « لست عليهم بمسيطر » « ويخوفونك بالذين من دونه » « أليس الله بكاف عبده »
 ومثلها في تمحيص الفؤاد من تعظيم المخلوق وتطهيره من أدران الشرك في الكتاب لا يحصى .

فيوم الهجرة يوم العبرة .

وليس هناك يوم هو أحق بالتأريخ من اليوم الذي أنقذت فيه الإنسانية بإتقاذ رسالتها^(١) ، وكان حَقْد قريش على الأنصار ضربة لازب ، وكان على محمد وأنصاره أن يستعدوا للدفاع ، وهنا تنتقل الدعوة إلى طور جديد ، فيصبح محمد ليس داعية فحسب ، بل رئيساً لحكومة المدينة وقائداً لجيشها ، وقد أدَّى دفاع المسلمين عن أنفسهم إلى سلسلة من الحروب انتشر بها الإسلام بسرعة لم يعهد مثلها التاريخ .

إسلام عمرو
وخاله وبناته
ابن طلحة

واستأنف عمرو : « وكنت أحد أعداء محمد حتى اتَّضَحَ الْمَيْسَمُ ، ورأيت بعد رويّة وتفكير أن الرجل صادق ، وأن السحر والشعوذة — اللذين اتَّهمناه بهما ظلماً — لقد كان أعدي أعدائهما فأسامت مع خالد ابن الوليد وعثمان بن طلحة سنة ٦٢٨ هـ م ، وهاجرنا إلى المدينة وفرح بنا محمد وقال :

— لقد رمّتمكم مكة بأفلاذ أكبادها ، لقد أسلمت العرب وآمن عمرو .

ثم اشتركت في غزواته حتى أَمَرَنِي عَلَى جيش غزوة ذات السلاسل وأبو بكر وعمر من جنودي وبعد ذلك بعامين دخل مكة فاتحاً فأمن أهلها وعفا عنهم ، وأعلن في خطبة الوداع مبادئ المساواة في وقفة عرفات .

« إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، لا فضل

مبادئ الحرية
والمساواة

(١) « إذ أخرجه الذين كفروا ثلثي اثنين إذ هما في الفار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه . »

لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ، ألا وإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في مكانكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ . ألا هل بلغت ؟ . اللهم فاشهد ! » قلت : — أيها القائد لقد عنّ لي أن أسألك — وأنت ابن بجدة البلدين مكة والمدينة — عن مبلغ صلتهما بمصر قبل الإسلام وبعده ، فإن بي لشغفاً إلى سماع حديث مصر في مهبط الوحي ، وقد علمت أن نعمة صلة بيننا وبينكم .

مكة والمدينة
مصرين

عمرو : — إن من هذا التاريخ ما يكون الحديث فيه في حضرة أبي الهول اقتياتاً على صاحب الحق الأول .

أبو الهول : — أشكر لك يا فتى قريش جميل إثارك ، ثم رمقني بعينه وقال :

إن تاريخ مكة ^(١) عندي يرجع إلى سنة ١٨٩٢ ق . م . أي في عهد إبراهيم (ع . س) وكان قد هاجر إلى مصر بعد حدوث مجاعة في العراق ، وكانت مصر لشقيقاتها كُبراهُنّ التي يفرع إليها العاني فتواسيه ، والمحروم فتعطيه ، والطريد فتؤويه ، وكان يحكم مصر وقتئذ الفراعنة المسمّون بالهكسوس ^(٢) وحدث بينهم وبين إبراهيم حوار بسبب

(١) ترتفع عن سطح البحر بنحو ٣٣٠ متراً وهي على عرض ٢١ درجة و ٣٨ دقيقة وفي طول ٤٠ درجة و ٩ دقائق يحيط بها من الشرق جبال خندمة وأبي قيس وشمالاً جبل الملقى وغرباً جبل الهندي والحجون ومن ثم الطريق إلى جدة وجنوباً جبل عمر وطريق اليمن وانحاء جبل أبي قيس .

(٢) المصريون يسمونهم الهكسوس أي الرعاة والبابليون يسمونهم (ماليق) والبرانيون أضافوا إليها كلمة (عم) أي أمة فقالوا (عم ماليق) ثم نطقها العرب (عماليق) ولما كان اللفظ في صورة منتهى الجموع فقد أخرجوا منه مفرداً فقالوا عملاق والجمع عماليق وعمالق وعمالق .

طلب الملك سارة لنفسه ، وأطمع قرعونَ فيها أن إبراهيم كان يقول
 (إنها أختي) ثم اتضح له الأمر وأدرك أنها صاحبان مُلهمَان فأكرمهما
 وأهداهما جارية هي إحدى حرائر مصر اللاتي استرقهن الهكسوس ،
 وأدى أسلوبهم في الحكم إلى غضبة مصر وثورتها عليهم بعد ذلك بقرنين
 فإن مصر الوادعة هي مصر المتشعبة بحقها ، ومصر الهادئة هي مصر
 المنزجرة الغضوب ، فلما عاد إبراهيم إلى العراق ألجأت مقتضيات الحياة
 سارة أن تزوج بين جارتها وإبراهيم فلما حملت هاجر دفعها الغيرة أن
 توغز إلى إبراهيم أن ينفيا ، وهناك في هذا الوادي الذي لم يسكنه أحد
 لعدم وجود الماء به — اللهم إلا بعض العماليق الذين كانوا يسكنون
 في شمال هذه المنطقة من الغرب بوادي الحجون^(١) ، وكانوا قد قدموا
 إلى هذا المكان من جهة البحرين حيث يمتد ملكهم إلى شبه جزيرة
 سيناء — ألقى إبراهيم هاجرَ وولدها إسماعيل ، وأخذت تبحث عن
 الماء حتى عثرت على بئر زمزم فكانت حياة لهذا الوادي ، بعد أن
 ذقت من آلام العطش ألواناً مريرة ، وكانت تجيل عينيها وترسلها
 حتى خيل إليها أن مارداً شاخصاً حيالها ، يراودها على اليأس
 والاستسلام ، فتأخذ حصيات لترجمه ، وكانت في غدوها ورواحها بين
 هروله وسنى من الصفا إلى المروءة باحثة عن الماء مثال الأمل المجسم
 والحياة المرجاة ، وهكذا كانت المصرية الأولى ...

هاجر
 وإسماعيل
 وزمزم

لم يسجل هذا الواقع صحائف التاريخ فحسب ، ولكن سجلتها

(١) وادي فاطمة الآن .

شعائر مقدسة يمارسها المسلمون ، توارثها أبناء هاجر عن أمهم .

فناسك الحج من سعي وهرولة ورمي جمار (حصى) إنما هي تصوير لما اعتراها ، وتمثيل لها في ساعات الظم ، ليتعلم أبطال الدنيا من هذه المصرية الصبر والثبات والأمل .

وجرى ماء زمزم في دماء متبلورة بماء النيل ، فمسحت هاجر بأقدامها البقاع الجرداء فاستحالت إلى خلايا من النحل تشعبت منها ممالك أخرى ، أغنى تخضت الطبيعة من هذه المصرية عن قبائل ودول من أنبل الشعوب وأكرم الأمم ، ثم مازالت تسمو في عقبها حتى أنجبت سيد الهداة ، ومنقذ الإنسانية (محمد) إذ تزوج إسماعيل من الهكسوس وأنشأ دويلة صغيرة تتكلم بلغة أمه المصرية في تلك الأصقاع النائية ، واتصلت لغة مصر بأختها في الجزيرة ، وإنك إذا أمعنت النظر في لغة مضر لتجدن لغة مصر تلوح فيها كباقي الوشم في ظاهر اليد^(١) ، ثم إن إبراهيم كان يرتاد هذا المكان بين الحين والحين حتى بنى الكعبة وأمره الله بتطهير البيت وجعله مثابة للناس وأمنًا^(٢) . ثم أذن للناس بالحج إلى هذا المكان وذاعت شهرته فكان مقصد الناس وغلب عليه اسم مكة وهي كلمة بابلية معناها البيت وكذا (مكا) ثم رجع إبراهيم إلى وطنه ،

(١) . يعلم ذلك كل من بحث في نشأة اللغة العربية وقد رأيت في كتيب عن الألفاظ العربية في القرآن للمرحوم الشيخ حزة فتح الله كثيراً من الكلمات يقول إنها مصرية الأصل مثل (الأولى والآخرة وبطائن وظهائر وسيد ومزجة واليم) وتختلف قليلا عن معناها في العربية .

(٢) . وإذا رجع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل (قائلين) ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم .

وتعهد إسماعيل البيت حتى مات ، فتولى أمره بنوه إلى أن دبَّ الوهنُ
فيهم ، في الوقت الذي كانت مصر قد قامت بثورتها على الهكسوس
وأجلَّتْهُمْ عنها ، فزحوا إلى تلك الربوع ، ورأى فريق منهم مكاناً تأتيه
الخيرات والأرزاق من كل فج عميق ، ورأوا قرب لغة هؤلاء العرب
الإسماعيليين من لغتهم التي اجتمع فيها ولا شك من عناصر اللغى
الكلدانية^(١) والسبئية والمصرية والعبرية ، وعلموا أن أمَّ هذا الشعب
الصغير هي أخت أولئك الأبطال الذين يضربون أقفيتهم فاستهواهم مبدأً
« أسد على وفي الحروب نعمة » فغلبوا أبناء هاجر على البيت فاحتلوه
وتقلوا معبوداتهم المصرية إليه ، وما زالت السلطة لهم حتى طغى سيلُ
العرم بعد خراب خزان مأرب في منتصف القرن السادس ق. م.
وتشتت أبناء حمير السبئيين^(٢) كما علمت ، ثم حرت بعض جحافلهم
بقيادة رجل يدعى مضاض بن الحارث فاتفق مع زعيم أبناء إسماعيل ويدعى
(نابتاً) على إجلاء الهكسوس ؛ ومن ثمَّ صارت الكلمة لهؤلاء
القحطانيين ، وانتهى أمرهم بأن صاروا — بعد أن كانوا يزعمون أن
بقاءهم في مكة إنما كان للمحافظة عليها وحماية أبنائها — يعيشون في الأرض
فساداً حتى ضعف أمرهم فتغلب عليهم أبناء هاجر الذين كان قد نزع
منهم رهوط في أنحاء البادية وكونوا عشائر وبطوناً وأحياء لم تزل تقدر

(١) أخذ أبناء إسماعيل الكلدانية من جدهم إبراهيم والسبئية من جرهم والمصرية من هاجر
وبعد ذلك أخذوا العبرية من بني إسرائيل وتكون من هذا المزيج لغة فصحي كانت أصل هذه العبرية
لغة الكتاب المجيد وفي الحديث « أول من انشق لسانه عن العبرية المدينة إسماعيل بن إبراهيم » .
(٢) ينقسم العرب إلى ثلاث طبقات . العرب البائدة . كعاد وعمود وطسم وجديس والعرب
العاربة سكان الجنوب وهم أبناء قحطان الذين هاجروا إلى الشمال بعد سيل العرم والعرب
المستعربة وهم أبناء إسماعيل .

بناء آريس
أو يثرب

مَهْوَى أَفْئَدَتِهَا . وَمَهْبِطُ أَرْوَمَتِهَا (مكة) . وكان موسى عند خروجه من مصر قد أوفد بعض رجاله يكتشفون له الجهات القريبة من مكة وقد عرف أن جده إبراهيم قد ترك له أبناء عمومة في تلك الربوع ، فلما كانوا في أثناء الطريق جاءهم خبر وفاة موسى فاستطابوا مكاناً خصباً يتحصنون به ، وبنوا مدينة أطلقوا عليها اسمين مصريين : (إريس) و (طيبة) والأول هو الذي حُرِّف فيما بعد إلى (يثرب)^(١) ولم يلبثوا حتى ناز المصريون على المكسوس فأجلوهم عن مصر فنزلت فلول منهم في (طيبة) هذه إذ أنسوا بأولئك المقيمين فيها لطول ما مارسوا عشرتهم ، كما أنس آخرون منهم بالمقام بين أبناء هاجر كما علمت ، وتشعبت القبائل الإسماعيلية واتصلت بالمهاجرين القحطانيين حيث تكون منهم جميعاً عرب شبه الجزيرة العربية ، وقد نزع إلى المدينة أيضاً فلول من عرب الجنوب بعد خراب سد مأرب وهم الأوس والخزرج ، فكان منهم ومن اليهود المؤسسين ليثرب كبنى قُرَيْظَةَ وبنى النضير وبنى قَيْنُقَاع شعب واحد وإن اختلف كل من الفريقين ديناً وثروة وتقاليد ونسباً .

نروح
عرب الجنوب

واشتد ساعد أبناء إسماعيل فشاروا ثورتهم على مُحْتَلِّي البيت ومغتصبيه ، فترحت جرهم من مكة إلى أرض جُهَيْنَةَ شِمَالِ يَنْبُع .

نورة
أبناء إسماعيل

(١) يثرب وهي المدينة وترتفع عن سطح البحر بنحو ٦١٩ متراً وتقع على طول ٣٩ درجة و٥٥ دقيقة شرقاً وعلى عرض ٢٤ درجة و ١٥ دقيقة من شمال خط الاستواء (أعني على خط الاستواء فيما بين دراو الواقعة بين اسوان وإسنا) ودرجة حرارتها صيفاً تبلغ ٢٨ سنتيغراد ، أما في الشتاء فهبط إلى ١٠ فوق الصفر نهاراً و٥ تحت الصفر ليلاً .

وهنا أكون قد أديت واجباً علىّ في بيان نصيبي ونصيبك
(يعني عمراً) من هذا المجد خالداً تالداً ، أما ما تلا ذلك من أطوار فإنه
من حقتك .

عمرو — لا عجب حين تُفيض في سرد تلك الوقائع وتوضح عليها
وتتأججها لأنك تذكّرتُها وتبينتها وبلاغها المبين ، ولقد صدق أبو الهول
حين أضفى على ما بين مصر والعرب المستعربة من رَحِمٍ مَبْلُولة ، ودماء
موصولة ثوباً من التحليل العلمي لا يدع سبيلاً إلى الشك فيما بيننا من
قُرْبى ، وذلك ما تعلمناه من نبيّنا منذ اللحظة الأولى التي شرع فيها
يجرّونا على هيبة الإمبراطوريتين ويحقرّهما في أعيننا ، ويأمرنا بالإغارة
على أطراف الملكتين (فارس والروم) ، أجل ، تعلمنا منه احترام
المصريين ، وإيصاءنا بهم : « أوصينكم بأهل مصر خيراً فإن لكم
فيهم نسباً وصِيراً » أما أجدادنا أبناء هاجر فإنه على الرغم من تحكّم
المُغيّرين بأمر بيت الله — حظ أخوالهم في وادي النيل — فإنه قد نبغ
فيهم رجال أذكاء ترعّموهم في الشدائد ، ووحدوا منهم الكلمة المتفرقة
وبعثوا منهم الأشلاء الممزّقة ، مثل كعب بن لؤي الذي كان أول
من جمع العرب في يوم العروبة^(١) (الجمعة) ليخطب فيهم ويستحثهم
على تلّس نجاد المكرّمات ، واجتناب الخلائق الرذيلة ، وقد اشتهر
أمره بين العرب وعظم قدره حتى أرخّوا بعام موته مدة أربعمئة سنة

(١) كانت أيام الأسبوع عند العرب الاسماعيلية هكذا : الأحد أول ، الإثنين أهون ،
الثلاثاء جبار ، الأربعاء ديار ، الخميس مؤنس ، الجمعة عروبة ، السبت شبار .

إلى عام الفيل ، ولكن ما كادت تنحصر السلطة في أبناء إسماعيل حتى
جاءت خُزاعة فتغلّبت عليهم ، وَوَلَّيْتُ أَرْضَ الْبَيْتِ بما كان لها من
العصبية ، رغم أن بني إسماعيل كانوا أرقى منهم وأسمى منهم عقولاً ، حتى
رجع أحد أحفاد كعب بن لُؤَيٍّ من الشام ، وكان قد ذهب مع أمه صغيراً
وهو قُصَيٌّ بن كلاب الذي سَمِيَ يوم العَرُوبة الجمعة ، ودُعِيَ مُجَمَّعاً لأنه
جمع حوله قبائل قريش بما مُنِح من حُسْن القيادة والسياسة والذكاء ،
مؤثراً في نفوسهم بيلاعته ، حتى أزال ما بينهم من الشحناء
والسخط ، وسعى لدى خُزاعة وفاوضهم في حِجَابَةِ الْبَيْتِ حتى باعوها له .
ومن هنا أخذ مفاتيح مكة وظل يعمل على تقوية عشيرته حتى أَجْلَى
خُزاعة إلى بطنِ مِرٍّ (وادي فاطمة الآن) ومن ثم اجتمعت له السقاية
والحِجَابَةُ والرَّفَادَةُ واللَّوَاءُ^(١) ولم تجتمع لرجل قبله ، وبذلك كان ملكاً
مستقلاً على مكة وإن لم يُتَوَجَّج بتاج الملوك ، أحبه الناس جميعاً في بلاد
الحجاز فرفع قومه إلى مرتبة الزعامة على سائر العرب ، وبني دار الندوة
ليكون بها مجلس شُورَاهُمْ ، وجعل بابها إلى بيته ، ولم يَمُتْ قُصَيٌّ حتى
جعل على القبائل خراجاً تؤديه إلى مكة ، وتكسب به الزلفى لدى أهلها .
وكان لقُصَيٍّ ولدان ، عبد مناف وعبد الدار . نبغ أولهما وكان أذكى
من الثاني قلباً وأسدَّ رأياً ، وأصغر سنّاً ، وسبق أخاه في ضروب
الشرف والمكارم . فأراد أبوهما أن يُرضى عبد الدار ويوفّر له عِوَضَ

اقتسام
الامتيازات
بين بني قصي

السدانة
في بني شيبه

(١) السقاية : سقيا الحبيج ، والحِجَابَةُ : خدمة البيت وسداته ، والرَّفَادَةُ : أطعام الفقراء
من آوى البيت ، واللَّوَاءُ : حمل الراية التي يرفعونها في حروبهم وكل أولئك من المفاخر العالية .

ما قص به حظه من رأى أخيه وعقله ونباهته ، فأوصى له بما كان
 في يده من السقاية والحجابة واللواء والندوة حتى يتكافأ مع أخيه ،
 ونشأ بنو عبد مناف ينازعون بني عبد الدار هذه الامتيازات التي ورثوها
 عن أبيهم حتى كادت تقع الحرب بينهم ، لولا تدخّل بعض القبائل
 بالتحكيم وقسمة هذه الامتيازات ، فكان لبني عبد مناف السقاية
 والرفادة ولبنو عبد الدار الحجابة واللواء وما زال كل من الفريقين محتفظاً
 بامتيازاته حتى فتحت مكة ، وكانت مفاتيح الكعبة مع عثمان بن طلحة من
 بني عبد الدار فأراد النبي أن يحتجزها منه فأوحى إليه أن يردّها^(١) فقال
 لعثمان : « هاكم خذوها خالدة تالدة » . وبعد موت عثمان سلمها إلى أخيه
 شيبة^(٢) وفي أوائل السنة الحادية عشرة من الهجرة اعترت النبي وعكة ،
 وقلق عليه الأنصار والمهاجرون حين استشرى المرض واشتدت الحمى ،
 واجتمعوا في المسجد ، فخرج عليهم متكئاً على علي بن أبي طالب معصوب
 الرأس وجلس في أسفل مرقاة المنبر ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :
 « أيها الناس : بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلّدني قبلي
 فيمن بعث الله فأخلّد فيكم ؟ ألا إني لاحقٌ بربي وأتم لاحقون بي
 فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصي المهاجرين فيما بينهم فإن الله
 تعالى يقول : « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ ، وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ » إلخ .

مرض النبي
 وخطبته
 ووصيته

(١) روى أنه نزلت في ذلك : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » .
 (٢) ولا تزال هذه الوظيفة محفوظة لبنيه إلى يومنا هذا وتمتد أقدم منصب في العالم — بعد
 منصب امبراطور اليابان — بقى منذ القدم إلى اليوم في سلالة أسرة .

ثم أسلم الروح إلى الرفيق الأعلى ضحوة الاثنين ١٣ من ربيع الأول

سنة ١١ هـ . ٨ يولية سنة ٦٣٢ م .

قلت : — إنكم حين كان النبي بين ظهرانيكم جمع منكم الكلمة ، ولمّ الشمل ، وعمل على توجيه أمته إلى ما شاء الله لها بكلمة أو إشارة أو بادرة ، فهل جرت الأمور بينكم بعد على الوتيرة الأولى من عهد نبيكم .

عمرو : — لقد استخلف النبي أبا بكر في مرضه ليصلي بالناس إماماً ، وفي هذا إشارة إلى أنه أحق الناس بالإمامة السياسية الكبرى ، وإن كانت إشارة غير صريحة ، ومن ثم اضطرب الأمر بعد وفاة النبي ، واستشرف إلى هذا الأمر بعض زعماء الأنصار ، وأخذ بنو قريش يتشاورون : هل يبقى الأمر في آل البيت ؟ أم يكون في المهاجرين ؟ حتى حضر أبو بكر وكشف عن وجه النبي وجثا على ركبتيه يقبله وهو يقول : « يا رسول الله : ما أطيبك حياً وميتاً ، بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين » . ثم خرج إلى الناس وقد وقف عمر شاهراً سيفه يمنع أحداً أن يعلن منعة النبي ، سيما وقد شك كثير من الناس في الوفاة فمن قائل بأنها غيبوبة كغيبوبة موسى عند التجلي ، ومن قائل بأن روحه في فترة عروج إلى الملاء الأعلى مشغولة بما يحول بينها وبين البدن ، فصعد أبو بكر المنبر وصاح صيحته : « ألا إن من كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبدُ الله فإن الله حيٌّ لا يموت ، ثم تلا الآية : « وما محمد إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسلُ أفإن ماتَ

موقف
الشيخين

أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ .

قلت : فإذا كان موقف عمر وسائر المترددين في قبول خبر

الوفاة إذن .

عمر و : — أشهد أني سمعت عمر يقول : « والله ما هو إلا أن سمعت
أبا بكر تلاها (يعني الآية) ففكرت حتى ما أتقلى قدماي وحتى أهويت
إلى الأرض حين سمعته تلا أن النبي (ص) قد مات ، وأشهد والله لكان
الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها الناس
كلهم ؛ فما أسمع بشراً إلا يتلوها » . ثم دفن رسول الله حيث مات
في بيت عائشة ثم استأنف عمرو حديثه فقال :

الحق
الراشدون

— لقد نبغ بعد وفاة النبي أمران لهما جسامنة وخطر في تاريخ
الإسلام : (الأول) أن النبي لم يُعين خليفة بعده ، وترك الأمر
شورى بين المسلمين فنشأ عن ذلك أن أخذ الناس يبحثون فيمن يخلف
النبي وتشعبت الآراء ، فذهب الأنصار إلى جعل الخلافة انتخاية
بلا قيد ولا شرط ، وذهب فريق إلى حصرها في آل محمد وأخذت
أكثرية المهاجرين بأن الخلافة في قريش : (الثاني) ارتداد العرب
جميعاً عن الإسلام فيما خلا مكة والمدينة وحاولت الطائفتان في أول
الأمر ثم ثابته إلى رشدتها ، فكانت ثلاثة المدن التي بقيت على الإسلام .
وكانت الردة قاصرة على منع الزكاة في أكثر القبائل حتى أن عمر
لم يرض أن يعلن أبو بكر الحرب عليها بقوله : (كيف نحارب من

ردة العرب

يقول « لا إله إلا الله » . فقال أبو بكر : « والله لو منعوني عقال
بَعِير كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله لحاربهم عليه » وادَّعى بعض الزعماء
في قبائل أخرى النبوة كطليحة الأسدي ، ومُسَيْلَمَةَ الحنفي ، والأسود
العنسي ، لذلك كان من الواجب علينا أن نَشُدَّ أزرَ أبي بكر كخليفة للنبي
للقضاء على هذه الفتن التي أَسْتَشَرَّتْ ، وجعلت المسلمين كالغنم الشاردة
في الليلة المَظِيرَةِ وقد سقط عليها جِيعَ الذئب ، وأسرعنا إلى تقرير
خلافة أبي بكر الذي كان أول أصحاب الرسول وكان موقفه الفاصل عند
الوفاة ، واضطراب أعصاب المسلمين ، فكان له فضل إسكان رُؤُوعِهِمْ ،
وتهدئة خواطرهم ، وموقفه في ذاك غير هيِّن ، إذ ليس أخطر على
حقائق الأشياء وعلى معقول السنن الكونية من خيال الشعوب
الخصيب حين يُحَلِّقُ في سماء عظمائهم ، وقد استبعدوا أن يتغلب عليهم
الموت ، حينئذ يؤلِّه العظيم وتُضْفَى على شخصيته تهاويل الأوهام
وَيُعْطَى من تسخير العقول إلى تنظيم تلك الأوهام وتسويتها — من
طول ما رَزَحَتْ تحت سلطان الخيال الوهم ، والعاطفة الطائشة — غير
ما قَسِمَ له من حظٍّ بشريٍّ يشاطر فيه بني آدم جميع مظاهر الحياة في
بدايتها ونهايتها ، وفي موقفه هذا — وهو ألصق الناس بنبي الإسلام —
دليل على أن هذا الدين أعدى أعداء الوهم والخرافة ، ثم ظاهرة قوية
بدت في شخصية الصديق تلك هي قوة الاستشهاد ، وبآية من
القرآن تكاد تكون قد نُسِيتْ ، إلى ما يحمل تاريخه من ذكريات
نبوية مجيدة ، وأحداث حافلة بالمعظائم الفارحة ، وإذا كان على عند بعض

الإسلام
عدو الوهم

الناس أحق بالخلافة إلا أن يئنة على لأبي بكر معنا كانت حاسمة
في مناط النزاع ، وكانت دليلاً على الوحدة والائتلاف ، وفي سبيلها يقوم
صرح الإيثار ، ويتلاشى هيكل الأنانية في بحر أن المواطن الجياشة ،
والإحساس النبيل ، وبذلك الإجماع فاز مبدأ أن الخلافة انتخائية في قرش .

خلافة
الصديق
١١-١٣ هـ
٦٣٢-٦٣٤ م

اهتم أبو بكر في أول عهده بالفتنة فعمل على إخمادها وبذلك استعاد
الإسلام هيئته وقوته ، وقدم له مساعده من قواد العرب المشهورين كل
معونة نكاح بن الوليد الذي هزم طليحة بن خويلد ، وطارد سجاج الكاهنة ،
وقضى على مسيلمة في اليمامة ، وخضعت شبه جزيرة العرب للخليفة . على
أن هذا الاهتمام بأمر الفتنة لم يثنه عن المضي فيما بدأ النبي رصمه من تجهيز
حملة أسامة ليؤدب بني غسان لإقدامهم على قتل رسول النبي إليهم^(١) .
وبهذا احتك المسلمون بالروم . هذا ، وسيروا أبو بكر حملة إلى قبائل
تغلب الضاربة في شرق نهر الفرات عند الحيرة ، وكانت تدين بالمسيحية
ويحكمها أمراء من العرب تحت سيادة الفرس ، وبهذه الحملة بدأ احتكاك
المسلمين بالدولة الساسانية .

ولما استتب الأمر وتم إخضاع المرتدين في شبه الجزيرة تهيأ
الإسلام للفتح الخارجي ، فسار خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني
نحو الحيرة وفتحها ، فانتبعت دولة الفرس وخشيت انتصار هذه الأمة

(١) بنو غسان من قبائل العرب التي دانت بالنصرانية واعترفت للدولة الرومانية الشرقية
بالسيادة عليها وكانت هذه الحملة التي جهزها النبي ثاني حملة وجهها النبي إلى الشمال (والأولى
سنة ٧ هـ التي قتل فيها قوادها الثلاثة جفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة — وهو أبو أسامة قائد
الحملة الثانية — وعبد الله بن رواحة وقد تولى أمرها بعدهم خالد بن الوليد فانتصر بإتقاد
جيشه بحركة انسحاب منظمة) وتعد هاتان الحملتان مبدأ احتكاك المسلمين بالدولة الرومانية .

الصغيرة الفتيّة ، وكانت هذه الدولة قد امتدّت نفوذها من وسط آسيا
الصغرى إلى حدود الصين والهند وكان سلطانها قوياً على العراق
وخراسان وبلاد العجم وما جول بحر قزوين من الأقاليم .

موقعة
القادسية

ولما اعتلى يزدجردُ عرش فارس جرّد جيشاً قوياً بقيادة رستم
القائد الفارسي المشهور لطرد العرب وردّهم إلى بلادهم ، ولم يتمكن
العرب من التغلب على الفرس إلّا في خلافة (عمر) حيث انتصروا
في وقعة القادسية ١٥ هـ ٦٣٦ م بقيادة سعد بن أبي وقّاص ، وقتل رستم
يد أبي محجن الثّقفي برُمج سعدٍ وعلى فرسه البلقاء ولذلك قيل :
« لا صَبْرَ إلّا صبر البلقاء ، ولا ظفر إلّا ظفر أبي محجن »^(١) .

وتعدّ هذه المعركة من الوقائع الحاسمة في تاريخ الإسلام ، سقطت
على إثرها في أيدي المسلمين بلاد العراق وما بين النهرين ، وارتد الفرس
إلى المدائن عاصمتهم ، وتبعهم سعدٌ إليها فاستولى عليها ، ثم استولى على
حلوان في ٢١ هـ ٦٤٢ م وفر يزدجردُ إلى حدود الصين حيث قتل ،
وغنم المسلمون في هذه الحرب غنائم عظيمة ، وأصبحت فارس وممتلكاتها
داخلة ضمن دولة الإسلام . وبنى المسلمون البصرة على خليج العجم ،
والكوفة على الشاطئ الغربي لنهر الفرات ، واعتنق الفرس الإسلام ،
واختلطوا بالمسلمين وصاهروهم وأصبحوا عنصراً إسلامياً هاماً يُعرفون

فرار
يزدجرد

بناء البصرة
والكوفة

(١) كان أبو محجن يكثر من الشراب واعتقله سعد في هذه الغزوة يضرب الخمر فقيده
وألقاه على الجبل فاستنجد بأسماء ابنه زوج سعد أن تفك وثاقه ليحارب الفرس الذين أوشك
المسلمون أن يندحروا أمامهم وكانت المعركة حامية الوطيس وأخذ يتوسل إليها حتى فكّت
قيده عنه وأعطته فرس سعد ورمحه فانقض على الفرس ومهازيمهم لا يقتحم جهة منهم إلّا هزمها
فبرز إليه رستم بن اسفنديا فقتله أبو محجن وعفا عنه سعد حين انتصر المسلمون بشجاعته وبأسه .

عند العرب بالموالى ، وكان حكم المسلمين فى بلاد الفرس صالحاً حيث
 قضى على نظام الطبقات فيها وترك الأرض للفلاحين يزرعونها
 ويستغلونها كما ترك الناس أحراراً فى عقائدهم الدينية ، واكتفى بأخذ
 الجزية ممن لا يقبل الإسلام منهم ولما مات أبوبكر عام ١٣ هـ - ٦٣٤ م
 كان قد أوصى قبل وفاته أن عمر خليفة له ليتلافى ما وقع فى أول عهده
 من انقسام المسلمين وبالأخص أنهم كانوا فى حرب مع الدول الأجنبية
 إذ كانوا يحاربون الفرس شرقاً من جهة ، والروم شمالاً من جهة أخرى .
 وقد بايعه الناس تبعاً لبيعتهم لسلفه إذ تعدُّ طاعتهم لوحيته لمن يخلفه مما
 يندرج فى نطاق بيعتهم له على السمع والطاعة فى المنشط والمكروه .
 ولقد رأينا عمر يواصل خطة سلفه العظيم شبراً بشبر وذراعاً بذراع
 وكان أقوى رجل فى عصره شخصية وأعلى رجل فى الصحابة همة ،
 وأشدهم غيرة على الحق والإنصاف .

خلافة عمر
 ١٣ - ٢٣ هـ
 ٦٣٤ - ٦٤٤ م

قلت :- أيها السيد إننى عندما أُخزِرُ تعدَّادَ القوات التى تستطيع
 دولة فارس أن تحشدّها فى معركة من المعارك الفاصلة لبلغ من راكمي الفيلة
 إلى ممتطى الجياد إلى الرجال غير الركبان ما لا يقل عن مائة ألف
 أو يزيدون ، كما أننى عندما أقدر جحافل الرومان فى سرايلهم من
 الفولاذل ما كان أقل من قوة الفرس عدداً وعدة ، فإذا كان عددكم حينئذ
 كى تواجهوا قوات الدولتين ، وتحاربوا فى ميدانين ، وتأخذوا بأيديكم
 سلاحاً ذا حدين .

عمرو - إن المسلمين جميعاً لم يكن يزيد عددهم حين تُوفى الصديق

على ثلاثين ألفاً وخمسة آلاف . فما كنا متكافئين مع أعدائنا في العدد يوماً ما ، وما كنا مثلهم في العدة والسلاح في أية معركة من المعارك ، ولقد كانوا يحاربوننا من وراء الحصون المنيعة ، وليس لنا من حصن إلا ظهور الخيل والغبار .

قلت : — فكيف إذن تسنى لكم أن تقتصروا ببله أن تفتحوا وتستولوا على عواصمهم وتثّلوا عروشهم ؟ .
وهنا رأيت . كأن أبا الهول قد تحرك وبدأ كأنه يريد أن ينطق خافضيننا فإذا به يقول :

أبو الهول — إن أسباب ذلك ترجع إلى عوامل قد شهدتها بنفسى وجرت تحت سمى وبصرى ووصل إلى من رذاذها وآثارها . كانت البلاد الواقعة غرب نهر الفرات (فلسطين وسوريا) خاضعة للدولة الرومانية الشرقية وكان بعض السكان من عنصر عربى وجميعهم من الجنس السامى ، وعلى ذلك كانوا مرتبطين بالعرب برابطة الجنس والدم وكانت هذه الدولة قد تضعضعت قواها من جرّاء حروبها مع دولة الفرس الساسانية ، ولم تكن مرتبطة برعاياها بروابط طَبِيعِيَّة ، وزاد الطين بِلَه أن الشعوب كانت تتنّ من ثقل الضرائب التى كانت تجبّئها الحكومة وكانت تعاني الأمرين من الاضطهادات والانتقاسات التى سادت زمناً طويلاً فى أنحاء البلاد ، على أن هذه الدولة كانت لا تزال لها آسيا الصغرى والشام ومصر وفلسطين وشمال أفريقية وشبه جزيرة البلقان وبعض جزر البحر الأبيض ، وكان عدد جيوشها أكثر من عدد المسلمين

كثرة مفزعة ، ولكن شعوبها لم تكن متجانسة ولا متفقة في الشعور ولا مندفة بروح حماسي إلى مثل أعلى كالذي كان يدفع المسلمين . أضف إلى هذا أن المسلمين كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر .

فقلت - ولكن أليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو التواكل والاستسلام ، وترك الأمور تجري بغير دفع من الإنسان ولا مساهمة في تديرها ، ولا اتخاذ وسائل للقيام بأعباء الحياة من رسم خطة وتصميم مشروع ، وسير في التنفيذ .

عمرو - كلا ياسيدي ، إن اعتقادنا بهذا لم يكن على هذا النحو أحاجي وألغازاً تُرْجى وقت البطالة ، ولا فلسفة تُردد عند ما تثبط الغزائم ، وتكَلُّ الجهود ، ولكنه كان عدة كاملة وسلاحاً ماضياً حين يدعو داعي الجِد ، والوثوب إلى قمة المجد ، هذا الاعتقاد كان وقت العمل لا وقت البطالة والكسل وبه استطعنا أن ندك الحصون ونسحق رؤوس الجبال تحت حوافر جيادنا .

ولقد جهز أبو بكر جيشاً للزحف إلى سوريا بقيادة أبي عبيدة بن الجراح وجهته حمص ، وجهزني بجيش آخر إلى فلسطين ووجهته بيت المقدس ، وقد كان جيش الروم عظيماً جداً يشرف عليه ويأمر تبعثه هرقل الامبراطور المحارب وكان منذ المعركة الفاصلة بينه وبين الفرس التي خلّص فيها الصليب المقدس وأعادته إلى موضعه من بيت المقدس يحوس خلال الشام ليعمل على استقرار النظام في البلاد ويعيد هبة الدولة إلى قلوب رعاياها ، وثمة عامل آخر جعله لا يعود إلى عاصمته

يُزِنُ نَظْمُهُ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ احْتِكَامِ الْمُسْلِمِينَ بِالرُّومَانِ عَلَى الْحُدُودِ وَظُهُورِ
شَأْنِ الْإِسْلَامِ فِي قَلْبِ الْجَزِيرَةِ وَخُرُوجِ كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ فِي جَنُوبِ
الشَّامِ عَنْ وِلَايَتِهَا لِلرُّومِ وَانْدِمَاجِهَا فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، إِمَّا بِأَدَاءِ الْجَزِيَّةِ
كَدُومَةِ الْجُنْدِلِ وَمَدَنِ تَبُوكَ وَأَيَّلَةَ وَإِمَّا بِإِسْلَامِهَا كَتَيْمَاءَ وَغَيْرِهَا ، كُلُّ
أُولَئِكَ جَعَلَهُ يَشْتَرِكُ فِي وَضْعِ الْخَطِّ الْحَرِيِّ وَيُشْرِفُ عَلَى الْمَعَارِكِ بِنَفْسِهِ
وَكَثِيرًا مَا كَانَ أَخُوهُ تِيوَدُورُ يَخُوضُ غَمَارَ الْمَوَاقِعِ وَيُبَارِزُ صُنَادِيدَ الْعَرَبِ
وَأَقْرَانِهِمْ . وَإِذَا اخْتَارَ الرُّومُ مَوْقِعًا حَصِينًا عَلَى نَهْرِ الْيَرْمُوكِ أَحَدَ رُؤَاةِ
(الْأُرْدُنِ) وَوَقَفُوا عِنْدَ انْحِنَاءٍ فِيهِ يُسَمَّى (وَاقُوصَةِ) وَقَفَ الْمُسْلِمُونَ
أَمَامَهُمْ بَعْدَ أَنْ جَمَعُوا قَوَاهِمَ وَوَحَّدُوا قِيَادَتَهُمْ بِرِيَاسَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ إِلَى أَنْ
أَرْسَلَ أَبُو بَكْرٍ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنَ الْعِرَاقِ لِيَنْضِمَ إِلَيْهِمْ فَأَصْبَحَتْ قُوَّةُ
الْمُسْلِمِينَ لَا يَسْتَهَانُ بِهَا ، وَبِمَقْدَمِ خَالِدٍ دَارَتْ الْمَعْرَكَةُ وَكَانَتْ الْقَاضِيَةُ عَلَى
الرُّومِ بِفَضْلِ حِذْقِ خَالِدٍ وَمَهَارَتِهِ ، وَلَا غُرُوبِ نَخَالِدٍ هُوَ عِبْقَرِيَّ الْحَرْبِ ،
وَدَهْقَانُهَا الَّذِي لَا يَطِيقُ أَعْدَاؤُهُ مَرَارَةَ كَيْدِهِ ، وَهَذِهِ الْمَعْرَكَةُ تَعَدُّ مِنْ
مَعَارِكِ الْإِسْلَامِ الْحَاسِمَةِ إِذْ لَمْ تُصَادِفْهُمْ بَعْدَهَا صَعُوبَاتٌ فِي فَتْحِ الْمَدَنِ
الْبَاقِيَةِ كَدَمَشْقَ وَإِنطَاكِيَّةِ وَبَيْنَمَا كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَفْتَحُ الشَّامَ وَقَدْ
عَيْنُهُ عَمْرُ قَائِدًا عَامًّا بَدَلَ خَالِدِ الَّذِي لَمْ يَجِدْ حَرَجًا فِي صَدْرِهِ أَنْ يَعْمَلَ
جَنْدِيًّا تَحْتَ رَايَةِ أَحَدٍ رِجَالَهُ ، كُنْتُ أَنَا أَفْتَحُ فَلَسْطِينَ ، حَيْثُ انْتَصَرْتُ
عَلَى الرُّومِ فِي وَقْعَةِ (أَجْنَادِينَ) ، وَكَانَ انْتِصَارًا مُتَوَاضِعًا وَلَكِنَّهُ كَانَ
حَاسِمًا كَوَاقِعَةِ الْيَرْمُوكِ ، دَخَلْنَا عَلَى إِثْرِهِ غَزَّةَ وَيَافَا وَالرَّمْلَةَ وَصُورَ ، وَلَمْ
يَبْقَ إِلَّا بَيْتُ الْمَقْدِسِ الَّذِي ظَلَّ يَطْرُقُهُ يَقَاوِمُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ اشْتَرَطَ بَعْدَهَا

أن يتسلم عمر بن الخطاب البيت بنفسه فجاء عمر في مظهره البسيط
وتسلم المدينة بعد الاتفاق مع البطريق ، ومما هو حريّ بالتنويه في نظر
الروم وإن لم يكن عجيباً علينا في خلائقنا وشيئنا معشر المسلمين أن عمر
كان يتقاسم الركوب مع خادمه خلال الطريق أحدهما يقود المظية تارة
والآخر يركبها إلى أن دخل بيت المقدس وهو يقود البعير وخادمه
راكب وخرج الأقيال والقسوس يستقبلون الخادم الذي أشار إلى عمر :
« هذا هو أمير المؤمنين الذي يقود البعير » وكأن لسان حاله يقول
لهم هذا هو أمير الدين ساوى الإسلام بين العبيد والسادة فيهم ،
فكانت أول صيحة في الدنيا لتحرير العبيد وإنصاف الموالى ، وإعطاء
الأجير العامل حقه من العيش والحياة والراحة كما يُعطى غيرهم من
السادة والحكام . ومما بلغ هؤلاء من المجد الشامخ والمنصب العريض ،
والسلطان المشمخر ، فلا تزيدكم تلك المظاهر جميعاً عن أن تكونوا على سواء
مع كافة الأفراد ممن قعدت بهم وسائل العيش وأساليب الحياة عن أن
يلحقوا بركبهم ، وأروع من هذا في عين الروم وقد يكون من شوائق
الإحاديث المليحة لكم وإن لم يكن نادراً ذلك فينا أن يقول حين يسأله
أحدهم : أأنت أمير المؤمنين ؟ « يقولون ذلك ما دمت بينهم على الحق » .
وأخيراً . على أثر هذه الانتصارات غادر هرقل الشام وأصبحت جبال
طوروس الحد الفاصل بين ممتلكات الدولة البيزنطية وأملاك المسلمين .
قلت - إنك أيها الفاتح العظيم قد سردت جانباً هاماً من نصيبك
في هذه الفتوح بيد أنه إذا كان فتح بيت المقدس أولى القبلتين ومسرى

النبى قد ضمّ مقدّسات الإسلام تحت ظل الدولة الإسلامية وكان ذلك من الضرورة بمكان عظيم فى نظر كل من أنصف بِنَفسٍ النظر عن أن يكون مسلماً أو غير مسلم فإن هذه البقعة التى يشترك فى سكناها جميع أبناء الأديان المعروفة لا يصح أن يكون أعدلهم ولا أقربهم إلى الإنصاف منكم معشر المسلمين ، فكيف إذن فتحت مصر وهى بعيدة كل البعد عن مِظَنَّة كل تقديس فى نظر الإسلام ؟ وما هو الحافز لك على ذلك ؟ .
 عمرو - إنا قد آمنا بموسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، وإن ديننا يعتبر اليهود والنصارى أهل ذمة ، ما لم يحاولوا إخراجنا من ديارنا والتضييق علينا فى حرياتنا الدينية والمدنية لهم مالنا وعليهم ما علينا ، لذلك يجب عليكم معشر الأحفاد أن تصونوا هذه المقدسات وألا تعدوها فتوحاً لنا بل اعتبروها تراثاً تركناه لكم من حُرِّ دماننا فإن لم تحفظوه وإلا كُتب عليكم الصغار ، وكنتم عالة على أبناء يهوذا كساؤكم من سُؤلهم ، وشرابكم من فضلهم ، وطعامكم مما تخمُّوا به وعافوه .

خصائص
مصر

ولما كانت فى الأرض أما كن قد انمازت بخصائص كونية منحتها إياها الطبيعة من تاريخ حافل بالمساهمة فى تطور العقلية الإنسانية أو موقع جغرافى له خطره فى حماية الحوزة ، وتأصيل العزة ، أو ما تستمد منه الدولة بعض مِدرار الخير قوة وعدة تواجه بها صواب القضايا ، وعارم المشكلات . فإن كل أولئك الميزات بضروبها وألوانها قد توفرت لمصر ، فهي بما مُنِحَتْهُ من طيب التربة ، وخصوبة العِرق ،

وسخاء النّبتة ، تترنح أفنانها السندسية على حافتي النيل المبارك الذي
يجري وسطها ميمون الغدّوات ، مبارك الرّوحات كجرى الشمس
والقمر ، كأن الأرض وهي تحمله كبكرة عاقلة تحمل فيلسوفاً يسير مع
الطبيعة على عليها فكره ونظامه ، أضف إلى ذلك ما سجله أبو الهول
من رابطة العرق بيننا وصلة الدم . لذلك فكرت في فتح مصر بعد
فتح مصر
أن قت بفتح فلسطين ، وخاطبت في الأمر أمير المؤمنين الذي تردّد
أولا لعدم استقرار الفتوحات الجديدة ، ولقاة ما يمكن الاستغناء عنه
من الجند لميادين أخرى ، وأخيراً أقر عمر فتحها بعد إلحاح مني ،
ووصلت إلى حدود مصر على رأس أربعة آلاف مقاتل وبلغت مدينة
الفرما^(١) واستوليت عليها بعد شهر ثم واصلت السير جنوباً إلى
بليّيس^(٢) وكانت حصناً منيعاً افتتحناه بعد قتال عنيف .

قلت : — قيل إنك أسرت فيها ابنة المقوقس حيث كانت بها
عند الفتح فأرسلتها إلى أبيها مكرمة . أليس كذلك ؟ ..

أبو الهول : — إن المسلمين لم يكونوا في جميع أدوار حربهم
وسلمهم إلا رحمة على الناس وخصوصاً الضعفاء من الرّثى والنساء
الذين لا يستطيعون حيلة ولا يشهرون سلاحاً ، وما كانوا بحاجة إلى أن
يبدّلوا من مقولهم ما يثبت مفاخرهم فإن فعّالهم جديرة بأن تعطيك

(١) عند الحدود الشرقية من بلاد مصر وتبعد عن ساحل البحر بنحو ميلين وكانت حصن
مصر الشرق واسمها باللاتينية (بلوزيم) .

(٢) يضبطها يا قوت في معجم البليان بكسر الباءين كما ينطقها عامة المصريين غير أنها
في القاموس بضم الباء الأولى وفتحها مع فتح الثانية .

آكد قواعد الحكم بأنهم كانوا أعداء وأرحم من حارب ففتح فحكم
في دنيا الناس مذ عرفت الإنسانية الأخذ بأسباب المدنية. فابتسم عمرو
ابتسامة الفخور ثم أطرق في تواضع واستأنف قائلاً :

— وسرنا بعد ذلك إلى بابليون وهو قلعة على الضفة النيل اليمنى
أمام (منف) على الضفة اليسرى^(١). وقد اعترضتني في أثناء السير
جامية صغيرة بقرية (أم دُنين)^(٢) على شاطئ النيل الأيمن فاستوليت
عليها بعد بضعة أسابيع ، ثم عبرت النيل إلى (منف) وقصدت إلى
الفيوم ، وهنا قطعت الحديث قائلاً :

— إذن كأنكم قد تركتم حصن بابليون خلفكم وهو الذي قصدتم
إلى فتحه منذ غادرتم بليس .

عمرو — إننى وقد رأيت قلعة الجند الذين معى واقتنعت بعدم
قدرتى على مهاجمة حصن بابليون قبل وصول المدد الذى طلبته من عمر ،
أهدفت إلى غرضين يقتضيهما فن الحرب ومكيدتها : (الأول) أن أشغل
الحاميات العسكرية فى الفيوم فلا تستطيع وقد دَهِدَتهَا^(٣) الأخطار
أن تعمل على نجدة الحصن إذا ما عدنا لمهاجمته (الثانى) أن أشغل
جندى فلا أدعهم لما قد يجرئه الانتظار من ضعف إذا علموا أن حياتهم
رهينة بالنجدة ، التى قد تبطىء ، أو التى لا يكون إرسالها ضرورياً

(١) شيدها الفرس قديماً واتخذها الرومان مقلاً لهم لتوسطها بين مصر العليا ومصر السفلى .

(٢) أم دنين حيث يقع الآن حتى الأزبكية .

(٣) دهدمت المرأة ولدها إذا هزته لينام وأطلقت على الخطر المباشر الذى يهز كيانه صاخبه
إذا وقع ، أما إذا كان قريب الوقوع قيل له (التهديد) من (هدد وتهدد) بمعنى أوعد
وأنذر فالأولى دليل وقوعه والأخرى تدير به .

موقعة
عين شمس
٥٢٠-٦٤٠ م

في نظر الخليفة، وهنا قد تنهار الحملة، ثم بعد الإغارة على الفيوم عدنا إلى
(عين شمس) فوجدت مدداً كبيراً قوامه ثمانية آلاف مقاتل على
رأسهم المقداد بن الأسود والزير بن العوام وعبادة بن الصامت،
تخف الرومان لمناجرتنا، وحينئذ قسمت جيشي إلى ثلاث فرق جعلت
إحداها في عين شمس والثانية شمال قلعة بابلون (شرقي العباسية)
والثالثة عند أم دنين ولما هاجم الرومان الفرقة الأولى وكانت بقيادتي
انقضت الفرقتان الأخريان على ساقة الجيش الروماني وجناحيه فدارت
الدائرة على الرومان وكانت هذه الموقعة عام ٥٢٠ هـ ٦٤٠ م.

واستوليت على مدينة مصر حيث يقع حصن بابلون، ولولا أن
مياه الفيضان قد طغت على الأراضي المصرية لتمكنا من الاستيلاء على
جميع أراضي الدلتا، ولهذا اكتفينا بحصار الحصن من الجهة الشرقية.
ولما ضاق الخناق على الرومان وأوشك أن ينتهي الفيضان يئس
المقوقس من صدنا وكانت بيننا مفاوضات جارية يقوم بها عنا وفد
بقيادة عبادة بن الصامت، كان يروح ويغدو بين الفريقين على زورق
صغير للرومان ثم عاهدنا المقوقس في جزيرة الروضة أمام الحصن بغير علم
الحامية، وأرسل بالمعاهدة فوراً إلى هرقل في بزنطة فجزع جزعاً شديداً
واستدعى المقوقس إليه، فجدد المسلمون في حصار الحصن حتى سلمت الحامية.

سقوط
بابلون
٥٢١-٦٤١ م

بعد ثمانية أشهر وكان ذلك في أبريل ٦٤١ م ٥٢١ هـ. ويرجع ذلك إلى عوامل
كثيرة أهمها ما أحدثه موت هرقل من القبت في عضد الرومان وما أبداه
أفراد المقاتلة المسلمين من الاستبسال والجرأة، ويُعد الانتصار أمام حصن

بابلون نقطة تحول في حياة الأقباط ، فقد كانوا يسرون بمعاوتتنا ، ولكنهم بعد ذلك أخذوا ينضون تحت رايتنا جبهة رغبة في الانتقام من الرومان . قلت : — وماذا كان يدفع الأقباط إلى عداوة الرومان وهم أبناء ملة واحدة تجمعهم كلمة الدين المسيحي حين لا يجمعهم بالمسلمين شيء ، فماذا جعل المسلمين آثر على اتساع شقة الخلاف — من الرومان — على وحدة الدين ووحدة المثل ؟ .

موقف
الأقباط

عمرو : — ليس بين الرومان والقبط ما يوحد بينهم فالرومان ملكانيون والأقباط يعاقبه ، وكان الرومان يضيقون على الأقباط — لهذا الاختلاف الملى — فاضطهدوهم وصادروا حرية عبادتهم وشتوا القساوسة وأجأوهم إلى الاعتصام بالصغراء سنين ، ومن هنا جعل الأقباط — بعد أن رأوا سماحتنا — يشدون أزرنا في بناء الاستحكامات والجسور ، ويسهلون علينا الزحف من مكان إلى آخر حتى بنينا القسطنطينية واتخذناها عاصمة لمصر وشيدنا بها مسجداً وقف على تحرير قبلته ثمانون صحائياً . ولقد أسرنا إلى أخذ الفيوم بعد أن تركنا حامية صغيرة في حصن بابلون ، ثم سرنا إلى الإسكندرية محاذين فرع النيل المتجه إلى رشيد ، وتغلبننا على من أدركنا من الرومان عند دمنهور ، فالتجأوا إلى الاحتباء بالإسكندرية فحصرنا حولها برّاً ، ولم يكن في مقدورنا حصارها بحراً لقوة الأسطول الروماني ، وعدم وجود وسائل بحرية لدينا . الأمر الذي أطال مدة الحصار حتى سلمت في ديسمبر ٥٢١ — ٦٤١ م بسبب ما لحق حكومة القسطنطينية من الضعف على أثر موت (هرقل

سقوط
الإسكندرية
٥٢١ — ٦٤١ م

وما أصاب أهل الإسكندرية من الملل من جرّاء تقلبات الحكم البيزنطي وما فيه من اضطهاد ، ولأن المقوقس أقنعهم بأن التسليم خير لهم ، وربما كان مراده الاستقلال بطريقة الإسكندرية ، وأن تترك له ولأهل البلاد كامل حريتهم الدينية فيظفر بسلطانه غير منقوص .

على أنه يمكنني إجمال ما قام به عمر بن الخطاب من تجديد في الدولة الإسلامية وإنشاء فيها فيما يلي :

إصلاحات
عمر
ابن الخطاب

كان عمر أول من أنشأ الديوان وأول من عين القضاة وأول من جعل السلطة القضائية مستقلة عن السلطة الإدارية ، وأول من وضع التاريخ الإسلامي مبتدئاً من أول سنة قمرية بعد هجرة النبي من مكة إلى المدينة ، وأول من لقب بأمر المؤمنين ، وأول وأوّل إلى آخر تلك الأوليات التي لا تحصى . فإذا كان المؤرخون قد ذكروا تلك الأشياء مقرونة بأنه أول من أنشأها فهناك في طوايا الأحداث الجليلة ما قد تستظهرونه بوسائل معارفكم الحديثة ، ذلك أن عمر أول من منع أهل البلاد الذين اجتووا أو بثّوا أن يهجروا بلادهم حتى تنحصر العدوى في أضيق نواحيها ، ومنع أهل البلاد الأخرى أن يتصلوا بها وهو نظام (الحجر الصحي) في عصركم ، وأول من صادر أموال الأمراء والحكام وحاسبهم على ثرائهم وما في حوزتهم وهو قانون (من أين لك هذا ؟) وأول من جرّو على تجنيد أهل الصّفة ، وقد كانوا قومًا مهاجرين فقراء اتقطعوا إلى طلب العلم في المسجد وكان النبي يحبهم ويطعمهم قبل أن يطعم أهله وجرى على سنّهِ أبو بكر حتى جاء عمر فأرسلهم إلى الميادين

المختلفة ، وهو نظام التجنيد العام ، وعدم اعتبار أى صفة من الصفات الدينية التى تحول دون أداء الواجبات الوطنية الكبرى .

مقتل عمر
٢٣ هـ - ٦٤٤ م

ذلك هو عمر الذى لم يشغله شئ عن تدير أمور المسلمين وإصلاح شئونهم وكان من يقظة الضمير بمكان عظيم إذ يقول « لو أن سبخلة فى وادى الفرات أكلها ذئب لسئلت عنها عمر » وقد حقد عليه أبو لؤلؤة^(١) المجوسى مولى المغيرة بن شعبة فطعنه وهو يصلى بالناس فى آخر عام ٢٣ هـ ٦٤٤ م وأبو لؤلؤة من سببايا الفرس الذين استرقهم المسلمون فى فتح بلادهم وكثر عددهم فى المدينة وكانت لهم اجتماعات سرية يتدارسون فيها أخوالهم ومشاريهم العدائية للإسلام والمسلمين ، وكان أكبرهم فيها الهرمزان وهو أحد قواد الفرس المشهورين ، وكان من نتائج ما يتنوا قتل عمر :

اختار عمر ستة ينتخب الخليفة من بينهم علي وعثمان وطلحة والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأشرك ابنه عبد الله فى رأى على ألا تكون له الخلافة ، وأوصاهم وهو يحتضر أن يتشاوروا ثلاثة أيام وقد اختار هذا المجلس عثمان وكان من أحب المقربين إلى النبي حتى زوج به بنتين من بناته واحدة بعد الأخرى ، وكان

(١) حضر يوماً أبو لؤلؤة إلى عمر يشكو كثرة الخراج عليه ويطلب منه أن يعيده إلى المغيرة بن شعبة فسأله عمر : كم خراجك ؟ قال درهمان ، فسأله عن صناعته فقال : نجار ، نقاش ، حداد . فقال عمر : ما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال وقد بلغنى أنك تقول لو أردت أن أعمل رحي تطحن بالريح لعلت ، فقال : نعم فقال عمر : فاعمل رحي ، فقال : إن عشت لأعملن لك رحي يتحدث بها من فى المشرق والمغرب ، فقال عمر بعد أن انصرف : (لقد توعدنى العبد آتياً) وقد صدقت فراسته .

لِجَانِبٍ وَرِعًا وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَزْمٌ سَلَفِيَّةً فَتَرَكَ شُؤْنَ الْحُكُومَةِ فِي أَيْدِي أَهْلِهِ وَخُصُوصًا مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ كَاتِمَ سِرِّهِ ، الْأَمْرَ الَّذِي جَدَّدَ الانْقِسَامَاتِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ وَجَعَلَ كَثِيرًا مِنْهَا يَثُورُ لاسْتِعَادَةِ حَرِيَّتِهِ الْأُولَى ، وَزَادَ الطِّينَ بَلَّةً عَزَلُ عَثْمَانَ لِلْوَلَاةِ الَّذِينَ عَيْنَهُمْ عَمْرٌ ، وَإِحْلَالَ رِجَالٍ أَقَلِّ مِنْهُمْ كِفَايَةً مِنْ ذَوِي قُرْبَاهُ مَحْلُومٍ فَعَزَلَ صَاحِبُكَ عَنْ مِصْرَ (يَعْنِي نَفْسَهُ) وَأَقَامَ خَلْفًا لِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ ، وَاحْتَمَلَ النَّاسُ عَلَى مَضَضِ السَّنَوَاتِ السَّتِ الْأُولَى مِنْ خِلَافَتِهِ لِمَجَرَّدِ الْخَوْفِ مِنَ الانْقِسَامِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَهُمْ مَعْرِضُونَ لِفَتَكِ الْأَعْدَاءِ بِهِمْ . إِذْ كَانَ التَّرْكُ يَهْدِدُونَ الْحُدُودَ الشَّرْقِيَّةَ وَيُغِيرُونَ عَلَى مَا فَتَحَهُ الْمُسْلِمُونَ ، فَاضْطُرَرْنَا إِلَى صَدِّ هَذِهِ الْإِغَارَاتِ وَامْتَدَّتِ الْفُتُوحُ شَرْقًا إِلَى (بَلْخِ) وَ(كَابِلِ) وَ(هَرَّاتِ) . وَكَذَلِكَ قَامَتِ ثَوْرَةٌ فِي جَنُوبِ فَارِسَ أَلْزَمَتِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَفْتَحُوا (كَرْمَانَ) وَ(سَجِسْتَانَ) .

أَمَّا فِي الشِّمَالِ فَأَغَارَ رِجَالُ الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ عَلَى سُورِيَا وَرَدَّهُمْ مَعَاوِيَةَ فِي ٢٦ هـ ٦٤٦ م وَغَزَا الْأَنْاضُولَ حَتَّى قَرَّبَ مِنْ شَوَاطِئِ الْبَحْرِ الْأَسْوَدِ ، وَفِي السَّنَةِ تَقَسَّهَا هَجْمُ الْأَسْطُولِ الرُّومَانِيِّ عَلَى الْأَسْكَندَرِيَّةِ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا ، وَلَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ اسْتَعَادَوْهَا . وَرَأَى مَعَاوِيَةَ ضَرُورَةَ إِنْشَاءِ أَسْطُولٍ بَحْرِيٍّ وَوَافَقَهُ الْخَلِيفَةُ عَلَى ذَلِكَ سِيَا وَمَعَاوِيَةَ كَانَ يَقُولُ ^(١)

إِنْشَاءُ
الْأَسْطُولِ

(١) قَاوِلُ فُلَانٍ فُلَانًا : تَبَادُلُ وِلَايَةِ النُّوْلِ ، وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ اللَّفْظُ الشَّائِعُ (مَقَاوِلُ) صَحِيحٌ فَصِيحٌ لِأَنَّ الصَّانِعَ يَتَبَادَلُ وَصَاحِبُ الْعِمْرَةِ النُّوْلُ فِي صِفَاتِهَا وَفُلُوسِهَا ، وَتَقَاوِلًا : تَلَاخِيًا . وَمِنْهُ حَدِيثُ تَقَاوِلَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَأَغْلَظَ خَالِدُ الْقَوْلَ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي إِلَيْهِ ... » .

عمر في إنشائه من قبل ، فكان يأبى لأنه من الطفرة التي تأبأها طبائع العرب المحافظين على بداوتهم ، وهم لم يَأْلَفُوا إلا أن يسبحوا في رمال الصحارى وفلواتها على المِطِيِّ والظُّنِّ فكيف يتسنى لهم أن يركبوا البحر الخضمَّ تتقاذفهم أمواجه اللجّية ظلمات بعضها فوق بعض .

ثم آن للفكرة أن تبرز ووافق عثمان عليها وصار للمسلمين أسطول في شرق البحر المتوسط عقد لواؤه لعبد الله بن قيس الذي يُعدّ أول أمير للبحار في الإسلام .

قلت : — إن هذا العهد الذي تفضلت — أيها البطل — بالإفاضة فيه ليُخِيلَ إلى أن الأمة بأسرها كانت فيه مشغولة بحروبها في الخارج عن أن تقوم بأي إصلاح تتطلبه حالات السلم والاستقرار من نشر العلم والاتصال التجاري والسياسي بالعالم الخارجي الخ ...

عمرو : — إنه بينما كانت جيوشنا تتقدم شرقاً وغرباً وتلتحم وتقتحم ، كنا نهتم بالشئون التجارية والعلمية فانتشر الإسلام في كثير من الأمصار بفضل سفرائنا غير المفوضين من التجار والرّحّالين والجوّائين ، أما في شئون التشريع والفقه وتخرج العلماء والقضاة والأدباء فقد بدأ المختصون أولاً من حملة الكتاب والقراء والحفاظ بتصحيح النسخ المتداولة من القرآن ثم عنوا بالقوانين الشرعية واللغة وكان من أئمة هذه النهضة علي بن أبي طالب السياسي الفقيه وعبد الله بن عباس المفسر وزيد بن ثابت عالم الفرائض والموارث وعبد الله بن مسعود الراوية وأبو هريرة المحدث وعبد الله بن عمر زجل السنن أما

أمهات المؤمنين فقد قمن بدور هام في هذه التهضة لاسيا عائشة وحفصة
إذ كانتا مرجعين في مهم الأمور الدينية والاجتماعية التي يقتضى البت
فيها ذوقاً نبوياً رفيعاً .

قلت : — ثم ماذا كان من أمر الأمة وقد اشتكت الأمصار
من جور ولاية عثمان ؟ .

عمرو : — لقد بدأت الأقاليم تشكو فذهبت وفود مصر والعراق
وغيرها إلى كبار الصحابة في المدينة محتجون على سوء تصرف حكامهم
فقام علي والزبير وغيرهما بنصح الخليفة ، فأعلن عثمان رجوعه عن سياسته
وعين محمد بن أبي بكر عاملاً على مصر — وهو الذي كان على رأس
الوفود — وبينما هو في الطريق إذ وقع في يده كتاب بحتم عثمان بحمله
خادم له يأمر عامل مصر بالقبض على زعماء الوفد وقتل محمد بن أبي بكر ،
ومن ثم عادت الوفود إلى المدينة ، وأنكر الخليفة الكتاب ، واتضح
أن حامل خاتم الخليفة (مروان بن الحكم) هو الذي كتبه ، فطلبوا من
الخليفة أن يعطيهم مروان فأبى ، فاعتبروا ذلك منه رجوعاً عما أعلنه من
أنه سيقطع عن موالاة سياسة فتية بنى أمية ، وقد أثار ذلك غضب
الناس فشددت الوفود الحصار على بيت عثمان فلم يرضخ ، فناشدت
(نائلة) زوج عثمان مروان أن يُبقي على حياة أمير المؤمنين وأن يخرج
على القوم ثم يحتال بعد ذلك للنجاة فلم يُصنع لرجائها ، وكان أن عزمت
الوفود المحاصرة على مهاجمة الدار ، بعد أن لبث الحصار ثمانين يوماً
امتنت فيها المؤونة والزاد عمن في الدار ، وأرسل شيوخ الصحابة أبناءهم

إذ أرسل عليّ الحسن والحسين وأرسل الزبير عبد الله وعروة كي يدافعوا
عن الخليفة وكذلك فعل غيرهم ، ولكن كان قد تسلّق محمد بن أبي بكر
السور ومن خلفه نفر من الثوار ثم قتل عثمان قبل أن يحسن المدافعون
بذلك يوم ١٨ من ذى الحجة عام ٣٥ هـ - ١٦ يولييه ٦٥٦ م .

قلت : - وهل كان علي محمد بن أبي بكر كفل من دم عثمان . .
من حيث اشتراكه في القتل أو قيامه بهذا العمل وحده ؟

عمرو : - الحق أنه ليس مشتركاً فيتكافل مع القتلة ، وليس
منفرداً فيحمل أمام التاريخ وزر دم عثمان . لأن محمداً عند ما تسور
البيت وهجم على الخليفة في مجلسه وأخذ لحيته بيده ، شاهراً سيفه وهو
يقول : « لتعزل نفسك أيها الشيخ وإلا قتلتك » لم يكن من عثمان
إلا أن ذكره بمواقف الصعبة من أيه وأنه يقف الآن ما إن كان أبوه
حيالاً سنخطة ذلك الموقف منه ! ، وهنا هاجت الذكريات في نفس محمد
ومثلت له شواخص الأشجان ، فارتدى السيف من يده ، وخرج مذهولاً
عما عساه يقع بعد ذلك ، ولم يهطن إلى الذين تسللوا من ورائه فاقترحوا
مجلس الخليفة وأعملوا فيه صوارمهم (أما بعد) فإنه إذا كان عثمان يستحق
أن يُعزل فلا يستحق أن يقتل ، وإن هذا الحادث المروع في تاريخ
الإسلام لا تبرر أسبابه منطق القتل وسفك الدم ، والأمة التي تستطيع
أن تولي غلّك أن تعزل .

قلت : - أيها الفاتح العظيم ليكن هذا التاريخ الصادق الذي
سأرويه للأجيال على لسانك مستوعباً لأهم الأمور وأخطرها ، لقد

أطلب إليك أن تواصل الحديث بلهجتك الصادقة فيما كان بعد ذلك .
عمرو : — لقد أوقفتى موقفاً محرّجاً حين ألقيت على عيبه
الكلام عما كان بعد من الأحداث التي بلغت من الجسامة والخطر
— سيما وقد كنت أحد المبرزين فيها — ما يجعل حديثي عنها مشوباً
بالتحفظ ، ولكن من حيث كان الحديث للأجيال فإن للتاريخ لساناً
صادقاً في الآخرين فاستمع :

خلافة علي
٥٣٦ م - ٦٥٦ م

بعد مقتل عثمان بويع علي في المدينة بيعة عامة لما له من السابقة
في الإسلام والجهاد فيه ولأنه أفضل الأشياخ صحة وقرابة من النبي
من حيث أنه ابن عمه وزوج ابنته ، وإذا كان النبي يقول : « نحن معشر
الأنبياء لا نورث » فإن كثيراً من الصحابة لم ينظر إلى الخلافة كتركة
تُطبق عليها فرائض الموارث ، ولكن على أنها دعوة وحكومة
يقوم بها أقرب الناس فطرة وطبيعة إلى سمتها ، وليس أجدر ممن تُربى
في حضن النبوة ، وغذى بلبان الوحي . وقد بدأ علي بعزل الحكم الذين
علت منهم الشكوى ورد إلى بيت المال ما كان عثمان قد منحه لبني أمية
فعارضه هؤلاء منذ الساعة الأولى ، وكان معاوية بن أبي سفيان قد حكم
نحو عشرين عاماً وجمع حوله مائة ألف فارس يأخذون العطاء مع مثلهم
من أبنائهم ومواليهم لا يعترفون بعلي وخلافته ، فأعلن العصيان
واستعد لمقاومة علي ، فتشجع غيره من بني أمية وحلفائهم ، واتهموا
علياً بالتقاعد عن نصره عثمان ، ولقد ساعد هؤلاء على المضي في تمردهم
أمور منها أن علياً آوى في جيشه قتلة عثمان ولم يأخذ بثأره ، وأن طلحة

ابن عبيد الله والزبير بن العوام بن عمة النبي قد تقضا البيعة من علي وفرّوا
إلى مكة واتفقا مع السيدة عائشة لما كان بينها وبين علي من طول
الخلاف . ثم انتقل طلحة والزبير إلى الكوفة ، ولحقت بهما عائشة
وجمعوا جيشاً لمقاومة الخليفة ، وبذل عليّ جهداً لإقناعهم بالتسليم فأبوا^(١)
وحدثت موقعة الجمل بالقرب من الكوفة ، وفيها قتل طلحة والزبير
وأُسرَت عائشة فأكرمها عليّ وزادها إلى المدينة في إعراز ، واتخذ عليّ^(٢)
من ذلك الحين الكوفة مركزاً للخلافة . وقد اعتمد معاوية على كثرة
أعدائه فتقدم نحو العراق فقابله عند (صفين) غربي (الرقة)^(٣)
وحاول الخليفة إقناعه بالرضوخ والإذعان حتى لا تتصدّع وحدة
الأمّة ، ولا تشيع في المسلمين فتنة ، وعبثاً كانت محاولة عليّ ، فعرض
عليه حقناً للدماء أن ينازله وجهاً لوجه فأبى معاوية وبدأ الهجوم ،
فهزمه عليّ في ثلاث مواقع تهباً معاوية بعدها للفرار . ولقد كنت
في صفوف معاوية لأنه آثرني بالمشورة ، وقدمني في الرأي وكنت أرى
عليّاً أحق من معاوية ، ولكن ليس معنى هذا أن الأخير كان على
الباطل ، فإن أيّ الرجلين انتصر لا يكون له دستور يختلف عن
دستور صاحبه إلا من حيث اعتبارات ذاتية ، تتناول الفروع ،
وأساس الحكم هو القرآن ، ثم إن معاوية كان قد أحدث نهضة
في الشام قضى بها على الفقر وأقام ما تسمونه في عصركم بالعدالة الاجتماعية،

(١) الرقة : مدينة على الفرات . مسودة في بلاد الجزيرة . لأنها من جانب الفرات الشرقي
ويقال لها الرقة البيضاء .

ساعده على إقامتها بَصَرٌ بِشَتَاتِ الدُّنْيَا وإِقْبَالٌ عَلَيْهَا ، وَطَلَبٌ
 الْمَزِيدِ مِنْهَا ، وَلِذَلِكَ كَانَ حَرِيصًا عَلَى أَنْ يَعِيشَ النَّاسُ عَلَى نَعْطٍ مِنَ
 التَّرَفِّ وَالرَّفَاهِيَةِ حَتَّى لَقَدْ قِيلَ : « إِنَّ أَهْلَ الشَّامِ كَانُوا عِيْدًا لِلرُّومَانِ
 فَصَارُوا بِمَعَاوِيَةَ مَلُوكًا » وَلَقَدْ كَانَ فِي وَصِيَّتِهِ لَوْلَاهُ (يَزِيدَ) حِينَ
 حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ يَرْشِدُهُ إِلَى بَعْضِ أَسْبَابِ الْإِبْقَاءِ عَلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا إِذَا
 يَقُولُ : « يَا بُنَيَّ لَسْتُ أَخَافُ عَلَيْكَ إِلَّا ثَلَاثَةً . الْحَسِينَ بْنِ عَلِيٍّ ، وَعَبْدَ
 اللَّهِ بْنِ الزَّيْرِ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ . أَمَّا الْحَسِينُ فَأَرْجُو أَنْ يَكْفِيكَ اللَّهُ
 فَإِنَّهُ قَتَلَ أَبَاهُ ، وَخَذَلَ أَخَاهُ ، وَأَمَّا ابْنُ الزَّيْرِ فَإِنَّهُ خَبٌّ ضَبٌّ ، فَإِنْ
 ظَفِرَتْ بِهِ فَقَطَّعَهُ إِرْبًا إِرْبًا ، وَأَمَّا ابْنُ عُمَرَ فَإِنَّهُ رَجُلٌ قَدْ قَرَقَرَهُ الْوَرَعُ
 فَنَحَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخِرَتِهِ يُخَلُّ بَيْنَكَ وَبَيْنَ دُنْيَاكَ !! » .

ثم إنه كان إلى جانب حزمه وكياسته وحلمه حريصاً على أن يظهر
 في بَزَّةِ الْمُلُوكِ الْمَعَاصِرِينَ فِي الْغَرْبِ مِنْ زِينَةِ وَحِجَابٍ وَقُصُورٍ .

رَأَى أَهْلَ الشَّامِ هَذَا كُلَّهُ فِي مَعَاوِيَةَ وَنَظَرُوا فَإِذَا بَعْلَى وَأَصْحَابُهُ
 مِنَ الزُّهْدِ وَالتَّقَشُّفِ إِلَى حَدِّ الْإِغْرَاقِ ، وَمَا كَانَ الْخَوَارِجُ إِلَّا أَثَرًا مِنْ
 آثَارِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَلِيَّةِ بِالْكَفِّ وَالْكَبْخِ حَتَّى إِذَا الْمَلَاذِ الْمُبَاحَةُ ، وَلِذَلِكَ
 لَمْ يَكُنْ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ فِي نَظَرِهِمْ — بَغْضُ النَّظَرِ عَنْ خَطَا الرَّأْيِ
 وَصَوَابِهِ — إِلَّا مَعْرَكَةٌ بَيْنَ الدُّنْيَا الْمُبَاحَةِ السَّمْحَةِ وَبَيْنَ الزُّهْدِ الْمُتَزَمِّتِ
 الْعَمِيقِ ، وَحَسْبُكَ لِتَقْدِيرِ مَبْلَغِ صِحَّةِ هَذَا الْقَارِقِ أَنْ تَسْتَمِعَ إِلَى (عَلِيٍّ) حِينَ
 يَخَاطَبُ الدُّنْيَا خَطَابَ التَّقْرِيعِ وَاللُّومِ ، وَالطَّلَاقِ بِالثَّلَاثِ : « يَا دُنْيَا
 غُرِّيْ غَيْرِي ، أَلَيْ تَعَرَّضْتِ ، أَمْ إِلَى تَشَوُّفَتِ ، (ثُمَّ يَقُولُ) لَقَدْ بَايَنْتُكَ ثَلَاثًا

لا رَجْعَ بعدها » وكقوله يصفها : « الدنيا أولها عناء ، وآخرها فناء ،
حلالها حساب ، وحرامها عقاب » .

وكنا نرى أن طريقة على أقرب إلى الدين وطريقة معاوية ليست
بعيدة عن الدين ، ومع هذا كنا نعدُّ العمل مع معاوية نوعاً من التضحية
بعلكة الاحتياط الديني ، ولذلك قلت لمعاوية حين حَزَبَهُ هذا المهمُّ من
الأمر واحتاج إلى مشورتى فى المعركة التى سُقَّتْ إليك نبأ هزيمتنا فيها :
« أعطيك من دينى وتعطينى من دنيائك » واشترطت ولاية مصرفولائها .

لقد اقترحت أن يرفع جنود الشام المصاحف على أسنة رماحهم
إشارة إلى طلب تحكيم القرآن ، وذلك مَهْوًى أَفْسَدَ الأتقياء من
أصحاب علىّ مهما بلغ ظنهم بأنها خُدعة ، فلقد كان يسود بينهم مبدأ :
« من خَدَعَنَا بالله انخدعنا له » وقد انخدعوا ، وأصروا إزاء موقف على
وبعض المستنيرين من شيعته على التحكيم ، فضاغ انتصاره سُدى ،
وأذعن للأغلبية وجاء دور اختيار كل واحد من الطرفين (مُفَوَّضًا)
فاختارنى معاوية لأن الخدعة من صنع يدي وأنا الذى أهدف إلى مرامها
وعزم على أن يعيّن عبد الله بن عباس . فأبى أصحابه قائلين . « والله ما نبألى
أنت كنت حَكَمَهَا أم ابن عباس ، ولا نرضى إلا رجلاً هو منك ومن
معاوية سواء » وأشاروا بلزوم تعيين أبى موسى الأشعرى ، فلما اجتمعنا
— أنا وأبو موسى — اتفق كل منا أن نصدر قرارنا بعد بضعة أشهر
وعاد معاوية إلى دمشق وعلى إلى الكوفة .

وعند عودة على إلى الكوفة فكر رجال من أصحابه أن قبولهم

التحكيم

الحوارج

التحكيم كبيرة لا تغتفر إلا بالتوبة والعودة إلى القتال، وقد أبى علي أن يرجع عن وعده فاجتمع منهم اثنا عشر ألفاً وقرروا الخروج على علي ومعاوية على السواء وتنادوا بالجهاد، وطلب الاستشهاد، ولجأوا إلى الصحراء فتبعهم علي وقتل منهم عدداً كبيراً في واقعة (النهر وان) وفر باقي الخوارج إلى البحرين والإحساء والمغرب وكونوا نواة لفرقة الخوارج، ومن رأيهم ألا تكون البيعة إلا لله (١).

وفي خلال المدة المقررة كنا قد اجتمعنا في دومة الجندل — أنا وأبو موسى — وأقنعتهم بخلع علي ومعاوية، وإخلاء السبيل لانتخاب خليفة جديد، فلما جاء الموعد أعلن أبو موسى أنه قضى بخلع علي ثم أردفته فأعلنت خلع علي وتثبيت معاوية، ولم يجد أبا موسى سُخْطَهُ واحتجابه، وحدث بين الناس ذهول، ولم يرض معاوية أن يلقب بالخلافة إلا بعد سنوات حين ضعفت مقاومة خصومه.

مقتل علي
٥١-٦٦١ م

وبقيت لعل شيعه لا تقر معاوية، وكذلك الخوارج الذين دبروا مؤامرة لقتلنا نحن الثلاثة، أنا وعلي ومعاوية، وأخطأ رجلان إصابة هدفهما من رأسين وأوقع علي في شرك عبد الرحمن بن ملجم فقتله عام ٤٠ هـ ٦٦١ م. وأسدل الستار على حياة بطل شهم ذي مروءة. وإلى هنا انتهى حديث عمرو بن العاص وأخذت أُجِيلُ الروية فيما سرد من أحداث جسام. فالفيتني أمام الخلاصة التالية.

(١) ولا يزال بقية هؤلاء في بلاد الجزائر ومراكش والدار البيضاء وأكثرتهم في الجزائر ويعرفون بالأباضية وهم يعيشون على وتيرة منظمة وتقاليدهم عريقة ولا تحكم بينهم محاكم الدولة، وإذا ما طل مدين دأته دخل المسجد وأعلن ذلك وحيثما يقاطع الناس المدين فلا يسلمون عليه ولا يعاملونه حتى يوفى ما عليه.

إن أسلوب الحكم عند المسلمين بعد وفاة النبي (ص) إنما كان أشبه شيء بالنظام الجمهوري على أن يُنتخب رئيس الجمهورية لمدة الحياة ، ولم يوجد وقتئذ نظام معين لطريقة الانتخاب ، وإنما كان يحدث هذا الانتخاب بما يسمونه (البيعة) ولم يكن التمثيل النيابي معروفاً في ذلك العهد ، وهو ما لم يعرف في الإنسانية إلا بعد ذلك العهد بقرون . ولهذا كانت تحدث المبايعة من ذوى الرأى والنفوذ ويعتبر هذا انتخاباً من عامة الناس اقتراضاً ، ولعل هذا الأسلوب في الانتخاب كان من أقوى الأسباب فيما قام من النزاع والانقسام ولا سيما في عهد الخليفين عثمان وعلى .



الحديث السادس

الدولة الأموية — الفتوحات في العالم

انقضى بنهاية الخليفة الرابع عهد الخلفاء الراشدين وآل الأمر إلى معاوية الذي أقام صرح الملك شامخاً فارهاً ، ثم تناولته الطبيعة حين تتناول جميع الأشياء بقانونها الذي لا يتخلف ، والذي تراه ماثلاً في قذْفِكَ الْحَجَرِ حيث يتأرجح بين قُوَّتَي القذف وتأثير الجاذبية ، إذ يكون أقوى اندفاعاً لأول وهلة ، ثم يتحكم فيه قانون الجذب بالإضعاف والإهواء حتى يباشر الأرض التي قام من بين أحجارها الراكدة الهامدة ، ولذلك هالني أن تسقط دولة بني أمية بعد تسعين عاماً وعاماً ثَمَدَ عُمر رجل لا عمر دولة قامت على جماجم ألوف من الرجال لو أُعْطِيَتْ بقية من آجال الذين راحوا ضحاياها لعاشت آلافاً من السنين وَلَئِنْ ينظر في التاريخ للعبرة خواطر ، وله فيه وقفات يحاول أن يستقر مع خواطره قليلاً ليستعرضها في هدوء .

وكان يوماً من أيامي التي أروح فيها وأغدو من وإلى أبي الهول ، ذلك اليوم الذي وجدْتُني أتلّس فيه مواطن الخبر ، وأنظر إلى أبي الهول مرتقباً أن يوحى إليّ نبأ تلك الأيام الخوالي ، والتي ازدحم بأنبيائها وأنباء ما قبلها وما بعدها رأسه الإنساني الذي يَشَحِّدُهُ جِسم من أجسام

الضواري لا تهاب ، فليكن أبو الهول — كما قلنا — هو الفكر والقوة
وأرسلت عيني حتى أزغلا^(١) ، ورأيت كأن أبا الهول يحرك رأسه لينثر
من مكنونه بعض ما اختزن للدنيا ، فهتفت :

« هات يا فكرة تجسدت من الجندل الأشم ، تفجّر بالأخبار ،
كما يتفجّر مَنبِتُك الأول بالأنهار ، وكما حفظ النيل الذي ينبع من الجنادل
صدق الوعد في غدوّه ورّواحِه ، فأنت يا معدن النيل الطهور مظنة
الصدق وموطن الحق في تداوله وتناسخه » .

ولما كنتُ قد عرفت في حديث عمرو بن العاص كيف انتقل
الحكم من المدينة إلى الكوفة ثم إلى دمشق وكنت أعرف أن دمشق
لم تستكمل السلطان جميعاً إلا في عام الجماعة ٤١ هـ ٦٦٢ م حين دخل
معاوية الكوفة ، وكرّ شيعه على^٢ ، وأخذ بيعة الحسن والحسين ، وقد
بزالت منذ ذلك الحين معارضة آل هاشم له ، وإن بقيت قوات أخرى
من الخوارج شرسة تثير الفتنة ، ولكن ذلك لم يكن له خطر المعارضة
المسلحة لبني هاشم ، ومع ذلك فإن بني هاشم الذين أعطوا البيعة لمعاوية
كانوا يتربّصون نهاية حكمه للوثوب من جديد ، فسلط معاوية
على الخوارج المغيرة بن شعبة ثم زياد بن أبيه^(٣) فأوقعا بهم أشد النكال ،
ثم أُرهب حزب أبناء علي بضربة قوية أنزلها على حُجْر بن عديّ ومن

(١) . أزغلت العين مجت الدع .

(٢) زياد هو ابن أم لم يعترف به معاوية إلا بعد أن ظهرت مواهبه وهو ابن جارية تدعى
سمية ، فقد كان أبو سفيان عائداً مرة من سفر طويل فلما بلغ الطائف قال لخمارها : « ابني
بنياً فلقد طال عهدي بالنساء ، فجاءه بسبية هذه فلما ولدت زياداً ألحقته به لأنه كان أشبه الناس
بأبي سفيان » .

معه ، ولذلك كان هدوء هذين الحزبين على مَضَض ، فإنه لم تذهب ريمهم ولكنها سكنت إلى حين ، وما كان معاوية ساذجاً لا يدرى من أمر ذلك شيئاً فقد قال لابنه يزيد عند موته وصيته الرائعة التي صرت بك .

ولقد وُحِدَ كلمة المسلمين بعد انتصاره ومدف في فتوحاتهم في أفريقية التي صبغت بالصبغة الرومانية ، وكان البربر الذين أبوا الخضوع للرومان يدافعون عن استقلالهم معتصمين بجبالها ، وكانت صِغْلِيَّة القريية منها ترسل إليها المدد أحياناً مما جعل المسلمين يستغرق فتح أفريقية منهم زهاء ستين عاماً ، وعندئذ لاح لى أن أستلهم أبا الهول فذهبت إليه وأقمت بجانبه مطرق الراس ، وخيّل إلى أنه يقول :

فتوحات
معاوية

— « إليك عقبة بن نافع الجهني باني القيروان وقائد الجيش المصرى الذى هزم الرومان لكى يحدثك عما تتساءل عنه » وهنا تمثل لى رجل فى ثياب عريية يتسربل بالحديد ، يبدو من نطاق الدروع التى يتشح بها أنه نحيل البدن طويل القامة ، فى عينيه بريق الذكاء فتقدمت محيياً وقلت :

— لقد دل تعريف أبى الهول عنك — أيها السيد — على أنك فى مصاف عباقرة الحرب الذين لم يجعلوا من الحرب وسيلة فتح وغزو فقط ولكنهم جعلوها وسيلة للبناء والتعمير ، وتلك ظاهرة تجعلك فى مصاف الإسكندر باني الإسكندرية وجوهر وغيرها من البناء والمشيدين ، فطالعنا بالحق من تاريخ تلك الأيام نزوه للأجيال .

قال : — إن أفريقية مدينة لمصر بإسلامها ، فمنذ عرفت مصر الإسلام وهى المنار الذى اهتدت بصواه قارة أفريقية ، ويُعد فتح المغرب

عقبة بن نافع

الأقصى مفخرة لمصر ، ويتبع ذلك دخول الإسلام في أوربا ، فإن معاوية ومن قبله عثمان قد خَوَّلاَ مصر أن تغزو ما يليها من الغرب والجنوب ، ولذلك أرسلني معاوية إلى مصر لأقود جيش الغزو الذي عبر برقة وطرابلس وكانت قد فتحت في سنة ٢٢ هـ - ٦٤٨ م والتقىنا بالرومان في معارك عنيفة سنة ٥٠ هـ ٦٧٠ م جنوبى (أفريقية) - مدينة تونس - التى كانت قد فتحت عام ٢٧ هـ ٦٥٣ م فانتصرنا عليهم فعاودوا هجومهم علينا لقرب الشاطئ ، الصقل من ميدان الحركات ، فحرقناهم في معركة كبرى فى الميدان الذى شيدت مكانه مدينة القيروان ، ولكن كان لا يزال فى داخل البلاد عدو مقيم لا يرح إشن علينا حرباً شعواء ، ذلك هو العنصر البربرى ، فقد صنعوا كميناً راح فيه أكثر جيشى ، وكنت أحد شهدائه عام ٦٢ هـ - ٦٨١ م .

أما عهد معاوية فيعد أنصر عصور الإسلام بالفتوح والانتصارات فلقد أرسل المهلب بن أبي صفرة إلى الشرق ففتح السند ثم أخضع القسم الشرقى من أفغانستان ، وأعظم انتصار رائع لمعاوية قضاؤه على قوة الرومان فى البحر والبر ، وأراد أن يضيق نطاق اختيار الناس للخليفة بعده فأخذ على الناس البيعة لولده (يزيد) أول ولّى للعهد فى الإسلام ، فنشأت من ذلك الحين الملكية الوراثية ، وأقرته على ذلك وفود جميع الجهات عدا الحجاز الذى ظل متمسكاً بنظام الجمهورية الإسلامية الأولى ، وساعده على ذلك أن الحسين بن على وبني هاشم كانوا - أكثرهم - لم يبايع يزيد ومارعوا إلى التمرد على حكمه ولم يدخلوا فى طاعته ، إلى

فتح السند
ومزينة
الروم

ثورة الحسين

أن سار الحسين مع أهله وبعض أتباعه إلى الكوفة بدعوة من أهلها ،
ولقي الفرزدق الشاعر في الطريق فسأله عن الناس ، فوصف الحال
وصفاً صادقاً موجزاً : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية ،
والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء » وكان الحسين قد أرسل
مسلم بن عقيل بن أبي طالب رسولاً من قبله بكتاب منه إلى أهل
الكوفة لينوب عنه في أخذ البيعة من الناس ، فلتقاه جند ابن زياد
والى الكوفة وساقوه إليه فسجنه ثم جمع الناس وألقاه عليهم من
شاهق . وعسكر الحسين بمن معه في كربلاء ينتظر أهل الكوفة
في جيشهم الموالي له فلم يظفر بطائل لأن الناس قد روّعهم بطش
ابن زياد الذي علم بوجود الحسين ورجاله في كربلاء فجرد من فوره
جيشاً وهاجمه فحال بينه وبين الماء أولاً حتى غرّثت الأكباد من الصبية
والنساء ، ومرض كثير من أبناء الحسين وأبناء إخوته ، ولقد أشيع
أن الحسين طلب من ابن زياد أن يسمح له بالعودة إلى المدينة أو أن
يوجهوه إلى الغزوات الشرقية فإن قتل فبسيوف غير مسلمة وفي أرض
غير مسلمة ، أو أن يؤخذ إلى يزيد ، وليس عندي ما يثبت صحة هذه
الأحذوثة ، وأبى أعداء الحسين إلا الحرب ، فكان اللقاء لا محالة ، ثم
أظهر الحسين من البسالة والقوة ما جعله يُشخّن في عدوه ضرباً ولم يعمى
بالرماح تنوّشه من كل مكان حتى سقط عن جواده وقتل جميع من معه
من الرجال والصبية وسبي النساء ، ولم يبق حياً سوى طفل صغير هو
علي زين العابدين الذي تناسلت منه ذرية الحسين ومن أبنائه وأبناء عمه

مقتل مسلم
ابن عقيل
ابن أبي طالب

مقتل الحسين
٦٦١ هـ - ٦٨٠ م

الحسن كانت ذرية النبي (ص) وكان مقتل الحسين في اليوم العاشر من المحرم ٦١ هـ - ٦٨٠ م .

تخريب
المدينة

وقد أثارت هذه الحادثة استياء المسلمين جميعاً ، وكانت المدينة نائرة فجرد يزيد جيشاً إليها بعد عامين ٦٣ هـ - ٨٦٢ م بقيادة مسلمة بن عقبة ليُخمد ثورتها فحدثت واقعة الحرة المشهورة التي قتل فيها أكثر أبناء المهاجرين والأنصار ، وسلبت فيها المدينة وعادت إلى حالتها قبل الإسلام . . . وأمر يزيد الجيش بعد أن ينتهي من ضرب المدينة أن يذهب إلى مكة حيث عبد الله بن الزبير الذي أعلن العصيان ودعا لنفسه بالخلافة وبايعه أهل مكة جميعاً فحاصرها الجند وهدموها ولم يُرفع الحصار عنها حتى جاءهم منعة يزيد فعادوا إلى الشام ، وظهرت كذلك بوادر الثورة في العراق على يد رجل غريب الأطوار يدعى المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي بادر إلى بيعه محمد بن الحنفية ثالث أولاد عليّ حين سمع بمقتل الحسين ثم بعث إلى محمد من أتقذه من سجنه في مكة وأتى به إلى العراق ، ولقد كانت مواسم الحج تشهد من ذلك ظاهرة عجيبة في تاريخ الإنسانية ، فقد كان كل فريق يهتبل هذه الفرصة في مؤتمر السلام العام في البيت الحرام للدعاية ، فهنا لواء معقود ليزيد ولواء لعبد الله بن الزبير وآخر لمحمد بن الحنفية ورابع للخوارج الناقين على الجميع (وتلك ظاهرة - على غضاظتها - لا تحلم بها أعرق الأمم ديموقراطية حيث تتمثل فيها المعارضة بقواتها ومعسكراتها وتشكيلاتها ، وحيث حرية القول والاجتماع والتنافس في سماحة وسعة صدر لكسب

هدم مكة
وموت يزيد

ابن الحنفية
والمختار
ابن أبي عبيد

مواسم الحج
وما كانت
تشهد
من ذلك

ثقة الرأي العام ، وذلك قبل أن تعرف الديموقراطية الحالية بقرون)
ولمات يزيد خلفه ولده معاوية الثانى ولم يمكث أكثر من شهر حتى
رأى ثقل هذا الأمر فخلع نفسه ولزم بيته ومات بعد أربعين يوماً من
خلعه وانقرض بموته فرع أبى سفيان بن حرب بن أمية ، وهنا رأيت
كأن عقبة قد حصر وتلجأ إلى القول فى فيه وتحرك فى سميت من يستقبل
قادمًا من بعيد ونظرت فإذا قادم يدل مظهره على عظم المنصب ، فلما
قرب إذا به هيئة كاملة للملوك والخلفاء من بنى أمية ، سيف موشى
بالذهب ، وعمامة موشحة بالجوهر والدر ، وثياب مزركشة بالديباج ،
فهمش لنا وحيانا ثم ترجل عن فرسه وكأنه قادم من سفر طويل يبدو
عليه الحزن والهم ، ويبدو كذلك من قطوب الحاجبين وحركة العين
والفم اللذين يعروها ضرب من الحياء الخفى أن ضميراً يقظاً بين جنبه
يزرعه ، وهنا تنحى عقبة قائلاً :

ها أنا ذا أقدم إليك ولى عهد المسلمين وأمير مصر عبد العزيز
ابن مروان بن الحكم فإنه قين بالاطلاع على خفيات الأمور وجدير بأن
يكون صادقاً فى روايتها ، فتقدمت إليه ؛

قلت : — أيها الأمير ... ! ... وهنا قاطعنى .

فقال : — إننا فى ملا الأرواح نتمتع بحياة أكبر من حياتكم
فى ملا الأشباح ، فإن الروح إذا كانت فى هذا البدن حجبت بحجاب
المادة التى صنع منها بناؤه فلا ترى إلا بشىء منه ولا تسمع ولا تشم
إلا بحواس منه ، فإذا خرجت من هذا البدن خلصت إلى حياة أوسع

حياة
الأرواح

وعالم أرحب ، لذلك يكون سماعها ورؤيتها وحسها من جوهر ذاتها
لا استعارة من مسكنها ، ومن هنا نسمع ما تقولون ونرى ما تفعلون .
لقد ظهر أبي - بعد موت معاوية الثاني وانتقل الأمر إلى فرع أسرتنا
(أسرة مروان) ومن ثم ظل فينا إلى نهاية دولة بني أمية - وكان
شيخاً قوياً الشخصية حسن التآقي استطاع - بالرغم من سُخْطَةِ
كبراء الأمصار وزعمائها على استيزار عثمان له حتى أودى ذلك بحياة
عثمان - أن يحيل هذا الجو المضطرب القائم إلى صفاء ، فقد جمع حوله
شيوخ أهل الشام فبايعوه ثم أتى مصر واستولى عليها وأخذ البيعة
من أهلها وقلدني ولايتها عام ٦٣ هـ - ٦٨٣ م وعاد إلى دمشق أما أنا
فلم أعمّر طويلاً فتولى أخى عبد الملك الذى أقدمه إليك ليصل الحديث ،
وإذا بي وجهاً لوجه أمام أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يحتل مكان
عبد العزيز قائلاً :

عبد الملك
ابن مروان

- لقد استعد مروان أبى لمقاومة عبد الله بن الزبير منذ اللحظة
التي شرع فيها بالجميء إلى مصر لأنها كانت من شيعة عبد الله كالحجاز
والعراق وخراسان وفارس بل لم يخل الشام نفسه من أعوان له ، وكان
في وسعه أن ينال البيعة فيه لو أنه خرج من مكة وأظهر نشاطاً وإقداماً ،
ولكنه تباطأ وتردد مما مكن لمروان وجعلنا نستعين بالعرب القحطانية
في العراقين والشام الذين دفعتهم العصبية المحلية أن يكون الأمر
(الحكم) بين أيديهم وفي ديارهم لا يتجاوزهم إلى العرب العدنانية
في الحجاز ثم لا يبالون بعد ذلك أن يكون لبني أمية أو بني هاشم من

العدنانين^(١) فتقدم بهم للقاء أنصاره من المضربين بقيادة الضحّاك بن قيس الذي ولّاه ابن الزبير على الشام فقابلهم عند (مرج راهط) على بضعة أميال من الشمال الشرقي لدمشق ونشب القتال حتى فني أنصار عبد الله عن آخرهم وأصبح مروان أبي خليفة في دمشق ولكنه مات عام ٥٦٥ - ٦٨٥ وكان قد جعلني وأخي عبد العزيز وليين للعهد^(٢) على ترتيب أن أكون الأول في الخلافة فوُسد إلى أمرها ، وإن قلت : إن السياسة لا قلب لها فقد صدقت في بناء قاعدة لجميع الساسة في كافة العصور فالدسائس وعدم التقيد بالقوانين الأدبية كل أولئك مباح للوصول إلى الأهداف والأغراض ، فأرسلت جيشاً بقيادة عبد الله بن زياد لإخضاع

(١) تقدم أن العرب ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : العرب البائدة كطسم ، وجديس ، والعماليق وعاد ، وثمود ؛ والعرب العاربة وهم القحطانية من أبناء يعرب بن قحطان وقد مر بك سبب نزولهم من اليمن إلى الشام والحجاز والعراق وأشهر قبائلهم — أي النازحين — غسان ولخم وجذام وكندة وطيء وخزاعة وحارثة وجفنة والأوس والخزرج وأزد شنوءة وهمدان وأشعر ومذحج وقضاعة وجهينة وغيرها ؛ والقسم الثالث العرب العدنانية أو المستعربة أو الاسماعيلية وأشهر قبائلهم مضر (بطن من عدنان) ومنهم فزارة وعبس وخطفان وفهم وهذيل وسليم وذكوان ورعل وظفر وعصية وطريف وكلاب وهلال وقشير وعقيل وتيم وزيد مائة ومازن وزرارة ومجاشع بن دارم وقريش وليث ثم قضاعة (أخو مضر وهو قول مرجوح وآخر راجح أنه من القحطانية) ثم ربيعة (أخو مضر من غير خلاف) ومن قبائلهم عبد القيس — بساحل الخليج الفارسي — وأسد ونمر وتغلب وبكر وغنم والدائل وحنيفة وعجل وعدى ومالك وذهل ابن شيبان وذهل بن ثعلبة وجساس وهمام وسعد (بطن من قيس بن ثعلبة) وعنزة وأكلب أما قبائل قريش فهم بنو الحارث وبنو جذيمة بن لؤي وبنو محارب وتيم الأدرم وحسيل وعدى (ومنهم عمر) ومخزوم (ومنهم خالد بن الوليد وأبو جهل) وعبيد الغزي (ومنهم الزبير وخديجة وورقة بن نوفل) وعبيد مناف (ومنهم شعب عبد شمس الذين منهم عثمان بن عفان وأبوسفيان وبنو أمية) ومن عبد مناف أيضاً شعب بني هاشم (ومنهم النبي محمد (ص)) وشعب المطلب (ومنهم الإمام الشافعي محمد بن إدريس) وأخو عبد مناف عبد الدار ومن أحفاده (عثمان بن طلحة) ومن قريش أيضاً بنو تيم (ومنهم أبو بكر وطلحة بن عبيد الله) وبنو سهم (ومنهم عمرو بن العاص) وقد أجهلنا في القبائل وفصلنا في بطون قريش للتلازم والارتباط بأعلام رجالها .

(٢) عبد العزيز بن مروان توفي في حلوان ونقلت جثته بالنيل إلى القسطنطينية حيث دفن هناك .

الشيعة في العراق ولكنهم أبادوه ثم وجهت جيشاً بقيادة الحجاج إلى مكة فضيق الخناق عليها حتى حدثت مجاعة عظيمة وانقض عن عبد الله ابن الزبير كثير من أتباعه فأشارت عليه أمه^(١) أن : « يا بني عِشْ كريماً أو مت كريماً » فهاجم الأعداء وصدّهم ولكنهم تكاثروا عليه وقتلوه وحملوا رأسه إلى المدينة ومنها إلى بالشام وانتهت بذلك خلافته بعد أن ظل تسع سنين يُخطب باسمه في أكثر بلاد العالم الإسلامي ، وكان أهم ما حدث في عهدي إتمام فتح إفريقية إذ أمرت ولدي عبد الله وإلى مصر أن يرسل جيشاً بقيادة زهير نائب عقبة بن نافع فتوغل الجيش المصري في البلاد ولكن جاء مدد من صقلية للرومان فقتل زهير وارتد جيشه إلى برقة ورأينا أن نهاجم أفريقية من البحر فأرسلت حسان بن النعمان وإلى القيروان بأسطول من الإسكندرية فاسترجع القيروان بعد أن تغلب على الروم والقبائل المتبربرة المتوطنة في تلك البقاع وترك الرومان إفريقية عام ٧٨ هـ - ٦٩٨ م . إلا أن البربر ثاروا بقيادة امرأة تلقب بالكاهنة وفتكوا بجيش حسان وردوه إلى برقة فأرسلنا إليه المدد حتى يتمكن من القضاء على الكاهنة فنضع البربر واعتنقوا الإسلام ، فيما خلا مراکش التي فتحها بعد ذلك موسى بن نصير عام ٧٠٨ م في خلافة الوليد .

كان من أبرز ما قمت به في إصلاح أداة الحكم أن أحلت اللغة العربية محل اللغات المحلية المختلفة في دواوين الولايات والأمصار ،

(١) أسماء بنت أبي بكر الصديق .

وضربت نقوداً خاصة بالعرب بدلاً من نقود الرومان والفرس التي كانت متداولة في بلادى كالدرهم والدينار^(١) وكان يشوب عزيمة إفراط من القسوة لعله من وسائل تدعيم الملك ، ومسوغات تركيز السلطان ، حتى قضيت^(٢) عام ٨٦ هـ - ٧٠٦ م عشت في دنياكم ثنتين وستين سنة تولى الخلافة من بعدى ولدى الوليد ، وكان أخوه عبدالله والياً على مصر . وعندئذ سمعنا صوت عبدالله كأنه وراء السحاب حتى اقترب منا وهو يقول - أيها الرائد - وقيت الهوان - إن الوليد الأول أخى تولى الخلافة بعد أبيه عام ٨٦ هـ - ٧٠٥ م فضل يدأب على تدعيم سلطان الإسلام في ربوع المعمور ، وبلغت في عهده دولتنا أعلى درجة في الفتوح والثروة والمدنية ، وكان أظهر قواده ورجال دولته ، الحجاج ابن يوسف مؤدب العرب وقيية بن مسلم فاتح خراسان وبلاد العجم والذى وطىء بسنابك جياده دلتا القولجا من بلاد روسيا وأغار على بخارى وطخارستان وفرغانة لنقض الترك عهدهم إياه ، وقيامهم بقتل من وقع تحت طائلهم من المسلمين ، ولم يكتف بفتحها بل جلب إليها أسراً عربية تستعمرها ، نبغ منهم ومن أهل البلاد الذين اعتنقوا الإسلام كثير من الرواة والمحدثين والمفسرين والمفتين والقواد ، ثم محمد بن القاسم عامل (مكران) الذى رأى مناوأة القبائل المقيمة بين السند وبلوخستان له فضم السند وملتان وجزءاً من البنجاب إليه .

(١) الدرهم نحو خمسة قروش وهو قطعة فضية والدينار نحو نصف جنيه وهو قطعة ذهبية .

(٢) قضى أى مات .

فاستوطن المسلمون تلك الجهات ونشروا فيها الإسلام ، ثم مسلم بن عبد الملك أخى وقد كان يقود الجيوش فى آسيا الصغرى واستولى على أكثرها ، وعمر بن عبد العزيز وهنا قاطعته قائلاً :

— أيها الأمير ، إنك لم تجعلك سادساً لهم وإن شئت كنت صدرهم وطلعتهم فإنك أخو الخليفة وأحد أولياء عهد المسلمين ووالى مصر وفارس بنى مروان وأدناهن أرفع الشرف فلم لا أكون فى حلٍّ من أن أضيفك أنت إلى أساطين دولة الوليد ؟

عبد الله — كلا يا سيدى . لست أعنى أنى من أبرز رجاله فتواضعتُ ، ولا من أغمارهم فاتضعت ، ولكنى — مما كان من زكّى الوليد وحسن تأتّيه — كنت أوسطهم منصّباً حتى لا تكون قالةٌ فى الناس ذائعة : « إن بنى مروان قد استأثروا بجزئيات الأمور وولاياتها وتدافعوا بالمناكب مع ذوى المؤهلات العالية من أبناء الأمة » . لذلك عزلنى عن ولاية مصر بعد أن قضيت بها خمسة أعوام فى الوقت الذى عيّن فيه ابن عمنا عمر بن عبد العزيز عاملاً على الحجاز فأحسن إدارة البلاد وعمرّ مكة والمدينة وحفر الآبار وأصلح الطرق ونشر العمران فى شتى بقاع الحجاز ، فأتمّه كثير من أهل العراق فراراً من الحجاج الذى شكّا إلى الخليفة بأنه لا يستطيع حكم ولايته مع السماح لأهلها بالفرار إلى الحجاز ، وانتهى الأمر بعزل عمر بعد أن حكم ما يقرب من خمس سنين أعاد فيها إلى ذياك العهد ذكرى (الراشدين) فكانت حياته بركة على الإسلام وبنى أمة .

قلت : - إن بعض هذا من الأمور الخاصة فأحب أن تعرج بي إلى ما هو أعم ، فإنني أعلم أن قد فتحتم الأندلس جنة الإسلام وفردوسه الأندلس التي ضاعت من أيدي المسلمين يوم هانت على الزمان أيامهم ، فحدثني حديث المجد الباهر .

عبد الله : - لقد كانت إسبانيا تئنّ من حكم القُوطِ الغربيين وفضائع الإقطاع في الوقت الذي كانت فيه إفريقية متمتعة بالعدل والرخاء ، وكان اليهود المقيمون في إسبانيا مضطهدين من الأشراف ورجال الدين حتى اعتُبروا عبيداً لهم فهرب منهم كثير إلى إفريقية وطلبوا من موسى بن نصير وإلى مصر على إفريقية أن يُخَلِّصَهُمْ مِنْ ظُلْمِ (لُذْرِيْق) (Roderick) الذي كان مغتصب الملك وانضم إليهم أبناء الملك المخلوع (الكونت جوليان) وحاكم (سبته) وكان يبغي لُذْرِيْق ويحسده ، فاستأذن موسى أمير مصر سريّ بن شريك في فتح الأندلس فأرسل هذا بدوره يستأمر الخليفة في دمشق فأذن ومن ثم هاجم موسى هذه البلاد حتى احتل جزائر (ميورقة) و (منورقة) وأرسل جماعة بقيادة طريف بن مالك لاستطلاع الأحوال في أسبانيا ونزل طارق بن زياد مولى موسى في الأندلس ومعه سبعة آلاف في عام ٩٢ هـ - ٧١٠ م وتقدم داخل البلاد وجاء المدد من مصر ، وهزم جيش لُذْرِيْق في واقعة شريش ودخل المسلمون قُرْطُبَة وَغِرْنَاة وَطُلَيْطَلَة العاصمة وانضم موسى إلى طارق وأتمّا فتح إسبانيا إلى جبال (البرانس) . ثم استدعى موسى إلى دمشق فبلغها بعد موت الوليد ، ومات موسى فقيراً معدماً

أما المسلمون في الأندلس فقد عبروا جبال البرانس وفتحوا جنوب
فرنسا وحاربوا جيش شارل مارتل (قارلة) في واقعة (بين بواتيه وتور)
وذلك بعد أن أتم عبد الرحمن النافق فتح (أرل) سار إلى بوردو فاستولى
عليها ثم (ليون) وبيزانسون فأخذها عنوة وكان بينه وبين باريس
حوالي ١٦٠ ميلاً ثم قصد (تور) فدخلها فاتحاً وهناك قابلته جيوش
قارلة (شارل مارتل) فارتد عبد الرحمن بجيشه إلى السهول بين تور
وبواتيه وحصلت وقائع يشيب منها الولدان في عام ١٢٣ هـ - ٧٣٢ م
وقتل عبد الرحمن النافق فارتد المسلمون إلى إسبانيا بعد أن كاد النصر
يكون لهم لولا أن (قارلة) قصد بفرقة من جيشه إلى معسكراتهم
وفيها أمتعتهم وغنائمهم وأقواتهم ، فلما أحس المسلمون بذلك اتجهوا
إلى معسكراتهم ليحموها فضربت الجيوش الرئيسية للأعداء في أقيمتهم
فكانت هزيمتهم ، وعندى أن عبد الرحمن قد أخطأ في شيء واحد ترتب
عليه كل هذه النتائج ، ذلك أنه لم ينفذ رأي طارق بن زياد في تطهير
جبال البرانس ومنحدراتها الشمالية من القوط وغيرهم من باقي العناصر
الشرسة التي بقيت بعد ذلك فكانت سبباً للإخلال بالنظام وإقلاق
راحة المسلمين وتعكير صفوهم حتى استفحل خطرهم وتعاضم خطبهم ،
فكانوا قوة محاربة أجلت العرب من أرض إسبانيا بعد ثمانية قرون
من الزمان . ولقد نبغ من رجال الفتوح في إسبانيا عبد العزيز بن موسى
ابن نصير الذي خلف أباه في ولاية إسبانيا وقد أمر بإنشاء ديوان
للتوفيق بين الشريعة الإسلامية ومصالح أهل البلاد وعاداتهم ووضع

النواة الأولى للصناعات والعلوم والمعارف التي تقل من رجالها عدداً كبيراً من المشرق ، ثم السمع بن مالك الذي نهض بالفتح إلى جنوب فرنسا ومات في حصاره لمدينة طولوشة (تولوز) . ثم عنبسة بن سحيم الذي فتح (قرقشونة ونيا) وجزءاً كبيراً من جنوب فرنسا ومات في كين عمل له في جبال البرينات ، وقد كان ولاية مصر بعد ذلك يتعاقبون في زمن وجيز فبعد أن مات سري بن شريك سنة ٩٧ هـ - ٧١٥ م تولى مصر عبد الملك بن رفاعة فأقام إلى سنة ٩٩ هـ - ٧١٧ م ثم ولى مصر أيوب الأصبحي فأقام إلى سنة ١٠١ هـ - ٧١٧ م ثم ولى بشر بن صفوان الكلبي إلى سنة ١٠٣ هـ - ٧١٩ م ثم ولى أخوه حنظلة إلى سنة ١٠٥ هـ - ٧٢٢ م ثم ولى محمد بن عبد الملك أخى قرة ثم ولى حفص بن الوليد إلى سنة ١١٨ هـ - ٧٣٥ م وولى بعده عبد الرحمن بن خالد فأقام سبعة أشهر وعزل وأعيد حنظلة بن صفوان في سنة ١٢٠ هـ - ٧٣٧ م ثم عزل وولى بعده حسان بن العتاهية التجيبي سنة ١٢٧ هـ - ٧٤٤ م ثم أعيد حفص ابن الوليد وعزل عنها سنة ١٢٨ هـ - وولى حوثة بن سهل الباهلي ثم ولى المغيرة بن عبيد الفزاري سنة ١٣١ هـ - ٧٤٨ م ثم تولى عمى عبد الله ابن مروان ولاية مصر بعد أن شهدت من الأحداث الكبرى في سائر أنحاء الإمبراطورية الإسلامية ما تضيق به صحائف الزمان لكي أشهد الخاتمة المروعة لدولتنا والنهاية الشؤمي لأسرتنا .

فلقد انتهت خلافة أخى الوليد أبو العباس بن عبد الملك بوفاته سنة ٩٧ هـ - ٧١٤ م ثم تولاها أخى سليمان بن عبد الملك وكان أهم

عمر بن
عبد العزيز

ما حدث في عهده أنه أرسل جيشاً عبّر الدردنيل وأخضع تراقيا ، وحاصر القسطنطينية في عام ٩٨ هـ - ٧١٦ م إلا أن المسلمين قد اضطرتهم المجاعة والمرض إلى رفع الحصار وفي العام التالي مات سليمان وخلفه ابن عمنا أبو حفص عمر بن عبد العزيز الذي ينسب إلى عمر بن الخطاب من جهة أمه فإن أمه كانت ابنة عاصم بن عمر بن الخطاب من أمها التي سطرت في تاريخ المرأة المسلمة صفحة فخار للأجيال .

قلت :- حدثني ماذا صنعت هذه المرأة وكيف سطرت مفاخر لبنات جنسها ؟ ...

قال :- لقد كان عمر بن الخطاب يتعسس في ليلة ما فسمع امرأة في بيتها تحاور ابنتها .

الأم - قومي يا بنية امزجي اللبن بالماء .
البنت - يا أماه إن منادى أمير المؤمنين نادى ألا يمزج اللبن بالماء .
الأم - يا بنية ماذا يدري أمير المؤمنين من أمرنا ؟ ونحن ليس معنا أحد .

البنت - يا أماه كيف نطيعه في الملا ونعصيه في الخلا ؟ !
وسمع عمر مقالها وأرسل لبنيه في اليوم التالي يدعوم وقال لهم :
يا بني من أراد منكم أن يتزوج فهذه حسنة الدنيا ، فرغبها عاصم بن عمر فزوجها إياه فأنجبت بنتاً هي زوج عبد العزيز بن مروان وأم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وهو الذي أحيا سنن الخلفاء الراشدين ، وأظهر الكثير من سعة الصدر وبخاسة في معاملة بني هاشم ، مما أثار

عليه حنق بعض العناصر التي يطيب لها أن تعيش في جو كله حرب وخصومة ولو مع أنفسها وأولئك فريق من بني أمية مأفون ، ومع ذلك فقد استطاع أن يقوم بإصلاحاته الواسعة ، فقد أرسل إليه وإلى مصر سنة ١٠٠ هـ أيوب الأصبحي : « إن القبط يدخلون في الإسلام أفواجا مما أثر على جباية الخراج ، وإنني سأجعل الجزية على من يسلم وسأعفي أبناءهم » فأرسل إليه يؤنبه ويقول : « إن الله بعث محمداً هادياً ، ولم يبعثه جانياً » ولقد سمعت يحيى بن سعيد يقول : « لقد كنت عامل فوائد الزكاة عمر بن عبد العزيز على الزكاة فذهبنا في آخر حكمه نبحت عمن يستحقها فلم نجد ، فابتعنا بها رقيقاً فأعتقناهم » ذلك عصر عمر بن عبد العزيز الذي قامت فيه العدالة الاجتماعية والتكافل التام بين أفراد الأمة حتى لم يبق للفقر ظل في هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ومات عمر يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ وسنة تسع وعشرون سنة وقبره بدير سمعان بجمص ، ثم جاء بعده يزيد الثاني بن عبد الملك فظل أربعة أعوام وشهراً واحداً ثم جاء بعده هشام بن عبد الملك مدة تسع وعشرين سنة وسبعة أشهر غير أيام ومات سنة ١٢٥ هـ ثم ولي بعده الوليد الثاني ابن يزيد بن عبد الملك سنة واحدة وشهرين وكانت سيرته قبيحة مما أدى إلى زيادة نفوذ بني هاشم وانتشار دعوتهم ولا عجب « فمن يشابه أبا ما ظلم » فلقد بدأ جسم الدولة الأموية يتعفن ، ليتها إلى حضيض الرميم . وهنا استوقفني هذا التعبير منه ، وبدأ على التساؤل فبادرني قائلاً : — لا تعجب من قولي هذا إذ أردت أن أشير بالتعفن إلى سلوك

يزيد الثاني فيما يرويهِ المؤرخون من أنه أحب جاريته حباب التي أهدته إياها زوجها فطابت له الحياة بها وخرجت معه إلى ناحية الأردن يتزهران ، فرماها بحجة غيب فدخلت حلقها ، فشرقت ، ومرضت وماتت ، فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها حتى انتنت وهو يقبلها ، وينظر إليها ويكي فكلّم في أمرها حتى أذن في دفنها وعاد إلى قصره حزينا . . . وبقى بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس . . ثم بقي بعد ذلك خمسة عشر يوماً ومات ودفن إلى جانبها .

ثم واصل عبد الله حديثه قائلاً : أما ولده هذا (يعنى الوليد الثاني) فقد فاقه في المجون ، إذ صنع قبة أثناء ولايته للعهد على قدر الكعبة وأراد أن ينصبها فوقها ويشرب تحتها الخمر إلا أن صحبه خوفوه عاقبته ولذلك دبر ابن عمه يزيد بن الوليد الثالث مؤامرة لقتله وتولى بعده الخلافة ومكث بها ستة أشهر أصلح بعض ما أفسد من قبله إلا أن الزمن لم يعمله والتدهور الذي يحيق بدولتنا (بنى أمية) لا يقف في سبيله أى إصلاح بعد هذا فقد كانت الأيام أيام قتن ، وكان جبل الأمن قد اضطرب وانتشرت الدعوة لبني هاشم في كل مكان ولم تنفع فيها قسوتنا فلما مات يزيد بويغ أخوه إبراهيم يعة لم تكن بطائل فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة وناس يسلمون عليه بالامارة وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما واضطرب أمره فمكث سبعين يوماً . وسار إليه مروان بن محمد ، فخلعه وبويغ له بالخلافة بعد حروب يشيب منها الطفل سنة ١٢٧ هـ - ٧٤٥ م ومكث خليفة خمس سنين وفر إلى مصر وقتل بأرضها .

مروان
ابن محمد
الملقب بالبحار

وهنا رأيت عبد الله قد أخذته رعدة وارتجف ثم أجهش وقال : —
أنظرها هو مروان بن أخى فما أطيق رؤيته بعدما كان من نعت
الناس إياه بـ (الحمار) وقتله فى مصر على صورة يشيب من هولها الوليد .
قلت : — يا لله من أمره هذا ، (ولكأنى بالشغف يحدونى إلى
استجلاء قصصه منه) وهنا تقدم مروان فى بزّة متكررة غير التى رأيت
عليها أمراء بنى أمية وقال

مروان : — لا تدهش أيها السيد من أن أكون محوطاً بهذه
الظواهر الغريبة فلقد توليت الخلافة وكنت جاداً فى لم الشعث ، جلدًا ،
صبوراً ، احتملت فى سبيل ذلك أشد أنواع المكروه حتى سميت بالحمار ،
أما سمعت بمروان الحمار ؟

قلت — قرأت عن خليفة من بنى أمية يدعى مروان الحمار فظننت
أن ذلك مما كان من سخفه وحمقه وطيشه حتى دعى بهذا .

مروان — كلا — أيها السيد — إننى بعد أن اتسعت الشقة بين
الدولة والأمة وحفرت الدولة الأموية بأيدى المستهترين من سلفى بؤرة
عميقة بينها وبين الأمة أردت أن أجعل مكانها ردمًا ، فظلمات أعمل حتى
قُصِمَ ظهري ولم أسطع للأمر حملاً ، فلقد هبت ريح شديدة من الخوارج
استطاعت أن تكتسح المدينة وتحكمها لمدة ثلاثة أشهر تمكنت من
إخمادها بعد نصّب جهيد ، ولكن هذه ريح أخذت أعقبها صرصر عاتية
من بلاد فارس طوحت بى إلى مصر ثم أطاحت برأسى إلى العراق
وبقيت جثتى لتُدفن بالفيوم . إن دولتنا أيها السيد كانت دولة سياسية

أكثر منها دينية فلم تتذرع بالأساليب الدينية في تدعيم سلطانها ، بل كانت تعتمد في الأمور الحربية والسياسية على الأرومة العريية ونُعُرتها وعصبيتها ، والعرب بطبيعتهم شعب قوى كريم متفان في نشر الإسلام فأيدتنا العناصر العريية القحطانية والعدنانية بتشجيعنا للآداب العالية والفنون البلاغية ، ولكننا إلى جانب ذلك كنا لانميل إلى استجداء التأييد من رأى العام فكنا نعلم على بأسنا وبطشنا ، مما شجع على انتشار الدعوة لبنى هاشم فلقد أيدهم الأعاجم لأن العرب يؤيدون أسوادهم ، وأيدهم الرأى العام في غير شبه الجزيرة العريية لأننا لم نحاول أن نجعل له السلطة التى مناه بها خصومنا ، لأن خصومنا كانت دعوتهم شعوية تزخر خلاياها بعناصر الثقافات والآداب والفنون بل والعقائد والفلسفات ، فقد حاول كثير من أبناء على انتزاع الخلافة من الأمويين ولكنهم فشلوا وذهبوا ضحايا مطامعهم وانتهى الأمر بقتل زيد بن على زين العابدين وابنه الإمام يحيى وأبى هاشم بن محمد بن الحنفية وهو أخطر دعاة بنى هاشم إذ وفد على سليمان بن عبد الملك فى دمشق فجلس إليه يتحدث معه فرأى سليمان فيه زكاة ورجاحة عقل ، وعذوبة منطق فخشى أن يأتية الخطر من قبل هذا فعند عودته من دمشق إلى العراق دس له سمًا فى الطعام وأحس أبو هاشم بدنو أجله فخرج على الحُميمة ونزل عند على بن عبد الله بن عباس ، وقبل أن يسلم الروح تنازل عن حقه فى الخلافة ، لمُضيفه وقريبه على ، وكان لأبى هاشم حزب قوى منظم ولكن كيف يقنعه على بأنه خليفة أبى هاشم فى هذه الدعوة ؟ . لا بد من الحيلة . فاتصل بهم فى الكوفة وخراسان

فألفاهم يريدون أن يسموا وجوههم شطر أحد أبناء فاطمة من الأحياء
فحدثهم بوصية أبي هاشم فكثرت المناظر بين أشياعه وبين أشياع
الفاطميين وكادت تؤدي هذه المناظرات إلى فتنة تقسم ظهر دعوته
فاهتدى إلى حل كله الدهاء والحيلة ذلك أنه أوصى أن يدعو الناس إلى
(الرضا من آل البيت) وهو الذي ينتخب بالتراضي والاتفاق وفي هذا
ما يجعل كل فريق من شيعة أبناء علي يدعو إلى ما يدعو إليه فلا يعترض
الشيعة الاثنا عشرية^(١) ولا الشيعة الزيدية، غير أن دعائه هو كانوا ينشرون
سراً تنازل أبي هاشم له عن خلافته، ثم مات علي بن عبد الله وخلفه
في هذه الدعوة ولده محمد الذي كان لبقاً كيساً استطاع أن يدير الحركة
بحذق ومهارة فأدرك أن الشعب الفارسي مغلوب على أمره من العرب
وأنه يجب أن يلون دعوته بلون شعوبي يتنازل فيها عن التعصب
القومي فيظفر بتأييدٍ عظيم من غير العرب ولذلك خطب في دعائه
فقال : « أما الكوفة وسوادها فشيعة علي ، وأما البصرة فعثمانية
تدين بالكف ، وأما الجزيرة فخرورية صادقة^(٢) وأعراب أعلاج
ومسلمون في أخلاق النصارى . وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية
وطاعة بنى أمية ، وعندهم عداوة راسخة وجهل متراكم ، وأما مكة والمدينة
فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر ، لكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد
الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تنقسمها

(١) الاثنا عشرية : الإيرانيون ، وأكثر من نصف العراق ؛ والزيدية : أهل اليمن
فيما عدا بعض المناطق الشمالية من الشافعية .

(٢) الخوارج .

الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم يقدح فيها فساد . وهم جند لهم أبدان
وأجسام، ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة
ولغات فخمة ، تخرج من أجسام منكرة ، وبعد فإني أتفاءل إلى المشرق
وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق .

فكان لهذا النوع من الدعاية أثره في نجاح أكبر عضد للعباسيين
وهو أبو مسلم الخراساني الذي دخل في خدمة زعمائهم صبيًا ولما ظهرت
نجاته وذكاءه أصبح زعيمًا لنشر الدعوة في خراسان فأخذ يستحث الهمم
حتى تمكن في عام ١٣٠ هـ - ٧٤٧ م في خلافتي من نشر العلم الأسود وجمع
جيوشه من أتباع العباسيين بالقمصان السود^(١) ليتحدّ بهم أو ليرمز
إلى السيادة أو الحزن على من قتل من أهل البيت أو لأن النبي اتخذ
السواد في بعض غزواته أو لذلك كله وعلى أية حال فقد أعلن أبو مسلم ذلك
في عهدي وفي بلدة سفيدنج قريبة من (مرو) عاصمة خراسان منتهزاً
فرصة انشغالي بثورة الخوارج فأرسل عاملي (نصر بن سيار) يقول :
أرى خلل الرماد وميض نار وأحر أن يكون له ضرام
فإن لم يُطفئها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
فإن النار بالعودين تذكو وإن الحرب مبدؤها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري أيقاظ أمية أم نيام

فلما قتل في السجن ابن زعيم العباسيين إبراهيم الإمام كان أخوه

(١) وهذا يشبه الكتيبة الخضراء التي كانت حول النبي عند عمرة القضاء وتكررت في فتح مكة
كما كان شعار بني أمية اللون الأبيض وكان الرب هم البادئون في تنظيم الشعوب بالزى الموحد وهذا
هو بعينه ما ظهر بعد ذلك في وقتنا الحاضر في الشعوب الأوربية التي اتخذت القمصان الملونة شعاراً لها.

أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور قد تمكنا من الفرار إلى الكوفة حيث اختفيا وتقدم أبو مسلم غرباً في عام ١٣١ هـ - ٧٤٩ م واستولى على العراق ثم التقى جيش العباسيين بقيادة (أبي عون بن يزيد) وجيش الأمويين بقيادتي عند نهر الزاب بالقرب من الموصل ولقد انتصرت في أول الأمر حتى دب ديب الشقاق في جيشي بين بني قضاة وبني سليم وغيرهم وإلى هنا كنا نربح جميع المعارك التي دارت بيننا وبين أعدائنا حتى كنت أسمع عبد الله بن عليّ العباسي ينادي : « يارب حتى متى تقتل فيك ؟ » فلما وقع الشقاق ذهبت ريحنا وهزم من معي وفررت إلى دمشق ولكن الإعصار الهائج لحقني بها ففررت إلى مصر وتحفّيت وظللت أتقل بين ربوعها من الدلتا إلى الصعيد حتى وقعت في فخاخ العباسيين الذين أعلنوا الخلافة ، وما أكثر الخناجر تمتد إلى صدر الضعيف الذي لا عون له ، لقد اختبأت في دير أبي صير بالفيوم فدل عليّ من يطعم في مشوبة العباسيين فاحتزوا رأسي بعد قتال يئس وبين حفنة من شيعتهم قليلة تتعقبني وفيهم بائع رمان كوفي هو الذي ذهب نخوراً يتيه بأنه هو الذي قطع هذا الرأس عن الجريح المكشوم بطعنات المدى في الظلماء ولولا صياح بعض حاشيتي « أصيب أمير المؤمنين » ما كان إلا استمرار الضرب بينهم وبين من كان معي .

وهنا قد انتهى حديث أمير المؤمنين مروان بن محمد وكان قد حان وقت الرّواح فعدت وقد تمثلت لي هذه المشاهد المروعة مما كان له تأثيره في نفسي بعد حين .

الحديث السابع

الدولة العباسية — الدعوة الفاطمية

رجعت مثقلاً بما حملت من فرط ما رأيت من ورود أرواح هؤلاء الأقيال ، وما أشبعتني من أحاديثها ، ورأيت أن أستجم من ذلك ، فأخذت مضجعي فإذا بي أراني كأنني لا زلت في ساحة أبي الهول وكأنه قد مدت بين يديه في هذا الأخدود الذي يشبه الزقاق مائدة بطوله ، من أصابع أبي الهول إلى صدره الجاثم ، ورأيت في لصق صدره قائداً أبيض الوجه أشقر الشعر ضخيم الجثة ، قد برز له شاربان من حافتي لأمته ، وأخذ هذا القائد يتكلم بلغة فيها نبرة العجمة ، يشرح أسباب قيام الدولة العباسية وكان حول المائدة رجال على رؤوسهم عمام خضر وأخذوا بأيديهم أوراقاً وأقلاماً يكتبون ، فأومأت إلى أحدهم وقلت له أيها الشيخ : ترى من يكون هذا الخطيب الذي يتكلم بلغة مشوبة ، ولكنه متحمس لما يقول يضرب يده المائدة ، ويأخذ بمقبض سيفه ، ويشير به هنا وهناك ؟ فقال : هذا جوهر القائد الصَّقْلِيُّ مولى أمير المؤمنين المعز لدين الله وقائد جيوشه ووزيره الأول ، ونحن الجالسون جميعاً دعاة آل البيت العلوي وقد اتخذنا شعارنا عمام خضراً لتمييز بها على غيرنا وليتضح في الناس شرفنا . فجلست وراء ذراع أبي الهول أسمع فإذا به يقول .

كيف
استمر حكم
العباسيين

جوهري: — كان أبو العباس السفاح قد بويع في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٢ هـ قبل قتل مروان الحمار بنحو تسعة أشهر حتى انتصرت جيوشه في معركة الزاب الفاصلة ثم أخذ ينتشر ظله في أنحاء الإمبراطورية الإسلامية وكان أول شيء عني به من سائر أقطار الخلافة تلك الولاية الآمنة والبلدة المطمئنة (مصر) فأرسل إليها عمه صالح بن علي يتولى الأمر فيها وإلى جانب عناية العباسيين بها واختيارهم من أبرز شخصية بينهم لمصر رأينا الأمويين يلجأ البيت المالك بأسره إلى مصر ، ويبدو أن موقع مصر الجغرافي قد أفسح في رجاء المنتصر أن يملك زمام البلاد منها ، ووسع في أمل المقهور أن يجد منها منفذاً إلى سلامته ، ومهرباً من مطارديه ، ولما اتجه أبو العباس يؤسس ملك العباسيين أخضع الثورات التي قامت في دمشق وفلسطين ، وولى على الأقاليم رجالاً يثق فيهم ثم عهد لأخيه أبي جعفر المنصور بالخلافة ، وهو الذي يعد بحق المؤسس الحقيقي للدولة العباسية لما قام به من إحكام الروابط بين القوة الزمنية والسلطة الدينية وكانت الثانية مصدراً هاماً لقوة الدولة وعماداً متيناً لها وبدأ سلسلة من الإصلاحات وجلال الأعمال وأهمها استبدال العمال بغيرهم من وقت لآخر ، وعزل من يخشى استقلاله بالحكم من ذوي العصبية القوية ومن أهم أعماله اتخاذ دار السلام وإنشائها من جديد كعاصمة على الشاطئ الغربي للدجلة بالقرب من المدائن مكان قرية يقال لها بغداد في سنة ١٤٨ هـ — ٧٦٦ م وقد قتل أبا مسلم الخراساني^(١)

(١) اسمه إبراهيم بن عثمان بن بشار بن سدوس بن جردزة ، من ولد بزرجمهر ويكنى =

خوفاً من عظم نفوذه وأخضع الثورة التي قام بها أتباع بني مسلم وحصن الحدود التي بينه وبين الروم واتخذ خالد بن برمك وزيراً له فبدأت عظمة البرامكة الذين قاموا بأعباء الوزارة في صدر الدولة العباسية ، وكانوا من أكبر أسباب التقدم والرقى فيها ، وكان المنصور يشرف بنفسه على كل كبيرة وصغيرة حتى اعتلت صحته فقصد إلى مكة فعاجلته المنية عام ١٥٧ هـ - ٧٧٥ م وهو على بضع ساعات منها ، وخلفه ولده محمد المهدي الذي كان كريماً رحيماً وطد العزم على إزالة أثر كل إساءة اقترفها والده فعفا عن كثير من المسجونين السياسيين ، ورد إلى بني هاشم ما كان أبوه قد أخذ منهم ووسع المدارس وأكثر منها ووسع الحرم المدني وأنشأ القصور على الطريق من بغداد إلى مكة وسعى في توفير الماء على طول هذه الطريق ورتب البريد بين مكة والمدينة ، ومن إصلاحاته الصحية والإنسانية الإنفاق على المجذومين منعاً لانتشار العدوى وإطعام المسجونين حتى لا يموت فقراؤهم جوعاً وقد قضى على حزب الزنادقة الذي ظهر على عهده في جرجان شرق بحر قزوين وكان يدعو إلى عقائد مجوسية وإسلامية وإلى اشتراكية متطرفة ويحتقر الآداب والنظام ومن العجيب أن المهدي تولى الخلافة في وقت كان آباؤه وأعمامه جميعاً يتحرقون إلى التشنج من بني أمية

== أبا إسحاق ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة وهو ابن سبع سنين فلما اتصل بإبراهيم بن محمد إمام العباسيين قال له غير اسمك فسمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم ويكنى أبا مسلم وكان عمره ١٩ سنة يجري في عروقه دماء رفيعة من أجداده جعلته يثب بهمة إلى تحقيق غاياته مما خوف منه أبا جعفر .

حتى أن الأمير من بني أمية يكون في كنف الخليفة العباسي وقد أعطاه الأمان فيدخل شاعر عليه ينشد بيتاً يكون سبباً في نقض الخليفة لعهدده وحكماً على الأموي بالموت وهكذا قتل سليمان بن هشام بن عبد الملك حين دخل سديف الشاعر على السفاح .

الفتك
والتشفي
وأثر الشعراء
في تهيج
السخط
الكامنة

وقد قتل في يوم من الأيام سبعون أميراً من بني أمية في مجلس عبد الله بن علي عم الخليفة المنصور بسبب قصيدة لشبل الشاعر الذي حرض فيها وأثار كامن الموجددة في قلب الأمير العباسي .

فإذا استن المهدى سنة فيها رفق ورحمة وفيها وفاء وسكينة ، كان عهدده جديراً بالتخليد ، وقد عهد إلى وزرائه آل برمك بمهام الأمور فأصبح لهم التهي والأمر ، وقد صادق معاصره في غرب أوربا شارلمان

اتفاق الرشيد
مع شارلمان
على حساب
الأندلس

(٧٦٨ — ٨١٤ م) واستمرت المودة بين الدولتين إلى زمن الرشيد لأن العباسيين كانوا يجدون في شرلمان أكبر مساعد لهم في القضاء على الدولة الأموية الغريبة في الأندلس ، كما وجد شرلمان فيهم أكبر مساعد له للقضاء على الدولة الرومانية الشرقية وكان بين هذه الدولة وبين المهدى عداً قديم مستحكم قامت بسببه الحرب برّاً وبحراً وانتهى الأمر بأن تقدم المهدى وابنه هارون (الرشيد) إلى الروم الذين أكثروا من الإغارة على أملاكه وهزمهم وسار إلى البوسفور فصالحته (إيرين) القاعة بالحكم في القسطنطينية والوصية على ولدها الإمبراطور قسطنطين السادس على دفع جزية سنوية .

وخلفه ولده موسى الهادي ولم يطل حكمه أكثر من سنتين ،

حدثت في عهده ثورة في المدينة قتل فيها الحسين حفيد الحسن بن علي
وفر ابن عمه إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي إلى المغرب
وصاهر من البربر وأنجب ولده الإمام إدريس الثاني وتمكن من إنشاء
دولة الادارسة في أفريقية عام ١٧٢ هـ ٧٨٨ م في عهد الرشيد .

وقد عاجلت الهادي المني في عام ١٧٠ هـ ٧٨٦ م بينما كان يحاول
خلع الرشيد من ولاية العهد ونقلها إلى ابنه جعفر وخلفه الرشيد الذي
بلغت في عهده الدولة العباسية غاية قوتها فلم تكن تضارعها دولة
في عظمتها وثروتها وعلومها ومعارفها وشيوع الترف واستتباب الأمن
فيها ، وقد وثقت الرعية في عدله لأنه بعد تغلبه على المناوئين من العلويين
عفا عنهم وأحسن إليهم ، ثم جرد جيشاً بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني
لتأديب الخوارج الذين ناوأوه في الجزيرة بزعامة الوليد بن مطرف
الشيباني وكانوا من الشجعان المستبسلين المسارعين إلى الشهادة فقاوموا
مدة طويلة قبل أن يتغلب عليهم يزيد قرب (الأنبار) وقد قتل يزيد
الوليد في مبارزة بينهما في هذه الواقعة عام ١٧٩ هـ ٧٩٥ م .

ويعد الرشيد من أكبر حكام العالم فقد كان مستمسكاً بدينه تقياً
محسناً مجتنباً لمظاهر العظمة ماهرّاً في قيادة الجيوش حريصاً على مصلحة
الرعية ، فشيّد المساجد والمستشفيات والصيدليات والقناطر والترع ،
وكانت المساجد في تلك العهود بمثابة الجامعات والكليات تدرس فيها
جميع الفنون العليا من الفقه والأصول والطب والرياضيات والفلسفة
والأدب والتاريخ والحديث والتراجم ، ويرجع بعض عظمة الرشيد إلى

نهضة الدولة
في عهد
الرشيد

إبرامكة لأنه استوزر في أول عهده يحيى بن خالد البرمكي الذي كان معلماً له وأطلق يده في أمور الدولة فأدارها بحكمة ومهارة وساعده في ذلك ابنه الفضل وجعفر وخلفه في الوزارة جعفر فقام بأعبائها خير قيام .

وكانت أفريقية إلى ذلك العهد تابعة لحكومة مصر التي كانت تعد ولاية ممتازة أو دولة لها استقلال ذاتي فرأى الرشيد أن حكم أفريقية يتطلب من مصر جيوشاً ويقتضيها جهوداً ضخمة ورأى أن إبراهيم ابن الأغلب أقوى زعيم في تلك البلاد يطمع في الاستقلال الذاتي فنحه الرشيد ذلك وجعل الحكم وراثياً في بنيهِ فأنشأ الدولة الأغلبية ، وقد أصبحت أفريقية لها استقلالها الإداري في الداخل نظير ما ترسله من جُعل لبيت المال ، وقد مد الرشيد في حدود الخلافة شرقاً إلى جبال (هندوكش) وفصل جميع الثغور الواقعة على الحدود الرومانية بالجزيرة وأعلى الفرات وشمالي الشام وجعلها إقليماً واحداً قائماً بذاته استكثر فيه من الحصون والحاميات وسماها (العواصم) لأنها تعصم المسلمين وتحميهم من غزو الرومان وكذلك إنطاكية وطرسوس وفي عام ١٧٥ هـ - ٧٩١ م عين أولاده حكماً فأقام الأمين على الغرب والمأمون على الشرق والقاسم على ما بين النهرين والعواصم .

وبعد أن قام البرامكة بخدمة الدولة سبع عشرة سنة باخلاص نهاية البرامكة وحزم حتى زادت ثروة البلاد وعمرت الأرض وارتقت الصناعات وتوفرت جميع وسائل الحضارة أوقع بهم الرشيد على غرة منهم لسيطرتهم على شئون الدولة .

واستوزر الرشيد بعد الفتك بالبرامكة حاجبه الفضل بن الربيع
الذي كانت له اليد الطولى فى الإيقاع بالبرامكة ولكنه كان دونهم
كفاية ومقدرة ، وقد عفا الأمين عمن بقى من أولاد يحيى فى السجن
ورد إليهم المأمون ضياعهم فى خلافته .

وقد مات الرشيد بعد أن حكم ثلاثاً وعشرين سنة بلغت شهرته
فيها ما لم يبلغه خليفة قبله حتى اتصل بامبراطور الصين (فغفور) وتبادل
مع شارلمان الهدايا ومن هدايا الرشيد ما يشير إلى ما كانت عليه الدولة من
الحضارة والمدنية كالساعة المائية التى دهش لها أهل أوربا وحسبوها
سحراً وهمّ بعض رجال شارلمان بكسرها لولا أن منعهم الإمبراطور .
وتولى الأمين بعد أبيه سنة ١٩٣ هـ ٨٠٩ م ولكنه كان ضعيفاً مسرفاً

نهاية الأمين

نفدت فى عهده أموال الخزانة وقد خلع أخويه وعهد إلى أبنائه دونهما
وذلك بإغراء وزيره الفضل بن الربيع وأرسل جيشاً يأتيه بالمأمون
فانهزم عند (الري) وأعلن المأمون نفسه خليفة ، وحاصر بغداد وتهدم
جزء كبير منها ثم وافق الأمين على تسليم نفسه لأخيه الذى قتله بعض
الجنود من الفرس فى الطريق فحزن المأمون عليه وأكرم أبنائه وزوجهم
من بناته ، وقد كانت أم الأمين زيدة العريية زوج الرشيد فى حين أن
أم المأمون مولاة من قينات الفرس مما أدى إلى أن يعطف الفرس على
المأمون ويعدون دولته دولتهم وانتصاره انتصاراً لموالى العرب وأبناء
موالى العرب ممن لا تزال ذكريات مجد كسرى ترسم فى أذهانهم ،
وكذلك كان المأمون يعطف على الفرس فاتخذ منهم جنده وحاشيته ووزراءه

وحجابه ، وعلى النقيض كان الأمين ؛ فلقد ثار العرب لمقتله في العراق والشام بضع سنوات فلما هدأت الحال تولى طاهر بن الحسين قائد المأمون الشرق وتولى ابنه عبد الله مصر وسوريا ، ولم يرض المأمون أن يتوقف نشر العلم على ما يدفعه الخليفة من بيت المال لمن يختار من أهل العلم والأئمة ، لذا نراه قد قرر الأوقاف واعتمد الأموال اللازمة لينفق منها على المعاهد ودور العلم والحكمة ، وكان مولعاً بالعلوم والفلسفة فكان عصره أرقى عصور العلم أيام العباسيين ، نبغ فيه علماء في المنطق والفلسفة والرياضيات ونشطت الترجمة من اليونانية القديمة ككتب أرسططاليس الذي كان له شغف خاص به ، وترجم كذلك كل ما جاء به من بلاد الروم حنين بن إسحاق من طرائف الكتب في الفلسفة والموسيقى والهندسة والطب والرياضة ، وقد أصحح العلماء في عصره أخطاء اليونان ووضع بعضهم كتباً اشتقوا لهم فيها طرائق في التفكير مستقلة كانت مزاجاً من فلسفة اليونان وثقافة العرب ، وما ينتجه منطق هذا الاحتكاك من تجديد في العقليات والنظريات والكونيات .

وفي عصر المأمون خرج أهل مصر عن طاعة الخليفة وامتنعوا من أداء الخراج وطرّدوا العمال وصارت فتنة عظيمة بمصر حتى كادت أن تُدمر فحضر المأمون إلى مصر وأطفأ تلك الفتنة وقتل من القبط خلقاً كثيراً ورجع إلى بغداد وتوفي غازياً في (أرزن) ببلاد الروم في رجب سنة ٢١٨ هـ - ٨٣٤ م وكانت مدة حكمه عشرين سنة ودفن بطرسوس

وولي بعده أخوه المعتصم بالله . ومن أغرب ضروب الاتفاق في يوت
الملك العريضة أن الخليفة المعتصم يكون أمياً وهو ابن هرون الرشيد
وأخو المأمون الذي كان يتكلم بعدة لغات حَذَقَ في اللاتينية والإيرانية
والتركية والقبطية والعربية والسريانية

أراد المعتصم أن يكبح جماح جيوشه الفارسية فكُون جيشاً
جديداً من الأتراك وغيرهم من الأجانب يقودهم ضباط من بينهم
تحت إمرة الخليفة مباشرة ولما ضاقت بهم بغداد انتقل وجيشه إلى
(سُرَّ مَنْ رَأَى) أو سامراً وسرعان ما صار للأتراك من القوة ما كان
للحرس الروماني حتى أصبح يدهم أمر عزل الخلفاء وتعيينهم وتوفي المعتصم
سنة ٢٢٧ هـ - ٨٤٣ م وولي بعده ابنه الواثق بالله فزاد في تفوذ الترك
وأهل الجيوش العربية والفارسية وعين أشناس التركي سلطاناً للدولة
يقوم بإدارة الحكم فيها باسم الخليفة وكان الواثق خاتمة الطور في عظمة
العباسيين ثم أخذت الدولة بعد ذلك تنحدر إلى الهاوية واستمر اسم الخلافة
العباسية ببغداد إلى عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م . حين أغار عليها (هولاكو)
التتاري وقتل المستعصم آخر خليفة عباسي فانقضت بذلك الدولة العباسية .
ويرجع سبب سقوط دولة بني العباس إلى عوامل عدة أهمها
أربعة وهي :

١ - تفوق العناصر غير العربية .

ذلك بأن ضيقَ الموالي من الفرس على الأمويين لاعتمادهم على العرب
وتوليتهم المناصب السامية كلها ، وأخذوا يناصرون العباسيين وينشرون

لهم الدعوة ، وتمكنوا في النهاية من انتزاع الخلافة من بني أمية فجاءت دولة العباسيين فارسية الصبغة أولاً وعمل الفرس على إقصاء العصبية العربية عن الخلفاء بدعوى طموح العرب إلى الخلافة اعتماداً على نسبهم فأصبح الفرس يحكمون الدولة ويتضح ذلك من سطوة البرامكة ومن جاء بعدهم حتى خشي المعتصم سوء المصير فاستكثر من ممالك الأتراك واتخذ منهم جنداً استعان بهم على الفرس والعرب معاً ، وبذا سيطر الترك وأصبح يدهم سجن الخلفاء وعزلهم وتوليتهم .

٢ - سوء الحالة الاقتصادية .

وذلك أنه نظراً إلى إمعان الخلفاء في العهد الأخير في الترف مما جر إلى كثرة النفقات فأنحطت موارد الثروة وقل إيراد الحكومة .

٣ - ظهور الدويلات العلوية المستقلة .

إذ نافس السادة العلويون خلفاء بني العباس ونازعوهم بالسلاح وتمكنوا من اقتطاع أجزاء من الدولة استقلت عنها ، ومنها دولة الأدارسة بالمغرب والدولة الفاطمية التي امتد سلطانها من المحيط الأطلسي إلى الحجاز واليمن وهي الدولة التي أنخر بنسبتي إلى خدمتها ، ودولة بني بويه وكانت لها السيطرة على بغداد وبقية أجزاء الدولة العباسية وهم من غلاة الشيعة ، يضاف إلى ذلك اتساع رقعة الدولة وما جرى عليه بعض خلفاء العباسيين من إقطاع النواحي القاصية لأعوانهم مكافأة لهم على خدماتهم وما تلا ذلك من استقلال هؤلاء الأعوان .

٤ - تعدد الأجناس والمذاهب .

فلقد تعددت الأجناس وظهرت المذاهب التي لم تكن معروفة في أيام الأمويين ، وسرت إلى الإسلام في ذلك الحين ديانات قديمة من مجوسية ويهودية ونصرانية أدت إلى كثرة الملل والنحل وأذكت نار العداوة بين المسلمين .

ثم استأنف جوهر حديثه — بعد أن تفرع من قارورة معلقة في كاهله جرعة ماء — فقال والآن أيها الدعاة أحدثكم عن الدولة الطولونية في مصر فاسمعوا وعوا .

كان طولون مؤسس الدولة الطولونية مملوكاً تركياً ممن أرسلهم حاكم بخارى هدية للخليفة المأمون في عام ١٩٩ هـ - ٨١٥ م فقال الحظوة لديه ورزق بابنه أو متبناه أحمد في عام ٢١٩ هـ ٨٣٥ م فعنى بتدريسه وتعليمه حتى برع في علوم اللغة والقرآن والشريعة وأولع بالتعليم العسكري الذي كان يُربّي عليه فتيان الترك في سُرٍّ من رأى (سامرا) ومن حسن حظ أحمد هذا أن الأمير بقبق الذي تزوج من أرملة طولون منحه ولاية مصر حوالى عام ٢٤٠ هـ - ٨٥٤ م واختاره نائباً عنه فيها فحضر إليها في عام ٢٥٢ هـ - ٨٦٨ م وهو في الثالثة والثلاثين من عمره وكان أبو العباس أحمد بن طولون حازماً واجه مصاعب جمة أهمها دسائس (ابن المدبر) صاحب الخراج الذي أثرى من طريق الاختلاس وابتزاز المال بمختلف الضرائب والمكوس . وقيام العلويين في وجهه في غرب الاسكندرية وفي إسنا .

ولم يضعف من نفوذه قتل الأمير (بقبق) لأن الخليفة منح مصر

الدولة
الطولونية
٢٥٢-٢٨٩ هـ
٨٦٨-٩٠٥ م

للأمير (برقوق) وهو هو ابن طولون ولهذا أطلق يده في مصر وضم إليه الإسكندرية وغيرها ، فأخذ نفوذه يزداد إلى أن أعطيت مصر طعمة (للموفق) أخى الخليفة فى عام ٢٥٦هـ - ٨٧٢م ولكن ابن طولون أخذ فى استرضاء الخليفة بالتحف والمهدايا حتى أصبح فى الواقع ملكاً مستقلاً فى مصر وخصوصاً بعد أن تخلص من أكبر منافسيه فيها وهو ابن المدبر الذى قبل عن طيب خاطر أن ينقل إلى مثل وظيفته فى الشام خوفاً من بطش ابن طولون ولما استقر الأمر لأحمد بن طولون وكثر جنده وحاشيته شيد لهم مدينة (القطائع) على (جبل يشكر) بين ميدان القلعة وزين العابدين وجعل قطعة لكل طائفة من أتباعه يقيمون بها وبني لنفسه قصرًا فخماً تحت قبة الهواء به حديقة غناء وفيه ميدان لسباق الخيل .

جامع
ابن طولون

ثم شرع فى بناء مسجده واستغرق بناؤه عامين . وأهم ما يلاحظ فى هذا الجامع إقامة الأعمدة لأول مرة من الآجر بدل نقل أعمدة حجرية من الآثار القديمة وأنه أول بناء استعمل فيه العقد الخامس الذى لم يستعمل فى إنجلترا إلا بعد ذلك بقرنين من الزمان .

ولما عظمت نفقات ابن طولون على جيشه ومبانيه وحصونه وتضاعفت عطاياه للعلماء وصدقاته على الفقراء لم يستطع أن يرسل شيئاً إلى (الموفق) فجهز هذا جيشاً لإخراج ابن طولون من مصر ولكن حاجته إلى المال أقعدته عن تسيير هذا الجيش فتشجع ابن طولون ووطد العزم على توسيع ملكه فاتهمز فرصة موت (ماجور) والى الشام وساق

إليها جيشه في عام ٢٦٢ هـ - ٨٧٨ م ففتحت دمشق أبوابها وقدم رجال الدولة وأعيان البلاد خضوعهم له حتى صار ملكه يمتد من نهر الفرات إلى برقة ومن جبال طوروس إلى شلال أسوان .

وبعد أن ترك حاميات بالرقة وحرّان ودمشق عاد ابن طولون إلى مصر لأن ابنه العباس الذي كان يحكم البلاد في غياب أبيه أراد أن يستقل بالملك فلما حضر أبوه التجأ إلى برقة وقاوم سنتين حتى هزم وقضى حياته سجيناً .

وقد شجر الخلاف بين ابن طولون والموفق دون أن يظفر أحدهما بالآخر وشجر أيضاً الخلاف بينه وبين الروم فانتصرت جيوشه عليهم بالقرب من طرسوس في عام ٢٦٧ هـ - ٨٨٣ م وغنم أموالاً طائلة وقد أعياه الجهد فرض وحمل إلى مصر على سرير حيث قضى نحبه في مايو ٨٨٤ م عام ٢٦٨ هـ قبل أن يبلغ الخمسين من عمره .

كان ابن طولون شجاعاً كريماً تقياً يشرف بنفسه على أعمال الدولة ويستطلع أحوال الرعية ويعد أول حاكم بعد الفتح الإسلامي أنهض قوة مصر وجعل عاصمتها .

صفات
ابن طولون

وقد خلفه ابنه الثاني (أبو الجيش خمارويه) وكان في العشرين من عمره ميالاً للترف يجهل أساليب الحكم ويخاف الحرب وقد تأمر أعداؤه مع نائبه في دمشق على إرجاع الشام إلى حكم الخليفة ودخل (أبو العباس بن الموفق) دمشق وتقدم جنوباً حيث قابله خمارويه ومعه سبعون ألف مقاتل عند (الطواحين) بالقرب من الرملة فذعر خمارويه

خمارويه

وفر بأكثر جيشه إلى مصر ولكن قائده (سعداً الأعسر) قد ثبت مع بقية الجيش وتمكن من أن يهزم الأعداء ولكنه أبى الخضوع لسيده .

استرجع
العام

فسار إليه خمارويه وهزمه في دمشق في عام ٢٧٠ هـ - ٨٨٤ م وطارد أعداءه إلى (سَامِرًا) فولاه الخليفة على مصر والشام والعواصم على الحدود الرومانية مدة ثلاثين عاماً . وقد تشجع خمارويه وخاض غمار عدة حروب أظهرت مقدرته الحربية .

روى
نظر النعمان

ثم زوج ابنته (قطر الندى) للخليفة (المعتضد) وأتفق في ذلك أموالاً طائلة يقصر دونها الوصف فقد بنى القصور على طول الطريق من مصر إلى بغداد لتزول العروس كل ليلة وأكثر من الجواهر والتحف إلى غير ذلك مما دعا إلى إتفاق أموال باهظة .

واستمر خمارويه يسرف في البناء وأنواع الترف حتى كادت موارد ثروته تنضب . وأهم ما شيده توسيع قصر أبيه (بالقطائع) وتحويل الميدان إلى حديقة غناء يفوح منها عير الأزهار المختلفة وقد صفت بأشكال بديعة تغرد فوقها الطيور التي أكثر من جمعها فيها . وقد زين أيضاً (بيته الذهبي) بتماثيل منقوشة تمثله وزوجاته وقيانه . ولما اشتد عليه الأرق ملئت له بركة من الزئبق يتأرجح عليه سريره وقد شد بخيوط حريرية إلى عمد من الفضة .

وقد حقد عليه بعض جواريه فأغرين به من قتله وهو في طريقه

إلى دمشق في عام ٢٨٢ هـ - ٨٩٦ م .

أبو العساكر
جيش

وخلفه ابنه الأكبر (أبو العساكر جيش) وكان في الرابعة عشرة

من عمره منغمساً في لهوه لا يفقه لمركزه الخطير معنى تخرجت عن طاعته سوريا وما يليها وعمت الفوضى فروع الإدارة وتفتت أموال الخزانة فعزله جنده بعد شهر من اعتلائه العرش .

خاتمة الدولة
الطولونية

وقد جاء بعده أمراء ضعفاء لم يحسنوا القيام بأعباء الحكم وواجباته فأرسل الخليفة إلى مصر جيشاً بقيادة محمد بن سليمان هزم الطولونيين وخرب (القطائع) عن آخرها ما عدا جامع ابن طولون وبدا انتهت الدولة الطولونية بعد أن عمرت سبعاً وثلاثين سنة كانت فيها مصر مستقلة في الواقع ؛ وقد استعادت كثيراً من عظمتها ومجدها السالفين .

عودة مصر
للخلافة

ثم بقيت مصر بعد زوال الدولة الطولونية ثلاثين عاماً عمت فيها الفوضى لأن الأمر والنهي كانا بيد الجند الأتراك وقوادهم لأن الخلفاء العباسيين كانوا ضعفاء لا يستطيعون تأييد من يعينونه من الحكام على حكم البلاد فكان هؤلاء الحكام يسترضون الجند بالعطاء .

وأكبر شاهد على ضعف الخلفاء العباسيين وولاتهم على مصر ورغبة المصريين في التخلص منهم أن (محمد الخلعجي) وهو شاب من عامة الناس قد تمكن من جمع عدد صغير من المصريين في فلسطين في عام ٢٩١ هـ ٩٠٥ م وأعاد الخطبة للطولونيين هناك ثم دخل مصر وتولى حكمها ثمانية أشهر باسم الطولونيين .

كما أن شدة ضعف هؤلاء الخلفاء ظاهر من عجز حكاهم عن طرد جيوشنا فيما بعد حين وصلت إلى الاسكندرية والفيوم . واستمر هذا

العجز ست سنوات كاملة على الرغم من حضور المدد لهم من بغداد أكثر من مرة ، ثم استأنف وقال :

الدولة
الأخشيدية
٣٢٣-٣٥٨ هـ
٩٣٤-٩٦٨ م

هذا . ولم يُعقِبْ ردُّ جيوشنا عن مصر القضاء على الفوضى الضاربة أطنابها في أنحاء البلاد بل بقي الجند العباسيون يمجسون خلال الديار يسومون أهلها سوء العذاب مدة خمس عشرة سنة حتى ولى أمرها (محمد بن طنج المعروف بمحمد الإخشيد) في عام ٣٢٣ هـ - ٩٣٤ م بأمر الخليفة الراضى . والإخشيد لقب ملوك (فرغانة) السابقين و (محمد بن طنج) من سلالة هؤلاء الملوك كان جده ضابطاً في جيش المعتصم كما كان أبوه في جيش خمارويه . وكان محمد هذا قوى الساعدين لا يقوى رجل آخر على أن ينزع عن قوسه وكان قائداً حذراً ولكنه يفضل السلم على الحرب . وقد أعاد إلى مصر الأمن والسكينة .

وكان خلفاء بنى العباس وقتئذ في غاية الضعف ليس لهم من أمر الملك شيء فقد حكم (بنو بُويّه) فارس وحكم الحمدانيون العراق مستقلين عن الخليفة كما أن الإخشيد قد استقل بحكم مصر ولكنه لم يتأخر عن مدِّ يدِ المساعدة للخليفة المُبتسِّس .

الحرب
في سوريا

وبينما كان الإخشيد هادئاً في ملكه إذ انقضَّ (ابن رائق)^(١) على حمص ودمشق فقاتله المصريون وتم الصلح على أن تكون سوريا شمالي (الرملة) لابن رائق وجنوبها للإخشيد .

(١) محمد بن رائق كان صاحب شرطة (حكمदार) فلسطين وقد منحه الخليفة الراضى لقب أمير الأمراء فبدأ له أن يغزو سوريا وانتصر في أول الأمر حتى هزم في موقعة العريش .

ولما مات ابن رائق أخذ الإخشيد سوريا كلها بغير قتال وضم
إليه الخليفة مكة والمدينة ثم جعل مصر له ولأبنائه مدة ثلاثين سنة فأخذ
الإخشيد لابنه البيعة من قواد الجند ووجوه الناس . ثم أغار سيف
الدولة الحمداني على دمشق وهزم الجيوش المصرية التي كانت بقيادة
(كافور) فخرج إليه الإخشيد وهزمه وشتت جيشه في واقعة
(قنشرين) ودخل حلب ودمشق ولكنه تنازل عن حلب وشمال سوريا
لسيف الدولة حياً في مسالمته ومات بدمشق في عام ٣٣٤ هـ - ٩٤٦ م
ودفن في بيت المقدس .

وتولى بعده ابنه (أبو القاسم أنجور) من عام ٣٣٤ هـ - ٩٤٦ م إلى
عام ٣٤٩ هـ - ٩٦١ م و (أبو الحسن علي) من عام ٣٤٩ هـ - ٩٦١ م إلى
عام ٣٥٥ هـ - ٩٦٦ م تحت وصاية (أبو المسك كافور) حاكم مصر
الحقيقي وكان عبداً حبشياً اشتراه الإخشيد بثمن بخس وولاه قيادة
الجيوش ثم نصبه أستاذاً لأولاده . ونجح كافور بعد حروب مع
الحمدانيين في مد أملاك مصر إلى حدود الأناضول وأحاط نفسه بالعلماء
والشعراء وبذل لهم الهبات والعطايا .

ولما مات أبو الحسن علي الإخشيد في عام ٣٥٥ هـ - ٩٦٦ م اعتلى
العرش (كافور) ومنحه الخليفة لقب أستاذ مصر ثم منحه ممتلكاتها
فظل يدير شئونها في ترف وبذخ حتى مات في عام ٣٥٧ هـ - ٩٦٨ م
بعد أن حكم مصر اثنتين وعشرين سنة وبمجرد موته اجتمع رجال البلاط
واتخبوا من تلقاء أنفسهم - وبدون الرجوع لأمر الخليفة العباسي -

من بنى الإخشيد ملكاً على مصر وممتلكاتها كما انتخبوا ولي عهد له . إلا
أنهما لم يضطلعا بأعباء الحكم فرأى مولاى المعز لدين الله وهو رابع الخلفاء
الفاطميين ضم مصر إلى أملاكه فجهزنى بجيش لغزوها ودخلتها فاتحاً
فى عام ٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م .

فقلت له : - أسمح لى أيها القائد أن تشرح لنا كيف انهارت
الدولة العباسية وأسباب ذلك قبل أن تدلى لنا بحديثك عن الدولة الفاطمية
التي أنت أحد رجالها الأفذاذ ؟؟ .

قال جوهر : - إن انتشار الإسلام واختلاط العناصر بعضها
ببعض من غير تحديد لمسئوليتها ولا تحديد لمجال النشاط بين كل منها
قد بدّل أخلاق المسلمين ومسئولهم على النقيض مما تفرضه عليهم
الحياة الإسلامية . فاجتمع من مستلزمات الحياة العربية من الثارات
والوتر والكرم والعصبية القبليّة مع مستلزمات الحياة الإسلامية
من الاتحاد والاقتصاد وطلب العلم ، والتزواج لإكثار سواد الأمة ،
والجهاد والغزو والنظام ، والطاعة لولى الأمر ولو كان عبداً حبشياً ،
أمشاجٌ من الخلائق .

كثر المال فى أيديهم من جرّاء الفتح والغنائم فأتلفوا وجعلوا
بيت المال وقفاً على المادحين من متسكعة الشعراء على أبواب الأمراء
والأثرياء ، فأفسدوا الآداب بالإكثار من الملقّ وغلبة طبيعة الرياء
وانتشار التحريض على ذوى الخصومة والخلاف فسفكوا دماءهم وجعلوا
بأسهم بينهم ، وتزوجوا وتسروا فامتلات البيوت بالأعجبيات ، وسادت

عناصر
التحلل

السخائم والبغضاء في الأسر من انتشار الغيرة بين نساء البيت الواحد وكل واحدة تفرس في بنيتها كراهية إخوته من غيرها فرأينا الرجل يقتل أخاه، ولولا ما بذرت الأم من استهانة بوشيجة الأخوة ما قُتل الأمين ولا عَزَلَ أخويه. وانتشرت مع الثروة والترف والاستمتاع ضروبٌ من الخنا والخلاعة ثم التحلل والفناء ، وكان من تدافع الأجناس وتنافس العناصر التي يتكون منها هذا الخليط من الأمم أن انحسر الإسلام في قوته ومنَعَتْه عن هذا المجتمع كما ينحسر البحر في جزره ولكل مدٍّ جزر كما أن لكل جزر مدًّا ؛ ومن هنا رأينا عهداً يسود فيه الحق والعدل والإنصاف ، وعهداً يسود فيه الظلم والعسف ، وهكذا الدنيا يتعاورها ضربان من الخير والشر في مدهما وجزرها .

أضف إلى هذا أن المسلمين نقلوا علوم الاغريق والفرس وأضافوا إليها ما أضافوا فنجم عن هذا الاختلاط العلمي الجدل والتفلسف ثم الزندقة والحيرة واضطراب العقائد ، وتنافر المناهج ، حتى أفرز هذا المزيج الغريب من الترف والفلسفة والعريضة والتدين مبدءاً جديداً وعقيدة أخرى كانت نتيجة «رد الفعل» الذي أحدثته هذه الحياة ذلك هو التصوف في دعوته للزهد والفناء، وهام كثير من المتصوفة على وجوههم يتنقلون في البراري والأديرة والخرائب والأطلال القديمة كإبراهيم ابن آدم أحد دهاقين الفرس وذو النون الإخيمى المصرى ٢٤٥ هـ والحارث بن أسد المحاسبي تلميذ البخارى ٢٤٣ هـ والجنيد القراويرى ٢٩٨ هـ ، وكذلك كان من نتيجة الخلافات حول أي فريق أحق

بالخلافة ؟ أن صارت الإمبراطورية الإسلامية نهياً مقسماً بين الحكام المختلفين من الخوارج والشيعة والسنية وكل فريق من هؤلاء انتابته أيضاً موجة من الجدل البيزنطى ، وكان من نتيجة الخلاف الفلسفى انتشار مذاهب المعتزلة والجهمية والكرامية والأشعرية والماتريدية واللاأدرية والجبرية والقدرية وما بين ذلك وبين التصوف من التوكلية وأصحاب الميثاق ووحدة الوجود ، إلى جانب الآراء السياسية الأخرى التى وزعت الجهود وشتتت الشمل كمذهب الشعوبية^(١) وله أنصار ، ومذهب القومية العربية وهم الذين أحبوا أن يستأثر العرب بالحكم وقد انتشر بسبب هذا الاختلاف الدائر ، أن كان كثير من أهل العلم والرواة والمحدثين يتزلفون لكل قبيل من الأمراء والحكام باختلاق الأحاديث ووضعها حتى وضعت آلاف الأحاديث فى فضل آل البيت وأخرى فى فضل بنى العباس وغيرها فى الكونيات لتوافق مذهباً شائعاً فى الفلسفة أو التصوف ؛ وانتشرت الحكايات والأقاصيص حول الكرامات وخوارق العادات : من ذلك أن أبا محمد الشامى المصلوب قال له بعضهم وهو يحتضر : إلى الجنة فقال : وكيف لا وقد وضعت مائتى حديث فى فضائل على ؟ وكان الجنيد يقول لتلاميذه : « الحكايات جند من جنود الله تعالى يقوى بها قلوب المريدين » أى اختراع الحكايات فى فضائل وكرامات الأولياء ، وهو تحريض على الكذب والاختلاق^(٢).

(١) النسبة إلى الجمع خطأ ولكنه فى هذه العبارة قد جرى على أقلام بلغاء العرب وكتابهم كالجاحظ وأبى نواس وأبى العتاهية ومعاصريهم .

(٢) وما عصفت بمجد الإسلام ومبادئه الحنية لإمثلة هذه الأكاذيب والآراء الدخيلة التى شوهت جماله وأحاطته إلى مجموعة من الكتب الموقورة بالخرافات .

فأردت أن أرجع به إلى حديث الدولة الفاطمية ، فحسب أنني ظننته كفاطمي كبير ينتقص من العباسيين لهذا تدارك قائلا : إنني يجب أن أطلعكم على حقائق الأمور لتكيفون موقفكم من الناس كما ترون فأنا هنا لا أشوه الواقع لأنني رجل أعجمي من صقلية وقد تكون صقلية أبعد عن أن تندمج في غمار هذا الخليط الناشز من الشعوبية ، فليست لي إذن عصبية أنحو بكم إلى الإنحياز إليها ، وأمنيتي أن تكون القاهرة مركز التوجيه العالمي ، فإن الصلة بين صقلية وطين الأول وبين مصر وطين الثاني ترجع في عالم التاريخ إلى عهد الحضارة الرومانية القديمة ، ولما كنت أحب أن أخلص نشأة الدولة الفاطمية لكم في إنصاف واعتدال فإني أقول :

لقد كانت أفريقية تربة خصبة لبث دعوة الشيعة ، لأنه لم يكن لها ارتباط شديد في يوم ما بالأمويين ولا بالعباسيين بل كانت مهداً للثورات والقلقل إلى أن تركها الرشيد شبه مستقلة تحت إمرة بني الأغلب ، وقد ساعد بعدها عن مقر الخلافة ، وتفشى الجهل بين أهلها وتصديقهم الأخبار من جانب واحد وبعدها عن هذا الخصم المصطلم بشتى المذاهب على جعلها مهذاً صالحاً لدعوتنا وسرعة انتشارها .

وذلك أن أبا عبد الله المحتسب لما دعا بكتامة للرضي من آل محمد واشتهر خبره . وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم خشيًا على أنفسهما فهربا من الشرق محل الخلافة واجتازا مصر ودخلا

الإسكندرية ثم خرجا منها في زى التجار ونما ذلك إلى عيسى النوشري
الوالى في عهد المعتضد فسرّح في طلبهما الخيالة، حتى إذا وثقا من إتقان
تنكرهما أفلتا إلى المغرب، فأوعز الخليفة المعتضد إلى الأغالبة في إفريقية
وبنى مدرار في سجلماسة بالتضييق عليهما فعثر اليسع صاحب سجلماسة
على خفيّ مكانهما فاعتقلهما فكان هذا الاعتقال مما ساعد أبا عبد الله هذا
وهو أكبر الدعاة للشيعة على نشر دعوته في عام ٢٨٢ هـ - ٨٩٣ م لهما
وهما من نسل جعفر الصادق بن علي زين العابدين بن الحسين الإمام وقد
تبعه خلق كثير أقنعهم بقرب ظهور المهدي المنتظر من بيت النبوة وقد
بلغ جيشه بعد بضع سنوات مائتي ألف مقاتل وقضى على الدولة (الأغلبية)
في إفريقية وبني مدرار في سجلماسة ثم أعلن عبيد الله المهدي أنه المهدي
المنتظر وأنه وحده خليفة النبي وذلك عام ٢٩٩ هـ - ٩١٠ م وقد شكك
بعض دعاة العباسيين وعلمائهم في بغداد في صحة نسب العبيدين أمثال
القاضي أبو بكر الباقلاني والشريف الرضى وغيرها - ونحن كنا في
مجال من الظنون بنا وتحت رقبة من الطغاة فتوصل بنو العباس عند
ظهورنا - بعد أن كان أئمتنا يسرون بدعوتهم حتى لقد سمى محمد بن
إسماعيل جد عبيد الله المهدي بالمكتوم لما اتفق شيعته على إخفائه خذراً
من المتغلبين عليه - إلى الطعن في نسب أئمتنا وازدلف شيعتهم إليهم بهذا
الرأى ليدفعوا عن أنفسهم معرة العجز عن مقاومتنا للنوبة التي أصابت
دولتهم من التفكك والضعف، على أنه لو كان نسب أئمتنا غير صحيح ما كاتب
المعتضد أمير سجلماسة في عبيد الله يوم كان عبيد الله ضعيفاً لا يجد له نصيراً

إلا من حقه وباطل خصومه . وكان عبيد الله حاكماً نشطاً دان له شمال
أفريقية من حدود مصر الغربية إلى شواطئ المحيط الأطلسي وقضى
على ما كان يرى إليه الشيعة أنفسهم من إهمال الدين والانغماس في اللهو
ونشر المذاهب الفوضوية .

وقد خلفه (ولده القائم بأمر الله) من عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م إلى
٣٣٥ هـ — ٩٤٦ م وأرسل جيشاً استولى على الإسكندرية عام ٣٢٤ هـ
٩٣٥ م فطرده محمد الإخشيد وهزمه شر هزيمة بعد أن جاءه المدد من
بغداد ، ثم شغل القائم بأمر الله بإخضاع الثورة في المغرب ، وقد كان
الأدارة وهم حزب من الشيعة يدعون لأبناء إدريس كما يينا يحكمون
مراكش (المغرب الأقصى) فكانوا يؤلبون البربر بين حين وآخر مما
شغل الخليفة الثالث (المنصور بالله) من عام ٣٣٥ هـ ٩٤٦ م إلى ٣٤٢ هـ ٩٥٣ م
ثم أعقبه مولانا الإمام المعز لدين الله من عام ٣٤٢ هـ ٩٥٣ م إلى
عام ٣٦٤ هـ ٩٧٥ م فافتتح عصرًا جديدًا وكان سياسيًا محنكا لا يترك فرصة
تربيه دون استغلالها لمصلحته ، وكان إلى جانب ذلك مثقفاً مستنيراً
تأخذ بلاغته بالألباب واسع الكرم محباً للعدل .

وقد عيني — حين نبغت من بين مواليه بدافع الدماء الرفيعة التي
تجرى في عروقي والتي تحفزني إلى التسامى وطلب الأحسن من المقام —
وزيراً وقائداً لجيشه ، قهضت بفتح مراكش إلى ساحل المحيط ، وكان
فتح مصر من أكبر أمانى مولاي المعز لعظم ثروتها ووفرة تجارتها
ونشاط أهلها ولما علم ضعف حكومة مصر بعد موت (كافور) وتمرد

الجنـد وانـخفاض النيل في عام ٣٥٧ هـ - ٩٦٧ م وما تلاه من قحط وبلاء حتى كتب أهل مصر له أن يُنجدهم ، كما أن رجلا من يهود مصر قد لعب دوراً هاماً في ذلك هو يعقوب بن كلّس وكان بينه وبين الوالى الإخشيدى عداً لأنه يشتغل بالتجارة وبينه وبين الأمير معاملة أفضت إلى هذا العدا فذهب إلى المغرب وأخذ يغري المعز بفتح مصر وكان دليلاً عظيماً لجيشه حين دخلناها من الغرب فإن الرجل بحكم سياحاته وأسفاره كان خيراً بمسالك مصر وطرقها من الشرق والغرب ، فأعاننا في حملتنا إعانة صادقة نافعة . أما أنا فإنى قد أخذت أعدّ العدة للحملة بعد أن صدر أمر الإمام المعز ثم زحفت بالجيوش بعد أن مهد الخليفة بأن شرع يحفر الآبار على طول الطريق من (القيروان) و (المهدية) عاصمة ملكه إلى الإسكندرية وأخذ يخزن المؤن والذخائر ثم وجهنى إلى مصر في عام ٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م على رأس حملة ، ولما وصلتُ إلى الإسكندرية طلب الأهليون الأمان فأمنتهم واتجهت إلى القسطنطين فاستوليت عليها بعد مقاومة يسيرة ، ولم أبت ليلة حتى وضعت أساس القاهرة حيث شيدت قصرين عظيمين أحدهما قصر الخليفة الخاص والآخر كان بمثابة مَتَرَةٍ يُطْلَقُ على حديقة (كافور) وبينهما ميدان لاستعراض الجنود يعرف باسم (ما بين القصرين) وكان الخليفة يمر من أحدهما إلى الآخر بطريق تحت الأرض حتى لا تكثر رؤية الناس له فتقل هيئته .

بأ
لأزهر

وبدأت في بناء (الجامع الأزهر) في يوم السبت ٢٣ جمادى الأولى من عام ٣٥٩ هـ - ٩٧٠ م وتم في ٩ رمضان ٣٦١ هـ - ٩٧٢ م ليصلى فيه

الخليفة الجمعة ثم وجهت اهتمامي إلى توطيد الأمن وإعادة السكينة ولفضان
العدالة جعلت حكم كل جهة يديهاكم مصرى وآخر مغربى وما لبثت
النوبة أن قبلت أن تدفع للخليفة الخراج المعتاد، وخطب له (الحمدايون)
في شمال الشام وأخضعت جنوب الشام وطردت منه حسين بن الإخشيد
ثم ألححت على المعز أن يبادر بالحضور إلى عاصمته الجديدة فحضر إليها بأهله
وولده، ودخلها في سنة ٣٦١ هـ - مايو ٩٧٣ م فاستقبله أهل البلاد
بالترحاب وأعجبوا بكرمه وبلاغته، وصارت لمصر بحضور المعز السيادة
على بلاد النوبة وجنوب الشام والحجاز وبلاد المغرب وانتفع المعز بشغور
مصر لزيادة أسطوله فأقام حوضاً في المقس (نهر القاهرة قبل بولاق)
وبنى به ستين سفينة وهو أكبر أسطول شهدته مصر منذ الفتح
الإسلامي واستبقى الجيش وعززه وعنى بالنيل والرى والزراعة والقضاء.
ثم غزا القرامطة مصر في آخر حكمه وتقدموا إلى (عين شمس)
في عام ٣٦٤ هـ ٩٧٥ م وانتشروا في أنحاء القطر يعيشون في الأرض فساداً
ثم حاصروا القاهرة وكادوا يستولون عليها لولا أن بادر الخليفة بتقديم
مال وفير من الذهب الزائف إلى شيخ بني طيٍّ أكبر حليف للقرامطة
فتخاذل عنهم في المعركة التالية واستطاع (المعز) مطاردة القرامطة
إلى سوريا^(١).

نورة
نهرامطة

ومات المعز عام ٣٦٥ هـ ٩٧٧ م وهو في السادسة والأربعين من
عمره وقد ترك لمصر دولة مترامية الأطراف لم يستطع من خلفوه

(١) القرامطة نسبة إلى رجل يدعى قرمط قام بالبحرين ودعا قوماً من أهل البادية الجفاة إلى =

الاحتفاظ بها كاملة بل لقد استقلت عنهم إفريقية . فإنه حين عين المعز على إفريقية يوسف بن بلكين بن زيري الصنهاجي (من قبائل البربر) استمرت في أيدي الصنهاجين إلى سنة ٥٤٢ هـ وفيها استولى ملك صقلية على أغلب ثغور تونس كما حدثتنا أرواح الشهداء من جيوش الموحدين من أتباع الأمير يوسف بن عبد المؤمن صاحب مراکش الذي طردهم واستولى على تونس سنة ٥٥٥ هـ وكان ملك صقلية هذا يدعى روجير الثاني النورماندي وكانت بلاد الجزائر على الرغم من ولاء الصنهاجين للدولة الفاطمية — والجزائر كلها من قبائل زناته وصنهاجة — قد استقلت عن مصر وأرادت أن تتبع الخليفة العباسي في بغداد فأرسل إليها الخليفة المعز في حياته أفواجاً كثيرة وقبائل كثيفة من صعيد مصر من بني هلال وبني عدي وبني محمد وكثيراً من أهل أسيوط وقنا فأقاموا في تلك البلاد وهم الذين كونوا العناصر العريضة في وسط هذا المحيط البربري ، وكانت بين الزناتية البربر والهلالية المصريين وقائع وحروب لا تزال حديث أبناء مصر والشام وجميع البلاد التي كانت خاضعة

— دين جديد ذهب فيه إلى أن عيسى المسيح إنما هو أحمد بن محمد بن الحنفية ، وكانت الصلاة عندهم أربع ركعات : ركعتين قبل طلوع الشمس ، وركعتين قبل غروبها . وكانت كلمة توحيدهم أشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم رسول الله وأن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله ، والصلاة إلى بيت المقدس والجمعة يوم الاثنين حيث لا عمل ، والصوم يومان في السنة ، يوم المهرجان ويوم النيروز ، والخمر حلال وأكل كل ذي ناب ومخالب حلال ، وقد استفحل أمرهم حتى استولوا على مكة والبصرة والكوفة وهاجوا بغداد ثم ضعفت شوكتهم وانحصرت سلطتهم في بلاد هجر حتى لا شيء أمرهم ولم تبق إلا « الأحاديث » والذكر .

للفاطميين ، حتى اقتن كثير من الناس فنظموا هذه الوقائع في لغة العامة وأخذوا يرددونها على أنغام (الربابة)^(١) ، وأخيراً بعد أن ضعفت الدولة بموت المعز ضعف نفوذها في سوريا على بني حمدان الذين أنشئت دولتهم في الموصل سنة ٢٩٣ وعظم شأنها وامتد سلطانها على الجزيرة والشام واستبد ملوكها بالدولة العباسية حتى دانوا للفاطميين إلى حين وأشهر ملوكهم سيف الدولة الذي حكم من سنة ٣٣٠ إلى سنة ٣٥٦ ومات ولكن مناقبه بقيت منشورة في شعر المتنبي خالدة خلود الأدب العربي كما اشتهر من بني حمدان أبو فراس الشاعر المعروف .

فانظروا كيف ضعف نفوذنا في هذه البقاع الطيبة التي أنجبت للإنسانية أعلامها المخلدين . انظروا كيف آل أمر الدولة المصرية إلى ألا يبقى لها نفوذ إلا على الحجاز بعد أن كان ظلها الوارف أوشك أن يعم المشرقين ، رغم أننا اتخذنا جنوداً من العرب والبربر والترك والسودان . ثم خلف المعز ولده نزار العزيز بالله من ٣٦٥ هـ ٩٧٧ م إلى ٣٨٦ هـ ٩٩٨ م وكان جريئاً باسلاً يميل إلى التسامح حتى مع أعدائه واستوزر في أول حكمه يعقوب بن كلس اليهودي بعد أن اعتنق الإسلام وتبحر في مذهب الشيعة والذي كان يلقي دروساً بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع أمام الخليفة في الجامع الأزهر وهو أول مدرس فيه وبقى في الوزارة نحو خمسة عشر عاماً واستوزر أيضاً (عيسى بن نسطوريوس) وبفضل هذين الوزيرين

(١) وهذه لا تزال آثارها إلى اليوم في الأحياء الوطنية وترتل في قصص كثيرة على الربابة عن الزناتية (البربر) وبطلهم الزناتي خليفة والهلالية (من مصر) وبطلهم أبوزيد الهلالي سلامة.

امتلات الخزانة واستتب الأمن ولكنهما كانا يحبان المال ويؤثران
مظاهر العظمة والأبهة، وكانا كالخليفة في حب التحف النادرة والملابس
الفاخرة والأحجار الكريمة من وسائل الترف والثروة التي جعلت
مصر في عهد الفاطميين مضرب الأمثال، ولم أكن أستطيع أن أعاصر
الخلفاء الذين جاؤا من بعد مولاى العزيز فإن الذى بلغنى قد أسخطنى
فإذا يكون لو رأيت رأى العين ! ولكن ذلك سببه أولئك المرتزقة
من أحبار السوء الذين يتأكلون بالدين وأقرب شبهاً بهم الأنعام الساعة،
ألم يكن حمزة بن على - وها هو بينكم أيها الدعاة والذى رفعه الحاكم
إلى مرتبة داعى الدعاة - جديراً بأن يوجه بلاغته ومقدرته الأدبية إلى
نصح الخليفة وكبح جماحه ؟ ولكن قاتل الله الرغيف ، وقاتل الله القلب
المريض والضمير النائم ، قم يا حمزة من مجلس الدعاة ليلقى عليك أبو الهول
أسئلته ، فإننا لا نرضى أن تكون بيننا روح شريرة .

ونظرت إلى القوم فرأيت رجلاً يشبه الترك فى بياض البشرة
أبيض اللحية يلبس العمامة الخضراء الكبيرة ويرتدى ثياباً بسيطة وفى
يده مغزل كالذى يكون فى أيدي عامة أهل الريف وعرفت من سمته
أنه غير مصرى وإليك ما دار فى المجلس .

أبو الهول - ما اسمك ؟

- حمزة بن على .

أبو الهول - ما صناعتك ؟

- قزاز .

أبو الهول — من أى البلاد أنت ؟ .

— من فارس .

أبو الهول — يا حمزة لقد وجه هذا المجلس إليك تهمة خطيرة لو صحت كنت تستحق عليها الطرد والابعاد عن عالم الأبرار ، تلك هى أنك تركت مهنتك (القزازة) واشتغلت بالأدب فبرعت فيه وصار لك فيه قدم ثابتة ولكنك استعملت أدبك هذا فى دعوة باطلة هى أن الحاكم هو الله وأنت رسول من عند الله وصرت تفتري على الناس الكذب حتى ضل بك فريق منهم مما أطمع الحاكم وأغراه بأن يسفك الدماء ويشذ فى الأحكام ويغير فى الأوضاع البدهية .

حمزة بن على — يارمض الإنسانية فى حياتها المادية والمعنوية ، لقد تولى الحاكم بأمر الله الخلافة بعد أبيه العزيز الذى نشر العمران وشيد المائرو تقدمت فى عهده فنون الهندسة فشيد القناطر وحفر الترع والذى لم يعقب من النسل ذكر أسوى مولاي الحاكم وهو من أم مسيحية وخاله بطريق بيت المقدس الذى كان سفير المعز والعزيز لدى أمبراطور الروم فى بيزنطة وأخته (سيدة الملك) وكان توليه عام ٣٨٦ هـ ٩٩٨ م حيث كان فى الحادية عشرة من عمره وكان أبوه^(١) قد عين (ييرجوان^(٢)) أستاذاً له (أى وصيا عليه) وأسندت قيادة الجيش لابن عمار المغربى ولقب أمين الدولة وأصبح فى الواقع نائباً عن الخليفة قفضل أبناء

مفود
الحاكم

(١) مات العزيز وهو يستحم فى حمام بليس .

(٢) لا يزال شارع ييرجوان بالخرقش يسمى باسمه .

جنسه وأعانهم على الجند الأتراك الذين أتى بهم العزيز فتعددت حوادث
الشجار بين كل قبيل وقبيل في الطرقات ، وشاع نهب المتاجر وانتفى
الأمر بفوز الترك وقتل القائد بن عمار. وقد أهمل يرجوان أمور الحكم
وترك بذلك الفرصة للحاكم فبدأ يباشر الإدارة بنفسه وظهر ميله لسفك
الدماء وشدوذه قتل يرجوان وأصدر جملة أوامر خارقة للعادة منها :
إغلاق الحوانيت نهائياً ، وفتحها هي والبيوت وإضاءةها ليلاً وتحريم
صنع الأحذية للنساء حتى لا يخرجن من المنازل وقطع الكروم ومنع
الناس من أكل الزبيب والعسل والملوخية ، فمتى كنت أنا أو أحد من
الدعاة مسئولاً عن هذه الأعمال ؟ ثم إنه أخذته بعد عشرة أعوام من
حكمه نوبة من التعصب الديني الأعمى فراح يضيق على المسيحيين
واليهود في حين أنه كان يختار منهم أعظم رجال دولته ، وقد تمادى
في سفك الدماء حتى أن وزراءه وقواده كانوا لا يثقون باستقرار رؤوسهم
على أجسادهم مهما جلت خدماتهم له .

ومن عجب أن يكون الحاكم هذا - على ما رأيت من شدوذه -
عالمًا واسع الاطلاع أديبًا رائع الأدب كما كان حزاء ينظر في النجوم ،
زاهدًا في الدنيا وكأن حياته كانت رد الفعل من حياة أيه المترفة . فقد
كان يركب الحمار من غير لجام ولا برذعة ، ويلبس الثياب المرقعة ،
وقد خيل إليه أنه جدير بالعبادة ، ولم يكن لنا إلا أن أعنّاه على سبيله
ولكننا لم نسن له ذلك ، فلقد جعلني داعي الدعاة ولقبني بلقب رسول
الله ولا أستطيع رد قوله فإني إن فعلت أكون عرضة للفتك بي ،

ومن هنا استشارتني غريزة الحرص على العيش وطلب المجد أن أسخر
عقلي ووجداني لخدمة الحاكم أو بالأحرى لخدمة حياتي والإبقاء على
نفسي ، فأخذت أدعو إلى ما يأمرني به وأنظم اجتماعات الدعاة وأطلع
على تقاريرهم وأوجه إليهم أوامر الحاكم حتى دبرت أخته (سيدة الملك)
مؤامرة قتله مع شاب من المغرب من أسرة عريقة قتل الحاكم وهو ذاهب
إلى مرصد حلوان حيث كان ينظر في النجوم وألقيت جثة حماره في
(بركة) بحلوان ثم كانت سيدة الملك قد دبرت مؤامرة لإعدام هذا الشاب
القاتل ومن معه فلما جاءوها بجثته ودفنوها في يتيها لم تمهلهم حتى يخرجوا
من يتيها بل أطبق عليهم الترك والسودان فقتلوه وذهب سر مقتل
الحاكم مع القاتلين ، ولم يعرف أحد سر قتله سوى سيدة الملك وحدها
وأحاط اختفاء الحاكم هذا الغموض ، وبخاصة وقد كنت ممن ذهبوا إلى
حلوان للبحث عن جثته فلم نجد سوى قيص ملوث بالدم ولم نثر له على
أثر فلما أعيانا البحث طلع بعض أتباعه بفكرة شيطانية غريبة ساعد
خيال الدهماء الخصب على قبولها واستساغتها، ذلك أنهم قالوا إن الحاكم
رفع إلى السماء كما رفع عيسى وأنه سينزل في آخر الزمن وقد أكون
عملت على بث هذه الفكرة جادا ولكنها لم تستمر إلا في محيط ضيق ، فإنه
بعد أن تولى الخلافة الظاهر أبو الحسن علي بن الحاكم سنة ٤٠١ هـ
سنة ١٠١٣ م ثار على وعلى أتباعي الجنود والأثراك وسيدة الملك وكبار
الدولة وأفراد الشعب المصري وكان خصمي في المذهب وعدو الحاكم
بأمر الله الأول رجل يدعى درزي بن محمد فقد صنف المصنفات وأنبرى

مؤامرة

نسبة
الهدوز

لنا يناظرنا هو وأتباعه في كل مكان، فأمرت الدعاة بأن يأمرُوا أتباعنا بالرحيل إلى الشام وتواعدنا على التلاقى والتجمع في مكان معين (حيث يقع جبل الدروز)، فكان الناس يلقوننا في الطريق يسألون عنا ومن نحن؟ فكنا نجيبهم بأننا درزيون من أتباع درزي الذي اشتهر أمره بنا حتى أصبح أتباعي مسمون باسم عدوهم ولعلها هي الجماعة الوحيدة في هذه الدنيا — على ما أعلم — التي أطلق عليها اسم عدوها ونسبت إليه، وتلاشى اسمي ولم يبق له وجود في الأذهان ولا في الأعيان. وكان من أهم آثار الحاكم إتمام جامعته الذي بدأه العزيز بالقرب من باب النصر وبناء (دار العلم) أو (دار الحكمة) لإذاعة مذهبه ونشر العلوم عامة وكانت دار العلم قصرًا فخماً به مكتبة كبيرة مباحة للخاص والعام يقصد إليها العلماء من الأقطار النائية. ولما قتل وكان ابنه الظاهر حدثاً لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره قامت عمته (سيدة الملك) بأعباء الحكم. فلما واقتها المنية التف حول الخليفة (الظاهر) ثلاثة شيوخ أقصوا عنه كل ناصح أمين وأهملوا الرعية، وانخفض^(١) النيل فعم الكرب واشتد الغلاء واشتبك الجند والأهالي في الطرقات.

وكانت الخلافة قد فقدت كل ممتلكاتها تقريباً فحاول الخليفة المستنصر بن الحاكم أن يستعيد سلطانه على المغرب فأرسل بعض قبائل من عرب (بنى هلال) ليتصلوا بأسلافهم المقيمين في المغرب وليحيوا

(١) وما تجدر ملاحظته أن يقترن انخفاض في تلك العهود باضطرابات وقلاقل ترجع لحرمان الأراضى من مياهها مما يفضى إلى قلة المحاصيل، ولعل هذا يفسر لنا سر تأليه النيل عند قدماء المصريين.

ولاء هذه القبائل للفاطمين ولكن هؤلاء وقد جرفهم تيار الحياة السائد
بقى ولاؤهم قصير الأجل وقامت في بلاد المغرب دول صنهاجة والموحدين
والأدارسة والملثمين والمرابطين وقد عظم نفوذ الفاطميين في اليمن
والحجاز وقد ملكوها دهرًا طويلًا فالحجاز قد انقطعت فيه الخطبة
للخليفة العباسي من سنة ٣٩٣ هـ وخطب في مكة والمدينة للخليفة
الفاطمي ولم يتمكن أحد من الوزراء الذين تتابعوا في أول حكم
المستنصر من الاحتفاظ بالحكم طويلًا حتى استوزر رجلا عصاميا
يدعى (اليازوري) من عام ٤٣٠ هـ - ١٠٤١ م إلى عام ٤٣٨ هـ -
١٠٤٩ م وكان اليازوري محبًا للفنون مشجعًا للعلماء وقد أراد إصلاح
حال الفلاح وزيادة الإيراد فحرم على المزارعين شراء المحصولات من
الفلاحين قبل الحصاد بثمان بنخس، وخزن القمح اتقاء القحط ولكنه
رغم ذلك كله لم يفلح لسوء الحالة العامة. ومات مسمومًا في عام ٤٣٨ هـ
- ١٠٤٩ م. وقد تعاقب بعده كثير من الوزراء لم يستقروا في الحكم
إلا قليلًا لضعف الخليفة وتأمر الذين حوله من حاشية وجيش حتى عمت
الفوضى واشتكت الرعية كثرة التغير والتبديل في موظفي الحكومة
المستولين وزاد الأمر سوءًا اشتداد النزاع بين الجنود السودانية والجنود
الأتراك، ثم تغلب الترك وطرّدوا خصومهم إلى الوجه القبلي فأصبح
الصعيد كله في قبضة السودانيين، واستولى الترك وحلفاؤهم من البربر
على الوجه البحري وخرّبوه. وتوالى القحط على مصر سبع سنين دأبًا
حتى أكل الناس الخيل والحمير والكلاب والققط ولما فئت ثروة

المستنصر على كثرتها نهب الجنود الأتراك قصره وتقايسه وبددوا المكتبة الكبرى وكان بها ما يربو على مائة ألف كتاب من أنفس الكتب في أعلى ما عرفه العرب من الفنون والعلوم، من هذا ترى أيها المجلس أنني لم أشغل في هذه الحقبة التاريخية حيزاً يذكر إلى جانب هذا الفساد في مدته وإذا امتد الفساد استحال على مثلي أن يَحْزِرَهُ ، واستغل الأمر الواقع مواهبى ليرفعنى فوق مستوى القزاز وليجعل منى حمزة ابن على داعى الدعاة، أفما يحق لى أن أسجد لهذا الأمر الواقع وأؤلّله؟ أبو الهول — إنه كان مما شاهدت على وجه هذه الدنيا أن رجلاً يدعى مكياقللى وضع كتاباً يبين وسائل الحكم المستبدين في شعوبهم كما يبين للشعوب طرائق الاستبداد التى يتخذها هؤلاء الحكم الذين جعلوا شعارهم « الغاية تبرر الوسيلة » وبما أن عمالك هذا له وجوه اعتبارية في نظر العقل تبررها تبريراً مريضاً محموماً ، فإننا قد وضعناك في أعراف بين دجاجة الإنسانية والدخلاء عليها لأنك أردت أن تسوغ لنفسك الشغبذة بمثلها .

ثم استيقظت حينذاك وقد وعيت ما قد قيل فدوته من فورى وأضفت إليه ما كنت أعلمه من تاريخ هذا العهد .

ذلك أنه لما ضاق الخليفة ذرعاً بمساوىء الجند لا سيما الترك منهم استقدم (بدر الجمالى) حاكم عكا وكان مملوكاً أرمنياً تدرج في الوظائف الكبرى حتى عين حاكماً لجهات عدة فحضر بجنده وأمرهم باغتيال زعماء الترك في ليلة واحدة فاستراح الناس من شرهم في عام ٤٦٥ هـ ١٠٧٦ م .

ونزل الجمالى بشارع ييرجوان وأطلق الخليفة يده فى كل الأمور فأخذ يعيد لقصر الخليفة كل ما عثر عليه من نقائسه السالفة . ثم فتح البلاد من جديد وخلص الدلتا من يد البربر والصعيد من يد السودانية . فاطمان الفلاحون تحت حكمه العادل وعادوا يزرعون أرضهم فكانت العشرون سنة الأخيرة من حكم المستنصر عهد رخاء وبركة .

وأقام بدر الجمالى سوراً حول القاهرة وأزال الأبواب القديمة وبنى باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة^(١) مكان البابين اللذين كان قد أنشأهما جوهر وكان موضعهما بسوق الحجارين الذى هو شارع المنجدين فى مقابلة درب القضاة وذلك فى سنة ٤٨٥ هـ - ١٠٩٢ م هذه الأبواب لا تزال موجودة، وكان باب زويلة مكاناً لجلوس الأمير والقاضى فى أكثر العصور فدعى باب المتولى وهى أبواب على نمط الحصون البيزنطية لمناعتها، ومات فى ربيع عام ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م وهو فى الثمانين من عمره وخلفه ولده الأفضل شاهنشاه ومات المستنصر فى نفس السنة وبموتها لم يعد للخلفاء الفاطميين حول ولا قوة، ومما هو جدير بالذكر أن المستنصر مكث خليفة مدة ستين عاماً لم يظفر بها خليفة قبله ومن بعده أهملت طريقة الوراثة فى الخلافة وصار كل وزير يختار من بين سلاله الفاطميين أصغرهم سناً أو أضعفهم إرادة ليملاؤه عرش الخلفاء كلما شغل ليخلو له الجو فيفعل ما يشاء .

وقد سار الأفضل شاهنشاه على نهج أبيه بالعدل والحزم واستمرت

(١) زويلة كجبهة كما فى القاموس وكسيفة كما فى معجم ياقوت والمخطوط للمقرئ .

في زمنه الطمأنينة والرخاء وكانت سوريا تابعة لمصر منذ عهد ابن طولون
 لم تشذ عنها إلا في فترات يسيرة فلما أخذ الصليبيون بيت المقدس في عام
 ٤٩٢ هـ ١٠٩٩ م وتوغلوا في جنوب فلسطين حاول (الأفضل) أن يصد
 غاراتهم فهاجمهم مراراً دون جدوى حتى تشجع (بودوين) ملك بيت
 المقدس ودخل الحدود المصرية عام ١١١٧ هـ ١٢١٠ م وأحرق (الفرما) وتقدم
 إلى (تنيس) ولم يثنه عن فتح مصر كلها إلا مرضه . ومن ذلك الوقت
 التزمت مصر خطة الدفاع عن نفسها وقتل (الأفضل) بإيعاز من
 الخليفة عام ١١٢١ هـ ١٢١٥ م . وبقيت مصر بعده في فوضى لا تكاد
 معها سلطة الحكومة تمتد إلى خارج قصر الخليفة حتى تولى الوزارة
 (طلائع بن رزّيك) بلقب (الملك الصالح) عام ١١٥٤ هـ ١٢٥٩ م في
 خلافة الفائز بالله فضرب بيد من حديد على زعماء الفوضى وعاقب
 المجرمين وكانت مصر في ميسس الحاجة إلى رجل قوى حازم مثله
 بعد أن استولى في العام السالف بودوين على عسقلان آخر حصن
 لمصر في فلسطين ولم يبق أمام هذا الملك ما يمنعه من غزو مصر الا خوفه
 من اتقضاض السلطان (نور الدين محمود) صاحب حلب على مملكته
 أثناء تغييه بمصر وخصوصاً عندما أصبحت دمشق في حوزة نور الدين
 سنة ١١٥٤ م بعد أن كان أميرها حليف الصليبيين ، وقد تطلع منذ ذلك
 الحين كل من سلطان حلب وملك بيت المقدس إلى منع كل منهما الآخر
 من امتلاك مصر . وبذل (طلائع) كل ما في وسعه لمخالفة نور الدين لطرده
 الصليبيين من سوريا ولكن نور الدين لم يبت في الأمر فصرف (طلائع)

سياحه
 طلائع
 بن رزّيك

همته إلى توطيد الأمن في مصر نفسها ، وقد عرف طلائع بالكرم واستماع شكاوى الرعية على اختلاف طبقاتها ومساعدة ذوى الفطنة والعلم وقد بنى مسجده المعروف باسمه أمام باب زويلة سنة ٥٥٣ هـ سنة ١١٥٨ م وتمت عمارته سنة ٥٥٥ هـ - سنة ١١٦٠ م ولهذا الوزير أثر آخر من آثاره هو منبر الجامع العمري بقوص الذى عمل بأمره سنة ٥٥٠ هـ سنة ١١٥٥ م حينما كان حاكما لإقليم المنيا بعد قتل الخليفة الظافر بأمر الله يباب الزهومة عقب فتنة وقعت في القاهرة ، وينسب له من الآثار أيضاً جامع الأولياء المعروف بجامع القرافة لتجديده إياه ، ولما قتل طلائع بدسائس القصر خلفه ابنه (العادل رزيك) في خلافتي عيسى ابن الظاهر والعاقد عبد الله بن يوسف الحافظ ولم يأت عام ٥٥٨ هـ سنة ١١٦٣ م حتى تغلب عليه (شاور) وقتله ، ولكن شاور هذا لم يتم سنة حتى نازعه فيها (ضرغام) حاجب الخليفة العاقد ، آخر الخلفاء الفاطميين .

نهاية
الخلفاء
الفاطميين



وفي هذا الوقت الذي جالت بخاطري فيه تلك الذكريات التاريخية استهواني - قبل الالتجاء إلى ملهمي أبي الهول - أن أعيد حوادث التاريخ التي جرت في أوروبا إبان هذا العهد خصوصاً وأنه قد نشأت في أوروبا وقتئذ (المملكة البابوية) و (دول الحق الرباني) أي الملكية المطلقة المستمدّة حقها من الله . ودولة شرلمان وكيف اقتسمت بين بنيه وظهور نظام الإقطاع ونشأة الفروسية منه وظهور الرهبنة والأديرة . وكيف نشأت الممالك الحديثة ، والنزاع الذي قام بينها وبين البابوية المعصومة ، إلى غير ذلك من أحداث التاريخ الهامة التي وقعت في القارة الأوروبية .

نشأة الملكة
البابوية

ولا ريب - فيما يظهر لنا مما سبق من الأحاديث الخاصة بالدولة الرومانية ، وإغارة القبائل المتبربرة عليها - أن العنصر الآري الذي ساد العالم منذ ألف سنة قد تقلص ظله في القرنين السادس والسابع الميلاديين وخرجت من تحت سيطرته أفريقيا وإسبانيا وآسيا ما عدا ممتلكات بيزنطة بآسيا الصغرى وعاد العنصر السامي إلى نشاطه ومجده وخاصة في عهد الدول الإسلامية .

وانكمش العالم الإغريق فلم يعد يشمل غير القسطنطينية وماجاورها
ولم يبق من العالم الروماني غير الذكرى في اللغة اللاتينية عند قساوسة
المسيحية الغربية . ولقد كانت الكنيسة في روما تابعة للدولة الرومانية
فلما ضعفت الدولة واعتدت عليها الشعوب المتبربرة وأخذ زعماء هذه
الشعوب يلتمسون تتويجهم من أساقفة الرومان أخذت الكنيسة
تتخلص تدريجيا من تدخل الحكومة في شؤونها حتى إن أحد أساقفة
روما قد جاهر في القرن الخامس بأن العالم تحكمه قوتان . قوة الكنيسة
وقوة الملك والأولى تفوق الثانية، لأن مسؤولية الكنيسة أمام الله عن
أعمال الجميع حتى الملوك أنفسهم . واستصدر ليون أسقف روما من
الإمبراطور فالنتينيان الثالث (Valentinian III) إمبراطور الغرب منشورا
في عام ٤٤٥ م يعلن فيه أن أسقف روما متفوق على جميع أساقفة الغرب،
أضف إلى هذا أن كنيسة روما أسسها الرسول بطرس صاحب المنزلة
المتأزة عند السيد المسيح وقد نال من العذاب ألوانا على يد الإمبراطور
نيرون عندما عزا إلى المسيحيين حرق روما، وهي مفخرة الكنائس
ولها من الميزات ما لا يمكن أن تفخر به كنيسة أخرى في الغرب .
ولهذا اعتبر أسقفها في المرتبة الأولى بين الأساقفة ، ويعتبر غريغوري
الأكبر Gregoire أول من رفع اسقفية روما إلى مقام البابوية ، وكان له
الفضل في إرسال المبشرين إلى الوثنيين، وفي إعادة المسيحية إلى إنجلترا
بعد أن كانت قد محيت بإغارة السكسون الوثنيين عليها، وفي إدارة ميراث
الرسول بطرس إدارة حكيمة، وفي ترتيب الطقوس الدينية والصلوات

والموسيقى، وكان لشخصه فوق هذا وذاك احترام خاص، وقد أدى ذلك كله لرفعه إلى مرتبة القديسين بعد موته، وتلقب بلقب «بابا» وكان هذا اللقب معروفاً من قبل عند الشرقيين، حيث كانوا يطلقون كلمة «أبونا» على القس والراهب وعلى رجال الدين المسيحيين .

ولقد عرفنا أن جوستينيان كان قد انتزع إيطاليا من أيدي ملوك القوط الشرقيين في عام ٥٥٥م وجعلها ولاية تابعة للقسطنطينية، وترتب على هذا أن فقدت روما مركزها السياسي، وهبط عدد سكانها من مليون إلى خمسين ألف نسمة، ولكنها ظلت مع ذلك عاصمة للكنيسة ومركزاً للبابوية. فلما ظهر الإسلام ووضع تحت حمايته أمم مراكز المسيحية في الشرق وبخاصة الكنائس التي أسسها الرسل في بيت المقدس والإسكندرية وإنطاكية تسربت إليها فكرة إخراج الصور والتماثيل من الكنائس والامتناع عن عبادة العذراء وغير ذلك، وأيد الإمبراطور ليون الثالث هذه الفكرة فأصدر البابا في روما قرار الحرمان على هذا الإمبراطور بناء على ما أعلنه مجلس روما في عام ١١٥ هـ ٧٣٢م من أن تحطيم هذه الصور زيف وإلحاد^(١) . وبهذا بدأ الانفصال بين كنيسة القسطنطينية وروما واعتمدت كنيسة روما على دولة الفرنجة .

ولما هزم عبد الرحمن النافقي عامل الدولة الأموية في الأندلس عام ٧٣٢م ظهر شارل كأنه حامى المسيحية، فلما خلفه ابنه پيبن (Pepin)

دولة الحق
الرباني

(١) كان ذلك في عنوان الدولة الأموية والعالم الإسلامي يسج بالعبارة والدعاة والمصلحين وكان على التعديد في خلافة هشام بن عبد الملك بدمشق منوى رأس يوحنا الممدان .

في رئاسة البلاط الفرنسي أخذ على عاتقه حماية المسيحيين القاطنين بالتبشير في البلاد الجرمانية ، وفي هذه الأثناء أغار اللومبارد على شمال إيطاليا ولم يكن في استطاعة البابا في روما أن يستعين بالإمبراطورية الشرقية لقيام النزاع بينهما وهو الخلاف الديني السالف ذكره ولهذا التجأ البابا إلى بين الذي كان يتطلع إلى عرش فرنسا فاتهنز هذه الفرصة وأرسل وفداً إلى روما لاستفتاء البابا فيمن يكون أولى بالملك أصحاب اللقب الذي لا قوة له أم صاحب القوة الذي لا لقب له، وقد أفتى البابا بأن صاحب القوة أولى بالملك . وعندئذ جمع بين الأشراف ورجال الدين فولوه ملكاً كما عرفنا ومن هذا التاريخ أصبح منصب الملك مقدساً ونشأت نظرية الحق الإلهي أو الرباني أي أن الملك يستمد سلطته من الله.

وفي عام ١٣٩ هـ ٧٥٤م هزم بين اللومبارد وانتزع منهم أكثر ما استولوا عليه من الأقاليم بين رافنا وروما وقدمه هدية منه إلى البابا وحفظ وثيقة هذه الهبة في ضريح الرسول بطرس بكنيسة روما وأصبح البابا يحكم تلك الأقاليم كأمر دينوي له مملكة وله رعايا وهو ما يسمونه « بمرات الرسول بطرس » وقد أطلقنا عليه عبارة « المملكة البابوية ».

ولما مات بين اقتسم أولاده ممتلكات العرش طبقاً للتقاليد المرعية التي تقضى باعتبار هذه الممتلكات كأنها تركة شخصية ولكن لحسن طالع النظام الجديد، نظام الملكية المطلقة التي تستمد قوتها من الله، والتي يجب أن لا توزع ممتلكاتها بين الورثة فيمتنع النزاع عليها ولا تقف الكنيسة حائراً بين الورثة لا تدري من تنصره منهم، تقول لحسن حظ

نيرلان من
سنة ٧٦٨ إلى
سنة ٨١٤

هذا النظام أن مات أحد الأخوين بعد سنتين من وفاة والده وبقى الابن الآخر وهو شارل ملكا وحده باسم شرلمان ، وحكم خمسة وأربعين عاما ^{دوله} ^{شرلمان} امتد أثناءها سلطانه على فرنسا وبلجيكا والبلاد الواطئة وألمانيا وسويسرا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا ويوغوسلافيا وإيطاليا ووصل نفوذه الى أسبانيا وكانت عاصمته «أكس لاشابل» فطبقت شهرته الآفاق وصادقه هارون الرشيد خليفة بغداد وراسله بالهدايا كما عرفنا كما أذن لبطريق اورشليم أن يبعث إليه بمفاتيح كنيسة القيامة المقامة على قبر المسيح ، وكذلك أرسل إليه البابا مفاتيح قبر القديس بطرس .

هذا ولقد كانت حروب شرلمان ضد إيطاليا وأسبانيا والساكس حروبا دينية سياسية فخارب اللومبارد أعداء الكنيسة في روما وأنشأ مملكة إيطالية ولى ابنه ملكا عليها في سنة ١٦٦ هـ ٧٨١ م . ووجه إلى عرب أسبانيا سبع حملات عسكرية في مدى عشرين عاما وأنشأ فيها منطقة حراما عسكرية Marche d'Espagne جنوبي جبال البرانس تقع فيها مدينة برشلونه الا أنه لم يسعده الحظ في جميع تلك الحملات فقد اضطر الى الارتداد في أولى حملاته ضد سرقسطة وهاجم (الباشكنس) Les Basques في مضائق الجبال في عام ٧٧٨ م وفتكوا بمؤخرة جيشه على الرغم من بطولة رولان Rolan أحد قواده ولقد نظمت لهذه الموقعة قصيدة شعرية حماسية معروفة باسم (أنشودة رولان) كانت تتلى وتنشد طوال القرون الوسطى كالإلياذة عند الإغريق وقد عُزِي إلى العرب في هذه الأنشودة التي ظهر أنها من وضع الكنيسة الكاثوليكية فظائع لم يعرفها التاريخ

عنهم وللإشادة ببطولة شرلمان والاساءة الى سمعة العرب حتى لا تتسرب حرية آرائهم وتنتشر بين الشعوب الأوربية .

أما حروب شرلمان ضد بلاد الساكس فكانت بمثابة الحلقة الأخيرة في سلسلة الحروب ضد جرمانيا وهي التي ابتدأت من عهد كلوفيس أى منذ ثلاثة قرون . ولقد ظل أهل هذه المقاطعات وهي وستفالى وهانوفر Westphali et Hanovre وثنين متعصبين لدينهم وكانوا أكثر الشعوب خطراً على شرلمان الذى أعدم من أسراهم ٤٥٠٠ نفس في يوم واحد واضطرم بعد إخضاعهم إلى اعتناق المسيحية وأنشأ مناطق حراماً عسكرية على الحدود — مقتدياً بمعاصره الرشيد الذى أنشأ العواصم وأمر عليها أبناءه — جعلها تحت إدارة حكام أطلق على كل منهم « لقب المركز » . ومن هذه المناطق برندبورج Marche de Brandbourg وهي أصل مملكة بروسيا . وقسم شرلمان مملكته الواسعة الأرجاء إلى دوقيات وكنيات ومن هنا نشأت الألقاب الأوربية المعروفة إلى يومنا هذا .

وقد شدد الرقابة على أمراء الأقاليم فكان يرسل رسله Missi Dominici إلى الجهات ليوافقوه بتقاريرهم كما كان يجمع في شهر مايو عظماء الدولة وقساوستها ليستشيرهم ثم يصدر قراراته في مجموعات دورية سميت كاييتولير Capitulaires ويرى المطلع على هذه المجموعات أن بذور عهد الاقطاع غرست من ذلك الحين^(١) .

نظام
الطبقات

(١) نجد مثلاً من بين هذه الأوامر أن الجنود يجب أن يحضروا عند دعوتهم للقتال جماعات لا فرادى وأن تكون كل جماعة مع أميرها مدنياً كان أو دينياً . كذلك نرى ضمن أوامر عام ٨٠٥ أن اليمين التي يحلفونها على ثلاثة أنواع : يمين العدالة أمام القضاء ويمين الإخلاص للأمير ويمين الإخلاص للملك . وغير هذا مما هو وارد في نظام الاقطاع كما سيأتى بعد .

وكانت كنيسة روما تعترف بسيادة امبراطور الدولة الشرقية إلى أن قام النزاع بينهما على التماثيل المقدسة فانفصلت كنيسة روما الكاثوليكية عن كنيسة القسطنطينية وارتبطت بملوك الفرنجة لحمايتها فلما قام النزاع بين أشراف روما والبابا وكان الأشراف يريدون إعادة الجمهورية اضطر البابا «ليون الثالث» أن يلجأ إلى شرلمان ويسأله المعونة كما التجأ سلفه إلى سلف شرلمان «پيبن» عند إغارة اللومبارد على إيطاليا فدخل شرلمان روما وأعاد البابا إلى عرشه وبينما كان شرلمان راكعاً أمام المذبح في كنيسة الرسول بطرس في عيد الميلاد في عام ٨٠٠ وضع البابا على رأسه تاج الإمبراطورية، ويروى أن شرلمان أظهر دهشة عند ما فوجئ بهذا التتويج .

وعلى أية حال فقد أعيد بهذا التتويج تكوين الدولة الرومانية على يد امبراطور لم يكن رومانياً مثقفاً بل كان من الجنس الجرمانى وكان ملماً بالقراءة ولكنه لا يحسن الكتابة . ورغم أنه كان معتبراً في نظر الرومان من الهمج المتوحشين فقد اضطر امبراطور بيزنطة الشرعى إلى مراسلته معترفاً به وملقباً إياه بأخى العزيز كما هى آداب المخاطبات بين الملوك . وإني لأعجب لانكباب الناس على قراءة الأقايص الروائية الموضوعة بينما نجد فى الحقائق التاريخية ما يغنى عنها .

ثم إنه بعد موت شرلمان فى عام ٨١٤م قام النزاع بين أولاده وأحفاده على اقتسام ممتلكات العرش وانتهى الأمر بمهادتى فردون ومرس Verdun et Merse فى عامى ٨٤٣ و ٨٧٠ فاختص لوتير Lothaire مع

تقسيم دولة
شرلمان

لقب الإمبراطور بالبلاد المعروفة اليوم بهولندا وحوض نهر الرين الى ماينز وكذلك حوض الرون وسويسرا وشمال إيطاليا ، وانفرد شارل بالجزء الغربى المعروف ببلاد الغال وهو الذى تأثر المدينة الرومانية وأصبحت لغته هى اللاتينية، واختص لويس بالجزء الشرقى الذى لم يتأثر بمدينة الرومان وبقيت لغته جرمانية. ومن هذا التاريخ وجدت مملكتنا فرنسا والمانيا .

أما حصّة لوتير فقد اتقسمت فى أقل من نصف قرن إلى عدة ممالك
هى إيطاليا والبروفنس وبرجونيا Provence et Bourgogne .

وقد ظل الجزء الصغير الواقع غربى نهر الرين والذى سمي باللورين ميدان قتال ونزاع بين فرنسا وألمانيا إلى وقتنا هذا .

ومن هذا نتبين أن تنازع أحفاد شرلمان لم يكن السبب الوحيد فى انحلال دولته بل كان للعوامل الجغرافية واللغوية تأثير يذكّر فى ذلك .
وليس هناك من شك فى أن تقسيم دولة شرلمان كان سبباً فى إضعاف الملكية المطلقة وزادها ضعفاً كثرة الإغارات على هذه الممالك من نواحي عديدة ، فقد شن المجريون الغارة على شمال إيطاليا والعرب على البروفنس وشواطىء إيطاليا الجنوبية والنورماند على شواطىء ألمانيا وفرنسا وإنجلترا .

وكان النرامدة هؤلاء يقطنون فى هذا العهد فى البلاد السكندينية والداغرك ثم اتقضوا على شواطىء بحر الشمال والمانش والإطلنطى ونظراً لأنهم بحارة مهرة فقد انحدروا بمراكبهم فى أنهار فرنسا كالسين

النورماند

واللوار حتى وصلوا إلى قلب فرنسا . وكانت إغاراتهم بادية الأمر
قاصرة على النهب والسلب ولكنهم عند ما شعروا بضعف البلاد التي
كانوا يغيرون عليها وطنوا النفس على الإقامة بها ولم يكن للوك
فرنسا إذ ذاك بد من الاتفاق معهم فاتفق شارل «Charles le simple»
حفيد «Charles le Chauve» مع زعيمهم رولون «Rolon» وأقطعته أرضاً
هي المعروفة إلى اليوم بنورمانديا كما منحه لقب دوق وزوجه من ابنته
على أن يعتنق المسيحية وأن يكون تابعاً لملك فرنسا فأقام القوم في مقاطعتهم
واتخذوا اللغة الفرنسية لغتهم ولكنهم ظلوا شغوفين بالمغامرات
والإغارات وهم الذين غزوا إنجلترا وصقلية وجنوب إيطاليا ولعبوا دوراً
كبيراً في الحروب الصليبية .

ويبدو واضحاً أن اقتسام ورثة الملك المتوفى لممتلكات العرش
وما ينجم عنه من منازعات، وعجز الحكومات عن صد الغارات المتكررة
هي من العوامل التي مهدت السبيل لظهور نظام يحل محل الملكية
المطلقة ، وهذا النظام الجديد هو نظام الاقطاع .

ولقد عرفنا كيف كان الأهالي منذ عهد شرلمان يحضرون جماعات
مع أميرهم كلما دعاهم الامبراطور للقتال . وكذلك عرفنا كيف كانوا
يخلفون عين الإخلاص للأمير ثم للملك فلما عجزت الحكومات العليا
عن صد الإغارات وردع المعتدين قام أمراء الجهات بالدفاع عن
مقاطعاتهم فسلحوا أتباعهم وأصبحوا شبه مستقلين لا يعلكون الأراضي
فقط بل يحكمون الأهالي ويقضون بينهم ويقودون الجيوش ويجمعون

الضرائب. وإذا كانوا يتظاهرون بالخضوع للملك ويقدمون له المساعدة وقت الحرب إلا أنهم كانوا على أى حال يعتبرون إدارة شؤون مقاطعاتهم حقاً لهم دون غيرهم .

وقد ترتب على هذا أنه كلما ضعفت سلطة الملوك قوى نفوذ الأمراء والأدواق وشرع هؤلاء الأمراء فى تشييد القصور على نظام يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم وعن رعاياهم إذا أغار عليهم مغيراً واعتدى معتد فكانوا يحيطونها بأسوار عالية ويحفرون حولها الخنادق ويقيمون جسوراً متحركة تفتح وتقفل عند الحاجة .

وقد أدت هذه الحال إلى وضع بعض القواعد لربط التابع بالمتبوع فكانت الأرض طبقاً لنظرية الاقطاع ملكاً لله تعالى الذى منحها للملك ثم أقطعها الملك لأتباعه وهؤلاء الأتباع قد أقطعوها بدورهم إلى فدائهم (ممالكهم أو عبيدهم) ^(١) . وكان من واجب السيد أن يحمى تابعه وأن يدفع عنه العدوان وأن يفصل فى قضاياه — وكان على التابع أن يحلف عين الولاء والإخلاص لسيدته وأن يحارب تحت لوائه وأن يقدم له شيئاً من المال لافتدائه من الأسر أو ليقدمه عند زواج ابنته الكبرى أو عند إقامة حفلة الفروسية لابنه الأكبر .

ولقد عم هذا النظام (نظام الاقطاع) أوروبا واستقر فى شكله النهائى خلال القرن التاسع بعد الميلاد واستمر سائداً إلى القرن الثالث

(١) وأصل هذه الطبقة المعروفة باسم رقيق الأرض من نسل الأرقاء فى عهد الدولة الرومانية فكان السيد يمنح رقيقه قطعة أرض يزرعها لنفسه خاصة فى مقابل جزء من المحصول يقدمه لسيدته وليس لهذا الرقيق أن يغادر الأرض ولا أن يزوج أولاده بغير إذن سيده وكان ينتقل مع الأرض بالبيع والهبة كأنه من ملحقاتها .

عشر . ولم تسلم الكنائس والأديرة نفسها من نظام الاقطاع واضطرت
إلى الاحتماء بأقوى الأشراف المجاورين لها وأصبح رجال الدين تابعين
لهؤلاء الأشراف الذين قسموا هم أنفسهم أرض الكنائس إلى إقطاعات
منحوها بدورهم لمن أصبحوا أتباعاً لهم .

نشأة
الفروسية
في أوروبا

ويظهر أن العرب الذين كانوا يعتمدون في حروبهم على الجياد لملأها
من الميزات الحربية قد حملوا شارل مارتل (قارلة) بعد موقعة (تور —
بواتيه) إلى تكوين فرق من الفرسان على طراز يخالف الطراز العربي
لأنهم لم يكونوا خفافاً في ملابسه بل كانوا يحملون دروعاً ثقيلة
ومع ذلك فقد اتصفوا بصفات الفرسان العرب من حيث الشهامة
والبرورة والأخذ بيد الضعيف ونصرته .

وكان أبناء الأشراف ينضوون تحت لواء فارس يعلمهم ضروب
القتال من كَرٍّ وفرٍّ حتى إذا ما تم تدريبهم يُمنحون لقب فارس في احتفال
كان يقام في الأصل مدنياً ثم أصبح دينياً . ويجب في هذا الاحتفال
أن يضع الشاب المرشح للفروسية سيفه على المذبح ليباركه له القس
ثم يلقنه واجبات الفروسية ويجعله يُقسم بأن يكون خادماً أميناً
للكنيسة وأن يعمل على إنصاف المظلوم وأن يأخذ بناصر الضعيف .
وقد تدخلت الكنيسة أيضاً في إيجاد ما يسمونه بالهدنة الربانية
وهي الكف عن القتال في أيام معلومة كما هي الحال في الأشهر الحرم
عند العرب .

ولعل أهم ما خلفته الحروب بين العرب والفريجة وقتئذ هو ظهور

هذه الفروسية التي تنطوى على هذه الأخلاق الراقية والمبادئ السامية التي توارثتها الأجيال ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم ، تلك المبادئ التي أملت على المعتصم أمير المؤمنين العباسي — عند ما استجارت به السيدة العريية التي زُجَّ بها في السجن في عمورية فنادت وامعتصماه — أن يخرج إليها بجيشه ويحطم قيودها وأن يخرجها من سجنها باسطاً لها يده قائلاً لها : ليك ها أنا ذا .

وتلك المبادئ هي التي أملت على غوردون أن يقف بجانب من جاء لإقذارهم في عاصمة السودان وأبى أن ينجو بنفسه عندما نصح له بذلك وأصرَّ على أن لا يترك رجاله عرضة للانتقام المهدي منهم وقرر في نفسه أن يدافع عنهم حتى الرمح الأخير .

وتلك المبادئ هي التي رفعت من شأن الإنسانية وغرست في النفوس حب التضحية وإنكار الذات قياماً بالواجب .

ويمخيل إلينا أن الكاتب الروائي العالمي سرفانتز Cervantés الذي جعل بطل روايته دون كيشوت Don Quiechotte موضوع تسليية وهزاء وسخرية للنيل من المدافعين عن العدل والحق بغير وسائل عملية لم يستطع أن ينتزع من ضمير الإنسانية مجد تلك الصفات العالية . وفي يقيننا أن القدرة على دفع الظلم والإغاثة أو العجز عن ذلك لا يقلل من الاحترام الواجب للمدافعين عن القضايا العادلة ولو قعدت بهم وسائلهم قصوراً .

ولقد كان الظلم مخيماً على أوروبا في القرون الوسطى والفساد

الخلق فاشياً وكان يبدو أن الفروسية سترفع من شأن العالم الأوربي
وتضرب على أيدي الطغاة والبغاة فتقضى على تلك المظالم والمفاسد
ولكنها كانت فروسية أرستقراطية فلم تُقدِّم الشعب إلا قليلاً .

الرهينة
والأديرة

ولهذا لجأ الكثيرون من المتعبدين إلى حياة العزلة بعيداً عن المدن
وساكنها فنشأ نظام الرهينة والأديرة في أوربا وكانت حياة الزهد
والعزلة عن العالم معروفة في الشرق الأقصى قبل ظهور المسيحية . وقد
لجأ إليها بوذا نفسه في أول ظهوره في القرن السادس قبل الميلاد .

وجاءت الرهينة إلى مصر بعد المسيحية وكان أول من أخذ بها هو
أنطونيوس المصري في أواخر القرن السادس الميلادي ووجدت الأديرة
في صحارى مصر منذ أوائل القرن الرابع ثم انتقلت إلى شمال إفريقيا
وصقلية ومنها إلى إيطاليا وأوربا فلما ظهر القديس بندكت *Saint Bénédict*
من سنة ٤٨٠ إلى سنة ٥٤٣ وضع نظاماً للأديرة جعل حياة الرهبان
حياة كد ونصب في الكنيسة والدير والحقل وقاوم فكرة العزلة
الفردية وأخذ الرهبان يعيشون معاً كهيئة تابعة للبابا .

ومن أهم النظم محور جميع الفوارق الاجتماعية والمالية والجنسية وبذا
ظهرت المساواة والاخاء في داخل الأديرة بين الرومانى الحر والعبد والمتبرر .
ولما حل القرن العاشر تطرق الضعف والفساد إلى نظام الأديرة
فتهض دير كلونى *Cluny* في سنة ٩١٠ بالإصلاح . وفي هذا الدير تخرج
الراهب هلدبرند الذى تولى البابوية باسم غريغورى السابع .

الإخوان
الفرنسيكان

وفي أوائل القرن الثالث عشر بدأت حركة رهبنة جديدة باسم

القديس فرنسيس St. Francis الذي عني بمواساة البائسين وهو الذي أسس عهد الإخوان الفرنسيسكان ونال موافقة البابا أنوسنت الثالث Innocent III. في عام ١٢٠٩ . وهؤلاء الإخوان هم الذين قلدوا حياة المسيح فشرعوا يجوبون البلاد حفاة بملابس رثة خشنة ويعيشون من كدم أو من الصدقات ويعنون بالمرضى والمساكين .

ولما مات فرنسيس في عام ١٢٢٦ وتوالت على هيئة الفرنسيسكان الهبات والعطايا زالت عنهم الحماسة الدينية وحياة الزهد والتقشف . وفي الوقت ذاته الذي تكونت فيه هيئة الفرنسيسكان قام القديس دومينيك St. Dominic بإحياء عهد آخر للرهبان المتسولين واعترف بهم البابا وأباح لهم تأدية الفرائض والواجبات الدينية . فلما انتهالت عليهم العطايا والهبات أصابهم ما أصاب إخوانهم الفرنسيسكان ولقد عرفنا الخلافات التي شجرت بين الكنيستين اليونانية واللاتينية منذ أوائل القرن الحادى عشر بسبب الصور والتماثيل . فلما انفصلتا دانت أوروبا الشرقية من اليونان والبلغار والروسيا بالولاء للكنيسة اليونانية واتخذت الأرثوذكسية مذهباً لها . وانتمت كل أوروبا الوسطى والغربية من بولونيا إلى إسبانيا للكنيسة اللاتينية الكاثوليكية .

ولم تقف الخلافات والانقسامات عند هذا الحد بل تعدته الى حيث انقسم الكاثوليك على أنفسهم ونشأت قبل ظهور البروتستانت جماعتان هما « الفودوا والأليجوا » Voudois et Albigois .

والجماعة الأولى منسوبة إلى رئيسها Valdes الذي أخذ بحكمة

المسيح فباع جميع أملاكه ووهب ثمنها الفقراء في عام ١١٧٠ وأخذ يستعلن وينشر بين الناس بأن كل إنسان حر في تفسير الإنجيل وفهمه وبهذا خرج على مبدأ الإيمان والتصديق بغير بحث ولا تفكير .

أما الألييجوا فقد كانت تعاليمهم أكثر انتشاراً بين الجماهير وهم يعتقدون أن المسيح لم يكن إلا ملاكاً أرسله إله الخير لإتقاذ النفس وخلصها ، ويعزو البعض سبب انتشار هذه التعاليم إلى الفساد الخلقي الذي غشي رجال الدين وقتئذ في جنوب فرنسا فخشي البابا امتداد نفوذهم وانتشار تعاليمهم التي اعتبرت (هرطقة) أو زيناً وإلحاداً . وشن عليهم أنوسنت الثالث Innocent III حرباً صليبية دفع فيها أمراء فرنسا الشمالية إلى محاربتهم ، وأرسل البابا جريجوار التاسع موظفين من قبله لإجراء التحقيقات السرية والمحاكمات القاسية وقد عرفت في التاريخ بمحاكم التفتيش وكانت تكتفي بتبليغات تقدم لها خالية من التوقيع ولا تسمح بسماع شهادة الشهود ، وقد حكمت في يوم واحد على ثلاثٍ وثمانين ومائة نفس بالحرق أحياء (في عام ١٢٣٩) حتى لقد قيل إنه لو تقدم أمامها القديسان بطرس وحنانيا لما استطاعا تبرئة نفسيهما .

ظهور الممالك
الحديثة في
أوروبا

أما تطوّر الممالك الحديثة في أوروبا فمما لا ريب فيه ولا مرأى أن عهد الاقطاع كاد يقضى على نظام الملكية الوراثية . وليس هذا غريباً لأن نفوذ الأمراء وقوتهم جعلاهم يتدخلون في تعيين الملوك وعزلهم ، ولقد حدث عند ما اشتدت إغارات النورماند على فرنسا في أواخر القرن التاسع وحاصروا باريس وعجز الملك عن صدم أن انبرى لهم

كونت باريس « أودو » وهو أحد الأمراء الأقوياء وتمكن من رفع
الحصار المضروب فانتخبه الأشراف ملكاً عليهم وعزلوا آخر ملك
من أحفاد شلمان غير أن هذا الانتخاب لم يرفع من شأن الملكية
لتمسك كل أمير باستقلاله في مقاطعته ، واستمر الحال على هذا المنوال
نحو قرن من الزمان ظل الملوك فيه قانعين بالتمتع بالسيادة الاسمية إلى أن
انتخب هوج كابت Hugue capet ملكاً وهو من أسرة أودو في
عام ٩٨٧ . ومن هذا التاريخ أخذ ملوك فرنسا يوسعون ملكهم
ويجورون على أملاك الأمراء بوسائل شتى حتى أصبحت فرنسا كلها
تحت سيطرة العرش وتكونت بهذا مملكة فرنسا الحديثة .

فرنسا

وفي عهد فيليب الأول (من سنة ١٠٦٠ إلى سنة ١١٠٨) غزا غليوم
دوق نرمانديا الجزر البريطانية في عام ١٠٦٦ وأصبح هو وأحفاده ملوكاً
على انجلترا مبتعدين بذلك عن فرنسا فتمكن الملوك الفرنسيون من
انتزاع أملاك فرنسا من أيدي هذه الأسرة .
كذلك اتهم الملوك الفرنسيون غيبة أدواق فرنسا وأشرافها في
الحروب الصليبية منذ عام ١٠٩٥ وبسطوا نفوذهم على مقاطعات
هؤلاء الأمراء .

وكذلك عمل هؤلاء الملوك على تقوية الطبقة المتوسطة لتكون عوناً
لهم ، تلك الطبقة التي نشأت بسبب انتشار التجارة والصناعة عقب
الحروب الصليبية ولعبت دوراً هاماً في تأسيس المدن والبلديات وقاومت
نفوذ الأمراء واشترت منهم حرياتهما .

واستطاع فيليب أغسطس (من سنة ١١٨٠ إلى سنة ١٢٢٣) ضم مقاطعتي نورماندي وانبجو إلى أملاكه بعد انتصاره في موقعة بوفين Bouvines في عام ١٢١٤ بسبب النزاع الذي أثاره على ملك إنجلترا چون عندما دعاه ليحاسبه على أعماله باعتبار أنه من أتباعه إذ كان يملك بعض المقاطعات في فرنسا . ولما أبى الملك چون الحضور صادر فيليب أملاكه في فرنسا بمساعدة الكنيسة وبالنصر الذي ناله في موقعة بوفين اتسعت أملاك العرش الفرنسى وأصبحت باريس أعظم مدن فرنسا .

أما الملك لويس التاسع (من ١٢٢٦ إلى ١٢٧٠) فإنه على الرغم من صلاحه وتقواه كان شديد التمسك بحقوق فرنسا إزاء البابوية وقد لعب دوراً في الحروب الصليبية وفي أواخر حكمه صار أخوه ملكاً على صقلية و نابولي فزاد هذا في عظمة العرش الفرنسى وهيبة ذلك العرش الذى امتدت ممتلكاته من البحر الأبيض إلى البحر الشمالى .

أما فيليب الرابع (من ١٢٨٥ إلى ١٣١٤) فإنه قد انتزع مقاطعة الفلاندر من يد أميرها إلا أن أهلها ثاروا عليه وانتصروا في موقعة كورتريه Courtrai في عام ١٣٠٢ فقتل جزء من هذه المقاطعة الشهيرة بصناعة نسج الصوف .

ثم أراد فيليب هذا أن يفرض الضرائب على رجال الدين أسوة بغيرهم فثارت ثورة البابا وأمر بالامتناع عن دفع هذه الضريبة فرأى فيليب أن يجمع مجلس الأمة في عام ١٣٠٢ ولم يكتف بدعوة كبار الإشراف والأساقفة ورؤساء الأديرة كما كان متبعاً من قبل بل طلب

إلى كل مدينة أن ترسل مندوبين عنها وعقد مجلساً قرر الموافقة على خطة الملك وهي تقضى بمنع انتقال الذهب من فرنسا إلى إيطاليا فخرت البابوية كل ما كانت تجنيه من الكنائس واضطر البابا أن يخضع لأمر الملك وأن يصالحه .

وكان فيليب يعتمد على مجلس الأمة هذا ويجمعه من وقت إلى آخر . وهذا المجلس هو المعروف بمجلس طبقات الأمة *Etats généraux* أعنى الأشراف ورجال الدين وطبقة الشعب المسماة *Tiers Etats* ولا نذهب بعيداً فنظن أن لمجلس الأمة أى تفوذ إذ ليس لأعضائه إلا أن ينفذوا أوامر الملك كدعوة اجتماعهم التى تنص على أنهم « مدعوون ليسمعوا ما يقول الملك وليوافقوا عليه ولينفذوا ما يأمرهم به » .

ومن هذا يتبين أن الملكية المطلقة فى فرنسا ظلت فى طور التكوين نحو ثلاثة قرون جاهد فى أثناءها ملوك فرنسا فى محاربة الأشراف فلما تكونت الملكية بعد هذا الجهاد الطويل نشأت قوة وطغت على عهد الاقطاع وبددت تفوذ الأمراء فلم يستطيعوا أن يحدوا من سلطانها أو يقيدوا من تفوذها ولذلك تأخر فى فرنسا ظهور نظام الملكية المقيدة ولم تبدأ فيها النظم الدستورية إلا فى عام ١٧٨٩ إبان الثورة الفرنسية التى قضت على سلطة الملوك ورفعت فوقها سيادة الشعب وإرادته وأيدت حقوق الإنسان . وحدث هذا الانتقال من نظام الحكم المطلق إلى نظام الحكم النيابى طفرة على عكس ما حدث فى إنجلترا التى نشأت فيها الملكية المطلقة ضعيفة وتمكن الأمراء

والأشراف من أن يَنْقُصُوا من سلطة الملوك ويحدوا من نفوذهم فنشأت
النظم النيابية عندهم مبكرة وتأيدت مبادئها رويداً رويداً.

ولم يعرف المؤرخون في أى عهد انتقلت قبائل الكلت من سكان إنجلترا
مقاطعة « برطاني » في شمال غربى فرنسا إلى الجزيرة المقابلة لهم والتي
سموها « بريطانيا » .

ولقد عرفنا أن تلك الجزر البريطانية كانت قد خضعت
لحكم الدولة الرومانية التي اضطرت عندما أصابها الضعف والانحلال
إلى سحب جنودها من هذه الجزر البعيدة للدفاع عن باقى أراضى
الامبراطورية عام ٤١٠ م . فسنت بهذا الانسحاب الفرصة لقبائل
الانجلو والسكسون الذين نزحوا من ألمانيا فى القرنين الخامس
والسادس من الاغارة على هذه الجزر وكانت هذه القبائل وثنية ،
ويروى أن البابا غريغورى التتى يعرض شبانها يباعون فى أسواق الرقيق
بروما ولما عرف من أين هم آتون أرسل الراهب أغسطين Augustin
فى عام ٥٩٧ ليشرهم بالمسيحية فارتبط الانجلو والسكسون من هذا العهد
بأسقفية روما .

وكانت هذه الجزر عرضة للاغارات المتكررة فقد هاجمها
الدنماركيون واستوطنوا الجزء الشمالى الشرقى منها واعتنقوا المسيحية
وبقى الملك الفرد Alfred « الذى حكم بعد Eghort ملك السكسون » ملكاً
على أسكس وتمكن خلفاؤه من إضعاف الدنماركيين وتقوية أسكس
التي أصبح لها شأن عظيم فى عهد الملك ادجار Edgar ثم انحطت

وقويت شوكة الدنماركيين بانضمام النرويج Norvège إلى حكم الملك
كنوت Canut الذي حكم إنجلترا نفسها في عام ١٠١٧ . ولما مات تفرقت
دولته وأصبح أدوارد الملقب بالتقي Edward le Confesseur ملكاً على
أسكس ومن بعده ادعى العرش غليوم (ويليم) دوق نورمانديا وعبر
بحر المانش وغزا إنجلترا وأخضعها إلى حكمه بعد موقعة « هستنجنس »
Hastings في عام ١٠٦٦

ويظهر لنا من هذه الإغارات المتكررة أن الملكية في إنجلترا
كانت ضعيفة فأراد ويليم الفاتح النورماندي أن يرفع من شأنها وأن يقاوم
عهد الاقطاع ونفوذ الأمراء كما جرى ذلك في فرنسا فأقطعهم مساحات
صغيرة من الأراضي في أقاليم متباعدة لتفريق قوتهم وأقام الحصون
في جهات عديدة ثم جمع ملاك الأرض من جميع الطبقات سواء أكانوا
تابعين للعرش مباشرة أم للبارونات أو للأمراء الآخرين وجعلهم يخلفون
له جميعاً عيني الطاعة والإخلاص وأن يكونوا في جانبه إذا ما قام نزاع
بينه وبين الأشراف . وسمح للكنيسة أن تكون لها محاكم خاصة فعمل
رجال الدين على تأييد عرشه وسنده البابا وشجعه فأسس مملكة مركزية
قوية أدت إلى امتزاج النورمانديين بالإنجليز وأصبحت اللغة الفرنسية
لغة البلاد والطبقات الممتازة واتصلت إنجلترا بالقارة الأوروبية .

ولما كثرت في يد ملوك إنجلترا الأراضي والممتلكات الفرنسية
هَبَّ ملوك فرنسا لاستخلاص هذه الممتلكات من أيديهم كما تقدم .
هذا ولقد حاول الملك هنري الثاني (من ١١٥٤ إلى ١١٨٩) أن

يقوى سلطة العرش فأنشأ نظام القضاة المتجولين وكان أعيان البلاد يقدمون لهؤلاء القضاة أسماء المجرمين ومن هذا النظام نبشت فكرة العدول المحلفين وهو الذى فرض ضريبة تدفع بدل الخدمة العسكرية لتساعده على إعداد جيش تحت أمره مباشرة غير أن جهود هذين الملكين فى تقوية الملكية المطلقة ضاعت هباء إزاء الملوك الضعاف الذين تولوا الحكم بعدها لأن ابن هنرى وهو ريشارد الملقب بقلب الأسد Richard cœur de Lion (من ١١٨٩ إلى ١١٩٩) قضى أكثر أيام حكمه فى الحروب الصليبية واشتهر بالشجاعة ولكن انجلترا لم تفد منه شيئاً وقد استنزفت ثروتها فى حروبه واقتدته من الأسر . وكان أخوه جون^(١) الذى تولى الحكم بعده ضعيفاً سىء التصرف وقد عجز عن حماية أملاك انجلترا فى فرنسا عقب موقعة بوفين كما أسلفنا وأساء التصرف مع البابا الذى لجأ إلى إصدار قرار الحرمان ضد الملكة كلها فاستاء الشعب وأحس الأمراء - بمعونة الشعب - بقدرتهم على الثورة ضده وضموا إليهم رجال الدين وأرغموا الملك على منح الميثاق العظيم Magna charta وهو أساس الحرية عند الشعب الإنجليزى وهو الذى قضى على سلطة الملك فى القبض على الأفراد وزجهم فى السجون ومصادرة أملاكهم بدون محاكمة كما أنه قضى على سلطة الملك فى فرض الضرائب بدون موافقة المجلس الأعلى .

ولقد كان فى انجلترا مجلس منذ زمن بعيد يحضره الأشراف

(١) Jean Sansterre أى جان الذى لا أرض له ذلك لأنه كان صغيراً عند وفاة والده فلم يمنحه شيئاً من الأراضى التى كان قد وزعها على أولاده الآخرين .

والأساقفة فلما غزا ويليم (غليوم) الفاتح إنجلترا استدعى إلى مجلسه كل من تسلموا أرضهم منه وسماهم المجلس الأعظم . ولما تولى الحكم هنرى الثالث (من ١٢١٦ إلى ١٢٧٢) فرض ضرائب جديدة فقاومه الأشراف بقيادة سيموند دى منتفورت Simon de Montfort وأكرهوه فى عام ١٢٥٨ على دعوة المجلس الأعلى الذى أصبح من هذا التاريخ يسمى برلماناً وعلى أثر ذلك قامت الحرب الأهلية وهزم فيها الملك وأخذ أسيراً وصار سيمون دى منتفورت يدير شئون المملكة باسم هنرى الثالث وقد جمع فى عام ١٢٦٥ برلماناً دعا إليه الأشراف والأساقفة كالعادة وأضاف إليهم فارسين عن كل مقاطعة وعضوين عن كل مدينة وبهذا أصبح نواب الشعب يشتركون فى أعمال البرلمان فى مجلس واحد ثم انقسم هذا المجلس إلى مجلسين هما مجلس العموم ومجلس اللوردة (الأعيان) ولما تولى الحكم ادوارد الأول (من ١٢٧٢ إلى ١٣٠٧) لم يعتد على البرلمان بل اتخذته وسيلة من وسائل الحكم وأدخل عليه تعديلات تزيد من تمثيل الشعب فيه . وظل هذا النظام سائداً معمولاً به بدون إدخال تعديل جوهرى عليه إلى عام ١٨٣٢ ثم تعهد ادوارد من جديد بأن لا يفرض ضريبة إلا بموافقة البرلمان وبذا رسخت أقدام هذا البرلمان فى رقابة أعمال الحكومة منذ أوائل القرن الرابع عشر بينما كانت جمعية طبقات الشعب فى فرنسا ضعيفة أمام قوة العرش للأسباب الجوهرية التى ذكرناها ولأن اشتراك الشعب مع الملك كان سائداً فى إنجلترا قبل الفتح النرماندى بينما لم يعمل به فى فرنسا إلا فى حكم فيليب الرابع . ولأن

البرلمان الإنجليزي قد انقسم بعد نشأته بقليل إلى هيئتين بينما ظل مجلس طبقات الأمة هيئة واحدة كانت الغالبية فيه للطبقتين الممتازتين اللتين كانتا ترعيان حقوقهما ومصالحهما دون حقوق الشعب ومصالحه . هذا ولقد حارب إدوارد الأول أهل ويلز واستولى على جزء من هذه البلاد في عام ١٢٨٤ ولقب ولي عهده بلقب أمير ويلز Prince of Wales وظل هذا اللقب لأولياء العهد في إنجلترا إلى يومنا هذا . وفي عهد الملك إدوارد ثارت اسكتلندا بعد انضمامها وانتخبت ملكاً عليها هو روبرت بروس Robert Bruce .

ألمانيا
وإيطاليا

أما إيطاليا وألمانيا فقد ارتبط مصيرهما بمعاهدة فردان في عام ٨٤٣ وكانت استراسيا منقسمة إلى دوقيات مستقلة هي سكسونيا وبفاريا وفرانكونيا وسوايا وتورنجيا ولورين وجميعها محكومة بأدواق لا ينظرون إلا لمصلحة دوقيتهم ولا يخضعون لأحفاد شرفان ولا يتبعونه إلا تبعية اسمية وكانت الملكية انتخابية بطريقة غير منظمة فتارة يختار الملك من السكسون وأخرى من الفرانكونيان وفي عام ٩١٩ انتخب أهالي سكسونيا وفرانكونيا هنري السكسوني ملكاً عليهم ودام حكمه من عام ٩١٩ إلى عام ٩٣٦ وانتصر على عدة قبائل صقلية وفتح (برندبورج) واحتل جنوب الدنمارك وانتصر على المجر الضارين في حوض الطونة الأوسط واكتسب بهذه الأعمال طاعة الادواق الاسمية فكانت ألمانيا في عهده أشبه شيء بتحالف بين تلك الدوقيات . ثم تولى الحكم من بعده ابنه أوتو الأول Otto I. (من سنة ٩٣٦ إلى سنة ٩٧٣) وكانت إيطاليا في

حالة فوضى لأن وارث شرلمان يقيم في الشمال وكان البابوات لا يهتمون
بغير مصالحهم الذاتية . وكانت روما يمزقها تنازع الأحزاب على خيرات
البابوية فدخل أتو إيطاليا تلبية لدعوة من أديليد Adelaide أرملة لوتير
آخر ملوك سلالة شرلمان تطلب فيها إنقاذها من برانجييه Beranger
الحاكم الجديد الذي أراد أن يزوجه من ابنة فغير أتو جبال الألب
في عام ٩٥١ وتزوج من أديليد هذه وأعلن نفسه ملكا على لمبارديا .
وفي عام ٩٦٢ استعان البابا بأتو الأول ضد أحزاب روما التي اتهمته
بأفطع المخازي فأيد أتو سلطة البابا وأعاده إلى كرسي الرسول بطرس
فتوجه البابا إمبراطوراً في ٢ فبراير عام ٩٦٢ ومن هذا التاريخ بدأت
الامبراطورية الجرمانية المقدسة وهي الوارثة لامبراطورية شرلمان غير
أن امبراطورية أتو لا تشمل غير ألمانيا وجزء من إيطاليا بينما كانت
امبراطورية شرلمان تتناول ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا ولهذا لم يكن
للامبراطورية الجرمانية المقدسة من الصفة الرومانية ما كان لامبراطورية
شرلمان . وفوق هذا قد ورثت هذه الإمبراطورية عبئاً ثقيلاً للاحتفاظ
بإيطاليا وللرقابة على أطماع البابوية . ولما انتقل عرش ألمانيا إلى أسرة
الفرنكون وتولى الحكم هنري الثالث (من ١٠٣٩ إلى ١٠٥٦)
بعد أبيه كنراد الثاني وزار إيطاليا في عام ١٠٤٥ ليتوج إمبراطوراً وجد
ثلاثة من البابوات يدعى كل منهم أنه صاحب الحق بتعصيب حزب من
أحزاب روما فعزلهم جميعاً وولى (بابا) آخر من قبله ولم تكن البابوية
في ذلك العهد تحت رحمة الملوك وحدهم بل كان الأمراء يتحكمون

في تعيينهم حتى أن أحد هؤلاء الأمراء وهو الكونت تسكولم *Tusculum* اشترى في عام ١٠٣٣ تاج البابوية لابنه بنوا *Benoit* ولم يكن قد بلغ سن الثانية عشرة بعد .

أسباب
ضعف
الكنيسة
في عهد
الإقطاع

ولا ريب أن لهذا الضعف أسباباً أهمها نظام الإقطاع نفسه الذي صبغت به الكنيسة فلم يكن القساوسة في ذلك العهد رؤساء دينيين فقط بل كانوا أمراء أيضاً . ولما كانت قوانين عهد الإقطاع تقضى بأن يكون كل أمير تابعاً لأمير أكبر منه فلا بد إذن أن يكون للملوك والباطرة رأى في تعيين هؤلاء القساوسة الأمراء فلم يكن أعوان البابا ومساعدوه من رجال الدين تابعين له، ولهذا الأسباب تدهورت أخلاق رجال الكهنوت في ذلك العهد فكانوا مثلاً يدفعون المال رشوة لتعيينهم في وظائفهم ثم يحصلون بعد تعيينهم على ما دفعوه من طريق بيع الفرائض الدينية للأفراد مثل سر تناول القربان وصك الفخران وما شا كل ذلك حتى أصبحت هذه الفروض سلعاً يتجرون بها وهي المعروفة باسم السيمونيات نسبة إلى سيمون ذلك الساحر الذي أراد أن يشتري من الحواريين القدرة على فعل المعجزات . ولقد قامت بعض الطوائف الدينية لإصلاح شئون الدين مثل جماعة دير كلوني السالف ذكره غير أن إصلاحاتهم ذهبت هباء لأنها لم تتناول رأس الكنيسة وهي البابوية التي كانت تحت رحمة دسائس الأحزاب وسلطة الملوك والأمراء .

التراع بين
البابوية المعصومة
والإمبراطورية
المقدسة

فلما تعين البابا نقولا الثاني في عام ١٠٥٩ أصدر أمراً بأن لا تتدخل السلطات المدنية في انتخاب البابا وأن لا يكون الانتخاب قاصراً على

كاثوليك روما وحدها بل يوكل أمره إلى الكرادلة من جميع الشعوب
أى من جميع الكاثوليك .

ولما اعتلى غريغورى السابع^(١) كرسى البابوية فى عام ١٠٧٣ حارب
النظرية القائلة بأن الامبراطور ظل الله فى الأرض وأعلن أن الامبراطورية
تعتمد على البطش والقوة أما الكنيسة فتعتمد على الفضيلة وهى معصومة
من الخطأ وأن رجال الدين يجب أن يحلفوا عين الولاة له ثم أرسل نوابه
إلى جميع الممالك يمثلونه فكانوا بمثابة سفراء ثم أرسل إلى الملوك يذكركم
بتبعية أراضيهم للرسول بطرس ويطلب إليهم إرسال العشور . وحرّم
قبول المناصب الدينية من العلمانيين وهدد رجال الدين والملوك بالحرمان
إذا هم خالفوا أو أمره كما حرّم زواج القساوسة ومن هنا بدأ الكفاح بين
الامبراطورية والبابوية تحت ستار ما يسمونه بالكفاح فى أمر التولية
Les Investitures^(٢) . ذلك لأن أمر البابا فى أحقيته وحده فى انتخاب
رجال الدين يتناقض مع نظام الإقطاع المعمول به كما أسلفنا وقد نشأت
من جرّاء هذا النزاع نظريتان الأولى نظرية السلطة الزمنية المؤيدة
بأقوال السيد المسيح وهى : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .
والمؤيدة كذلك بأحداث التاريخ وهى أن الهبات التى منحها بين
وشرلمان للبابا من شأنها أن تجعل القوة الزمنية متفوقة على السلطة
الروحانية، والنظرية الثانية هى نظرية البابوية التى تجعل القوة الروحانية

(١) تخرج فى دير كلونى واشتغل سكرتيراً للبابوية واسمه الأصلى هلدبرند وكان يرى
أن الكنيسة هى صاحبة السيادة على العالم وتستمد نفوذها من الله ثم تعد به الملوك والأمراء .

(٢) وهو تعيين الأساقفة ورجال الدين فى وظائفهم .

متفوقة على القوة الزمنية ذلك لأن الكنيسة مسئولة عن نفوس العالم وأعمالهم حتى أعمال الأباطرة وقالوا إن سلطة الملوك تشبه القمر الذي يستمد نوره من الشمس التي تشبه سلطة الكنيسة إلى غير ذلك من الآراء الكثيرة والأسانيد العديدة التي تدور كلها حول شيء واحد هو الطموح للسيادة الدنيوية .

ولقد بلغ هذا النزاع أشده في ألمانيا فجمع هنري الرابع الذي فوة البابوية حكم من سنة ١٠٥٦ إلى سنة ١١٠٧ مجلس فورمس Worms في عام ١٠٧٦ وأعلن عزل البابا فأجاب غريغوري بعزل الإمبراطور وحرمانه ولقد يظن لأول وهلة أن الحرمان هو أمضى سلاح في يد البابوية فإذا صدر الحرمان على شخص هجره الناس حتى لو كان ملكا ، ويحرم من شهود صلوات الكنيسة ولا يدفن عند موته طبقاً لطقوسها وإذا صدر الحرمان على شعب أغلقت كنائسه ووقفت حركتا زواج أفرادهم ودقهم . غير أن حوادث التاريخ دلتنا على أن الشعوب في ذلك العهد وإن كانت تعنى برضاء الكنيسة وإطاعة أوامرها ولكنها كانت تخشى كذلك سلطة الملوك وعقابهم ولذلك نرى أن الشعوب كانت تميل إلى البابوية إذا ضعفت الملكية وخشيت غضب الكنيسة ثم لا تلبث أن تنضم إلى الملك إذا آمنت فيه قوة وقدرة على تجنيد جيش وعبور جبال الألب ومهاجمة البابا . وهذا ما حدث بالفعل في عهد هنري الرابع الذي خضع في أول الأمر لسلطة البابوية لأن أمراء ألمانيا خذلوه وأرادوا أن ينفذوا أمر البابا بعزله فأسرع إلى مقابلة البابا في قلعة كانوسا Canossa قبل أن

يصل إلى أجز بوج Augsburg لمساعدة باقي الأمراء الجرمانين في تعيين خلفه وهناك التمس من البابا المثل بين يديه وانتظر ثلاثة أيام عارى الرأس في شتاء عام ١٠٧٧ مرتدياً لباساً من الوبر، وأخيراً أذن له البابا بالمثل وغفر له ذنبه . ويعد هذا إذلالاً كبيراً للملكية غير أن هنري قد انتقم لنفسه بعد ذلك فسير جيوشه عبر جبال الألب لمهاجمة روما في عام ١٠٨٤ وفر البابا غريغوري إلى «ساليerno» و مات هناك منفياً في عام ١٠٨٥ هذا ولم تحل مشكلة أمر التولية أى تعيين الأساقفة إلا في عهد هنري الخامس في عام ١١٢٢ باتفاق فورمس Worms الذى بموجبه يتولى البابا حق تقليد الأساقفة السلطة الدينية ويتولى الامبراطور حق تقليد السلطة السياسية والقضائية والمدنية وتسليمهم الصولجان كما يفعل مع أتباعه العلمانيين . أما الخاتم والعصا اللذان هما شارتا الوظيفة الدينية فتقوم الكنيسة بتسليمهما .

وينص هذا الاتفاق أيضاً على أن لا يكون للأساقفة إقطاعات بغير إذن من الإمبراطور ويظهر من هذا أن النزاع لا يزال قائماً ولم يحل منه غير المظهر دون الجوهر ولذلك نرى أن النزاع قد تجدد في عهد فردريك بربروسة حيث قام بعد وفاة هنري الخامس في عام ١١٢٥ نزاع على العرش بين عائلتين قويتين هما هوهنشتوفن وولف ، وقد تعين من العائلة الأولى كنراد Conrat ملكاً واستمر حكم هذه العائلة إلى سنة ١٢٥٠ ، ولما تولى العرش فريدريك بربروسة ذو اللحية الحمراء في سنة ١١٥٢ قضى على هذا النزاع العائلي لأن والده كان من

الجبلين Geblin ووالدته من الجلف Gulf وكان جندياً عظيماً وسياسياً قديراً واتسعت في عهده أملاك الإمبراطورية وأعاد ذكرى شرلمان وقضى على الثورات في إيطاليا وما كاد يتم له الأمر كما يشاء حتى قام في وجهه البابا اسكندر الثالث فحاجّه بأن سلطته مستمدة من الله وحده وعين له خلفاً فاضطر البابا إلى أن يلجأ إلى فرنسا وأقام في سنس Sens وظل يعمل هناك لإيقاظ الفتن والثورات في وجه الإمبراطور الذي كان منهمكاً وقتئذ في جرمانيا، ولما عاد الإمبراطور إلى إيطاليا لإخماد نار الثورة قاومه اتحاد اللومبارد وقهروا جيشه بالقرب من مدينة ميلانو في عام ١١٧٦ فاضطر الإمبراطور إلى التماس العفو من البابا والتقى في البندقية Venice فجلس البابا على عرشه أمام كنيسة سان مارك Saint Mark وتزل الإمبراطور عن صهوة جواده وزكع على ركبتيه أمام الجمع المحتشد فأخذه البابا من يده وقبله قبلة السلام ثم باركه في الكنيسة بعد أن حلف له بعين الطاعة. وهذه هي المرة الثانية التي خضع فيها ملوك الجرمان للبابا في فترة قرن من الزمان.

ولما عاد فريدريك بربروس Frédéric Barberousse إلى ألمانيا انتقم من أدواق بفاريا وسا كس ووستفالي لأنهم كانوا سبباً في خذلانه أمام اتحاد اللومبارد لعدم مساعدتهم له وقتئذ فوزع دوقياتهم كما أعطى بفاريا لعائلة ويتلباخ Wittelboch وبقيت في أيديهم لغاية عام ١٩١٨

وصارت في عهده الأراضي الواقعة في شرق بفاريا على نهر الطونة الأوسط دوقية منفصلة سميت بالنمسا وكان الغرض من ذلك تأمين المانيا

من غارات المجر وإليها انتقلت عائلة هابسبرج Habsbourg التي خلفت عائلة هوهنشتوفن كما وجدت في الشمال دوقية برندبورج Brandbourg التي كانت درعا لتأمين ألمانيا من غارات الصقالبة وهي التي حكمتها بعد إنشائها بنحو قرنين عائلة هوهنزولرن Hohenzollern وقد أخذت هذه الدوقية تنمو حتى أصبح أمراؤها ملوكا في بروسيا منذ عام ١٧٠٠ ثم أصبحوا أباطرة في ألمانيا منذ عام ١٨٧١ ثم اتبعت جمهورية بعد الحرب الأوربية الأولى وهي اليوم محكومة بالنظام النازي تحت إدارة زعيم الرايخ الألماني الفوهرر أدولف هتلر .

أما فريدريك بربروس فقد توفي في عام ١١٩٠ بعد أن زوج ابنه هنري لوارثة عرش صقلية وجنوب إيطاليا واشترك في الحروب الصليبية في عام ١١٨٨

وقد خلفه ابنه ثم زوجته باسم ابنها فريدريك الثاني الذي ضم إليه عرش صقلية وجنوب إيطاليا فقام النزاع من جديد بين الجلف والجلين Guelf et Geblin وفي هذا الوقت اعتلى الكرسي البابوي أنوسنت الثالث (من ١١٩٨ إلى ١٢١٦) وهو مثل غريغوري السابع من أعظم ممثلي البابوية وقد تعلم في جامعتي باريس وبولوني حتى صار ضليعا في المسائل القانونية وبهذا تمكن من أن يصنع مطامع البابوية بالصيغة القانونية وأصبح ذا نفوذ كبير على ملوك أوروبا أنفسهم وهو الذي أرغم فيليب أغسطس ملك فرنسا على رد زوجته الأولى فلما رفض الملك أصدر ضده قرار الحرمان فلم يسعه إلا الإذعان . وهو الذي أكره ملك إنجلترا

جوت أو يوحنا على تعيين استيفن لنجتون Stephen Lington رئيساً
لأساقفة كَنْتَرِبِرِي Canterbury فرفض الملك هذا التعيين وأصدر البابا
ضده قرار الحرمان وأنزل النقمة بيلاده وحرص ملك فرنسا فيليب
أغسطس على الاستيلاء على أملاك يوحنا وضمها إليه فاضطر عندئذ يوحنا
إلى الازدعان وطلب إلى البابا أن يغفر له ذنبه .

والذي نتبينه مما تقدم هو مبلغ نفوذ البابا أنوسنت الثالث الذي
سيطر على عروش ملوك هنغاريا والدنمارك وكستيليا فلما أراد (أُتُو) أن
يتخلص من رقابة البابا وسيطرته أقام مقامه فريدريك الثاني (من سنة
١٢١٥ إلى ١٢٥٠) مالك عرش صقلية كما أسلفنا وما درى البابا أن هذا
الملك الشاب سيكون أقوى خصم للبابوية .

وفريدريك الثاني هذا هو كما مرّ بك حفيد فريدريك بربروسة
(ذو اللحية الحمراء) قد تُرَبِّيَ في صقلية تربية عربية إغريقية وهو
أكثر ثقافة من معاصريه يتكلم لغات كثيرة منها اللغة العربية بسبب
اتصاله بعلماء العرب الذين تلقى عنهم علوم الرياضة والطب والطبيعة
والفلسفة وأخذ يتأثرهم في الرأي والتفكير وهو الذي أنشأ جامعة
ناپلي ومدرسة للطب في سالرنو Salerno وحديقة للحيوانات في بالرمو
وهو الذي نقل الأرقام العربية إلى أوروبا وكان في بلاطه من الفلاسفة
ميشيل سكوت Michel Scott الذي ترجم بعض رسائل أرسطو وتعليقات
ابن رشد فيلسوف قرطبة ويمكننا أن نقول بالإيجاز إن فريدريك الثاني
أو الصقلي كما نلقبه هو الذي أنشأ أول حكومة مستنيرة في أوروبا بعد

بعهود الإغريق والرومان وهذه الحكومة هي التي عرفت باسم حكومة
الصقليتين وكان البابا وقتئذ يتطلع لأن يكون سيد إيطاليا وألمانيا كما
سيطر على باقي ملوك أوروبا ولهذا ألح على فريديريك أن يفي بوعده بأن
يشن الحرب الصليبية الرابعة حتي يبعده بذلك عن أملاكه كما طلب إليه
أن يتنازل عن عرش صقلية فلم يجب طلب التنازل ولكنه خرج إلى
الشرق للحرب الصليبية التي وعد بها للاستيلاء على بيت المقدس غير
أنه لم يحارب بل اتفق مع السلطان الكامل ملك مصر وقتئذ على أخذ
بيت المقدس وتوج نفسه ملكا عليه وعقد معاهدة تجارية وبذا حصل
على ما وعد به بدون إراقة دماء كما حدث في الحروب الصليبية الأخرى
ونال بحكمته وسياسته ما لم ينله غيره بسيوفهم ودمائهم من قبل . ولكنه
لما عاد إلى نابلي وجد البابا غريغوري التاسع قد أعلن عليه حرباً صليبية
ونهب بلاده فطرد فريديريك جنود البابا وبدأ النزاع من جديد بين
السلطتين وانتصر فريديريك في أول الأمر وأكره البابا على أن يسترد
أمر طرده إياه من الكنيسة (وهو السلاح الذي كان البابوات
يشهرونه ضد الملوك) ولكن في عام ١٢٣٩ عاد البابا إلى طرد
فريديريك الصقلي من الكنيسة فنشر فريديريك في الحال رسالة أبان فيها
يخازي البابا والكنيسة وعزا إليهما فظائع هذا العهد وعرض على أمراء
أوروبا جميعاً أن يصادروا أموال الكنيسة وإذا كانت هذه الرسالة لم يظهر
أثرها في الحال إلا أنها بقيت حية في حساب الدول الأوربية كما سنرى .
هذا . وبعد وفاة فريديريك انتقل الملك إلى ابنه كثراد الرابع ومن

بعده بقيت ألمانيا بدون ملك إلى عام ١٢٧٣ حيث انتخب رودلف هابسبورج Roudolfe Habsbourg ملكا وهو مؤسس عائلة هابسبورج ولم يكن له ولا خلفائه نفوذ في ألمانيا بسبب نفوذ الأمراء وقوتهم . وقد انقسمت هذه المملكة إلى نحو من أربعمئة إمارة في عهد الإقطاع غير أن هذه الأسرة ظلت حاكمة في ألمانيا وزادت ممتلكاتها فضمت إليها بوهيميا بالوراثة وارتبطت هذه الأسرة بالمصاهرة مع غيرها من الأسر المالكة في بورغندا وأرغونة وقشتالة ومهد بهذا طريقا لإنشاء امبراطورية عظيمة في عهد شارل الخامس المعروف باسم شرلكان (من ١٥١٩ إلى ١٥٥٦) .

أما في إيطاليا فإن مملكة صقلية قد انتقل تاجها إلى شارل دوق انجو (وهو أخ للملك لويس التاسع ملك فرنسا في عام ١٢٦١) بمساعدة البابا أربان الرابع Urban IV وكان فرنسا . وقد تمكن شارل هذا في بضع سنين من القضاء على أسرة هوهنشتافن في إيطاليا وأصبحت مملكة نابولي تابعة للفرنسيين .

ومن غرائب تاريخ البابوية أنها نشأت ضعيفة ثم قويت وتمدت نفوذها على ملوك أوروبا ثم استحالت انتصارها خذلانا في فترة من الزمن لم تتجاوز ثلاثين عاما وجاء خذلانها على يد الفرنسيين الذين كانوا مؤيدين لها والذين كانت البابوية تؤيدهم حتى في هذا العهد الأخير الذي انتصروا فيه في إيطاليا وقضوا على عائلة هوهنشتافن كما تقدم .

الحديث الثامن

الحروب الصليبية — الدولة الأيوبية

توجهت إلى زيارة أبي الهول لأتعرف ما استعصى على فهمه في الحروب الصليبية لأنني كنت دهشاً عند ما لاحظت أن الممالك الأوربية التي كانت إلى أوائل القرن الحادي عشر متحاربة يتقاتل أمراؤها وتتنافر شعوبها قد نسيت إبان هذه الحروب أحقادها وتفاضت عن مصالحها واجتمعت كلمتها وانتظمت جموعها تحت راية الصليب لتقاتل مسلمي الشرق مئات من السنين من أجل قبر المسيح الذي يعتقد المسلمون أنه لم يصلب ولم يقتل ويعتقد النصارى أنه قد رفع إلى السماء، ويكون — على كلٍّ من الاعتقادين — القبر خالياً خاوياً .

ولكنه وقد أقامت على هذا القبر سنت هيلانه والدة قسطنطين كنيسة القيامة التي سلم المسلمون مفاتها عند استيلائهم على فلسطين إلى بطريق (بيزنطة) ثم أذن الخليفة العباسي (هارون الرشيد) بإرسال تلك المفاتيح إلى شرلمان وكان مثل هذا الصنيع فيه ما يشكل على أن أدرك كيف قامت القيامة من أجل كنيسة القيامة فلما أن وصلت إلى أبي الهول ودارت هذه الخواطر بخليدي وهممت أن أسأله إذا بي كأني أري غباراً كثيفاً، وكأن الأرض زلزلت زلزالها، ثم ظهرت من بين

سجف الغبار أعلام ورايات ثم وقفت هذه الفرسان على بعد وتوارت
خلف الأهرام ثم ترجل فارس وأخذ يمشى وحوله جماعة من العلماء
والقضاة والمفتين ، فلما دنا رأيت رجلا جم النشاط قوي الجسم خفيف
الحركة ، تبدو عليه أمارات النبيل والشجاعة والنجدة والأخلاق الرضية
فنادى أبو الهول قائلا : — يا صلاح الدين

صلاح الدين : — ليك

أبو الهول : — إن في عنقك للأجيال أمانة يجب أن تؤديها ،
فإني رأيت أبناء هذه الأمة يتوثَّبون إلى ذراك ، ويتطلعون إلى مجدك ،
علَّهم يعرفون الطريق ، ويهتدون السبيل ، فأقصِّ القصصَ لعلهم
يتذكرون ، حدثهم عن الحروب الصليبية وما تمخضت عنه بينهم .
وهنا وقف صلاح الدين يقول وقد أخذ بيده سيفه الموشى يتكى عليه :
— إذا ما أردنا أن نعرف السر في هذه الحروب وجب علينا أن

نرجع إلى ما قبل القرن الثالث الهجرى أي التاسع الميلادى الذى ازدهر
فيه الشرق بالعلوم والفنون حتى بلغ أوج مجده وعظمته فى ظل الدول
الإسلامية التى امتد نفوذها إلى بلاد آسيا من الشام والعراق والفرس
حتى وصل إلى حدود الصين وشمل مصر ثم شمل بلاد المغرب والأندلس
ولم يعد من المستطاع بعد هذا التوسع العظيم بقاء هذه الممتلكات
خاضعة لحكومة مركزية واحدة بسبب التنافس بين شعوبها وتعدد
الأجناس فيها .

وقد أدى هذا التنافس واختلاف الأجناس إلى استقلال الأجزاء

القاصية كبلاد المغرب والأندلس ثم تبعها مصر والشام مما ضعفت له
شوكة الدولة العباسية منذ القرن العاشر الميلادي وأصبح سلطانها قاصراً
على بلاد العراق وحدها . وفي هذه الأثناء كانت القبائل التركية الضاربة
في شمال شرق الدولة الإسلامية قد اعتنقت الإسلام ودخل الجنود
المرتزقة من الأتراك في خدمة الخليفة العباسي في بغداد واغتصبوا منه
السلطة السياسية رويداً رويداً حتى انتهى بهم الأمر في عام ١٠٥٥ إلى
تقلد « طغرل بك » مؤسس دولة السلاجقة السلطة الزمنية من القائم
بأمر الله الخليفة وقتئذ الذي قنع بسلطته الدينية . وأخذ هؤلاء الأتراك
السلاجقة يهددون « بيزنطة » واتصروا عليها أخيراً في عام ١٠٧١
في موقعة ملاذكرد Mauzikert بالقرب من بحيرة (وان) ووصلوا إلى
شواطئ بحر مرمرة وصاروا يتقاضون الجزية من امبراطور الدولة
الشرقية الرومانية التي انكشفت في القسطنطينية (بيزنطة) وضواحيها .
ولما رأى امبراطور القسطنطينية مينخائيل السابع الخطر المُحدق به
استنجد بالبابا غريغوري السابع في عام ١٠٨٠ ثم استنجد الإمبراطور
الكسيوس مرة ثانية بالبابا « إربان الثاني Urbain II » .

وقد تكرر الاستنجد كما تقدم في أقل من نصف قرن منذ انفصال
الكنيستين « القسطنطينية وروما » .

ولما رأى بابا روما أن الفرصة قد سنحت لبسط نفوذه غرباً وشرقاً
جمع في عام ١٠٩٥ مجلساً عاماً في كليرمنت Clermont دعا فيه نصارى
المغرب إلى إنقاذ قبر المسيح وبالتالي بيت المقدس من أيدي المسلمين

وحث العالم المسيحي على الانضمام إلى هذه الحرب الدينية وأعلن حماية الكنيسة لأملأك المحاربين المجاهدين والتكفير عن ذنوب الخاطئين ممن يلبون دعوته ووعد الذين يموتون في هذه الحرب بجنت الخلد والنعم .
وقد أُلْمِعَ البابا للجموع المحتشدة - إجابة لندائه وتلبية لدعوته - بما عليه البلاد التي سيحاربون فيها من ثروة ونوّة عن خيراتها من المن والسلوى مشيراً إلى أنها قد وسعت الملايين من الخلق في عهد موسى عليه السلام وردد في النهاية قول المسيح « ضع صليبك على كتفك واتبعني » فسرت في الناس روح حماسة قوية وهبوا بعائلاتهم للنضال مدفوعين لا بتأثير فكرة دينية فحسب بل وتحت تأثير مطامع ذاتية .
ففي الوقت الذي كان فيه بطرس الناسك يحث الناس على محاربة المسلمين كان الفارس الفرنسي « جوتييه » الملقب بالمعدم Gauthier Sans avoir يطوف في أنحاء أوروبا ليدعو الأمراء إلى مغامرات حرية جديدة بعد أن ضاقت بهم ميادين القتال وضاقوا هم ذرعاً بالمغامرات في أوروبا . وعلى أثر هذه الدعوات اجتمعت في أول الأمر الطبقات المنحطة من رقيق ومساجين وأشقياء وساروا للقتال بغير نظام ولا استعداد وعلى غير هدى وهم يجهلون طول الشقة بينهم وبين أهدافهم وقد اقترفوا في طريقهم جرائم وفظائع شتى وأطلقوا لأنفسهم العنان في النهب والسلب وقتلوا اليهود والمجرظنا منهم بأنهم وثنيون مع أنهم كانوا قد اعتنقوا المسيحية حديثاً فوقعت بينهم مذابح انتهت بإبادة القافلتين الأوليين من الصليبيين . أما القافلتان الأخريان فقد وصلتا إلى القسطنطينية ورجالهما في حالة من

الفوضى حملت الإمبراطور على الإسراع في التخلص منهم فساعدتهم على العبور إلى « نيقية » على الشاطئ الآسيوي حيث قابلهم الفلاحون السلاجقة وأفنؤهم عن آخرهم وكان ذلك في عام ١٠٩٦ وفي السنة التالية (أي في عام ١٠٩٧) ابتدأت الحملة الصليبية الحقيقية بقيادة طبقة الأمراء الأشراف الخبيرين بالأمور العسكرية وكان من بينهم « جُدْفَرُ » Godefroy دوق اللورين و « ريموند » Raymond دوق بروفنس و « بُوهُمُونْد » Bohémond بن « روبرت جسكار » مؤسس مملكة النورماند في جنوب إيطاليا . وبلغ عدد جنود الحملة نحو مائة ألف فارس وستمئة ألف من المشاة . وخشى الإمبراطور الكسيوس أن يدبر الصليبيون الاعتداء على إمبراطوريته فأخذ يتصل بكل زعيم منهم ليستوثق من أنه سيرد إلى الإمبراطورية ما كان تابعا لها في مقابل إمداده بالموث والذخائر وكانت آسيا الصغرى في هذا الوقت محكومة بعدد كبير من أمراء السلاجقة من أبناء وأقارب الملك شاه الذي توفي في عام ١٠٩٢ وقد اقتسموا الملك بينهم وكوّنوا حكومات صغيرة عرفت باسم حكومات الأتابكة وتمزقت بهذا التقسيم دولة السلاجقة وأصبحت الدولة الإسلامية بالوهن والضعف وحرمت زعماء قويا يقود الجنود الإسلامية لصد هؤلاء المهاجرين من الصليبيين الذين بدأوا هجومهم بحصار « نيقية » في صيف عام ١٠٩٧ ثم تقدموا إلى دوريليم (اسكي شهر) ومنها إلى كليكيا وانتزعوا الرها وهي (أرفا) أو (ادسه) Edessa من يد أميرها التركي ولم يردوها إلى بيزنطة بل أسسوا فيها أول

إمارة لاتينية في عام ١٠٩٨ ، وهنا شك الإمبراطور الكسيوس في اتفاق الصليبيين معه فكف عن مساعدتهم غير أنهم استمروا في تقديمهم وحاصروا إنطاكيا واستولوا عليها وساموا أهلها سوء العذاب وقتلوا منهم عشرات الألوف وانتخبوا « بوهند » أميراً عليها ثم تقدموا إلى اورشليم في يونيه عام ١٠٩٩ وحاصروها بضعة أسابيع ووعدوا حاميتها الصغيرة خيراً ولكنهم ما كادوا يدخلونها حتى ذبحوا أكثر من سبعين ألفاً من أهلها ثم خرّوا سجّداً أمام قبر المسيح وعيونهم تفيض من الدمع من شدة تأثرهم بنصرهم ثم كتبوا إلى البابا في روما رسالة يهتثون فيها بقولهم « إذا أردت أن تعلم بما جرى لأعدائنا فثق بأن خيلنا كانت في إيوان سليمان ومعبدته تخوض في بحر من دماء الشرقيين » .

وأراد الصليبيون بعد هذا النصر أن ينتخبوا جعفرى ملكاً على بيت المقدس ولكنه أبى مكتفياً بلقب حامى قبر المسيح وانتخبوا بعده أخاه « بودوين » وقاموا بمساعدة أساطيل المدن الإيطالية بإخضاع عكا في عام ١١٠٤ وصور في عام ١١٢٤ ثم أنشأوا إمارة طرابلس وولوا عليها « ريموند »^(١) .

ويتبين مما قلت ما أسفرت عنه الحرب الصليبية الأولى من نتائج قد انتبه بعدها في الواقع أمراء السلاجقة إلى الخطر المُحدق بهم من جراء

(١) لقد جندت في هذا العهد جنود للكنيسة جمعت بين مبادئ الرهبنة والفروسية وامتازت من بينها فرقة فرسان المعبد Templier وطائفة فرسان القديس يوحنا Chevaliers de St. Jean de Jérusalem وفرسان التيتون وغيرهم .

تماديهم في الانقسام والتنافس وساعدت على ظهور عماد الدين زنكي الذي عين في عام ١١٢٧ (أتابك) على الموصل والعراق فاتhez فرصة استنجد بعض مدن الشام به فخف لنجدتها واحتل حلب وبعض مدن أخرى . ثم تمكن في عام ١١٤٤ من فتح مدينة « الرها » وكانت من أمنع ممتلكات الصليبيين وأقواها تحصيناً وقد مات مقتولاً في عام ١١٤٦ وخلفه ولده سيف الدين على الموصل ونور الدين على الشام . وسار نور الدين على سياسة أبيه في مكافحة الصليبيين والعمل على توحيد قوات المسلمين ، وقد قمع بشدة وعنف فتنة قام بها الأرمن في الرها عام ١١٤٧ بإيعاز من الصليبيين .

ولما وصلت أنباء هذه الانتصارات إلى أوروبا أخذ الراهب « سان برنارد » يحرك الهمم لحرب صليبية أخرى .

ولقد انضم إلى هذه الحرب ملك فرنسا « لويس السابع » وامبراطور ألمانيا « كنراد الثالث » الذي لم ينتظر ملك فرنسا بل أسرع إلى عبور البحر نحو آسيا الصغرى وأراد اختراقها إلى بيت المقدس ولكنه تكبد خسائر جسيمة واضطر إلى التراجع إلى « نيقية » تحت ضغط هجمات السلاجقة المتكررة وانضم أخيراً إلى الفرنسيين وقصدوا جميعاً إلى دمشق وكان أميرها موالياً لهم غير أن قوات نور الدين انضمت إلى قوات أخيه سيف الدين وطاردوا الصليبيين وتغلبوا عليهم فعاد ملك فرنسا وامبراطور ألمانيا إلى بلادها ومنيت هذه الحرب بفشل ذريع كانت من أهم نتائجه جمع كلمة المسلمين وتقوية الوحدة بينهم .

ولقد كانت مصر من أهم العوامل التي أدت إلى امتداد الحرب الصليبية لأنها تُهم الصليبيين لصلاحيتها كقاعدة بحرية لأساطيل المدن الإيطالية وتهم السلاجقة لأنها بلد إسلامي في دائرة الممالك الإسلامية . وهي فوق هذا وذاك تهم كلاً من الفريقين من الناحية الاقتصادية كما أنها تهمهما من الناحية العسكرية لأنها تهدد الأراضي المقدسة من جهة الجنوب . ومع كل هذه الاعتبارات لم يتعرض لها أحد الفريقين حتى دب التنافس بين حكامها وأصبحت لسوء تديرهم ميدان قتال قبيل بدء الحرب الصليبية الثالثة . وكانت وقتئذ تحت حكم الدولة الفاطمية التي كانت في آخر أيامها وقد حل بها الضعف والوهن وكانت كل السلطة في أيدي وزراء لا هم لهم إلا العمل على استبقاء الحكم في أيديهم مهما بلغ الثمن الذي يدفعونه لذلك من حقوق البلاد . وكان النزاع على أشده بين وزيرها شاور وضرغام في عهد « العاضد » آخر الخلفاء الفاطميين (من سنة ١١٦٠ إلى ١١٧١) فالتجأ شاور إلى نور الدين وارتقى ضرغام في أحضان الصليبيين . وعرض شاور على نور الدين أن يدفع له تكاليف الحملة بأكملها وثلث إيراد مصر بمثابة جزية أما ضرغام فقد اتفق مع « أموري Amurry » ملك بيت المقدس . واستأنف صلاح الدين قائلاً : أخيراً انتصر عمي أسد الدين شيركوه قائد نور الدين على الصليبيين وقتل ضرغام وخلا الجو لشاور فأراد التخلص من السلاجقة وتناسى ما تعهد لهم به وأخذ يفاوض الصليبيين لنجدته ولكنهم عجزوا عن طرد السلاجقة من مصر بعد أن حاصروا شيركوه في بليس ثلاثة أشهر

كاملة . وأخيراً اتفق الطرفان على إخلاء مصر . وقبل أن يغادر الصليبيون البلاد اتفق معهم شاور اتفاقاً سرياً علم به نور الدين فجرد في عام ١١٦٧ بقيادة عمى شيركوه حملة ثانية عبرت نهر النيل إلى الجزيرة وجاء الصليبيون كذلك طبقاً للاتفاق السرى وعسكروا في مدينة الفسطاط وقابلوا الخليفة العاضد للتثبت من صحة هذا الاتفاق السرى مع وزيره شاور والتوقيع عليه من الخليفة نفسه ، ثم تقابل الجيشان في جنوب النيا والتحما في موقعة البابين التي انهزم فيها الصليبيون ثانية ودخل شيركوه الاسكندرية فاتحاً وأقامنى حاكماً عليها . ثم غادر شيركوه مصر بعد أن حمل معه مبلغاً من المال من الملك أمورى غير أن الصليبيين لم يلبثوا أن عادوا ثانية إلى مصر فاتحين غازين واقترفوا فظائع شتى وعسكروا بالقرب من مدينة الفسطاط وخشي شاور أمر نجاحهم فأحرق الفسطاط لمنع تقدمهم^(١) واستنجد الخليفة العاضد بنور الدين فجاء شيركوه للمرة الثالثة يقود جيش نور الدين واستقبله المصريون كمنقذ ، وغادر الصليبيون البلاد بعد أن أصابهم الخذلان في هذه المرة أيضاً .

وحاول شاور أن يستميل شيركوه فلم يفلح وظل شيركوه وزيراً في مصر زهاء شهرين ثم مات في سنة ١١٦٩ وخلفته وقد آليت على نفسه أن أهب جهودى وأكرس حياته لطرد الصليبيين من الشرق فبدأت عملى في تحويل المذهب الشيعى في مصر إلى المذهب الشافعى وجعلت خطبة الجمعة باسم الخليفة العباسى في عام ١١٧١ وأصبحت بعد وفاة

(١) ولا تزال آثار هذا الحريق بادية للعيان إلى اليوم بالجهة الغربية من القاهرة .

العاقد آخر خلفاء الفاطميين الحاكم في البلاد المصرية . ثم فتحت بلاد النوبة واليمن ولما مات نور الدين فجأة في عام ١١٧٤ حاولت عبثاً الاتفاق مع الملك الصالح بن نور الدين . ولما أعيانى الحال وعز عليّ الاتفاق حاربته وهزمته واستوليت على دمشق ثم استوليت بعد موت الملك الصالح في عام ١١٨١ على حلب والموصل وبهذا تحققت سياسة نور الدين في توحيد القوات الإسلامية المتحدة من الشمال والجنوب والشرق ولم يبق إلا أن يتهيأ لى ظرف مناسب لتنفيذ ما اعتزمته من إخراج الصليبيين نهائياً من الشرق . ومن غرائب الاتفاق أن هيا الصليبيون أنفسهم لى هذا الظرف بأن قام أحد فرسانهم وهو « ريجنولد » صاحب حصن الكرك بقطع طريق الحجاج والمسافرين إلى مصر ونهب القوافل وقد حدث فعلاً أن سلب قافلة كانت فيها أختى ولم يكتف بذلك بل أراد أن يحذو حذو « أبرهة » الأشرم قائد الجيش الحبشى فى إعداد حملة لتدمير مكة والمدينة .

وقد ترتب على ما تقدم أن اشتعلت نيران الحرب وسقط حصن الكرك والتحمت جيوشنا بالصليبيين فى يولييه عام ١١٨٧ فى موقعة حِطّين التى هزم فيها الصليبيون شر هزيمة ووقع زعماءهم أسرى فى قبضتى وكان من بينهم صاحب حصن الكرك نفسه و « جاى دى لوزنيان » Guy de Lusignan ملك بيت المقدس وتلا ذلك الاستيلاء على عكا ونابلس والرملة وقيسارية ويافا ويروت . وقد سقطت هذه المدن كما تسقط أوراق الشجر فى الخريف .

وأخيراً فتحت بيت المقدس عنوة . ولم أعامل الصليبيين بمثل ما عاملوا به المسلمين من قبل بل أظهرت تسامحاً مقروناً بالرحمة نحو الصليبيين ونسائهم وأطفالهم وهيات لهم فرصة لإخلاء المدينة في خلال أربعين يوماً كاملة وفرضت عليهم دية شخصية كنت أدفع بعضها من مالى الخاص وأمرت بإطلاق سراح « جاى دى لوزنيان » من الأسر بعد أن أخذت عليه عهداً بأن لا يعود إلى محاربتى وما كاد يذاع خبر هزيمة الصليبيين في حطين وفتح المسلمين لبيت المقدس حتى تهيأت أوروبا لحرب صليبية جديدة كان زعماءؤها « فريدريك بربروس » امبراطور ألمانيا و « فيليب أوجست » ملك فرنسا و « رتشارد » ملك إنجلترا الملقب بقلب الأسد واجتمع الألمان أولاً بقيادة فريدريك بربروس في « راتسبون » Ratisbonne في عام ١١٨٩ واخترقوا بلاد المجر والبلقان وجبال طوروس ودخلوا كليشيا في عام ١١٩٠ وهناك مات الإمبراطور غرقاً في نهر « سالف » « كاراسو » وتبدد جيشه فعاد معظمه إلى ألمانيا ولم يصل منه إلى عكا إلا عدد قليل .

وقد أبحر فيليب أوجست من جنوا وأبحر رتشارد من مرسيليا واستولى في طريقه على قبرص ثم تقابل الملكان في عكا واستوليا عليها في عام ١١٩١ بناء على دعوة من « جاى دى لوزنيان » الذى حنت في يمينه ودعا نفسه ملكاً على بيت المقدس وبدأ يحاصر عكا فلما سقطت بمساعدة فيليب ورتشارد ملكى فرنسا وإنجلترا دب النزاع بين هذين الملكين فعاد فيليب الشام وبقى رتشارد وحده وقد أظهر من ضروب

الفروسية في حروبه ما أكسبه شهرة عظيمة وانتصر في واقعة «رسوف» التي لم تكن حاسمة وبدأت بينه وبين سيف الدين أخى مفاوضات انتهت بصلح « الرملة » فى عام ١١٩٢ ذلك الصلح الذى لم يكن فى الحقيقة إلا عبارة عن هدنة استمرت بضع سنوات ظل فيها بيت المقدس تحت يدنا مع السماح للمسيحيين بالزيارة والحج وحماية سواحل الشام من صور إلى يافا .

ثم غادر رتشارد الشرق ولكنه وقع أسيراً فى قبضة « ليوبولد » دوق النمسا الذى لم يطلق سراحه إلا بعد أن استولى على مبلغ كبير بمثابة « دية » .

ولم يفز الصليبيون فى هذه الحرب بشئ غير أن عكا أصبحت مركزاً أساسياً لهم بدل بيت المقدس وامتد بهذا أجل بقائهم فى سوريا نحو قرن من الزمان إلا أن ثورة التعصب الدينى قد أخذت تخف حدةها وبدأ الصليبيون يدركون مبلغ ما يتحلى به المسلمون من شهامة ونخوة وسخاء... . فىنما كان رتشارد يأمر بقتل ٢٦٠٠ أسير لتأخر وصول ديتهم فى موعدها كان « جاى دى لوزنيان » يجالسنى على مائدتى كما كنت أثناء حصار عكا أقدم الهدايا لرتشارد . وقد حمل ذلك أعداءنا على تبادل علاقات الاحترام معنا وحداً هذا برتشارد ملك إنجلترا إلى التفكير فى تزويج أخته من أخى ولم يثنه عن عزمه هذا إلا خشية الطرد من الكنيسة .

ثم عادت الحرب بعد خمس سنين من عودة الملك رتشارد الملقب

بقلب الأسد إلى أوروبا وقد انضم إليها عدد كبير من الذهباء كما كانت الحال في الحرب الصليبية الأولى وكان الداعي إليها والمحرض عليها في عام ١١٩٨ هو البابا أنوسنت الثالث الذي رأى أن يوجهها إلى مصر لأنها مصدر قوة المسلمين في ذلك الوقت غير أن هذه الحملة سرعان ما حادت عن غرضها الأصلي فاستخدمت أولاً لصالح جمهورية البندقية وثانياً لصالح امبراطور القسطنطينية اليوناني المعزول وأصبحت أشبه بجنود مرتزقة تحارب من أجل المال لا من أجل الدين وتفصيل ذلك أن الصليبيين في هذه الحملة قد اتفقوا أولاً مع رئيس جمهورية البندقية وهو الدوج دندولو Doge dandolo على أن يمدم بالسفن والمؤونة في مقابل أجر معلوم من المال وأن يقسم معهم كل ما يستولون عليه . وتمكن بمهارته ودهائه من استخدامهم في مصالح جمهوريته الخاصة فاختصوا له في عام ١٢٠٢ مدينة زارا التي كانت تابعة للمجر والتي كانت تنافس البندقية في تجارتها .

ثم زارهم بعد ذلك الأمير الكسيس بن اسحق الملاك امبراطور القسطنطينية المعزول ووعدهم بمبلغ طائل من المال إذا هم ساعدوه في استرداد عرش أبيه فقصدوا إلى القسطنطينية في عام ١٢٠٣ واستولوا عليها ولما طالبوا الإمبراطور بالمبلغ الموعود عجز عن الدفع ولم يجن من وراء استخدام القسوة مع الأهالي لجمع المال المطلوب إلا إيفار صدورهم عليه واندلاع نيران الثورة ضده وضد الصليبيين معه وانتهى به الأمر إلى الفرار من القسطنطينية التي ارتكب فيها الصليبيون في عام ١٢٠٤

أفزع المخازى والجرائم من قتل وسلب ونهب وتخطيط التماثيل القائمة
في الميادين والاستيلاء على الصور الفنية القيمة التي لا يزال الكثير منها
في البندقية وغيرها من المدن الأوربية باقياً إلى اليوم .

وتقاسم الصليبيون القسطنطينية مناصفة مع أهالى البندقية واختاروا
دوق فلاندر امبراطوراً عليها واختار أهل البندقية رئيساً دينياً لها
وأقاموا بذلك حكومة لاتينية وكنيسة لاتينية .

ثم قاموا بتقسيم البلاد إلى إقطاعات طبقاً لنظام الإقطاع الأوربي
وعينوا أشرف الصليبيين أدواقاً عليها فنشأت دوقية سلايك ونيقية
وأثينا واكتفى أهل البندقية باحتلال المرافئ وجعل حركة التجارة في
أيديهم واستمرت الحكومة اللاتينية في القسطنطينية إلى عام ١٢٦١
ثم انهزم الصليبيون أمام غارات البلغار وتمكن في نهاية الأمر مينخائيل
بالولوغش Michel Paléologue أحد البيزنطيين من تأسيس إمارة في
نيقية في عام ١٢٥٩ ثم هاجم القسطنطينية واستولى عليها وأعاد فيها حكم
البيزنطيين إلى أن استولى عليها الأتراك في عام ١٤٥٣ ثم تلت ذلك
حملات صليبية لا أهمية لها ومنها الحملة التي قام بها في عام ١٢١١ أطفال
من الألمان والفرنسيين وقد أرجع البابا الألمان وذهب الفرنسيون إلى
مرسيليا حيث قابلهم بعض التجار ومنوهم بإيصالهم إلى بيت المقدس
ولكنهم باعوهم بيع السلع في الأسواق فكانت هذه الحملة أقرب إلى
أعمال النخاسة منها إلى حرب دينية صليبية .

ولقد أيقن الصليبيون بأنهم عاجزون عن استرداد بيت المقدس

ما دامت الدولة الأيوبية قوية ويحدثك عن هذه الحملات التي وجهت إلى مصر من بعدى القاضي بهاء الدين بن شداد الذي اشتغل بتدوين بعض هذه الحوادث ، وها هو معي ، وحينئذ تقدم القاضي وقال :

القاضي بهاء الدين : — كانت أولى هذه الحملات الموجهة إلى مصر مباشرة بعد وفاة مولاى السلطان صلاح الدين حيث تولى ولده عثمان المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ثم الملك المنصور الذى تولى وهو صبي عمره ٩ سنين ومات فى السجن وحكم سنة وشهرين سنة ٥٩٦ هـ ثم عم أبيه أبو بكر ابن أيوب شقيق صلاح الدين الملقب بالملك العادل والذى كان ولده الملك الكامل ينوب عنه فى الحكم وهنا أى فى عهد العادل وولده سنة ٦١٤ — ١٢١٨ م كانت هذه الحملة بقيادة جان دى بريان Jean de Brienne الذى استولى على دمياط ثم زحف نحو القاهرة وفى هذه الأثناء مات الملك العادل وخلفه ابنه الملك الكامل الذى حاول عبثاً الاتفاق مع الصليبيين على ترك مصر مُقابل أخذ بيت المقدس ، ولما لم يقبلوا هذا الاتفاق قطع المصريون جسور النيل فى زمن الفيضان فطغت المياه وأحاطت بالصليبيين الذين اضْطُرُّوا إلى طلب الصلح ثم عادوا أدراجهم سنة ٦١٧ — ١٢٢١ م ثم قام الإمبراطور فردريك الثانى براً بوعده للبابا أنوسنت الثالث بحرب جديدة ولكنه تلكأ حتى عام ١٢٢٨ وكان قد تزوج من ابنة جان دى بريان ونال لقباً فخرياً هو (ملك بيت المقدس) ومن العجب أنه كان محروماً (مطروداً) من الكنيسة ولم يصحب معه أكثر من ٥٠٠ فارس ومع ذلك أصاب

من النجاح ما لم تفز به الحملات الصليبية السالفة ، فقد أمكنه بدون أن تهدر من الدماء قطرة ولا أن تذرف العيون دمعة ، وبغير ركوع ولا سجود أمام قبر المسيح أن يتفق مع المسلمين على أخذ بيت المقدس منهم بشرط احتفاظهم فيه بالأماكن الإسلامية المقدسة وأن يتعهد لهم جزاء ذلك بأن يساعد الملك الكامل ضد أعدائه سواء أكانوا من المسلمين أم من المسيحيين ، ثم دخل فردريك بيت المقدس وتوج نفسه ملكاً عليه ، فلم يرق هذا الاتفاق في عين البابا ولا في عين الصليبيين وظل مع هذا بيت المقدس مع الصليبيين حتى استرده منهم الملك الصالح أيوب سنة ٦٤٠ هـ — سنة ١٢٤٤ م ^(١) .

ثم قام الملك لويس التاسع بحرب أخرى دامت من سنة ١٢٤٨ إلى سنة ١٢٥٤ ففي عام ١٢٤٩ استولى الفرنسيون على دمياط وعبروا النيل وأقاموا استحكاماتهم أمام المنصورة عند البحر الصغير وكان الملك الكامل قد مات سنة ٦٣٥ هـ — ١٢٣٩ م . وتولى بعده ولده العادل ولم يلبث أن عزل وسجن ثم قتل سنة ٦٣٩ هـ ١٢٤٣ م وتولى من بعده أخوه الصالح نجم الدين أيوب الذي وقعت في عهده هذه الحرب وفي هذه الأثناء مات الصالح فأخفت زوجته شجرة الدر نبأ موته وواصلت الدفاع وإصدار الأوامر إلى القوات ممهورة بخاتم الملك الصالح إلى أن حضر ولدها توران شاه فسامته بهم الدفاع فنقل أجزاء السفن على ظهور

(١) واستمر بيت المقدس تحت حكم المسلمين سبعة فرون متوالية حتى عام ١٩١٧ حين استولى عليه اللورد اللنبي قائد القوات البريطانية المحتلة لمصر منذ عام ١٨٨٢

الجمال إلى دمياط حيث ركبت وأنزلت إلى البحر وبهذا قطع خط الرجعة على الصليبيين الذين كانوا أمام المنصورة وتقهقروا عنها بعد أن أعيام الاستيلاء عليها وفشا فيهم المرض وقد لحق بهم المسلمون عند فارسكور وسدوا عليهم الطريق بسبب وقوع الملك نفسه أسيراً مع الأشراف الذين كانوا معه ثم اقتدى من الأسر بمبلغ من المال ثم فتك المماليك بتوران شاه لشدة وقسوته فتولت الأمر شجرة الدرّ أمه لما كانت تمتاز به من تدبير وحكمة ورجاحة عقل وقوة إرادة وصبر على مسئوليات الحكم ودعى لها على المنابر بعد الدعاء العباسي ونقش اسمها على النقود وأقامت ثلاثة أشهر ثم تنازلت فتولى الملك الأشرف موسى بن الملك الكامل ولما كان سلطان المماليك يزداد وينمو وكانوا قد قتلوا توران شاه ومن قبله العادل، لذلك فقد عينوا بعد عزل شجرة الدر نفسها المعز إيبك التركماني قبل الملك الأشرف بخمسة أيام حتى ثار المصريون بهم وقالوا : لا بد من سلطان من بني أيوب ثم أرسلوا إلى الأشرف وعينوه ولم يعزلوا إيبك بل كانا بمثابة شريكين في الأمر حتى انتهى بموت الأشرف حكم الدولة الأيوبية بمصر .

أما بيت المقدس فبعد أن استولى عليه الملك الصالح أيوب في عام ١٢٤٤ كما أسلفنا القول لم يبق للصليبيين إلا بعض مدن ساحلية غير أن لقب ملك بيت المقدس قد أخذ أبناء أسرة هوهنشتاوفن يتوارثونه إلى أن انقرضت هذه الأسرة فاتخذ ملوك قبرص لقباً لهم لأنهم من سلالة جاي دي لوزيان وقد ظهرت في هذه الأثناء دولة

المغول واستولى هولاًكو Holako على بغداد في عام ١٢٥٨ م ودمرها وقتل الخليفة العباسي فحاول الصليبيون أن يستميلوا المغول إليهم ضد المسلمين ولكن قُطر أحد سلاطين الممالك البحرية الذين حكموا مصر بعد الدولة الأيوبية انتصر على المغول في الشام عام ١٢٦٠ في واقعة عين جالوت وهي إحدى الوقائع الحاسمة في تاريخ الشرق ويرجع إليها الفضل في نجاة الشرق من إغارات المغول .

ولما جاء السلطان بيبرس عام ١٢٦٢ م جدد عهد صلاح الدين وأخذ ينتزع من الصليبيين ممتلكاتهم فاستولى على يافا سنة ١٢٦٨ وعلى إنطاكية وطرابلس واستولى أخيراً على عكا سنة ١٢٩١ وانتهى بذلك حكم الصليبيين في الشرق ثم قامت حرب أخيرة وجهت ضد تونس سنة ١٢٧٠ م وانتهت بالفشل بعد موت قائدها لويس التاسع ملك فرنسا .

وإلى هنا كان قد انتهى حديث القاضي .

حضارة الإسلام

نظرة عامة

يظهر من كل ما تقدم أن الإسلام إنما هو دين عبادة وقيادة ، أو عقيدة ونظام ، فدعوته للناس كافة . فهو ليس كدين اليهود مثلاً محصوراً في بني إسرائيل وحدهم لا يُعْنَوْنَ بأن يشاركهم فيه غيرهم ، ولذا لا يدعون الناس إليه ولا يقاتلون من أجله .

كذلك لم يكن الإسلام كالمسيحية التي عنت بتقويم الأخلاق والآداب ولم تعن بالمعاملات ونظام الحكم ، لأنها نشأت في بلاد تسيطر عليها الدولة الرومانية ذات القوانين والنظم الوضعية ، أما الإسلام فقد نشأ في بقاع جرداء ليس للأجنبي سلطان عليها وليس من نظام يسود بينها إلا المواضع القبلية . فقضت إرادة الله أن يكون ظهوره للناس جميعاً عقيدة ونظاماً ، أما العقيدة وأركانها فليس هنا مجال البحث فيها ، وأما نظام الإسلام في الحياة الدنيا فهو مؤسس على دعائم أهمها حرية الرأي والفكر والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات ، تلك الدعائم التي لم تعرف الإنسانية وقتئذ إلا النزر القليل منها في عهد قدماء المصريين وهي المساواة أمام الموت^(١) ، وفي القرن السادس قبل الميلاد أي في عهد فلاسفة اليونان وأنبياء بني إسرائيل وبوذا وكنفشيوس

(١) راجع الحديث الأول صفحة ١٥

حيث أطلق الفكر الإنساني من عقال المعتقدات القديمة .
وكان القرن السادس بعد الميلاد يتم ويكمل القرن السادس قبل
الميلاد من حيث إطلاق الفكر الإنساني من قيوده القديمة، وكان الإنسانية
كانت تتقرب منذ اثني عشر قرناً رسالة الإسلام الجديدة لا في حرية
الفكر فحسب بل وفي المساواة بين الناس أيضاً .
أضف إلى هذا أن المسيحية كانت تعاني أزمات منذ القرن الثالث
الذي ظهرت فيه عقيدة الغنوسية (Gnosticism) الوثنية الأصل والتي
حاول أن يوفق بينها وبين النصرانية ذلك الكاتب السرياني بردسان
الذي تنصر ثم ارتد إلى الوثنية . ومعنى الغنوسية الأسرار العالية
التي ترفع الروح إلى العلاء وتنقذها من هذا العالم الجسماني . ولقد أخذت
الغنوسية تنتشر بين النصارى الذين انساق مبشروهم إلى استخدام
الفلسفة الإغريقية في نزاعهم مع الغنوسية وتولدت من هذا النزاع
مذاهب دينية متنوعة أهمها ما كان في الأسكندرية معتمداً على فلسفة
أفلاطون وما كان في أنطاكية معتمداً على فلسفة أرسطو . فلما أهل
القرن الرابع بدأ النزاع في صميم المسيحية ، وما حل القرن الخامس
حتى انقسم المسيحيون في الشرق قبل انقسامهم في الغرب^(١) وانفصل
الكثيرون منهم عن المذهب الأصلي الأرثوذكسي فوجد اليعاقبة
والنساطرة وغيرهم . ومجمل هذا النزاع قائم على إمكان التفرقة

(١) حين تأثر مفكروهم وفي طبيعتهم اللاهوتي مارتن لوتر ببعض ما في الإسلام فانقسموا
إلى كاثوليك وبروتستانت .

أو استحالتها بين ألوهية المسيح وإنسانيته . وفي عام ٤١٠ عقد لهذا الغرض مؤتمر في مدينة سلوقية على شاطئ الدجلة . وفي سنة ٤٨٣ قبل نصارى إيران معتقدات النساطرة . وفي سنة ٤٨٩ هرب نصارى أدسسه إلى إيران بعد أن أغلق الإمبراطور زينو (Zeno) المدرسة الإيرانية بأدسسه بسبب المعتقدات النسطورية وصارت إيران منذ القرن الخامس (في عهد الساسانيين) ملجأ لكل المهاجرين والمبغضين من بيزنطة سواء أكانوا من اليهود أم المجوس أو روافض النصارى وأصبح هؤلاء جميعاً حلفاء طبيعيين للمسلمين ضد بيزنطة .

وعلى الرغم مما بين محمد صلى الله عليه وسلم وأعدائه الوثنيين من الحروب في بدر والخندق وأحد وحنين فإنه طاف بالبيت الذي يقدسونه واحترمه وأمر بالحج إليه مما كان له أعظم الأثر على نفوسهم فدخلوا في دينه أفواجا .

ثم ما كاد الإسلام يستقر في المدينة حتى وجه النبي (ص) دعوته السلمية إلى ملوك الدول الأجنبية كما عرفنا . وبعد وفاة النبي (ص) جاءت الفتوحات الإسلامية التي سردناها والتي لم يرو لنا التاريخ مثلها . ففي عام ٦٣٤ شنت المسلمون جنود الإمبراطور هرقل في واقعة اليرموك أحد روافد نهر الشريعة واستولوا على الشام ودمشق وأنطاكية وأورشليم .

وفي عام ٦٣٧ أبحه جند المسلمين نحو الشرق فعبروا الصحراء مجدين في سيرهم ولم يتركوا وراءهم غائباً أو مريضاً أو متخلفاً وانتصروا

على جحافل فارس واستولوا عليها كما استولوا على التركستان ووصلوا إلى شرق الصين واستولوا على مصر وبرقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش .

وفي عام ٧١١ عبروا بوغاز جبل طارق (الزقاق) إلى القارة الأوربية واستولوا على اسبانيا . ولم تمض عشر سنين حتى وصلوا إلى قلب فرنسا وفي هذا الوقت قامت بعض ثورات في اسبانيا واضطرابات في شمال فريقيا فوقف سيل المجاهدين المسلمين وارتدوا إلى جبال البيرينية في عام ٧٣٢ بعد واقعة تور — بواتيه (Poitiers) التي اشتهر فيها شارل مارتل (Charles Martel) ^(١) (قارلة) .

هذا ولئن وقف تيار الزحف الحربى للإسلام بعد هذه الموقعة غير أن سيل الأفكار الحرة ومبدأ المساواة بين الناس قد تغلغل بين الشعوب والأمم التي عرفت أن المسلمين لم يفرضوا عليهم دينهم بل كانوا يتركون سكان البلاد المغلوبة أحراراً في عقائدهم فلا يفرضون عليهم غير الجزية وهي أهون ما يطالب به المغلوبون في مقابل الدفاع عنهم في الخارج واستقرار السلام في الداخل واطمئنان الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم وحياتهم الدينية والفكرية إذ كان سلبها حلالاً مباحاً لكل غاصب من ذوى النفوذ والسلطان .

فالمسلمون لم يعتمدوا على قوة السلاح كالجرمان والمغول والفرس

(١) هو أحد رؤساء البلاط في عهد ملوك الميروفنجيان (Merovingienne) . وموقعة تور — بواتيه هي التي مهدت السبيل إلى تأسيس عائلة جديدة حكمت فرنسا باسم عائلة كارولنجيان

بعد فتح الأقطار ولكنهم نشروا مبادئ الحريات لجميع الشعوب ولم يغيروا شيئاً من تقاليدها إلا ما كان متعارضاً مع مبادئ الحرية والمساواة فألغوا نظام الطبقات في التركستان وفي فارس وألغوا كذلك نظام القنّ أو رقيق الأرض الذي كان منتشراً في أوروبا وهو ارتباط الزارعين بالأرض ويبيعهم معها كأنهم من ملحقاتها .

فالمبادئ المتقدمة التي نشرها المسلمون كانت داعية لدخول الناس في دينهم أفواجاً ولشيوع لغتهم العربية التي صقلوها منذ قرون طويلة وجعلوا منها لغة أدبية علمية ، ثم تعاونوا مع الشعوب التي خضعت لهم في إحياء علوم الفرس واليونان التي كانت قد اندثرت معالمها وأضافوا إليها معارفهم الجديدة وتركوا هذا التراث العظيم لمن جاء بعدهم من الشعوب فكان أساساً بنيت عليه العلوم والمدنيّة الراهنة .

هذا ولقد كانت المدينة المنورة عاصمة الإسلام في عهد النبي والخلفاء الراشدين كما رأينا ثم انتقل مركز الخلافة إلى الكوفة ثم إلى دمشق في عهد الأمويين عام ٦٦١ ثم إلى بغداد في عهد العباسيين عام ٧٥٠ ثم رأينا كيف انقسمت الدولة الإسلامية إلى خلافتين ثم إلى ثلاث خلافت و كانت عواصمها دائماً مركزاً لمعاهد العلم والفن كما كانت قصور الخلفاء نوادي أدبية راقية .

ولقد تفوق المسلمون على أسلافهم من الفرس والإغريق في العلوم والفنون وأضافوا إلى تلك المعارف نتائج بحوثهم القيمة ومجهوداتهم الجبارة، وقسموا الفلسفة إلى قسمين : النظرية منها والعملية ثم قسموا الأولى

إلى ثلاثة أقسام وهي الإلهيات والطبيعات والرياضيات ثم قسموا العلوم الرياضية إلى الحساب والهندسة والهيئة والموسيقى . وتلك المعارف هي التي سميت بالحكمة الرباعية (Quadrivium) التي كانت تدرس في أوروبا طوال القرون الوسطى .

وقسموا الفلسفة العملية إلى أقسام : منها الأخلاق والاقتصاد والسياسة . وهذا فيما عدا أبواباً أخرى كالكتابة والشعر والتاريخ والنحو والعقائد والفقه الإسلامي . أما المنطق^(١) فجعله بعضهم ضمن العلوم العملية وجعله آخرون وسيلة للفلسفة .

ودرسوا فن العمارة الفارسي والبيزنطي واستخلصوا منهما فناً عربياً بديعاً بالأعمدة المرتفعة الرشيقة والقباب العالية والرسوم الهندسية والحروف المنقوشة وشيدوا قصوراً ومساجد منها قصر الحمراء بقرطبة ومسجد قرطبة ومسجد طليطلة وغيرهما .

وتقدمت في عهدهم الزراعة والصناعة والتجارة فأخذوا من مصر علم الري وفلاحة الأرض ونقلوا إلى إسبانيا أنواعاً كثيرة من الأشجار كالتوت والمشمش وقصب السكر والهلين والزعفران والقنب ، ومن الزهور الياسمين والكاميليا ، وجعلوا من وديان إسبانيا بساتين زاهرة ، وجنات ناضرة ، ورياضاً غناء .

الحضارة
الصناعية

أما في الصناعة فقد نقلوا عن الفرس صناعة القيشاني ، وصناعة الصلب ، ومنها السيوف الدمشقية والطليطلية المشهورة ، وصناعة

(١) وقد ذهب كثير من علمائهم إلى نقد قواعد المنطق اليوناني وحاول بعضهم كابن تيمية وابن الصلاح والنواوي هدمها وبناء قواعد كلية من جزئيات اسلامية .

الأواني النحاسية المنقوشة والمخرمة ، والمصنوعات الخشبية المنحوتة والمرصعة بالفضة والسن ، وكذلك صناعة السجاد والأقمشة ، وتقلوا عن الصين صنع الورق والبارود والأواني الصينية واستعمال البوصلة . وقد وجدت في اللغات الأجنبية كلمات كثيرة أصولها عربية ، فمثلاً في صناعة النسيج كلمة موسلين (Mousseline) أى أقمشة الموصل و (ماروكان) (Marocaine) أى صنع مراکش . وفي الاصطلاحات البحرية (Arsenal) الفرنسية المأخوذة من (Darsenal) الإيطالية و (Darzana) الإسبانية (وترسانة) التركية وهى جميعاً تحريف للكلمة العربية (دار الصناعة) كما أن كلمة (Amiral) هى من الكلمة العربية (أمير البحر) وفي الاصطلاحات العلمية أخذت كلمة (Algèbre) من اسم مبتكر طريقته الرياضية جابر بن حيان ، وكلمة (Chimie) من كلمة كيمياء ، وأخذت كلمة (لوغارتم) من اسم واضع قواعده (الخوارزمي) الذى ظل حجة في أوروبا في الرياضيات إلى عصر النهضة ، وغير ذلك مما لا يحصى من الأسماء التى شملت الطب والهندسة والفلك والحساب والموازين والمكايل والأعلام .

تأثر الحضارة
الصناعية
في أوروبا بها

أما التجارة في عهد المسلمين فقد اتسع نطاقها بحراً وبراً ، وكانت مصر مركزاً لإنشاء أسطول إسلامي استولى على صقلية ، وأخضع جنوب إيطاليا ، وأخذت السفن التجارية تجوب البحار على سواحل شمال أفريقية وجنوب آسيا لغاية الهند الصينية وجزائر السند ... أما قوافل التجارة البرية فكانت تمر بين سوريا والعراق إلى الصين ،

الحضارة
التجارية

وفي أفريقيا وصلت تجارة المسلمين إلى القبائل السودانية .

ترجمة
الفلسفة

والمسلمون هم الذين ترجموا الكتب الإغريقية ، وإن الخليفة المنصور الذي حكم من ٧٥٤ - ٧٧٥ م قد أرسل حُثَيْن بن إسحاق إلى بزنطة حيث أقام سنتين تعلم خلالها اللغة اليونانية وصار من كبار المترجمين من اليونانية والسريانية إلى العربية .

وكان للمسلمين طريق آخر غير بزنطة والأسكندرية لإحياء العلوم الدارسة والفلسفات القديمة وهي مدرسة (جنديسابور) (شاه بور) كما كانت مدينتا الكوفة والبصرة اللتان أنشئتتا على شاطئَي الدجلة والفرات في عهد الخليفة عمر رضى الله عنه مصدراً للعلوم والمعارف في صدر الإسلام .

ولما أنشأ الخليفة المنصور مدينة بغداد عام ١٤٥ هـ أصبح حوض الدجلة والفرات من أنشط مراكز الحركة العلمية في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة ، وقد أنجبت البصرة من العلماء الحسن البصري والجاحظ والكندى من أول المفكرين الأحرار ، وتكونت في القرن الرابع رابطة من أئقياء^(١) الباحثين باسم (إخوان الصفا وخلان الوفا) ،
و نقلت رسائلهم البالغة نحو الخمسين إلى إسبانيا في أواخر القرن العاشر الميلادي .

إخوان الصفا

هذا . وقد ازدهرت المدنية الإسلامية في عهد الأمويين بالأندلس

(١) أئقياء جمع أئقي وهو الذي أوغل في البحث والتقيب واختاره العلامة أنستاس ماري الكرملي لأعضاء المجمع الملكي للغة العربية .

والفاطميين بمصر ، وكان الآخرون يعملون على تقوية مذهب الشيعة الذي اشتقت منه الاثنا عشرية والزيدية والاسماعيلية وغيرها ولذا انتشر نفوذهم المنافس لخلفاء بغداد ، وإن كان قد وجد في شيعة بغداد من ينكر عليهم نسبتهم إلى فاطمة الزهراء كما بينا على لسان جوهر . غير أن مصر كانت متفوقة على غيرها من الممالك الإسلامية بكثرة كنوزها من المؤلفات التاريخية، والجغرافية، والوثائق القديمة عن العصور الإسلامية. أما في أسبانيا فقد بذل ابن رشد مجهوداً لا يقل عن زملائه في بغداد والفرق بينه وبينهم أنه حاول تجديد تعاليم أرسطو وإيضاحها وتطهيرها من الإفلاطونية الحديثة وقد وجد له صريدون وأنصار من الكاثوليك أكثر من المسلمين أنفسهم حتى لقد كان من تلاميذه الباباليون الثالث قبل أن يتولى عرش البابوية .

ابن رشد

كذلك ظهر من علماء المسلمين في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ابن سينا وهو وإن كان قد ولد في إحدى قرى بخارى عام ٩٨٠م إلا أنه تلقى العلوم الطبيعية والرياضة من دعاة الشيعة ، ومن مؤلفاته في الطب ما كان يدرس في جامعة مونبليه بفرنسا حتى عهد لويس الرابع عشر (أي منذ قرنين ونصف) .

ابن سينا

ومن المعروف عن علماء المسلمين الكيميائيين أنهم قد اكتشفوا أملاحاً وأحماضاً كثيرة قد عرفوا خواصها في أثناء بحثهم عن (الحجر الفلسفي) الذي يحول المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة ، وعن إكسير الحياة الذي يطيل العمر ، فكانت هذه الاكتشافات فاتحة التقدم العظيم

في علم الكيمياء وكان تقدمهم رائعا أيضا في علم الفلك وقياس أبعاد الكرة الأرضية .

هذا : ولقد ذهب بعضهم إلى أن حضارة الإسلام ما هي بحضارة للعرب ، ثم ذهبوا إلى أن معظم حملة العلوم في هذه الحضارة كانوا من الأعاجم ، وليسوا من العرب .

خطأ
ابن خلدون
في نظريته
إلى العرب

وكان ابن خلدون المؤرخ العربي أول القائلين بهذا الرأي الذي منذ شيوعه نسج الكثير على منواله . ولا نريد أن تثبت هنا مقدار المبالغة في هذا الرأي ، حيث إن ابن خلدون — كما عرفنا باستقراء طريقته في البحث — كان يعد العربي النازح إلى بلاد العجم أعجميا ، والأعجمي النازح إلى بلاد العرب أعجميا كذلك ، فكان يتذرع بالبيئة أحيانا وبالعنصرية أحيانا أخرى للتدليل على صحة رأيه في العرب ، ولم يجعل أحدهما مناطا ثابتا لاستقراءه ولا نرى ثمة مجالا لبيان ضروب مما استشهد به في هذا الصدد .

صلة الشعوب
وأثرها في
الحضارة

ونحن نرى أن العرب ما كانوا إلا شعبا كسائر الشعوب التي اعتنقت الإسلام فأخى بينها وأدت جميعا رسالتها للإنسانية ، ولا يغير هذه الحقيقة كون العرب أول الشعوب التي اعتنقت رسالة محمد (ص) ولا ريب في أن كل تقدم في ركب الإنسانية لا يأتي من مميزات جنسية أو معتقدات شعبية دون مراعاة العلاقة بين شعب وآخر ، كما لامرء في أن الصفات المنسوبة إلى الجنس الهندي الأوربي ومنه الأعجم والإغريق — ولو سلمنا أنها متفوقة على غيرها — فإن هذا الجنس

لو عاش في عزلة لما أفاد الإنسانية شيئاً ، ولبقى متوحشاً كما نشأ قبل أن يتصل بالمدنيات القديمة وها هي ذى قبائل (كافر) التي بقيت على جبال هندوكش تعيش في همجية بسبب عزلتها حتى القرن التاسع عشر .

على أن الذي قد مكن للمسلمين أن يقوموا بحضارتهم المتفوقة على غيرها إنما هو علاقتهم بغيرهم من الشعوب الأخرى (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) ولأن تجارة العالم كانت رَدْحًا من الدهر طويلاً في أيديهم .

فالإسلام كان رابطة الشعوب في عهد حضارته ، وعروة التآخي بين الأجناس التي دانت به وأخذت عنه حكمة الرسول في قوله : (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) .

كذلك إذا رجعنا إلى حديث القاضي بهاء الدين بن شداد ، وأجلنا فيه الفكر ظهر لنا أن الصليبيين لم يصلوا إلى الأهداف التي رمى إليها البابوات في روما؛ فقد بقي بيت المقدس في أيدي المسلمين . وكذلك المدن الأخرى ، وسقطت كل من المملكتين اللاتينيتين المؤسستين في القدس والقسطنطينية ، وعادت الحال إلى ما كانت عليه قبل عام ٤٩٢ هـ ١٠٩٥ م أي قبل أن تبدأ الحروب الصليبية التي كانت أشبه شيء بالهجوم الدفاعي ؛ لأنها أخرت استيلاء الترك — إلى حدٍّ ما — على الدولة البيزنطية ، وحالت طوال المدة التي استغرقتها دون مهاجمة السلاجقة لهذه التجارة بين الشرق والغرب ، فأدخلت في أوروبا كثيراً من نقائس المصنوعات والمحاصيل الشرقية ، وأهم من هذا كله أن الحروب الصليبية كانت سبباً

زحف
الحضارة
الاسلامية
من الشرق

مباشراً في اختلاط الغربيين بالشرقيين والأخذ بمدينة الشرق التي كانت أرقى من مدنيّتهم ، وقد أخذوا عنها كثيراً من العلوم والمعارف مما أدّى إلى نشاط الفكر الأوربي بعد أن نقض عنه غبار العهد الوسيط إلى أن تركز واستقر نهائياً في عهد النهضة الأوربية .

ولا ريب في أن الصليبيين، الذين جاءوا إلى الشرق وقلوبهم تطفح حقداً على أهله ، ما لبثوا أن عادوا إلى بلادهم وهم مؤمنون بما يتحلى به الشرقيون الذين قاتلوهم من المروعة والنخوة وكرم النفوس . وقد أدّى بهم إيمانهم هذا إلى التخفيف من حدة عصبيتهم الدينية التي ما كان منشؤها إلا الجهل بأحوال المسلمين وما يتحلّون به من فضائل . وقد بدأ على إثر انتهاء هذه الحروب اهتمام الغربيين بأمر الرحلات والاكتشافات بعد الذي أذاعه عليهم الصليبيون من أنباء تلك الديار مما أفضى إلى ظهور الرحالة ماركو بولو Marco Polo في القرن الثالث عشر الميلادي . ولا يعزب عن البال أن أوروبا قد قطعت النصف الأول من القرون الوسطى في الغزو والفتح حتى زالت الدولة الرومانية ، وجاءت القبائل المتبربرة المتوحشة التي كانت تعيش خلال الغابات والأحراش والجبال الشاهقة ، والمستنقعات ، تلك القبائل التي لم تهذب الكنيسة المسيحية من خشوتهم في معيشتهم كثيراً ، ولم تقلل من حدة طباعهم وعاداتهم شيئاً مذكوراً ، فأخذت هذه القبائل في هدم المديّنات القديمة واستمر الأقوياء من الأمراء والزعماء مسيطرين على الضعفاء من عامة الشعب ورقيق الأرض ، ولو استمر الأمر على هذه الحال ولم تتصل

شعوب الغرب بمدينة الشرق، لتتناول منهم شعلة المدنية والعرفان، لظل
أهل الغرب على الحال التي تصورها الكتب القديمة من التأخر
والجهالة، يعانون الظلم، ويتجرعون مرارة البؤس والشقاء، وقد أمسوا
ضحية للأمراض والأوبئة.

تلك الكتب التي تحدثنا عن أحد ملوك فرنسا الذي أغمى عليه
وهو يُطلُّ من شرفة قصره؛ لأنه تأذى بالروائح الكريهة المنبعثة من
شوارع باريس، كما أن أهل تلك العصور كانوا يتوارثون أزدية أجدادهم
ولم يكونوا ليعلموا شيئاً عن استعمال الثياب الداخلية، ولا يدرون كيف
يستعملون (القميص) عند النوم، فتعلموا ذلك من المسلمين، (ولنلفت
النظر إلى أن لفظ Chemise إنما هو لفظ قميص محرفاً)، وذلك دليل
على أن استعمال القميص — واللفظ يُصَحَّب عادة باستعمال مدلوله —
لم يدخل على الأوربيين إلا في القرن الثالث عشر.

وتحدثنا تلك الكتب القديمة أن أحد ملوك بروسيا كان ينقل
إلى قصره حوض الاغتسال كل أسبوع ليستحم، فكأنه لم يكن يزيد
على إنسان عاديّ يعيش في الشرق الإسلامي يومذاك.

وتبين لنا جليةً — مما تقدم — الحال في أوربا في تلك العهود التي
دُعيت بحق (العصور المظلمة). ثم إنه حين كان هذا سائداً في الغرب كانت
حضارة الإسلام في الشرق تقضى على المسلمين بأن يغتسلوا ليتطهروا،
وأن يغسلوا أطرافهم بالماء خمس مرات في اليوم للصلاة، ثم لا تغرنا
مظاهر ما في الغرب خلال تلك العهود التي تبدو في شكل كنائس

أو كتدريّات عليها مظهر العظمة والرّقي وفي داخلها قسّيسون ورهبان ،
أو القصور الشائخة التي يسكنها الأمراء والنبلاء ؛ لأن هذه المباني
أيضاً كانت تتكنفها القاذورات المتراكمة من الأكواخ المحيطة بها ،
والأماكن الحقيمة التي يقيم فيها عامة الشعب .

ولقد حمل التاريخ بين طياته من الأحداث ما يكفي لتصوير الحالة
التي كانت سائدة قبل الحروب الصليبية، وهي واضحة الدلالة على أن العالم
الأوربي كان في ذلك العهد مكوناً من طبقتين : هما طبقة الأمراء
والأشراف ورجال الدين، ثم طبقة العامة . وكانت الأولى تتسلط على
السواد الأعظم من عامة الشعب ، وتملك الأراضي والضياع . أما الطبقة
الثانية فكانت على النقيض ؛ تنمّ من شظف العيش ، وما تلاقيه في
كفاحها للحياة من عسف وإرهاق ، وما تقاسيه من عناء وبأساء . ومما
يَلْفِتُ النظر حقاً ويذكر المرء بتلك الرسوم الغابرة في طوايا ما اندرس
من التاريخ ما يُشَاهَدُ من الفوارق في المظاهر بين الطبقات ، تلك
الفوارق التي يلاحظها من قام برحلة إلى أحد بلدان الشرق اليوم بعد
تدهوره ، إذ يدهشه ما ثَمَّ من تناقض عجيب ، فبينما يرى (غرفات)
بالقطار الذي يسافر من حلقا إلى الخرطوم مثلاً ، غنية بطارف الرياش ،
تتوفر فيها كل أسباب الراحة، إذا بالأهلين حفاة عراة، في حالة من البؤس
والشقاء يرثى لها . فهذا التناقض هو اليوم من المظاهر المألوفة في البلاد
الشرقية التي منيت بالاستعمار ، فاللبناني المخصصة لدور الحكومة ،
والفنادق الرائعة ، والجناات النظرة ، كل أولئك يوم العابر النظر بأن

البلاد في رخاء ، وأن أهلها في رغد من العيش ، على حين أن الواقع ليس كذلك .

فلا يَغُرَّنْكَ ما ترى من آثار تلك العصور الصليبية في أوربا ،
فذلك لا يدل إلا على تقيضه ، ولا يَسَعُنَا أن نُغفل الإشارة هنا إلى أنه
لما وقعت الحروب الصليبية كان من نتائجها قيام أفواج من عامة
الشعب الطامحين بالتجارة مع الشرقيين، وقد نقلوا إلى الغرب مصنوعات
الشرق من أقمشة وآنية وغيرها ، وقد أثروا من هذه السلع ، واتجه
تفكيرهم إلى أن يقوموا بصنع هذه المنتجات بأيديهم في حوانيتهم
وأكواخهم ، بدلا من استيرادها من الشرق ، ولم تكن يومئذ الآلات
البخارية أو الكهربائية قد اخترعت ، ثم نجحوا فنمت ثروتهم برواج
تجارتهم ، وفي هذه الأثناء أخذ الأمراء يقومون برحلات إلى الشرق ،
وكانوا في حاجة إلى ما ينفقون في هذه الرحلات ، فبدأوا يقترضون من
أتباعهم ، أو يحصلون عليه من اليهود أو اللومبارد بموجب وثائق
يوقعونها اقراراً منهم بمبلغ الدين الذي عليهم ، وما كان هؤلاء الأتباع
يتقاضون ربحاً على ما يبدلون من قرضهم ، وإنما كانوا يحصلون على
امتيازات مكتوبة يوقع عليها المدينون من الأمراء حتى أضحي أولئك
وقد اشتروا حرياتهم ، وصاروا هم الذين يديرون شئون الضواحي والمدن
الصناعية والتجارية ، التي أنشئت وشكلت فيها مجالس تشبه المجالس
البلدية في وقتنا الحاضر .

ومن هذا نرى أن الحروب الصليبية وإن كانت قد أخفقت

في تحقيق أغراضها الأولى إلا أنها كان لها أكبر الفضل في ظهور تلك المدن الصناعية الكبيرة والضواحي المنتجة لشتى السلع في أوروبا ، كما كان لها يد طويلة في ظهور الطبقة الوسطى التي كان لها شأن عظيم في تقوية مركز الملوك والقضاء على نظام الاقطاع ، وإزالة الفوارق بين الطبقات ، وتقل سلطة الأمراء والأشراف إلى الأهل . وترتب على هذا أن انتقلت الحياة السياسية والاقتصادية في أوروبا إلى مرحلة جديدة .

ولا ريب في أن الإنسانية قد أفادت كثيراً من اختلاط الشعوب بعد الحروب الصليبية ، فتقدم العالم في الستة القرون الأخيرة خطوات واسعة جبارة ، ولئن كانت حضارة مصر وبابل وآشور قد نشأت في مدنها الكبيرة ، وحضارة اليونان في أثينا وإسبارطة ، وحضارة فينقيا في مدينتي صور وصيدا ، وحضارة الإسلام في هذا الشرق كله حيثما يمت كدمشق وبغداد ، والكوفة ، والقاهرة . وفي الغرب كغرناطة وقرطبة وطلطيلة ، فإن المدينة الحديثة قد بدأت بظهور المدن الصناعية والضواحي في أوروبا ، والتي أخذت تلعب دورها بفضل مدينة الشرق ، وما أسدت إلى الإنسانية من ثمرات ، وما أزجت إلى الضمير الإنساني من سجايا وفضائل وقيم أخلاقية ، وما نشرت من علوم وفنون . وما نقلت من عادات وثقافات ، وما هذبت من فطر ناشزة ، وطباع فاسدة ، تلك هي حضارة المسلمين وآثارها .

هذا ولقد وصلت إلى الصين في أوائل القرن السابع الميلادي ثلاث بعثات من جهات مختلفة ؛ وكانت الأولى من البيزنطيين ، والثانية من

المسلمين ، والثالثة من الفرس . وكان الجالس على عرش الصين وقتئذ
 (Tsai Taung) تساي تونج . وهو الذى أذن ببناء كنيسة ودير ، كما صرح
 ببناء جامع فى مقاطعة كانتون (Canton) . وان هذا التسامح الدينى
 فى ذلك العهد ، وهذا الاتجاه إلى الشرق الأقصى ، له معناه وله مغزاه .
 فلا يخفى ان امبراطورية الصين كانت معاصرة للدولة الرومانية
 من قرون ، وإذا كانت الدولة الرومانية قد مدت حدودها فى آسيا إلى
 نهر الفرات فإن امبراطورية الصين فى عهد عائلة هان (Han) التى حلت
 محل عائلة تسن (Tsin) مدت سلطانها إلى التبت (Tibet) ووصلت إلى
 غرب التركستان ، فكانت الصين وقتئذ هى الدولة العالمية الأوسع أرجاء
 والأكثر سكاناً . وفى عام ٦٦ قبل الميلاد وصلت بعض الجنود الرومانية
 فى عهد بىباى (Pompée) إلى شواطئ بحر قزوين . وفى عام ١٠٣ بعد
 الميلاد أرسلت الصين بعثة إلى شواطئ هذا البحر لتزود بمعلومات
 عن الدولة الرومانية .

زحف
 الحضارة
 الإسلامية
 إلى الشرق
 الأقصى

ولقد وقفت علاقة هاتين الدولتين عند هذا الحد زمنًا طويلاً
 بسبب قلة مواصلاتهما وانهما كهما فى صد غارات القبائل الشمالية ؛ لأن
 الصحارى الواسعة الأرجاء والغابات الموحشة الممتدة شمالى هاتين الدولتين
 تقطنها قبائل عديدة تعيش فى حالة همجية ، وتغير بين آونة وأخرى على
 حدودهما كلما دعتهم الحاجة إلى طلب العيش بسبب قلة مراعيهم أو كثرة
 عددهم . وكانت القبائل الجرمانية تقطن الجزء الغربى من بدء غابات
 جرمانيا إلى حدود روسيا والتركستان . وكانت قبائل الهون والمغول

والتتار والأتراك تقطن المناطق الشرقية من هذه الأقطار المترامية الأطراف .

ولقد عرفنا حظ الدولة الرومانية من هذه الإغارات المتوالية .
أما امبراطورية الصين فقد وقعت في صد هذه الغارات ، بل تخطى الصينيون سورهم المشهور وأخذوا في فلاحه الأراضي الواقعة وراءه ، فأعتدت عليهم قبائل (الهون البيض) وأرسلت الدولة الصينية الحملات التأديبية فسكن بعضهم وارتضى حكم الصين ، ونزح آخرون إلى أوربا كما عرفنا ، واستقر البعض في التركستان واستوطن آخرون شواطئ الفرات وهم قبائل البارث (Parthes) الذين حاربوا بمباى وقهروا جراسوس (Grassus) في عهد الرومان وأنشأوا الدولة الارشكية (Arsacides) . وقد نزح بعض هذه القبائل أيضاً إلى الهند من طريق البنجاب ومن فجاج خير . واستمرت هذه الاغارات تتوالى على الهند حتى القرن الخامس بعد الميلاد . ويظهر ان هذه الإغارات من قبائل مختلفة كانت هي السبب في وجود نظام الطبقات المعروف في الهند إلى يومنا هذا .
أما الامبراطورية الصينية فبعد أن صدت إغارات الهون وأمنت جانبهم وقعت فيها اضطرابات بسبب الانقسامات الداخلية وتفشى وباء الطاعون الذي انتشر في القرن الثاني للميلاد ووصل إلى الدولة الرومانية ، ثم ساد النظام في الدولة الصينية واتحدت عناصرها في عهد عائلة (سوى) (Souei) . ومن هذا التاريخ إلى القرن التاسع الميلادى أخذت الصين في أسباب التقدم والرقى منذ حكم عائلة تنج (Tang)

وينا كانت أوربا غارقة في حروبها وتزاعها الديني، وبيزنطة ماضية في مناقشات الجدلية التي أصبحت علماً عليها، وفارس قد فقدت مكاتها ومستعمراتها والإسلام لا يزال في فجر نهضته وبدء حضارته، كانت الصين مركز الحضارة ومنازة الإنسانية. ومن أجل هذا ولّى الشرق الأدنى والأوسط وجهيهما شطر الشرق الأقصى، وأرسلا إليه البعثات من فارس وبيزنطة والحجاز في أوائل القرن السابع بعد الميلاد.

ومن الفصول الرائعة التي يجب أن تفرد لها نهضة خالصة حضارة الإسلام في الغرب؛ فلقد كان للفتح العربي في اسبانيا أثر عظيم في تقدم الحالة الاجتماعية فيها؛ لأنه أزال الفوارق التي كانت تفصل بين الطبقات، وقضى على امتيازات الاشراف ورجال الدين، وحرّر رقيق الأرض حين اعتنقوا الإسلام، وأعطى الباقيين منهم على المسيحية حق شكوى ساداتهم، وأوجد في البلاد حكومة مستنيرة تجبي الضرائب من الجميع على السواء وتعمل لمصالح المجموع.

زحف
الحضارة
الاسلامية
من الغرب

وقد ترك العرب - على ما كانت عليه سياستهم العامة - للمسيحيين كنائسهم وأديرتهم وحرّيتهم التامة، واكتفوا منهم بدفع الجزية يقدرونها حسب ثروة الأفراد، ورفعوا الاضطهاد عن اليهود فأصبحوا أحراراً في عقائدهم وتدير شؤونهم الخاصة، وبدا عاد الاطمئنان إلى نفوس المسيحيين في اسبانيا وفضلوا الحكم العربي على الحكم القوطي.

وكان أول اهتمام العرب الذين نزلوا باسبانيا موجهاً إلى إصلاح

الأراضي والعناية بها فانتعشت البلاد وأصبحت الأندلس أحسن بلاد العالم وأرقاها .

ولما استدعى الخليفة الوليد بن عبد الملك عامله موسى بن نصير وطارق بن زياد إليه أصبح حكم البلاد بيد عبد العزيز بن موسى بن نصير فأظهر كفاية عظيمة وعيّن مجلساً خاصاً لوضع القوانين والتوفيق بين مصالح قبائل العرب وبين أهل البلاد . وشجعهم على الاختلاط والتصاهر مع المسيحيين ، وبدأ هو بتزوج أرملة لذريق .

ولما قتل عبد العزيز أخذ أمراء أفريقيا الذين كان مركزهم القيروان يعينون حكّاما للأندلس من قبلهم ، واستمر الحال كذلك حتى أرسل عمر بن عبد العزيز حاكماً من قبله وهو (السمع بن مالك) الذي قاد العرب شمالاً ففتح (أربونة) على الساحل الشرقي بعد أن عبر جبال (البرانس) ودخل مقاطعة (اكيّتين) ووصل إلى (طولوشه) تولوز وهناك اشتبك مع الفرنجة في واقعة (بلاط الشهداء) في سنة ٧٣١ م . وقد قتل فيها وتقهقر على أثرها العرب جنوباً وحصنوا (أربونة) فأصبحت مركزاً حريّاً بحريّاً وقاعدة لفتوحاتهم في البحر الأبيض المتوسط .

ومن أهم الحكام الذين عينهم الخلفاء الأمويون على اسبانيا وأعظمهم كفاية ؛ عبد الرحمن الغافقي ؛ إذ كان محبوباً من الجند حازماً عادلاً وطد النظام والطمأنينة في البلاد ، واستطاع أن يوفق بحكمة بين المضرين والقحطانيين وأهل البلاد ، وسار بجيشه شمالاً فاحتل (بوردو) وهزم

دوق اكيث ودخل (برغندية) واحتل (ليون) ثم احتل نهر اللوار ،
ولكنه اضطر إلى التراجع في واقعة (تور - بواتيه) وكان يقود الفرنجة
شارل مارتل (قارلة) وقد فطن الفرنجة للخطر الداهم من ناحية العرب
في اسبانيا فأخذوا يفكرون في الطريقة التي يأمنون بها جانبهم؛ وقد
هداهم تفكيرهم إلى توثيق علاقتهم مع المباردين والامارات المسيحية
في شرق اسبانيا وترك العرب يتطاحنون إلى أن تخور قواهم وتضمحل .
ولما انتقل الملك من الأمويين إلى العباسيين في الشرق أخذ
الخلفاء يقتلون الأمويين ويشردونهم فافلت منهم عبد الرحمن الملقب
(بالداخل) وهو ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وهرب
إلى مصر ومنها إلى برقة ثم إلى بلاد المغرب ، وخاطب جماعة من أنصار
الأمويين في إسبانيا فبشوا له الدعوة، ثم عبر البحر إلى اسبانيا في خلافة
أبي جعفر المنصور العباسي وانتصر على يوسف الفهري الوالي العباسي
في واقعة (موزاره) واستقل بالحكم فبايعه القوم في سنة ٧٥٦ م . أي
بعد موقعة (الزاب) التي هزم فيها الأمويون بست سنوات ، وأسس
حكومة تابعة للخلافة العباسية أولاً، حتى إذا تمكن من الاستئثار بالسلطة
جعلها مستقلة عن مركز الخلافة وراثية في نسله فقطع الخطبة عن
العباسيين ولكنه ترك لهم لقب الخليفة، وتبعه في ذلك من جاء بعده إلى
أن ضعف سلطان الخلافة العباسية ، واستمر حكمه إلى سنة ٧٨٧ م .
ولما ثبتت قدمه في الأندلس أخذ في بناء المسجد والقصر في قرطبة .
ولما آنس في العرب والبربر ميلاً إلى الأخذ بنظام الأقطاع السائد

فى أوربا فىستقل كل منهم فى مقاطعة ويتحدون وقت الخطر اخذ
فى مناهضة هذه الحركة التى كانت فى مصلحة الأعداء الذين بدأوا
يزحفون جنوبا .

وكان صادق النظر السياسى لطيف الطبع شديد الميل إلى ما تنتجه
الفنون والصنائع من الآثار الجليلة وما تبتدعه العقول السليمة مما يرفع
مستوى الحياة ويرقيها وقد لقبه رعاياه (بالعادل) ومات فى سنة ٧٨٧ م .
وفى سنة ٧٩٥ م . تولى الحكم حفيده ابن الحكم وكان قاسيا غليظ
الطبع معتزلا عن الناس وكانت البلاد تموج بالفتن وبخاصة طليطلة ،
وقرطبة فقضى عليها بكل حزم كما قضى على الفتن التى قام بها عماء سليمان
وعبد الله . ويشبهه بعض المؤرخين بابى جعفر المنصور لأن كليهما قد
ثبتت دعائم دولته بقوة الشكيمة .

وفى عهده تمكن شرلمان من أخذ برشلونه والجزء الشمالى من
اسبانيا ثم جاء عبد الرحمن الأوسط أو الثانى وقد هاجم النرمانديون
سواحل اسبانيا ودمروا الثغور والمدن فقاومهم حتى ردّهم خاسئين .
وفى عهده ظهرت تهاويل براعة دولة الأندلس فى العلوم والفنون
والآداب وجاء من بغداد (زرياب) أحد المشهورين فى الموسيقى والغناء
ووضع أساس الحركة الأندلسية الشهيرة فى الطرب والغناء والموسيقى .
وفى عهده أيضاً أصبح بلاط الملك مثالا ينسج على منواله من حيث
الآداب والسلوك وظهرت الفروسية بأجلى مظاهرها فى اسبانيا ومنها
نقلت إلى أوربا .

ثم جاء حكم عبد الرحمن الثالث « الناصر » ٢٧ من ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ - ٩١٢ م وهو أكفأ من حكم أسبانيا من الأمويين فوجد بلاد الأندلس مضطربة فأخضع الثوار واحتل حصونهم ومدنهم وأصبح السيد المطاع في البلاد ودانت له بلاد الأندلس ما عدا إقليم (جليقية) ليون في الشمال وقطالونيا في الشمال الشرقي . وسرعان ما عادت الأندلس إلى سابق مجدها وشوكتها .

وهو أول من اتخذ لقب الخلافة لنفسه ولقب بأمير المؤمنين في الأندلس وذلك على أثر ضعف الخلافة العباسية وتسلب موالى الأتراك في بغداد . وظهر أمره في أوروبا وخشيت بأسه الدول فأرسلت سفراءها يخطبون وده .

وفي خلافته صارت مدينة قرطبة عاصمة الأندلس مركز العلوم والآداب وكثر بها العلماء من كل فن وأما الطلبة من جميع الأصقاع لحضور دروس جامعاتها . وقد شيد المباني والقصور الفاخرة . ومن قصوره العجيبة قصر الروضة الذي ساق إليه المياه من أعلى الجبل ، ومن منشآته أيضاً ضاحية الزهراء التي اتخذها داراً للملك وبنى بها من المباني والقصور ما يقصر الوصف دونه .

ولما رأى أن أمراء العرب يحاولون الاستقلال عن الخلافة وأنه لا يمكن الاعتماد عليهم كثيراً . أخذ يدخل في خدمته أطفالاً من رقيق الأجانب من الجنس الصقلبي ، رباهم تربية إسلامية وعهد إليهم بمهمات الأعمال .

وفي عهده استفحل أمر الفاطميين في شمال أفريقيا ، ولم يثنه عن عزمه في القضاء على دولتهم إلا اشتغاله بمراقبة حركات الإمارات المسيحية في الشمال .

ووصلت في عهده الزراعة والتجارة والصناعة إلى أعلى درجات الرقي في بلاد الأندلس .

وجاء بعده ابنه (الحكم الثاني) سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦٠ م وواصل خطة أبيه في كل شيء ، ومات في سنة ٣٦٦ هـ ، فاتته بموته عظمة الدولة الأموية في الأندلس ؛ إذ ترك بعده ابنه هشاماً في الحادية عشرة من عمره ، وكانت الوصاية عليه لحاجب الدولة ابن أبي عامر ، وكان رجلاً حازماً ، كثير المطامع ، قادراً ، فأخذ مقاليد الأمور بيده ، وحجز الخليفة في قصره ولم يترك له عملاً ما ، ومنع اتصال الشعب به وقام بدور يشبه دور (حجاب القصر) في دولة الفرنجة ، وقضى أغلب مدته يحارب الإمارات المسيحية في أسبانيا وانتصر عليها مراراً ولكنه عجز عن كسر شوكتها .

وتشبه بالخلفاء فلقب نفسه بالمنصور ، وذكر اسمه في الخطبة مع اسم الخليفة ، ووضع اسمه كذلك على النقود ، وجعل منصبه وراثياً في أسرته ، ومات في سنة ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م بعد أن أدهش الأسبانيين والعالم بأعماله وجراته ومقدرته .

ويعد عهده من أزهر وأينع العصور في الأندلس ، ويفضل بعض المؤرخين عهده على عهد عبد الرحمن الناصر .

وخلفه ابنه عبد الملك ، وواصل سياسة أبيه في الحكم ، ولكن مع قدر الناس لأعمال هذه الأسرة كرهوا أن يفتات على حقوق صاحب الحق الشرعى .

وكان النزاع بين الطبقات قد استفحل أمره ، وقامت الثورة على إثر موت عبد الملك ، واستمرت مدة من الزمن انتهت في أثنائها الحكام والأمراء الفرصة واستقلوا في مقاطعاتهم .

وبذا انتهى عهد خلفاء بنى أمية ، وذلك في سنة ٤٢٢ هـ ١٠٢٩ م وجاء

ملوك
الطوائف

عهد ملوك الطوائف ؛ فظهر (بنو عباد) في إشبيلية و (بنو ذى النون) في طليطلة ، وانقسم عرب إسبانيا إلى أكثر من عشر ممالك في كل مملكة أمير يدعى لنفسه حق السيادة على الآخرين ، فلا يفتأ كل منهم يُغير على الآخر ، حتى حل بهم الدمار . على أن هؤلاء الملوك كانوا من أنصار العلم والأدب ، وعلى ذلك استمرت النهضة العلمية في البلاد على الرغم من ضعف الحالة السياسية . ولولا استنجد العرب بالبربر في شمال أفريقيا لتمكن الاسبانيون من طردهم من اسبانيا في القرن الحادى عشر .

وقد اغتم الاسبانيون الفرصة للاستفادة من هذا الانقسام والضعف ، فأخذوا يحرضون الأمراء بعضهم على بعض . وكان أول زعيم للاسبانيين في الشمال هو (سانكو) من سنة ٩٧٠ إلى سنة ١٠٣٥ م وهو ملك (نفارة) و (قشتالة) والذي أخذ خلفاؤه يوسعون أملاكهم تدريجاً نحو الجنوب حتى وصلوا إلى نهر (التاجه) . واتفق الأذيفونش

(الفونس) السادس مع ابن عباد الثالث أمير إشبيلية حتى أخذوا في سنة ١٠٨٥
ظليطة؛ وهي من أقوى حصون العرب. ومن أهم الأسباب التي
ساعدت ملوك قشتالة على النجاح اتحاد بعض أمراء العرب معهم على
البعض الآخر، وهذا يدل على أن الاعتبارات الدينية لم تكن وحدها
سبباً للحروب في القرن الحادي عشر.

دولة
المرابطين
أو الملمين

وقد ظهرت في أثناء تضعف دولة المسلمين في إسبانيا جماعة من
البربر في شمال أفريقيا يعرفون بالمرابطين نشروا سلطانهم من غمبيا إلى
الجزائر. ومؤسس هذه الدولة هو (عبد الله بن تاشفين) الذي بنى
مدينة مراکش، وأهم ملوكها (يوسف بن تاشفين)، وكان تقياً،
سياً، قوى العزيمة، دانت له بلاد المغرب كلها. وكان عرب الأندلس
قد استنجدوا به قبل ذلك لما أخذ ملك قشتالة (الأذيفونش السادس)
"Alphonse VI" ظليطة وهدد قرطبة، فدخل المرابطون بلاد
الأندلس بجيش جرار أشاع الحماسة في نفوس العرب، فالتقوا بالمسيحيين
في واقعة (الزلاقة) في سنة ٤٤٩ هـ ١٠٨٦، وهي التي انتصر فيها
المرابطون وانهزم الأسبانيون انهزاماً تاماً. وعاد المرابطون إلى أفريقيا،
ولكن يوسف بن تاشفين لم يبر بوعوده لملوك الطوائف وضم إقليم
(أندلوسيا) إلى دولة المرابطين، فأصبحت تابعة لدولة المغرب في أفريقيا.
وقد حاول أن يثبت قدمه في إسبانيا باستصدار تقليد بحكمها من قبل
الخليفة العباسي.

وقد خلفه ابنه علي في سنة ٩٨٤ م فعامل العرب معاملة أمة مغلوقة

واستحضر لذلك قبائل جمة من أفريقيا جردت القبائل العربية من
أملأكمها؛ فتشبت الحرب الداخلية، وانبرى الأسبانيون للتغلب على
المسلمين بمساعدة كثير من الصليبيين .

دولة
الموحدين

ثم قامت دولة الموحدين بفضل مجهودات زعيمهم محمد بن تومرت ،
الملقب بالمهدي ، ووزيره وقائد جيوشه عبد المؤمن .

وكان محمد هذا قد تلقى العلم على الإمام الغزالي وأدرك كيف ينال
الحكم بواسطة العقائد الدينية . ثم عاد إلى المغرب لنشر مذهب الغزالي ،
وادعى أنه المهدي المنتظر . فلما قوى حزبه شرع يقاتل المرابطين
بمساعدة تلميذه عبد المؤمن بن علي الذي ولي الأمر من بعده ، وكان
خبيراً بالحروب فأخضع دولة المرابطين ، واستنجد أهل الأندلس
بالموحدين في سنة ٥٤٦ هـ ١١٤٧ م فعبروا البحر ودخلوا البلاد فأزالوا
منها بقايا المرابطين .

وكان ملوك هذه الدولة من الفقهاء المستنيرين الذين عضدوا العلم
والأدب في الأندلس ، وأهم ملوكهم أبو يعقوب يوسف ، وخلفه ابنه
يعقوب بن يوسف ، وهو الذي حارب ملك البرتغال في واقعة الكرك
"Alarcos" بالقرب من بطليوس في سنة ٥٩٢ هـ ١١٩٥ م فانتصر عليهم
وكاد يظفر بطليطة . وكان أبو يعقوب وابنه معاصرين لصلاح الدين ،
وفي عصرهما ظهرت جماعة من كبار الفلاسفة والحكماء أمثال ابن رشد
وابن زهرون وكثرت المدارس والمساجد والمستشفيات . ولما مات
يعقوب انتهز المسيحيون الفرصة فقاموا وأعلنوا حرباً صليبية على

العرب في أسبانيا ، وساعد على إذكاء نارها البابا أنسنت الثالث ، فاجتمع المسيحيون وقاتلوا المسلمين في واقعة (لورقة) أو (لركة) في سنة ٦٠٩ هـ ١٢١٢ م انهزم فيها العرب شر هزيمة ، ولم تقم لهم بعدها قاعة في أسبانيا . وأخذ الأسبانيون يستولون على مدينة بعد أخرى ، ويفرقون بين الأمراء العرب فيساعدون البعض ضد الآخر ، حتى اقتصر سلطان العرب على ما وراء (غرناطة) في الجنوب الشرقي من أسبانيا ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى استولى الأسبانيون على قرطبة ، وبلنسية ، وأشبيلية .

إمارة
غرناطة

وفي أثناء ذلك تمكن (ابن الأحمر) من تثبيت سلطانه على غرناطة وما حولها ، فأنشأ حكومة قاومت الأسبانيين قرنين من الزمان ، واتخذ غرناطة مقراً لحكمه ، وبني قصر (الحمراء) الشهير ، ووثق العلاقات بينه وبين المناربة ليستعين بهم ضد الأسبانيين عند الحاجة . وقد أعاد بنو الأحمر في غرناطة مجد الأندلس السالف ، واحتفظوا بتفوقها العلمي والصناعي والزراعي في هذه الأقاليم . ولا يزال قصر الحمراء ، وحوش السباع ، ومسجد غرناطة ، كل ذلك قائماً شاهداً على مبلغ التفوق الصناعي والعلمي للعرب . ومات ابن الأحمر في سنة ١١٨٤ م . واستمر الحكم في هذه الأسرة حتى قوى ملوك قشتالة ، وصارت الحرب بينهم وبين المسلمين سجالاً ؛ فأخذت قشتالة مدينة جبل طارق واتحدت مع البرتغال في موقعة (ريصالادو) Salado التي انتصر فيها انتصاراً ميئناً . واضطر سلطان غرناطة إلى الاعتراف للملك

قشتالة بالسيادة، ودفع الجزية في سنة ١٤٥٣م. ثم اتحدت أرغونة وقشتالة
بزواج (فردينند) ملك أرغونة (إيزابلا) ملكة قشتالة، فصار لهما
التصرف في هذه الممالك .

وتصادف أن انقسمت الأسرة المالكة في غرناطة على نفسها،
واستعان أحد أمراءها بفردينند، فتقدم لمساعدته في سنة ١٤٩٠ بالقرب
من مدينة (لورقة) . واستمر فردينند وإيزابلا يعملان على طرد العرب
من الأندلس حتى سقطت غرناطة في سنة ١٤٩٢ . وبذلك تمّ تكوين
دولة إسبانيا الحديثة .



الحديث التاسع

ضعف البابوية – الممالك – حرب المائة سنة

عدت أنظر فيما سجلت من أحاديث وما جالت بي من خواطر ، وعرفت كيف كانت الدولة البابوية من النفوذ والسلطان ، ثم كيف أن فيليب الرابع ملك فرنسا من سنة ١٢٨٥ إلى سنة ١٣١٤ قد انتصر على البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII حين فرض الضرائب على رجال الدين ، معتمداً في ذلك على تأييد الشعب له ، وراعتي هاتان الصورتان المرتسمتان في ذهني ، وأردت أن أتبع تيارات الأمور في المملكة البابوية ، فذهبت إلى أبي الهول ، وعند ما اقتربت خيل إلى وجود جماعة يجلسون في ظله ، وقد أخذوا يتكلمون في الشؤون العامة ، ولقد رأيتني متهيئاً اقتحام المكان الذي يجلسون فيه ، فسمعت كأن أبا الهول يقول :
أُذُنُ منا ولا تهيب ؛ فإن هؤلاء النفر الذين في كنفهم ضيوف في الذين عهدوا مني إكرامهم قد جلسوا يتجادثون فيما عنه تبحث ، وما إياه تعنى ، فاجلس واستمع إليهم عسى أن يكون في قولهم طلبتك المنشودة .
فدنوت من مجلس القوم ؛ فرأيت كأن رجلاً عليه ثياب القساوسة من أهل أوربا وآخر يترني بالعبادة الجامعية (الروب) ووضع على رأسه قلنسوة الجامعات التقليدية ، وثالثاً قد ترني بلباس بيزنطة القديم .

سروال فضفاض ، إلا أنه قد استعار الجبة الشرقية فاتشح بها فوق هذه الثياب ، فبدأ في زى تركى كامل ، ذلك الزى الذى كان يسود الشرق دهرًا طويلاً بحكم سيادة أهله ، وسمعت الأول يقول - بعد أن استعرض في إيجاز كيف كان الشعب الفرنسى يؤيد فليب الرابع بالقرار الذى أصدره بعدم تصدير الذهب والفضة إلى الخارج ذلك القرار الذى اضطر معه البابا إلى السعى فى الصلح حتى لا يضيع على الكنيسة ما كانت تجنيه من الأموال . غير أن هذا الصلح لم يكن فى الواقع إلا هدنة اشتد بعدها النزاع عندما ألقى الملك القبض فى عام ١٣٠١ على برنار دوسيزه — Bernard de Saisset — أحد رجال الدين ، وكان قد عينه البابا وطلب الإفراج عنه فى الحال وأرسل إلى الملك خطاباً تقتطف منه بعض فقراته للدلالة على ما كان البابا يعتقد حَقًّا له فى التدخل فى أعمال السلطة الزمنية فتد جاءت فيه هذه العبارة : « لا تظن يا ولدى أنك لا تخضع للسلطة الكهنوتية ، ولا رئيس عليك فشل هذا الزعم يعد منك بلاهة كما يعد العناد فيه والإصرار عليه كفرًا وإلحادًا الخ » ودعا البابا مجلساً من القساوسة فى روما لمعاقبة الملك . وجمع الملك فى عام ١٣٠٢ مجلس طبقات الأمة فى كنيسة نتردام Notre Dame فى باريس بعد أن ضم إليه ممثلين للمدينة والشعب علاوة على ممثلى الأشراف ورجال الدين وقرر المجلس أن البابا لا سلطة له فى فرنسا إلا فى الشئون الدينية كما أن الملك لا رئيس له إلا الله وأقسم أعضاء هذا المجلس بأنهم يؤيدون الملك ويحاربون من أجله .

ثم قال :

وبينما كان البابا يستعد لإصدار قرار بعزل الملك أرسل إليه الملك^(١) قوة برياسة أحد مستشاريه المدعو نوجارى Nogaret الذى استعان بعائلة كولونا La famille Colonna أعداء البابا وتمكن بمساعدتها من القبض على البابا فى بلدة انيانى Agnani ويروى أن البابا وهو ذلك الشيخ الهرم العنيد وجه كلامه إلى سيرا كولونا Seiera Colonna الذى كان يريد اغتياله قائلاً : ها هو ذا رأسى وها هي ذى عنقى افعل بهما ما تريد . غير أن نوجارى حال دون وقوع الاعتداء على البابا مكتفياً بالقبض عليه ولم يلبث أهالى مدينة انيانى وهى مسقط رأس البابا حتى ثاروا لنصرته بعد يومين اثنين من إلقاء القبض عليه وهم ينادون ليحيى البابا ولیمت الأجانب فهرب نوجارى ومن معه غير أن البابا لم يحتمل تلك الصدمة القوية ومات بعد شهر من عودته إلى روما . واختلف الكرادلة فى انتخاب خلف لبونيفاس الثامن وبقى كرسي البابوية خالياً سنتين وأخيراً انتخب كليمنت الخامس Clement V بتعزید ملك فرنسا وكان من قبل أسقفاً لبردو وقد اختار البابا الجديد مقره فى افنيون Avignon فى مقاطعة بروفس الفرنسية ليكون قريباً من حماية ملك فرنسا له . وبقيت افنيون هذه مقراً للبابوات نحو سبعين عاماً من سنة ١٣٠٩ إلى سنة ١٣٧٨ . وتعرف هذه

(١) هو فيليب الملقب بالجميل وهو ابن فيليب الجرىء بن لويس التاسع التقي وكان يساعده رجال متضلمون فى القوانين ويشجعونه على التشبه بأباطرة الرومان . وأشهر هؤلاء المستشارين Guillaume de Nogaret et Pierre Flote.

الفترة من الزمن « بالنفي البابلي » تشبيها بما حدث لليهود قديماً من إخراجهم من ديارهم ونفيهم في بابل .

ولا ريب عندنا في أن هذا الحادث من أهم حوادث القرون الوسطى لا من الناحية الفرنسية فحسب بل من الناحية الأوربية أيضاً لأنه لم يكن بمثابة انتقام لما أصاب هنرى الرابع وفريدريك بربروسه فحسب بل إنه قد أتاح الفرصة للحكومات الأوربية أن تنادى باستقلال ملوكها عن البابوية الطماعة إلى بسط نفوذها على أمراء أوروبا المسيحية . ونجم عن هذا أن قلت موارد الثروة لدى البابوات فلجأ هؤلاء إلى جمع الأموال بوسائل شتى أثارت الانتقادات عليهم . ومن هذه الوسائل بيع الوظائف الدينية وصكوك الغفران : وكانت الحاجة إلى المال شديدة لمواجهة المصروفات اللازمة لتشييد قصور البابوات الفخمة ولما تتطلبه معيشة البذخ والترف من إسراف .

وبعد مناقشة بين هذا القسيس وبين الجامعى فى بعض العبارات قال الجامعى : إني قد بلوت هذه الأمور فإنه لما سادت الفوضى فى ممتلكات البابوية فى إيطاليا قرر البابا غريغورى الحادى عشر العودة إلى روما فى عام ١٣٧٧ . ومن هذا التاريخ بدأ عهد الانقسام الكبير الذى استمر حوالى أربعين عاماً ، انقسم فيه العالم المسيحى إلى قسمين ترأس كل منهما بابا يدعى أنه صاحب الحق الشرعى وأنه يستمد سلطته من الرسول بطرس . وبذا تلاشى نفوذ البابوية وفقدت مهابتها وانهمكت الجامعات فى بحث الموضوع وفى اقتراح الحلول وانعكست بذلك الآلة

الانقسام
الكبير
فى الكنيسة

فبعد أن كانت الكنيسة مسيطرة على الجامعات التي كانت الكتب الدينية رائدها تستمد منها بحوثها وعلومها أصبحت هذه الجامعات هي التي تفكر في إصلاح الكنيسة وتقويم أعوجاجها . وكان من أشهر الرجال الذين نادوا بالإصلاح في ذلك العهد ويكليف Wyklif من أساتذة جامعة أكسفورد وقد وقف معارضاً عندما طلب البابا المنحة المالية المفروضة على انكلترا . وتدرج من ذلك إلى إعلان حق السلطة الزمنية في ممتلكات الكنيسة وخرج من هذا إلى أنه لا يصح أن تكون للبابا سلطة إلا في حدود الكتب المقدسة . ثم تناول الطعن في البابوية وادعا آتيا وأساليبها ومات في عام ١٣٨٤ وقد قام بعده يوحنا هوس John Huss من جامعة براغ عاصمة بوهيميا وأعلن أنه لا يحق للإنسان أن يطيع أوامر أناس مثقلين بالذنوب والخطايا .

ولما اتسعت دائرة الانتقاد على البابوية اقترحت جامعة باريس لمعالجة هذه الحال أن يعقد مجلس ديني عام تكون سلطته متفوقة على سلطة البابا نفسه وعقد أول مجلس في بيزا في عام ١٤٠٩ ولكن تخلف عنه البابوان ولم يشهداه وانبنى على ذلك أن قرر المجلس عزلهما معاً وانتخب بابا جديداً آخر إلا أن البابوين أيا النزول عن كرسيهما وكانت النتيجة أن المجلس لم يحقق فقط في إيجاد الحل المناسب بل زاد بقراره هذه الأمور تعقيداً بإيجاد بابا ثالث . ثم انتهى الأمر إلى عقد مجلس ديني آخر في كنستانزا عام ١٤١٤ واستمر منعقداً ثلاث سنين . وقد حضره الإمبراطور سيجزمند Sigismond والكرادلة والأساقفة ورؤساء الأديرة من كافة أنحاء أوروبا .

وقد عزل المجلس البابا الروماني واستقال البابا الذي عينه مجلس
بيزا . أما البابا بندكت الثالث عشر Benedict XIII فقد أبى أن يستقيل
وبقى في أفنيون معتمداً على تعضيد الفرنسيين والأسبان له . ثم تخلى
عنه الفرنسيون وقرر المجلس عزله في عام ١٤١٧ وانتخب مارتن الخامس
Martin V بابا جديداً وقرر إدانة هوس الذي قبض عليه وتسلمته
السلطة المدنية وأحرقتة حياً . وكان هذا العمل بمثابة تقوية للحركة
القائمة في بوهيميا ضد الكنيسة .

وإذا كان مجلس كونستنزا قد نجح في توحيد البابوية إلا أنه فشل
في إيقاف تيار الحركة القائمة ضد الكنيسة .

ويخيل إلينا أن آراء الأمبراطور الجرمانى فريدريك الثانى
فى البابوية وما دونه فى إعلانه الذى نشره على أمراء أوروبا وأشرنا إليه
عند الكلام على النزاع الذى كان قائماً بين الأمبراطور والبابوية بشأن
مرسوم التولية كل هذه قد أثرت وآتت أكلها فقد انتشرت فى
أوروبا وعبرت بحر المانش إلى انجلترا ثم عادت إلى ألمانيا على يد
ويكليف وهوس اللذين كانا بمثابة رسولين لفريدريك الصقلى الذى
أخذ عن علماء الإسلام والإغريق حرية الرأى والفكر فكان هذا
تمهيداً لحركة الإصلاح الدينى التى قامت بعد ذلك فى أوروبا والتى سنتكلم
عنها فيما بعد .

ولارىب فى أن ضعف البابوية كان من أكبر العوامل لتقوية
السلطة الملكية كما أنه لارىب فى أن أوروبا كانت فى حالة جهالة وفوضى
منذ سقوط الدولة الرومانية الغربية إلى القرن العاشر أى قبل وقوع

الحروب الصليبية وقبل اتصال الغرب بالشرق . وفي ذلك العهد لم تستقر القبائل المتبربرة في مكان واحد ولم تقيم حكومات مركزية قوية ولم تخمد نار الحروب الداخلية .

ولم تظهر في أوروبا بوادر الإصلاح والرقى إلا منذ أن تكونت المدن وقويت الملكية ونشأت القوميات المختلفة وانهارت قوة الأقطاع وضعف مركز البابوية وظهرت الجامعات ونبئت فكرة البحث في العلوم التجريبية الحديثة .

ولقد ظهر في أوائل القرن الثاني عشر قبل ظهور ويكليف وهوس بأكثر من قرن من الزمان شاب من إقليم بريتانى غربى فرنسا يدعى ايلارد Abilard أخذ يجوب أنحاء البلاد طلباً للعلم الذى كان في عهده قاصراً على المنطق والمناظرة والجدل والفلسفة في حدود العلوم الدينية . ولما استقر به المقام في باريس تتلمذ على أستاذ الفلسفة في مدرسة باريس التى لم تكن قد ارتقت بعد إلى مصاف الجامعات ثم اختلف ايلارد هذا مع أستاذه في آرائه وأنشأ مدرسة في ميلون Melun جذبت إليها طلبة معلمه الأول . ثم درس علوم الدين على أستاذه الثانى انسيلم Anselm في مدرسة لاون Laon . وما لبث أن اختلف مع معلمه الثانى وتفوق عليه وأنشأ مدرسة للعلوم الدينية في باريس نفسها ولكنه أصبح هدفاً لاضطهادات شديدة منذ أن جازف بانتقاد حياة القساوسة وسلوكهم . ثم أخذ ينتقل من جهة إلى أخرى فراراً من الاضطهاد حتى وافته منيته في عام ١١٤٢ . وكان مبدؤه في التعليم مناقشة ما يعرض على

تلاميذه مناقشة عقلية بحثة فلا يقبل منها إلا ما يقبله العقل السليم بغض النظر عما جاء في كتب الدين خاصاً بذلك . وبهذا أعاد طريقة الإغريق في حل مشا كل الحياة والرجوع إلى قواعد منطق أرسططاليس وأنبياء بني إسرائيل وبوذا وكنفشيوس .

ولقد أثارت هذه التعاليم سخط رجال الدين لأنها تقضى على مبدأ الاعتقاد بصحة الأوامر الدينية بلا مناقشة .

ولقد كان لا ييلارد هذا الفضل الأول في ظهور جامعة باريس حيث إن حماسه للعلم وحسن أسلوبه وقوة يانه وطريقة بحثه دفعت الكثيرين في عهده لتلقى العلوم في باريس فكثرت فيها المتعلمون والمعلمون ورأوا أن يكونوا لهم نقابة تدافع عن حقوقهم كغيرهم من الطوائف الصناعية والتجارية في العهد الوسيط قم لهم ذلك وكونوا قبل نهاية القرن الثاني عشر نقابة سميت بجامعة باريس Université de Paris ومنها انتقلت هذه التسمية إلى معاهد العلم الكبرى التي انتشرت في أوربا فيما بعد .

نشأة
الجامعات
في أوربا

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن الدول الإسلامية كانت تنشئ المدارس بجانب جوامع العبادة لتعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن وتلقين شتى العلوم وقد نقلت معها طريقة التعليم هذه وأساليبه إلى البلاد الأوربية التي استقرت فيها كاسبانيا وصقلية .

ولقد أهر شارلمان العظيم بإنشاء مدارس صغيرة بجانب الأديرة وهي شبيهة بتلك المدارس الإسلامية .

ولما أنشئت جامعة باريس تمكنت منذ القرن الثالث عشر من الحصول على امتيازات تشابه ما كانت للقساوسة والرهبان . وكان ذلك على أثر مشاجرة وقعت في عام ١٢٠٠ بين البوليس وطلبة الجامعة قتل فيها خمسة من الطلبة وحمل ذلك فيليب أوغسطس على أن يقرر إعفاء رجال الجامعة من المحاكمة أمام قضاة الملك وإحالة قضاياهم إلى محاكم الكنيسة التي أصبحت بذلك مهيمنة على الجامعة لدرجة أن كبير قساوسة باريس كان له الحق في طرد رجال الجامعة والحكم عليهم بالغرامات ومنع إعطاء إجازات العلم لمن يستحقونها وكان لكل هذا أثره في أن يبدأ التعليم في الجامعة دينياً بحتاً . ولم يكن للجامعة وقتئذ بناء معين ولم تكن هناك مقاعد أو مكاتب بل كان الطلبة يفتشون الأرض حول معلمهم وكانوا ينقسمون إلى طوائف تبعاً لجنسياتهم فكانت تجد منهم جماعات الفرنسيين والنورمانين والبيكاردين والانكليز وغيرهم كما ترى أروقة الشوام والأتراك والمغاربة وغيرهم في الجامعة الأزهرية بمصر التي أنشئت قبل جامعة باريس بنحو قرنين من الزمان^(١) . والفارق بين الجامعتين هو أن الأولى انفصلت عن الكنيسة تدريجياً وانقسمت إلى كليات متنوعة لدراسة العلوم الحديثة حين بقيت الثانية إلى يومنا هذا مخصصة لعلوم الدين على الرغم مما أدخل فيها من مبادئ بعض العلوم العصرية . ثم أنشئت بجانبها في وقت متأخر جامعات ومعاهد أخرى للعلوم الحديثة التجريبية .

(١) أنشئت الجامعة الأزهرية بالقاهرة على يد جوهر الصقلي قائد المزلدين الله مؤسس الدولة الفاطمية في مصر من عام ٩٧٠ إلى ٩٧٢ م راجع ص ٢٠٣ في الحديث السابع .

وفي عهد ايلارد قد أنشئت أيضاً جامعة في بولونيا من شمال إيطاليا
لدراسة القانون الروماني ثم أنشئت جامعة إكسفورد في حكم هنري
الثاني ويعزو بعض المؤرخين إنشاءها إلى انفصال الطلبة الإنجليز من
جامعة باريس . ثم أنشئت جامعة كمبردج ثم جامعات أخرى كثيرة في
فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ومعظمها قد أنشئت في القرن الثالث عشر
أما جامعات ألمانيا فقد جاءت متأخرة ولم يكن لها شأن كبير قبل القرن
الرابع عشر . وقد حذت جامعات شمال أوروبا حذو جامعة باريس في حين
حذت جامعات جنوب أوروبا حذو جامعة بولونيا .

أما مواد الدراسة في بدء ظهور الجامعات فكانت قاصرة على
الكتب المقدسة من التوراة والإنجيل ورسائل التبشير ثم أضيفت
إليها مؤلفات أرسطو في المنطق والأخلاق والسياسة وفي الطبيعة
وما وراءها .

ولقد يبدو غريباً أن تسمح الكنيسة بتدريس هذه المؤلفات
في الوقت الذي كانت تحرم فيه دراسة الفلسفة الإغريقية بحجة أن
تعاليمها وثنية . كما أنه يبدو غريباً أن تعتبر الكنيسة مؤلفات أرسطو
وحدها خالية من تلك التعاليم . ويظهر لنا أن الكنيسة لم تستطع
استبعاد هذه المؤلفات بعد أن عم انتشارها في جميع أنحاء العالم لأنها
طافت فعلاً جميع البلاد المتمدنية قبل أن تصل إلى أوروبا . والمعلوم عنها
أنها انتقلت من اليونان إلى الاسكندرية حيث قام المسلمون بترجمتها
إلى اللغة العربية في القرن السابع الميلادي ونقلوها معهم إلى أسبانيا

ثم درّسوها في جامعة قرطبة التي كان يؤمها الكثير من الطلبة المسيحيين
ليرتشفوا فيها من مناهل العلم . وقد نقلها هؤلاء الطلبة بدورهم من
العربية إلى اللاتينية لشدة اقتناعهم بمنطق أرسطو الذي كانوا يلقبونه
بالمعلم الأول أو الفيلسوف الأوحّد .

ويخيل إلينا أن تعليقات ابن رشد التي جعلت طلاباً روحياً على فلسفة
أرسطو هي التي رفعت تعاليمه إلى مستوى الكتب المقدسة ولذا لم تستطع
أن تحوّل الكنيسة دون انتشارها .

وعلى أي حال فإن قوام الدراسة كان في هذا العهد قاصراً على
الكتب المقدسة ومؤلفات أرسطو . وكانت عناية كل من المعلمين
والمتعلمين منصرفة إلى فهم الترجمة اللاتينية لمؤلفات أرسطو هذه
ومراجعة تعليقات علماء الإسلام عليها ثم محاولة التوفيق بين كل هذا
وبين ما جاء في التوراة والإنجيل خاصاً بذلك . وكان الأمر يتطلب ممن
يريد إلقاء محاضرة في موضوع ما كالكرة الأرضية مثلاً أو دودة القز
أودوية النحل أو غير ذلك من الموضوعات أن يرجع إلى الكتب المقدسة
ليستعرض ما جاء فيها خاصاً بموضوعه ثم يقارنه بما ورد عنه في مؤلفات
أرسطو ثم لا يخرج في بحثه عن هذه الحدود . لأن علماء هذا العصر
لم يخطر ببالهم أن يتركوا هذه الكتب جانباً وأن يقوموا عملياً بتربية
دودة القز ليرقبوا تطورات حياتها وتحولها من دودة إلى شرقة ثم إلى
فراشة وأن يتبعوا تلك التطورات بدراسات المشاهدة والتجربة .

وقد ترتب على هذا النوع من التعليم أنه لم يحصل تقدم إلا في

آداب اللغة اللاتينية التي كانت وقتئذ لغة القساوسة والطبقات الممتازة من الشعوب ثم أخذت لهجات هذه اللغة تتعدد حتى ابتعدت عن لغة الرومان الأصلية . وما زالت هذه اللهجات تتطور وتبتعد عن اللاتينية حتى أصبحت كل لهجة منها لغة مستقلة . ومن أهم هذه اللغات الناشئة الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية .

أما اللهجات التي لم تتأثر كثيراً بالمدينة الرومانية فبقيت فيها اللغة محافظة على لهجاتها الجرمانية ثم تنوعت لهجاتها هي الأخرى وأصبحت لغات خاصة مثل اللغة الألمانية والدانماركية والهولندية والإنجليزية وغيرها .

وقد بقيت كل هذه اللغات الناشئة زمناً طويلاً قبل أن توضع لها حروف هجاء لكتابتها فكانت تستعمل في الكلام ، ويتغنى بها الشعراء والرواة ، فترجم بقصائدهم الشعوب وتنقل بينها أقاصيصهم من طريق السماع ؛ إلى أن جاء عهد شارلمان العظيم فظهرت أول لغة من اللغات الجرمانية المكتوبة وهي اللغة السكسونية التي دُوِّنَ بها السجل الإنجليزي منذ القرن الثامن . وتختلف هذه اللغة اختلافاً كبيراً عن الإنجليزية الحالية . أما اللغة الفرنسية فلم تكن في الأصل لغة واحدة بل كان لسكان المقاطعات الشمالية لغة غير لغة أهل الجنوب ولم يدوّن شيء بهاتين اللغتين قبل أول القرن الثاني عشر حيث دونت أنشودة رولان كتابة وانتشرت لغة أهل الجنوب انتشاراً كبيراً على يد جماعة التوربادور Tourpadour الذين كانوا يترددون على قصور الأشراف

ويوقعون أغانيهم على آلة تشبه القيثارة .

وقد ظهرت مثل هذه الجماعة في ألمانيا وهم المعروفون بالـ Minessingers

في القرن الثالث عشر .

أما من ناحية الرسم والحفر فقد كان القساوسة يزینون الصحف الأولى من كتبهم بصور تمثل موضوعاً دينياً؛ وكانوا يميلون إلى الألوان البهيجة وبخاصة اللون الذهبي . ثم أخذوا يصورون رسلهم وقديسيهم وبعض ما رواه الإنجيل عن الجنة والجحيم والشيطان الرجيم . وكانت الكتب غير الدينية محلاة بأشكال هندسية أو صور لبعض الزهور والأشجار . وكان فن الحفر عندهم قاصراً على زخرفة البناء لأن فن العمارة قد تقدم كثيراً وأصبح له شأن كبير في آخر العهود الوسطى حيث كانوا يتبارون في تشييد الكنائس التي لا تزال موضع إعجاب في عصرنا الحاضر ، وكان الطراز^(١) الروماني هو الشائع إلى القرن الثالث عشر ثم انتشر الطراز القوطي بعد ذلك .

ومن هذا تتبين أن القبائل المتبربرة قضت النصف الأول من القرون الوسطى في حروب دامية وتدمير وتخريب ، ولكنها ما لبثت أن اتصلت بمدينة الشرق وحضارة الإسلام فقضت النصف الأخير من القرون الوسطى في تشييد حضارة خاصة لم يستطع أهل القرن السابع عشر أن يدركوا حقيقتها بسبب شدة تعلقهم وشغفهم بالمدنيات

(١) الطراز الموضع تنسج فيه الثياب ومن المجاز قولهم « من الطراز الأول » « وما أحسن طرز فلان » وهو طريقته في عمله ونبته .

القديمة الإغريقية والرومانية ولا أدل على ذلك ممن قد أنجبتة المصور
الوسطى من كبار المفكرين مثل توماس داكن Saint Thomas d'Aquin
وبوناڤتور Bonaventure وروجير باكون Roger Bacon الذي يعد
بحق سابقاً لعصره أو جاء قبل أوانه . وروجير هذا إنجائزى تخرج
في جامعة باريس وهو القائل « بأن ساعة واحدة تصرف في دراسة
تجريبية ومشاهدات حسية خير من عشر سنوات تقضى في قراءة
الكتب » ويرجع إليه الفضل في إثبات تفوق العلوم التجريبية الحديثة
على العلوم والمعارف القديمة . وقد تكلم بصراحة وإيمان عن مستقبل
العلوم العملية والاكتشافات العلمية وكتب يقول : « سيصل العلم
إلى اختراع عربات تسير بغير دواب وبسرعة مدهشة كما أنه سيجد
وسيلة لاختراع آلة تطير في الجو يديرها رجل جالس في وسطها فتتحرك
ولها أجنحة صناعية تصعد بها إلى الجو كالطير كما ستبتدع آلة تمخر
في أعماق البحار » .

وقد أنجبت أيضاً فلورنسا في إيطاليا في أوائل القرن الرابع عشر
كلا من دانتي Dante وجيوتي Giotto وكان الأول أكبر شعراء عصره
وقد اطلع على آداب العرب ويعزو كثير من المشاركة وبعض المستشرقين
« جحيم » دانتي أو « الكوميديا الإلهية » إلى أنه نقلها من « رسالة
الغفران » لأبي العلاء المعري أما الثاني فقد كان أعظم رسام في تلك
القرون الوسطى .

ممالك أوروبا الشرقية

ثم استأنف الأستاذ الجامعي قائلا : -

وإني عندما أستعرض حوادث التاريخ على الطلبة في مدرجهم أبين لهم شارحاً كيف أغارت القبائل المتبربرة على الدولة الرومانية وكيف نشأت إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا . وقبل أن أحدثكم عن نشأة الممالك في شرق أوروبا أشير هنا إلى أن بلاد البرتغال كانت في الأصل مسكونة بقبائل الكلت وأهمها قبيلة لوزيتانيا كما كان الرومان يدعونها عند استيلائهم على تلك البلاد في سنة ١٤٠ ق.م. ثم أغارت عليها قبائل القوط الغربيين وانتزعها المسلمون منهم في القرن السابع الميلادي ثم استولى على بعضها الأذيفونش السادس ملك قشتالة في القرن الحادي عشر وأعطاه إلى صهره هنري دي بورجون Henri de Bourgone الذي أخذ يجور هو وابنه على ما بقي منها تحت يد المسلمين وانتهى الأمر بانتصار ابنه في عام ١١٣٩ وقد نادى به جيشه ملكاً عليها . وفي عهد ملكها جان الأول اكتشفت جزر أسور ومادير Açores et Maderi وضمت إلى عرشها . وفي عهد عمانويل السعيد Emanuel Le Fortuné من عام ١٤٩٥ إلى عام ١٥٢١ م اكتشف فسكودوجاما Vasco de Gama الهند الشرقية من طريق رأس الرجاء الصالح ومن هذا التاريخ وجدت المستعمرات البرتغالية على شاطئ المحيط الهندي واستعمرت البرازيل في أمريكا الجنوبية ولما توفي ملكها

دون هنري Don Henri في عام ١٥٨٠ وكانت بغير وارث جلس على عرشها ملك اسبانيا فيليب الثاني واستمر الحال كذلك إلى عام ١٦٤٠ حيث ثار الشعب البرتغالي وأعلن دوق براجنس Braganca ملكا عليها تحت اسم جان الرابع. ومن هذا التاريخ قامت حروب بين البرتغال واسبانيا استمرت حتى عام ١٦٦٥ وانتهت بخذلان اسبانيا نهائياً بعد واقعة مونتسكليروز Montesclarose ثم عقدت البرتغال معاهدة مع إنجلترا في عام ١٦٦١ أعقبتها معاهدات أخرى منها معاهدة في عام ١٧٠٣ أدخلت البرتغال في الحرب عند التنازع في الميراث على عرش اسبانيا كما أدخلتها في الحروب التي قامت بين إنجلترا وفرنسا في عهد الجمهورية والامبراطورية الفرنسية إلى أن غزاها القائد جونوت Junot في نوفمبر سنة ١٨٠٧ وأعلن انتهاء حكم عائلة براجنس Braganca فانتقلت إلى البرازيل ثم قامت ثورتان على الفرنسيين بمساعدة إنجلترا وفي عام ١٨٢١ اعتلى عرش البرتغال بناء على طلب الشعب جان السادس الذي عاد من البرازيل بعد أن ترك فيها ابنه دون بدرو Don Pedro الذي أعلن نفسه امبراطوراً على البرازيل بعد سنة من سفر أبيه. ومن هذا التاريخ انفصلت الملكتان عن بعضهما.

ولما مات جان السادس في عام ١٨٢٦ تنازل دون بدرو لأخته ماريا جلوريا Maria de Gloria عن عرش البرتغال وقبل أن تصل هذه إلى البرتغال أعلن عم دون بدرو نفسه ملكا عليها وحكم البلاد بقسوة فثار الشعب وجهز دون بدرو حملة بحرية وبرية ودخل لشبونة بمساعدة

نشأة الممالك
في أوروبا
الشرقية

الشعب في عام ١٨٣٣ . ثم بدأ فيها عهد الثورات حتى ماتت ماريا في عام ١٨٥٣ وخلفها ابنها بدرو الخامس ثم خلفه ابنه لويس الأول في عام ١٨٦١ أما القبائل الجرمانية فإنها كانت دأبة الهجوم على جيرانها ففي عام ١٣٢٨ وصلت هذه القبائل إلى بروسيا وأسست مدينة ريغا واستعمرت شاطئ البلطيق حتى خليج فنلندا وكانت تتصادم مع القبائل الاسيوية الأخرى مثل الهون والمجر والمغول والبلغار التي كانت قد انتشرت في أوروبا الشرقية وبقيت هذه الشعوب إلى يومنا هذا مصدراً للمشاكل السياسية المعقدة . وأهم هذه الشعوب هم الصقالبة والظاهر أنهم كانوا يقطنون الأقاليم المعروفة الآن ببولندا وروسيا البيضاء والاكرين ثم انقسموا إلى قسمين اتجه أحدهما نحو وديان ألمانيا حتى هضبة بوهيميا واتجه الآخر نحو البلقان وشواطئ الأدرياتيك ومن هنا وجدت صقالبة الشمال وصقالبة الجنوب وهم اليوغسلاف Yougoslave وقد استمرت صقالبة الشمال في حروب مع الألمان حتى انقرض أكثرهم وأصبح جرمانيا ولم ينج منهم غير البولنديين والتشيكي الذين أسسوا بولندا وبوهيميا .

أما صقالبة الجنوب من اليوغسلاف فقد انقسموا إلى ثلاثة أقسام وهم :

- (١) السلوفيون في جبال الألب الشرقية وقد انضموا إلى النمسا .
- (٢) الكرواتيون في جهات الساف « Save » وقد بقوا تابعين للكنيسة الكاثوليكية . وفي عام ١١٠٢ أعطى الكرواتيون عرش

بلادهم إلى ملك المجر ولم ينفصلوا عنه إلا في عام ١٩١٨ أى بعد الحرب العالمية الأولى .

(٣) الصربيون الذين ظلوا في قبائل متفرقة زمنًا طويلاً حتى آخر القرن الثاني عشر عند ما توجّج بابا روما ملكهم على الرغم من تبعيتهم للكنيسة اليونانية . وقد وصلت الصرب إلى ذروة مجدها في عهد ملكها اتيين دوشان Etienne Douchan من عام ١٣٣١ إلى عام ١٣٥٥ وهو الذى منح شعبه دستوراً ولقب بشرلمان الشعب الصربي وكاد يغزو القسطنطينية لولا أن عاجلته منيته ثم ضعفت من بعده مملكته حتى القرن التاسع عشر حيث أخذت تنهض من جديد .

وإن المجرين هم من العنصر الأصفر قد جاؤا من آسيا وحاربوا المانيا في القرن العاشر ولما قهرهم أوتون استقروا في وادى نهر الطونة وتوج البابا ملكهم اتيين « Etienne » وأصبحوا من ذلك الوقت تابعين للكنيسة الكاثوليكية بعد أن كانوا تابعين للكنيسة الإغريقية على ما يينا قبل . وقد جاروا في الجنوب على كرواتيا وفي الشمال على سلوفاكيا وفي الشرق على ترنسلفانيا . ولما انقرضت عائلة الملوك الوطنيين من المجر في عام ١٣٠١ توج البابا أحد أمراء بيت أنجو ملكا على المجر وهؤلاء الأمراء هم من سلالة أخ لويس التاسع ملك فرنسا . والبلغار هم كذلك من العنصر الأصفر جاؤا من آسيا وعبروا نهر الطونة واختلطوا بالعنصر الصقلي وأسسوا في نحو القرن الثالث أى في عهد (يوهاننزا) « Yohannitsa » مملكة بلغارية كبيرة امتدت

المجر وبلغار

من جبال الكربات إلى حدود القسطنطينية .

والرومانيون هم من العنصر الداسي «Dacie» أخضعهم الإمبراطور
الروماني تراجان «Trajan» وقد انضموا في وقت من الأوقات إلى
البلغار ثم خضع بعضهم إلى المجر في ترنسلفانيا على الرغم من أنهم تابعون
للكنيسة اليونانية على حين أن المجر كاثوليك . وقد هاجر منهم
الكثيرون فأسسوا مقاطعتي الفلاخ وملداڤيا «Valachie et Moldavi» .

والروس هم من العنصر السلافي جاؤا من آسيا على هيئة قبائل
وأسسوا في القرن العاشر مملكة واسعة كانت ممتدة على طول نهر الدنيبر
«Dnieper» وعاصمتها كييف «Kiev» . وقد اتصلوا ببيزنطة وتمثلوا
مدنيتها وتمذهبوا بالأرثوذكسية فوجدت لهم روابط مع الشعوب
الأرثوذكسية الأخرى مثل اليونان والصرب والبلغار والرومانيين ولكنهم
بقوا متنافرين مع الشعوب الكاثوليكية من البولنديين والمجر .
ثم أخذ حكم الروس يمتد شرقاً إلى حوض نهر الفولجا ولم يوقفه
وقتئذ غير إغارة المغول في القرن الثالث عشر .

ولقد تكلمنا عن المغول (المُغُل) في جملة مواطن وأشرنا إليهم عند
الكلام على العلاقة بين دولتي الصين والرومان وعند الكلام على الحروب
الصليبية وسقوط الدولة العباسية وانتصار دولة المماليك البحرية في مصر
عليهم في واقعة عين جالوت . وفي الواقع أن المغول قد لعبوا دوراً كبيراً
في تاريخ الإنسانية ففي الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تحاول السيطرة
على العالم الأوربي ظهرت قبائل المغول في شمال الصين وقامت بغزوات

لم يسبق لها مثيل وكانت بلاد الصين وقتئذ منقسمة إلى ثلاث إمبراطوريات، الأولى في الشمال وعاصمتها بكين « Pequin » والثانية في الجنوب وعاصمتها نانكين « Nankin » والثالثة في الوسط وهي مملكة هزيا

« Hsia » .

وقد استولى المغول (المُغل) بقيادة چنكيز خان على مملكة بكين عام ١٢١٤ ثم اتجهوا غرباً واستولوا على التركستان وفارس وأرمينيا والهند حتى لاهور وجنوب روسيا ووصلوا إلى بلاد المجر وسيليزيا وتركوا بعد موت چنكيز خان المملكة الممتدة من المحيط الباسفيكي إلى نهر الدنيبر . وقد خلفه أوجداي خان « Ogdoi Khan » الذي أسس عاصمة للملكة في كراكوروم « Karakouroum » بمنغوليا ثم فتح مملكة الصين وعاصمتها بكين وهدم مدينة كييف « Kiev » في عام ١٢٤٠ وأصبحت روسيا جميعها تابعة له ثم ضرب بولندة بعد أن هزم جيشاً مؤلفاً من ألمان وبولنديين في واقعة ليجندز « Laignitz » في سيليزيا السفلى في عام ١٢٤١ وبعد هذا انسحب المغول إلى مستعمراتهم في آسيا ، وفي عام ١٢٨٠ تأسست عائلة يوان « Yuan » المنغولية التي حكمت الصين حتى عام ١٣٦٨ ولقد أظهر المغول قسوة عظيمة عند ما أغاروا على بغداد عاصمة الدولة العباسية وخربوا أعمال الري التي جعلت أراضي ما بين النهرين من أخصب أراضي العالم وأغناها منذ عهد السومريين ولكنهم لم يستطيعوا غزو مصر وردّوا على أعقابهم في واقعة عين جالوت في عام ١٢٦٠ كما أسلفنا . ولم تقم للمغول قائمة بعد هذا الخذلان أمام دولة المماليك البحرية

المصرية . وقد انقسمت مملكتهم إلى ممالك عدة واستطاع الصينيون أن ينزلوا عائلة يوان عن عرش بلادهم في عام ١٣٦٨ واستبدلوا بها عائلة منج «Ming» الوطنية التي دام حكمها إلى عام ١٦٤٤
أما الروس فقد ظلوا تحت حكم المغول إلى عام ١٤٦٠ حيث قام دوق موسكو «Moscou» في وجههم ووضع أساس امبراطورية روسيا الحديثة .

هذا : ولهذه الفتوحات المغولية أسباب ونتائج مهمة في تاريخ العالم
أما أسبابها فقد بقيت مجهولة لنا حتى عهدنا الحاضر حيث كتب (برى) «Bury» في مقدمة المؤلف عن سقوط الدولة الرومانية لجيبون «Gibbon»
بأن تاريخ أوربا لم يَعْزُ نجاح الجيوش المغولية في بولندة وهنغاريا في ربيع عام ١٢٤١ إلا إلى كثرة عددهم والواقع أن سبب النجاح هو إتقان الخطة الاستراتيجية التي كانت للجيوش المغولية والتي لم يفقه حقيقتها قواد الجيوش الأوربية ، وإن المغول لم يتورطوا في حروبهم إلا وهم واقفون تمام الوقوف على حالة أعدائهم العسكرية والسياسية بواسطة جواسيسهم أضف إلى هذا أن المغول كانوا يستخدمون البارود الذي عرفوه من الصين في بنادق قصيرة .

وأما نتائج هذه الفتوحات فأهمها أن المغول كانوا يطاردون في غزواتهم منذ القرن الثالث عشر بعض قبائل تركية كانت في التركستان ثم انتقلت تحت ضغطهم إلى آسيا الصغرى وعرفوا تاريخيًا باسم الأتراك العثمانيين وهم الذين استولوا بعد ذلك على بزنطة في عام ١٤٥٣

نشأة الأتراك العثمانيين

وهنا رأيت أبا الهول يقول : أيها الأستاذ الكريم لقد بلغت من الحديث موضعاً مما يكون افتياتاً على التاريخ فيه أن يقول اللسان والواقع صامت ، أو يُبينَ القلم حين تنطوي الأحداث وتندرس المعالم ، وإلى جانبكم جليسم هذا هو السلطان سليم الفاتح ، فاشرباً عنقا الرجلين إلى جليسمها وكأنهما لم يكونا قد رأياه من قبل وأخذنا يرجوانه أن يصل ما اتقطع من حديث الأستاذ ، فأخذ السلطان يشرح أسباب قيام الدولة العثمانية وكيف نشأت ومِمَّ انحدرت فقال : (نحن معشر الأتراك العثمانيين من الجنس الطوراني والمغولي مثل البلغار الذين زحفوا إلى شرق أوروبا خلال القرن الثامن . ولقد علمنا من آبائنا الذين تعهدونا بالتربية على الوتيرة التي نشأوا عليها حين لقنونا : كيف أننا معشر الأتراك العثمانيين آخر القبائل الآسيوية التي نزحت إلى أوروبا واستوطنتها وقد كانوا في منتصف القرن الثالث عشر قبيلة صغيرة اكتسحها المغول فأخذت تجوب آسيا الصغرى حتى التقت بجيشين يقتتلان فاندفعت هذه القبيلة الصغيرة إلى ميدان القتال آخذة بناصر الضعيف من الجيشين حتى انتصر على خصمه وتبين أن المغلوب هو جيش من المغول أغار على قونية في عهد مليكها السلطان علاء الدين من الأتراك السلاجقة فكافأ علاء الدين هذه القبيلة — التي ظهر أنها تتصل به — على حسن

نشأة
الأتراك
العثمانيين

صنيعها وأقطعها جزءاً من مملكته بالقرب من « بروسية » .
ولما مات رئيس هذه القبيلة في عام ١٢٨٨ خلفه ابنه الأكبر عثمان
الذي سميت باسمه الدول العثمانية .

ولما عاد المغول في عام ١٣٠٠ وأغاروا على دولة السلاجقة بأسيا
الصغرى وقضوا عليها ألبته ، وتوفي السلطان علاء الدين ؛ استقل كل أمير
بمقاطعة وأخذ عثمان ينظم جيشه ويوسع في أملاكه ويحور على أملاك
غيره إلى أن وافته منيته في عام ١٣٢٦ . قد خلفه ابنه اورخان الذي
استولى على بروسية وجعلها مقراً للدولة الحديثة وأنشأ فرقة الانكشارية
المعروفة في تاريخ الأتراك العثمانيين والتي كانت من أسباب عظمة تركيا
العسكرية ثم أصبحت سبباً للقلق والفتن والاضطرابات إلى أن قضى
عليها السلطان محمود الثاني في عام ١٨٢٦ .

وقد تولى الحكم بعد اورخان ابنه مراد الأول الذي استولى على
أنقرة وكانت مقر سلطة بعض أمراء السلاجقة الذين ما لبثوا أن اندمجوا
رويداً رويداً في دولة العثمانيين واستولى على أدرنة في عام ١٣٦١ ونقل
إليها عاصمته ثم استولى على « قلمه » وأحاطت هذه الفتوحات بالقسطنطينية
ثم عني ببناء بعض السفن الصغيرة في بحر مرمرة فكانت النواة الأولى
للقوة البحرية العثمانية .

وفي هذه الأثناء كون المسيحيون حلفاً من الصرب والبلغار والمجر
وأرسلوا إلى بابا روما يطلبون مساعدته لإيقاف زحف الأتراك المسلمين
وسارت جيوش هؤلاء الحلفاء إلى أدرنة ولكنهم ارتدوا عنها مقهورين

ثم تقابل الجيشان في سهول «قوصوه» وأسفرت المعركة عن اندحار
الحلفاء أمام قوة الأتراك في عام ١٣٨٩ وموت ملك الصرب وموت
الكثير من أمراء أوروبا الذين جاؤا لمساعدة البلقانيين، وفقدان الصرب
والبغار لاستقلالهما، وقد قتل السلطان مراد بعد الموقعة من يد أحد جنود
الأعداء كان بين القتلى أثناء تفقد السلطان لميدان القتال . وخلفه ابنه
بايزيد الملقب بالصاعقة وقد أعجب ببسالة الصرب في حربهم مع ابنه فعين
اسطفان وهو ابن ملك الصرب المقتول في قوصوه ملكاً على الصرب
مكان أبيه يحكم البلاد حسب قوانينها بشرط أن يدفع الجزية وأن يقدم
عددًا من الجنود يشترك مع العثمانيين في حروبهم ثم تزوج السلطان
باخت اسطفان ملك الصرب الجديد غير أن انتصار الأتراك في قوصوه
ووصولهم إلى شواطئ الدانوب قد أثار في أوروبا فكرة الحروب
الصليبية هذه الفكرة التي لم تفارق أوروبا ولكنها كانت خامدة مدة
بسبب ما قام من النزاع بين فرنسا وإنجلترا وأدى إلى حرب معروفة
في التاريخ بحرب المائة سنة فلما وقفت هذه الحرب مؤقتًا في عام ١٣٨٩
عاودت الفرنسيين فكرة الحروب الصليبية فلي نداء ملك المجر نحو
عشرة آلاف فرنسي بقيادة (جان) «الذي لا يخاف» وهو ابن دوق
برغونيا وانضموا إلى الفصائل الأخرى من الألمان والفلاش والمجر
بقيادة ملك المجر (سجسمند) «Sigismand» وحاصروا نيقوبوليس
فانتفض عليهم بايزيد وهزمهم شر هزيمة في عام ١٣٩٦ . وبينما كان بايزيد
يستعد لفتح القسطنطينية إذ هاجم المنغول بقيادة تيمورلنك

(تيمور الأعرج) أسيا الصغرى وكان هذا القائد مسلماً ومن أصل تركى جاء من التركستان وحل محل المنغول وأسس فى آسيا الوسطى امبراطورية لا تقل عظمة عن امبراطورية جنكيز خان وكانت قاعدتها سمرقند وأرسل جيوشه فانتصرت فى روسيا والعجم وبين النهرين بل والهند ذاتها وامتد سلطانه فى أواخر القرن الرابع عشر من الصين إلى القوقاز . وعلى الرغم من أن بايزيد وتيمورلنك كانا مسلمين ومن عنصر واحد فقد نشبت الحرب بينهما بسبب السيادة على آسيا الصغرى والتقىا فى أنقرة^(١) وهزم بايزيد شر هزيمة ووقع أسيراً ومات كدأ فى عام ٨٠٩ هـ ١٤٠٣ م وتقلت رفاته إلى بروسة ليدفن بجانب أجداده . ولقد كادت هذه الهزيمة أن تكون حاسمة فى تاريخ الأتراك العثمانيين لولا انقسام دولة تيمورلنك الذى مات عام ٨١١ هـ ١٤٠٥ م وهو عائد إلى الصين وتغلب السلطان محمد الأول من عام ٨١٩ هـ ١٤١٣ م إلى عام ٨٢٧ هـ ١٤٢١ م على ما صادفه من صعاب حيث فاز بضم شمل الدولة العثمانية وقضى على الفتن والحروب التى قامت بين أبناء بايزيد ثم عقد المعاهدات مع امبراطور القسطنطينية والأمراء المسيحيين الآخرين ليتفرغ لتوطيد دعائم الدولة حتى وافته منيته وخلفه ابنه مراد الثانى من عام ٨٢٧ هـ ١٤٢١ إلى عام ٨٥٧ هـ ١٤٥١ م وفى عهده أخذ امبراطور القسطنطينية يشجع مصطفى بن مراد الأول للمطالبة بعرش أبيه وأخذ

(١) أنقرة شمال آسيا الصغرى وفى كتب العرب قديماً (أنكوربة) وقد مات بها امرؤ القيس غائباً عن عند ملك الروم قال هـ رب طعنة مسخرة ، وجفنه بمنجرة تبقى غداً بأنقرة .

يزوده بالسفن والجنود ويدفعه لمحاربة أخيه ولكنه لم يفلح وتمكن مراد الثانى من أن يضم إليه جنود أخيه وأن يقبض على مصطفى ويقتله . وأراد بعد ذلك أن ينتقم من امبراطور القسطنطينية فحاصر المدينة فى عام ١٤٢١ ولكنه اضطر إلى الارتداد عنها ليواجه جيشاً أوربياً جديداً اخترق بلاد البلقان بقيادة أحد أمراء رومانيا يدعى جان هُنياد ووصل إلى « واره » على ساحل البحر الأسود وكان ملك المجر هو الذى جمع له هذا الجيش وقد انتصر العثمانيون عليه انتصاراً باهراً فى عام ١٤٤٤

ولما مات السلطان مراد فى عام ١٤٥١ كان حكم الأتراك قد توطد فى البلاد التى فتحوها رغم مقاومة (اسكندر بك) الذى دافع طويلاً عن بلاده فى ألبانيا الحصينة بطبيعة أرضها ووعورة طرقها ومسالكها . وقد بقيت أعمال جان هُنياد واسكندر بك من الأقاليم القديمة فى تلك البلاد .

وقد خلف مراداً ابنه محمد الثانى الملقب بالفاتح من عام ١٤٥١ إلى عام ١٤٨١ وهو الذى وجه عنايته إلى فتح القسطنطينية التى فشلت أمام حصونها القوية محاولات أسلافه للاستيلاء عليها وأراد الامبراطور قسطنطين باليوغولوس أن يستمد قوة جديدة من الغرب فعقد اتفاقاً يقضى باتحاد الكنيستين اليونانية واللاتينية غير أن هذه المحاولات ذهبت هباء بعد أن خمدت نيران الحروب الصليبية ولم ينتج هذا الاتفاق إلا انقساماً جديداً بين رعايا الإمبراطور الذين ثاروا عليه بسبب

قبوله ضم الكنيستين وقد قال وقتئذ أمير البحر اليوناني « إني لأوثر أن أرى عمامة محمد في كنيسة القديسة صوفيا على أن أرى فيها قلنسوة مندوب البابا » .

أما السلطان محمد فبعد أن جهز حملة لفتح عاصمة الدولة الرومانية الشرقية بدأ يحاصرها منذ ٥ أبريل سنة ١٤٥٣ ولم تمض أربعة وخمسون يوماً حتى اقتحم الأتراك حصون المدينة وفتحوها عنوة بعد أن ثقلوا أسطولهم من البسفور إلى خليج قرن الذهب على ألواح من الخشب مدھنة بالشحم لسهولة الانزلاق .

أما الامبراطور بالياغولوس فقد وجدت جثته بين القتلى في الوقت الذي كان فيه سكان المدينة وأهلها ينتظرون في الميادين العامة ظهور ملاك من السماء يرسله خالق الكون لطرد المسلمين كما كانوا يزعمون . وقد أعلن السلطان محمد الفاتح أهل المدينة بأنه لا يعارضهم في إقامة شعائرهم الدينية وبأنه يضمن لهم حرية دينهم وأملاكهم ، وقد ترك لهم حق انتخاب بطريق تكون له كل السلطة في قضايا المسيحيين المدنية والجنائية كما ترك لهم كنائسهم ماعدا بعض كنائس منها كنيسة القديسة صوفيا التي حولها إلى مسجد ليقيم فيه المسلمون شعائرهم الدينية وكان السلطان محمد الفاتح قد نفذ بهذا العمل رغبة أمير البحر اليوناني فحول القلنسوة إلى عمامة في كنيسة « أيا صوفيا »^(١) .

(١) ويرى الكثير من المؤرخين أن عام ١٤٥٣ يعتبر مبدءاً لتاريخ العصور الحديثة وذلك أولاً - بسبب سقوط الدولة الرومانية الشرقية التي عاشت ألف سنة بعد زوال دولة الرومانية =

ولما مات السلطان محمد الفاتح في عام ١٤٨١ خلفه ابنه بايزيد الثاني
أبى إلى عام ٩٢٨ هـ ١٥١٢ م وكان ضعيفاً فثار عليه أخوه الأصغر وبدأ
الانكشارية يتدخلون في سياسة الدولة كما كانت تتدخل الجنود في
سياسة الدولة الرومانية حتى أرغموا بايزيد على التنازل عن العرش لى
ثم استأنف سليم الأول قائلًا : فحكمت من عام ١٥١٢ إلى عام ١٥٢٠
وفتحت البلاد المصرية في عام ١٥١٧ وضممتها إلى الدولة العثمانية وأهمية
هذا الفتح أن الخليفة العباسي تنازل عن لقب الخلافة لسلطين آل عثمان.
هذا ولقد بلغنا ممن لحق بنا من أرواح سلاطين الإستانة العلية
أن دولتنا العلية العثمانية قد بلغت ذروة قوتها ومجدها في عهد سليمان
القانونى من عام ١٥٢٠ إلى عام ١٥٦٦ وأصبح لتركيا في مدى القرون
التالية شأن كبير في سياسة أوربا عرف في السياسة الدولية « بالمسألة
الشرقية » . ولا ريب في أن العثمانيين قد أسسوا دولة إسلامية جديدة
ضمت بلاد آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا
وهذا عدا بلاد المجر والممالك البلقانية ، وكادت تخضع لها النمسا وأصبح
لها أسطول قوى في البحر الأبيض المتوسط ، ولم يوقف تقدم الاسلام
في أوربا غير حادثتين عظيمتين هما قوة الدولة الروسية باستقلال موسكو
في عام ١٤٨٠ وخروج العرب المسلمين من اسبانيا في عام ٨٩٨ هـ ١٤٩٢ م

= الغربية . وثانياً — لأن حرب المائة السنة بين فرنسا وانجلترا انتهت في هذا التاريخ وقد جرت
الحرب والدمار طوال قيامها في الممالك الأوربية . وثالثاً — لأنه تاريخ اختراع المطبعة بمعرفة
جوتنبرج ونشر أول كتاب مطبوع للتوراة .

الدولة الروسية

ومن هنا تعلم أننا قد استقررنا في أوروبا بعد أن تغلبنا على الممالك المسيحية الغربية التي ناوأنا ولم توجد في هذا الوقت من الجهة الشرقية غير مملكة مسيحية واحدة قادرة على منازعتنا وهي مملكة بولونيا التي عقدت اتفاقاً في عام ١٣٨٦ مع دوقية ليتوانيا التي كانت مسيطرة على بعض المقاطعات الروسية ومعها كيف « Kiev » وبهذا الاتحاد أمكن مطاردة جماعة التوتون « Chevaliers Teutoniques » الذين كانوا حبر عشرة أمام كل تقدم نحو بحر البلطيق ، فلما تم لها النصر في واقعة تاننبرج « Tannenberg » في عام ١٤١٠ استولوا على جميع البقاع الشمالية ما عدا بروسيا الشرقية التي اعترفت في النهاية بسيادة بولونيا عليها ، ولم تقف قوة بولونيا عند هذا الحد بل ضمت إليها بوهيميا في عام ١٤٧٠ وهنغاريا في عام ١٤٩٠ غير أن البولنديين والليتوانيين كانوا من الكاثوليك المتحمسين لمذهبهم فلم يستطيعوا استمالة الشعوب الروسية الأرثوذكسية ، أضف إلى هذا أن طبقة الأشراف البولنديين كانت قد أضعفت قوة حكومتها بسبب شدة نزعتها الاستقلالية وأخذت بولونيا التي وصلت إلى أوج مجدها في القرن الخامس عشر تضعف رويدا رويدا يذبحها كان الحظ يتسم لمملكة أخرى في شرق أوروبا تكونت حول مدينة موسكو وهي التي بدأت تظهر في التاريخ تحت اسم الدولة الروسية .

وموسكو هذه لم تكن إلا قاعدة لإحدى الممالك الصغيرة التي أسسها النورمانيون والتي كان أمراؤها تابعين لمملكة « عشيرة الذهب » Horde d'or وقت إغارة المنغول على روسيا أما كيف تمكن أمراء هذه المدينة الصغيرة من تكوين دولة روسيا الكبيرة فأمر له تاريخ يحسن بنا إirاده بإيجاز فيما يأتي :-

لقد كانت قبائل الصقلب النازحة من آسيا الوسطى تجوب وديان روسيا بين الدنيستر والدنيبر « Dniester et Dnieper » ولقد أشار سائحو الإغريق إلى وجود هذه القبائل الصقلبية منذ القرن الرابع الميلادي . ولما كانت البلاد الروسية يخرقها طريق طبيعي من الشمال إلى الجنوب ويبدأ من بحر البلطيق ثم يمر ببحيرة لادوجا ثم يصل إلى الدنيبر ومنه إلى البحر الأسود . ولما كان هذا الطريق مفتوحا أمام الغزاة والفاحين فقد سلكه النورمانيون في الوقت الذي ظهروا فيه على مسرح التاريخ وأسسوا ممالكهم في أوروبا الغربية كما أسلفنا . ففي عام ٨٦٢م عبر بحر البلطيق ثلاثة إخوة من النورمانيين وأسسوا ثلاثة ممالك ثم مات اثنان منهم وبقى الثالث الذي عرف في التاريخ باسم (روريك) « Rurik » وهو الذي استولى على أملاك أخويه المتوفيين وأسس مملكة صقلبية عاصمتها كييف « Kiev » بالقرب من البحر الأسود ، وبلغ القسطنطينية خبر تأسيس هذه المملكة الصقلبية الجديدة فترح إليها بعض رهبان بيزنطة للتبشير ونشروا فيها المذهب الأرثوذكسي من غير مزاحمة من المبشرين الكاثوليك الذين كانت غايتهم موجهة إلى غرب أوروبا ، يند

أن هذه المملكة الجديدة لم تدم طويلاً بسبب تلك التقاليد القديمة التي كانت تعتبر المملكة تركية يقتسمها أولاد الملك المتوفى وكانت بسبب هذه التقاليد مرتعاً خصباً لكل أنواع المنازعات بين الورثة؛ ولهذا دب الخلاف وانتشرت الفوضى في هذه المملكة إلى عام ١٢٢٤ حيث أغار عليها جنكيزخان الذي كان قد استولى على الصين وبخارى وتشقند وتركستان وبقيت روسيا تحت سيطرة المغول نحو قرنين من الزمان حتى عام ١٣٨٠، وكانت أوروبا في مدى هذين القرنين مشغولة في حروبها الدينية والمنازعات بين سلطتي الأباطرة والبابوية فلم تتخلص روسيا من سيطرة المغول بقوة أوروبا ولكنها تخلصت منها بسلوك أمراء موسكو وهي عاصمة إحدى الممالك الصغيرة التي كانت تابعة لدولة (المغول) المعروفة باسم (عشيرة الذهب) «Horde d'or»^(١).

فكان أمراء موسكو يتظاهرون بالتمسك الشديد بالأرثوذكسية ليستميلوا إليهم يزنطة وكانوا يتظاهرون في الوقت عينه بالخضوع للخان الكبير المسلم وهو رئيس «العشيرة الذهبية» التابعة له فكانوا له كصنائع يجمعون له الجزية ويرشدونه إلى خصومه في المقاطعات الأخرى. وقد تمكنوا بهذا السلوك من أن ينقلوا من كيف إلى موسكو الرئيس الديني للأرثوذكسية وحصلوا من متبوعهم الخان المسلم على لقب «الأمير الكبير» فأصبحت موسكو أعظم مدينة روسية. وقد

(١) لقد اعتنق المغول في الصين ديانة بوذا واعتنق الاسلام المغول الذين اتجهوا غرباً وكونوا «عشيرة الذهب» هذه.

شيدوا فيها كنيسة التثليث وهي أول مقر للارثوذكسية الروسية وعند ضعف الدولة المغولية التي انقسم بعضها على بعض ثم وجد لها «خان» في القرم وآخر في قزان ، وانقصت عراها ولم تعد لها قوة مركزية واحدة ، فقد انتهز أمراء موسكو هذه الفرصة فأعلنوا عصيانهم عليها وجمعوا حولهم العنصر الصقلي لتحرير بلادهم . وفي هذه الأثناء تزوجت (زويه) «Zoé» ، أي صوفيا ، باليوغولوس وهي ابنة توماس أخ قسطنطين باليوغولوس امبراطور بيزنطة من إيثان الثالث أمير موسكو «Ivan III» وفي عام ١٤٦٢ أي قبل أن تضي عشر سنوات على فتح الأتراك للقسطنطينية في عام ١٤٥٣ أعلن إيثان الثالث في ممالك أوروبا بأن مملكته الصقلية الجديدة تطالب بجميع حقوق الدولة البيزنطية سواء في ذلك السلطة الزمنية أو الدينية . وبعد مضي جيل واحد أي في عهد إيثان المخيف اتخذ أمراء موسكو لقب قيصر واعترفت أوروبا الغربية لهم بذلك اللقب فأصبح المطالبون بحقوق بيزنطة من سلالة عائلة ما كانت لتخطر على بالها هذه المطالبة التي استمرت ستة قرون وكانت سبباً في حروب ومنازعات دولية إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤ وقد قتل في عام ١٩١٨ قيصر روسيا نيقولا وعائلته وهو آخر القياصرة الروسين الذين كانوا يحملون صليب النسر ذي الرأسين وهيشارة أباطرة الدولة الرومانية الشرقية ويغلب على ظننا أن مطامع روسيا في اسلامبول وفي المضائق لا تزال قائمة وستكشف لكم الحرب العالمية الحاضرة عن مدى هذه المطامع .

هذا. ولم تنقرض العائلة النورمانية التي تناسلت من ذرية (روريك) إلا في سنة ١٥٩٨ بموت (فيدور الأول) « Feodor 1 » ثم جلس على عرش القيصرية في روسيا (بوريس جودونس) « Boris Godonnes » وهو من التتار وقد أنشأ جيشاً كبيراً احتاج - لكي ينفق عليه - إلى الاستيلاء على أرض المزارعين الذين جعلهم كرقيق الأرض وأصبح منذ هذا التاريخ أهالي روسيا من طبقتين هما طبقة الأشراف وطبقة العبيد من الفلاحين .

ولما مات بوريس هذا انتخب (البويار) « Boyards » وهم من الأشراف ملكاً هو ميخائيل « Michel » من عائلة (رومانوف) . وفي عام ١٦٧٢ ولد (بطرس) المعروف تاريخياً باسم بطرس الأكبر ولكن أخته (صوفيا) استولت على العرش عندما كان سن أخيها بطرس عشر سنوات . وهي التي أرسلته إلى إحدى ضواحي موسكو فاتصل منذ نعومة أظفاره ببعض الأجانب الأوربيين الذين كانوا في تلك الضاحية (من أساتذة ألمان وحلاقين إيطاليين وتجار هولنديين وأصحاب حانات اسكوتلانديين ومعلمي رقص من الفرنسيين وغيرهم) .

ولما بلغ بطرس السابعة عشرة من عمره استخلص عرشه من أخته وأراد أن يحول روسيا التتارية البيزنطية إلى مملكة تشبه الممالك الأوربية . فقام بعمل كثير من الإصلاحات الداخلية وأعلن في عام ١٧٢١ أنه هو الرئيس الديني للكنيسة الروسية . ومن هذا التاريخ لم نجد في

روسيا نزاعاً بين السلطتين المدنية والدينية كما حدث في أوروبا غير أن هذه الإصلاحات كانت موضع نقد من أنصار الرجعية الروسية الذين قاموا بثورتين أثناء غيابه عن مقر ملكه حيث هبت الثورة الأولى بزعامه أخته في أثناء غيابه لزيارة أوروبا في عام ١٦٩٨ ونشبت الثورة الثانية بزعامه ابنه الكسيس في أثناء زيارته الثانية لأوروبا في عام ١٧١٦ . وقد قمع بطرس هاتين الثورتين بعنف وقسوة فسجن أخته وقتل ابنه في سجنه وأكره الثوار على الوصول إلى منقاهم في سيبيريا سيراً على الأقدام .

وأخيراً نقل بطرس عاصمة ملكه إلى مدينة جديدة أنشأها في عام ١٧١٢ على شواطئ البلطيق سماها سان بطرسبرج وقد أطلق عليها بعد ذلك إسم بتروجراد ثم ليننجراد «Petrograde et Leningrade» على إسم لينين زعيم الثورة الروسية بعد الحرب العالمية الأولى .

ولاريب في أن أعمال بطرس الأكبر وبخاصة قيامه بإنشاء أسطول روسي كبير ورغبته في استئشاق نسيم البحر البلطيق قد لفتت نظر بلاد السويد إلى مطامعه ولهذا قامت الحرب بينه وبين ملك السويد شارل الثاني عشر وانضمت إلى روسيا بولونيا والدانمارك والساكس ومع هذا انتصرت السويد بفضل عبقرية ملكها في واقعة تشارا في عام ١٧٠٠م غير أن السويد وجهت جهودها بعد هذا النصر إلى الانتقام من بولونيا والدانمارك وتخريب بلادها حتى ضعفت قوتها . وفي هذه الأثناء جهز بطرس الأكبر جيشاً في داخل روسيا ودربه أحسن تدريب واتقض به على خصمه شارل الثاني عشر وانتصر عليه في واقعة

بولتافا عام ١٧٠٩ وبقيت ذكرى شارل هذا من الأقاليم القومية على الرغم من أن السويد فقدت عند عقد صلح نستاد «Nystad» في عام ١٧٢١ جميع مستعمراتها على بحر البلطيق ماعدا فنلندا وأصبحت روسيا بفضل بطرس الأكبر دولة عظيمة لم ينافسها أحد في أوربا الشمالية غير ظهور دولة فتيه جديدة هي بروسيا .

وفي الوقت الذي كانت فيه روسيا آخذة بأسباب الرقي والقوة كانت الدولة العثمانية آخذة في التأخر والضعف لأسباب أهمها أن أحفادنا العثمانيين بعد فتوحاتهم العديدة واختلاطهم بالشعوب المختلفة قد انتقلت إليهم عيوب هذه الشعوب وتقائصهم فبعد أن كان سلاطين آل عثمان في مقدمة جيوشهم ينتقلون بهم من نصر إلى نصر أصبحوا يتركون قيادة جيوشهم واممهم ويعكفون على حياة الرفاهية والبذخ في القصور الشائخة التي كان يسكنها أباطرة الدولة البيزنطية وهذه هي سنة الله في خلقه وما مثل الدولة العثمانية إلا كمثل الدولة الرومانية التي أعطت للشعوب التي أخضعها صفاتها العالية وأخذت عنها عيوبها وتقائصها فكان السلطان سليم الثاني حفيدي أنا الذي غزت بلاد ما بين النهرين وسوريا ومصر وأبي سليمان العظيم الذي غزا بلجراد «Belgrade» في عام ١٥٢١ ورودس في عام ١٥٢٢ وقهر المجر في عام ١٥٢٦ واستولى على بودابست في عام ١٥٢٩ وفتح أرمينيا وكرواتيا «Croatie» وجورجيا «Georgie» واليمن ووصل إلى أسوار فينا «Vienne» أقول إن السلطان سليم الثاني هذا كان أول سلاطين العثمانيين الذين عدلوا عن قيادة

جيوشهم وأساطيلهم وبقوا في قصورهم محاطين بدسائس البلاط يحملون حقيقة ما يجري في خارجها أو في داخلها .

وقد أدت هذه الحالة السيئة إلى تدخل الجند في شؤون الدولة وفي تعيين السلاطين وعزلهم وبينما كانت هذه الفوضى منتشرة في الداخل كانت الدولة عرضة لحروب شتتها عليها بولونيا والنمسا وفارس والبندقية ثم بخاصة روسيا وتعتبر واقعة (لبانت) « Lepante » البحرية في عام ١٥٧١ مبدءاً لتضعف القوة العسكرية العثمانية ففي هذه الحرب البحرية تحالفت اسبانيا في عهد فليب الثاني مع جمهوريات البندقية و (جنوة) بإيعاز من البابا (بي الخامس) « Pie V » ضد السلطان سليم الثاني وانهزم فيها الأسطول العثماني . ومن هذا التاريخ فقدت تركيا سيادتها على البحر الأبيض المتوسط . ثم أعقبت هذه الحرب حروب أخرى برية . ففي عهد السلطان محمد الرابع قهرت الجيوش العثمانية أمام فينا في عام ١٦٨٣ وكان قائد الجيش المعادي (سوييسكي) « Sobieisky » وهو الذي اعتلى عرش بولونيا تحت اسم جان الثالث سوييسكي « Jean III Sobieisky » وفي عهد السلطان مصطفى الثاني قهرت الجيوش التركية على نهر الدانوب أمام محالفة أخرى من النمسا وبولونيا وروسيا والبندقية عام ١٦٩٩ وعقب هذه الحرب تنازلت تركيا بعد صلح (كرلويتز) « Carlowitz » عن المجر التي ضمت إلى النمسا وعن أزوف « Azof » التي أعطيت لبطرس الأكبر وعن بلاد الموره « Morée » التي أعطيت لجمهورية البندقية ثم اشتبكت تركيا مع روسيا في حروب طوال القرن الثامن عشر وكانت النمسا

تنضم غالباً إلى روسيا في هذه الحروب التي فقدت فيها تركيا بلاد القرم
وجميع ممتلكاتها شمالى البحر الأسود وأخيراً وليس آخراً اتفق في
معاهدة جاسى « Jassy » في عام ١٧٩٢ على جعل نهر الدنيستر Dniester
حداً فاصلاً بين الامبراطوريتين واشتبكت تركيا في حرب مع فرنسا
عندما احتل بونابرت الأراضي المصرية ثم قامت ثورات الانكشارية
التي لم تحمد إلا في عهد السلطان محمود الذى قضى عليها في عام ١٨٢٦
ثم بدأت بعد ذلك أعمال الدول في البلقان بإحياء الشعور الوطنى في
الممالك البلقانية فقامت ثورة اليونان ولما أخذها إبراهيم باشا بن محمد على
الكبير والى مصر تدخلت الدول الأوربية للدفاع عن استقلال اليونان
وتجمعت الأساطيل الانجليزية والفرنسية والروسية وأغرقت الأسطول
المصرى التركى في واقعة (نافارين) « Navarin » في ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧
وخرجت اليونان من سيطرة تركيا .

وفي عام ١٨٣٢ قام النزاع بين تركيا ومصر وانتصر الجيش المصرى
في وقائع قونية وقوتايه وتريب وكاد جيش محمد على الكبير أن يعبر
جبال طوروس ويهاجم القسطنطينية لولا تدخل إنجلترا وحلفائها من
الدول الأوربية فيما عدا فرنسا . وأخيراً عقدت معاهدتا ١٥ يوليه عام
١٨٤٠ و ١٤ يوليه عام ١٨٤١ وأصبحت ولاية مصر بموجبها وراثية في
أسرة محمد على كما تقرر مبدأ حفظ كيان الدولة العلية وهو المبدأ الذى
وضعته السياسة الدولية وقتئذ لأسباب يطول شرحها وتأيد بعد ذلك
في حرب القرم (من عام ١٨٥٣ إلى عام ١٨٥٦) التي انتهت بخذلان

روسيا أمام إنجلترا وفرنسا و(شرطانية) سردينيا وعقد معاهدة باريس في عام ١٨٥٦ التي قررت حياد البحر الأسود .

وفي عام ١٨٦٦ أصبحت رومانيا مملكة وراثية بتعيين شارل الأول من عائلة الهوهنزولرن ملكا عليها ثم قامت في الوقت ذاته ثورة في جزيرة (إقريطش) كريت تدخلت فيها اليونان وتدخلت أوريا بعدها وانتهت بمؤتمر دولي عقد في باريس في عام ١٨٦٩ غير أن الصرب انتهزت فرصة هذه المشاكل وحصلت على الجلاء عن بلادها في عام ١٨٦٧ ثم قامت ثورة في بلاد الهرسك في عام ١٨٧٥ مؤيدة بالعناصر الصقلية من البلاد الأخرى وامتد لهيبها إلى البوسنة وأرادت تركيا أن تمنح أولئك بعض الامتيازات غير أن الثوار رفضوا ؛ وانتهزت الدول الأوربية فرصة الاعتداء في سالونيك على قنصلي فرنسا وألمانيا وعقدوا مؤتمرا في برلين جمع روسيا والنمسا وألمانيا بحجة الدفاع عن المسيحيين في تركيا وانضمت إليهم فرنسا وإيطاليا وفي غمار هذه المشاكل كل قام في قلب تركيا حزب يتهم الصدر الأعظم باتمائه إلى روسيا ضد السلطان ، ولما أبعد الصدر الأعظم قام الطلبة وغيرهم يطلبون بدورهم عزل السلطان فعزل السلطان عبد العزيز وتولى بعده السلطان مراد الخامس الذي عزل هو كذلك بعد شهر واحد من اعتلائه العرش بحجة مرضه وتولى بعده السلطان عبد الحميد الثاني وفي هذه الأثناء ظهرت بوادر الثورة في بلغاريا ثم أعلنت صربيا والجبل الأسود الحرب على تركيا معتمدتين على معاونة روسيا ، فلما قهر الجيش الصربي الذي كان يقوده الجنرال سالاروسى

(شرنايف) « Ichnayeff » وأصبح مركز الثوار ميؤوساً منه وأصبح طريق بلغراد مفتوحاً أمام الأتراك أرسلت روسيا بلاغاً نهائياً إلى تركيا ترتب عليه قيام الهدنة شهرين امتدت بعدها إلى أوائل مارس عام ١٨٧٧ وقبل انتهاء أجل الهدنة عقد مؤتمر من الدول العظمى في القسطنطينية في ٢٣ ديسمبر عام ١٨٧٦ برئاسة الجنرال الروسي (إجناطيف) « Ignatieff » سفير روسيا لدى الباب العالي وفي ذلك اليوم عيّنه أعلنت تركيا الدستور العثماني في صدارة مدحت باشا وفي ١٩ يناير عام ١٨٧٧ رفضت تركيا ما عرضته عليها الدول في هذا المؤتمر على اعتبار أنه تدخل في شؤونها الداخلية ومناف لاستقلالها فأعلنت روسيا الحرب على تركيا في ٢٤ أبريل عام ١٨٧٧ بعد تعبئة جنودها على حدود تركيا الأوربية والأسيوية وتحركت معها دول البلقان التابعة لتركيا وأعلنت رومانيا استقلالها بعد أن عقدت اتفاقية حرية مع روسيا وعبر جنودها نهر الطونة أمام الجنود الروس الذين في آسيا فقد كانوا تحت قيادة الفراندوق ميخائيل وقد استولت في بادئ الأمر على أردهان وبايزيد وحاصرت قرص وباطوم وهددت أرضروم بثلاثة جيوش روسية فاضطر القائد التركي مختار باشا الغازي إلى التراجع أولاً ثم تمكن بمهارة وشجاعة من صد الجيش الروسي ورفع الحصار عن قرص وباطوم واسترداد بايزيد وتوغل جيوشه في أرمينية أما في أوربا فبعد أن عبرت الجيوش الروسية نهر الطونة تمكن الجيشان الروسيان اللذان تحت قيادة كل من ولي العهد والفراندوق نيقولا من التوغل في الأراضي البلغارية ولحق بهما

القيصر بشخصه غير أن عثمان باشا الغازي القائد التركي تمكن من الدفاع عن بلقنا « Plevna » دفاعاً مجيداً وطارد جيش تركي آخر جيوش ولي العهد وأخرجها من مراكزها أمام (روستشوك) « Roustchouk » كما أخرج سليمان باشا الجيوش الأخرى الروسية من الرومللي .

غير أن الامدادات قد وصلت إلى الجيوش الروسية فانعكست الآلة وقهر مختار باشا الغازي بسبب النجذات التي أرسلها من جيشه إلى أوربا ثم سقطت بلقنا واحتل الروس صوفيا في ٥ يناير سنة ١٨٧٨ وهي أول مرة يدخلها جيش مسيحي منذ عام ١٤٢٤ ثم احتلت الجيوش الروسية ادرنة والتجأ السلطان عبد الحميد إلى إنجلترا التي أرسلت أسطولاً لحماية القسطنطينية في ١٣ فبراير سنة ١٨٧٨ فوقفت الجيوش الروسية عند شطلجه وأمضيت في ٣ مارس سنة ١٨٧٨ معاهدة سان استفانو على بعد ثمانية عشر كيلو متراً من القسطنطينية ولكن النمسا وإنجلترا اعتبرتا هذه المعاهدة القاسية مضرّة بمصالحهما وجمعت إنجلترا جيوشاً هندية في مالطة وعند ذلك حدث صلح سرى بين روسيا وإنجلترا وأخيراً عقد مؤتمر برلين في ١٣ يولية سنة ١٨٧٨ تقر فيه إعطاء بلغاريا استقلالاً داخلياً ومنح الرومللي الشرقية شبه استقلال واحتلال النمسا للبوسنة والهرسك واستقلال الجبل الأسود بعد أن ضمت إليه (انتيفاري) « Antivari » واستقلال صربيا ورومانيا التي تنازلت عن بسارايا إلى روسيا ووضع نظام للملاحة في الدانوب ووضع نظم للحكم في كريت وبعض مستعمرات أخرى كما تنازلت تركيا لروسيا عن أردهان والقرص وباطوم، ثم أمضيت

بين تركيا وٱلٱنجلترا معاهدة فى ٤ يونفة سنة ١٨٧٨ تنازلت فىها تركيا
عن جزيرة قبرص لٱلٱنجلترا ، فهذا ما كان فى أوربا الشرقية وبقى القارة
على العموم . ثم استأنف قائلها نقلناه فى الفصل التالى .



عصر المماليك في مصر

ولقد عنى أن أشرح لكم عصر المماليك السابق لدولتنا في مصر هؤلاء المماليك الذين كونوا حضارة عظيمة وكانوا محل إجلال الدول جميعاً في فترة ليست بالقصيرة وكانت تدين لهم بلاد العرب بأسرها ويغلب إطلاق هذا الاسم (المماليك) على كل رقيق أبيض كان يؤسر في الحرب أو يشتري من أسواق النخاسة، وكان الخلفاء الفاطميون أول من استخدم المماليك الأتراك في مصر تشبهاً بالعباسيين في بغداد، ثم جاء الأيوبيون فاستكثر صلاح الدين منهم وجندهم في جيشه وكان المغول في ذلك الحين يغيرون من آونة إلى أخرى على شمال آسيا وغربها ويدمرون قراها، فهاجموا أهلها ومعهم أولادهم وبناتهم وانهز تجار الرقيق هذه الفرصة فملأوا الأسواق بالفتيان والفتيات من قفقاسيا وجورجيا والجر كس .

وقد اشترى الملك الصالح أيوب ما يربو على الألف منهم؛ ولما كثر عددهم أسكنهم جزيرة الروضة بالقرب من المقياس ولذا سُموا بالمماليك البحرية وكان المماليك يلقنون أرقى التعليم في عصرهم وبخاصة في السياسية والحرب في حين كان تعليم الشعب مهملًا .

وقد عظمت شوكة المماليك البحرية بعد واقعة المنصورة حتى عز عليهم الصبر على معاملة (طوران شاه) الشديدة لهم فقتلوه وارتضوا

(شجرة الدر) زوج الملك الصالح ملكة على مصر وتزوج منها رئيس قواد المماليك (أتابك العساكر) عز الدين إيبك التركماني وأصبح ملكا على مصر باسم الملك (المعز) في سنة ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م فتغلب على منافسيه من بقايا الأيوبيين ودانت لحكمه مصر وأكثر الشام.

وفي ذلك الحين انحدر التتار من أواسط روسيا بقيادة (هولاكو) واكتسحوا بغداد وقتلوا المستعصم آخر خلفاء العباسيين بها في فبراير عام ١٢٥٨ م - ٦٥٦ هـ واستولوا على الشام وأرسل هولاكو إلى مصر رسالة تهديد بالغزو إذا أبت الخضوع له وكان (قطز) قد ولي السلطنة فقتل الرسل وتقدم بالجيش المصرية التي انتصرت في حروبها الصليبية وقد أخذتها نشوة النصر إلى حدود فلسطين وهزمت المغول في موقعة (عين جالوت) في آخر شعبان سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م وقتل قائدهم (كتبغا) نائب هولاكو وصهره ومد (قطز) نفوذه إلى نهر الفرات فخذ عليه أكبر قواده وتآمر على قتله في الطريق وهو عائد إلى مصر في يوم السبت ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م فاختره المماليك سلطانا

موقعة عين جالوت

الظاهر بيبرس

ولقب نفسه (السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس البندقداري الصالح) وهو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك البحرية وكان مملوكا دخل في خدمة الملك الصالح فظهرت مقدرته في موقعة المنصورة وغيرها. ولما ولي الحكم نظم جيش مصر وأعاد إنشاء البحرية المصرية وعنى بإصلاح الثغور والحصون وأنشأ البريد بين العاصمة وسائر أنحاء الدولة فكانت الخيل تحمله من القاهرة إلى دمشق في ستين ساعة وأوجد

أيضاً يريد الحمام وكانت له حمام خاصة يتناول من أجنحتها الخطابات حتى لا يطلع على ما فيها من اسرار الدولة أحد سواه .

ومن أهم أعماله إنشاء الترع وبناء القناطر وتحسين حالة الجسور وتخفيف الضرائب وسن القوانين العادلة فأحبه الشعب ونال رضا أهل الشام باعترافه بحكامهم المحليين وجدّ في إقامة المعاهد والمساجد وأهمها مدرسة بشارع بين القصرين ومسجده الكبير بميدان الظاهر بالقاهرة وكان خارج المدينة في ذلك العهد .

لحياء الخلافة
العباسية

وقد أحيى الخلافة العباسية لتثبيت مركزه من الوجهة الشرعية فاستدعى أحداً أبناء العباسيين وأقامه خليفة في مصر بلقب (المستنصر بالله) وظلت الخلافة طوال حكم المماليك ولم يكن للخليفة في الغالب أكثر من الاسم والاعتراف بلقب الساطن، على أن الخلافة جعلت لمصر مركزاً ممتازاً لأن أمراء الهنود وغيرهم كانوا يطلبون من الخليفة تقليداً يجعل مركزهم مشروعاً وزادت أهمية الخلافة في أواخر دولة المماليك وعند دخول العثمانيين مصر .

وكانت حماية مصر من إغارة المغول عليها من أهم ما يشغل يبرس ولذا صادق كثيراً من الملوك ومنهم امبراطور الدولة الرومانية الشرقية وسلاجقة الروم وأمراء صقلية وأرغن Aragon أو الثغر الأعلى، ولما كان الصليبيون يوالون المغول أراد يبرس أن يتشبه بصلاح الدين بطرد الباقين منهم فحارب إمارتهم نحو عشر سنوات استولى في خلالها على صفد ويافا في عام ١٢٦٨ ثم انطاكية وغيرها من حصونهم المهمة ثم سار إلى نهر

الفرات بجيش عظيم لمهاجمة المغول رأساً وعبر النهر على ظهور الخيل وهزم المغول وطردهم من تلك الأصقاع ليأمن شرم ولكن انتصر على حلفائهم في أرمينيا وغنم غنائم كبيرة وعاد إلى مصر وجرد حملة إلى بلاد النوبة العليا التي كانت مسيحية وهزم النوبيين عند (دقله) وأخضعهم لحكم المسلمين لأول مرة وفرض عليهم الجزية وأصبح ملك مصر يمتد من أعالي الفرات والأناضول إلى السودان .

السلطان
قلاوون

ومن أعظم من جاءوا بعده السلطان (قلاوون) من عام ١٢٧٧ إلى عام ١٢٩٠ وهو الذي هزم المغول عند حمص هزيمة لا تقل أهمية عن هزيمة (عين جالوت) وبخاصة أن المغول كانوا في ذلك الحين يرسلون (البابا) وملوك أوروبا للتعجيل بإرسال حملة صليبية تقضى على سلطة مصر ، واتقاء لهذا الخطر أبرم قلاوون اتفاقاً دفاعياً مع أمراء قشتالة وصقلية وعقد معاهدة تجارية مع جنوى ووطد الروابط الاقتصادية بينه وبين بعض ملوك أوروبا واليمن وسيلان .

وكان في خدمته أكثر من اثني عشر ألفاً من المماليك الجراكسة والمغول ومن بينهم نحو أربعة آلاف يسكنون في أبراج القلعة ويسمون لذلك بالمماليك البرجية تميزا لهم عن المماليك البحرية .

وكان قلاوون معروفاً بالحلم والعدل والجود وحب الخير . ومن أعماله الباقية بیمارستان (المستشفى) الذي أعده للمرضى وبخاصة النساء وجهازه بمعمل كيميائي وعين فيه المحاضرين . والقبعة التي بها قبره وكانت بها مكتبة عامة تحوى كتباً كثيرة في جميع الفنون . ثم المدرسة التي عين بها

السلطان
خليل بن
قلاوون
١٢٩٠ -
١٢٩٣ م

علماء المذاهب الأربعة لتدريس علوم الدين وأضاف إليها مكتباً للأطفال ومدرسة للصبيان وملجأ للأيتام. وكل هذه الآثار بالنحاسين بالقاهرة.

وقد خلفه ابنه خليل يوم السبت ٦ ذى القعدة ٦٨٩ هـ ١٢٩٠ إلى ٦٩٣ هـ ١٢٩٣ م وكان على عكس أبيه قاسياً ميالاً إلى الفتك بكل من يشك في إخلاصهم له. فقتل وزير أبيه وأقصى عن الحكم أكثر من كانوا في خدمته. ولكنه تشبه بأبيه في أمر واحد وهو عزمه من أول توليه الحكم على طرد الصليبيين من المشرق ومهد لذلك باسترضاء القضاة والفقهاء بمصر واستنهاض ولاية سوريا لمعاونته ولما أتم استعدادده حاصر (عكا) وأقام حولها أكثر من تسعين منجنيقاً فاستماتت حاميتها في الدفاع عنها وساعدتهم نجدة من جزيرة قبرص وكان في استطاعتهم المقاومة طويلاً لولا ما دب بينهم من تنافس وتزاع كان من نتائجه أن عاد أكثر جنود قبرص إلى جزيرتهم تاركين إخوانهم في أشد المواقف حرجاً.

وقد تمكن السلطان خليل بن قلاوون بفضل هذا التخاذل من إخضاع (عكا) في عام ١٢٩١ بعد حصار لم يطل كثيراً عن أربعين يوماً. ولم ينبج من حامية عكا أحد بل وقعوا جميعاً بين قتيل وأسير وأحرقت مدينتهم ودمرت فدب الخور في قلوب بقية الصليبيين فجعلوا عن القلاع التي كانت بأيديهم وانتهت بذلك الحروب الصليبية بعد أن أفلقت الشرق الأدنى قرابة قرنين من الزمان.

وحاول السلطان خليل أن يهزم المغول الذين كانوا يهددون سوريا إذ ذاك وأخذ بعض القلاع منهم. وعاد إلى القاهرة واستقبله الأهالي

بأعظم مظاهر الحفاوة والإجلال فدخلها دخول الظافر يتقدمه أسرى
الفرنجية مكبلين بالأغلال تليهم أعلامهم منكسة ورؤوس قتلاهم على
أسنة الرماح .

ولم يطل حكمه لأن كبرياءه وقسوته قد أثارتا حقدا الممالك
وسخطهم فكاد له جماعة منهم واغتالوه في الجزيرة وهو ذاهب في إحدى
رحلاته إلى الصعيد وهو على فراشه ليلا بتواطؤ إحدى نساءه مع مملوك
له يدعى ييدرا الذى تولى الملك يوماً واحداً ثم قتل . وقد دفن في قبته
بالنحاسين .

ومن عظماء سلاطين الممالك البحرية الملك الناصر محمد بن قلاوون
تولى الملك عدة مرات أهمها ولايته الثالثة من عام ٧٠٩ هـ ١٣١٠ إلى عام
٧٢٠ هـ ١٣٤١ م .

وبلغ من حسن سمعته أن طلب إليه إمبراطور الهند أن يساعده
على المغول وخطب وده قيصر الروم وجاءت وفود البابا وملوك فرنسا
ترجوه أن يحسن معاملة المسيحيين في دولته في مقابل معاملة المسلمين
النازلين بأوروبا بالمثل فكان الناصر يعمل جهده لإنصاف المسيحيين وإقامة
العدل بينهم في وقت ساد فيه الجهل والتعصب .

ولما نزل القحط بالبلاذ جلب إليها الغلال من سوريا وألزم
الأغنياء بيع ما يزيد عن حاجتهم بسعر محدود وأبطل الضرائب المرهقة
وقضى على إقطاعات الأمراء التى كانت تنقص من دخل الحكومة
وحفر ترعة من فوة إلى الاسكندرية (ترعة المحمودية الآن) وفتح

بذلك طريقاً مائية للتجارة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض فضلاً عن إخصاب الأراضي التي تشقها تلك التربة وشيد قصوراً شاهقة داخل القلعة وخارجها وأقام نحو ثلاثين مسجداً وكثيراً من الصهاريج العامة والحمامات والمدارس . ولم يقتصر اهتمامه على القاهرة بل تعداها إلى مكة وبعض مدن الشام ودفن في قبة والده .

ولما كثر الهياج وعمت الفوضى لتقليد الأمر الأطفال من بيت قلاوون الذي حل به الضعف وافق الخليفة والأمراء والمشايخ على أن يكون السلطان رجلاً لاطفلاً واختاروا في عام ١٣٨٢ الظاهر سيف الدين برقوق أحد مماليك البرجية سلطاناً وزاد النزاع الحزبي بانتقال الحكم إلى هؤلاء المماليك وكثر حصار القلعة وخرجت سوريا عن طاعة مصر وتعددت حوادث القحط والوباء حتى كان السكان أحياناً ينقصون إلى الثلث وثقلت الضرائب فبدأ الناس يثورون وشاعت الخيانة والغدر وكثر التعذيب بشتى الطرق .

المماليك
البرجية
أو الحركية

ومن المماليك البرجية (المؤيد شيخ الحمودي) من عام ١٤١٢ . إلى عام ١٤٢١ . وهو الذي أعاد الأمن في مصر واسترد الشام كلها إلى طرسوس وتوغل بجيوشه إلى أواسط آسيا الصغرى . وقد أدخل تغييراً مهماً في نظام الجيش فأصبح يتكون من :

- (١) جنود نظاميين تنفق عليهم الحكومة .
- (٢) مماليك السلطان وتصرف مرتباتهم من الأملاك السلطانية الخاصة .
- (٣) مماليك الأمراء وكان كل أمير يصرف على مماليكه .

وكان المؤيد تقياً ورعاً وشاعراً موسيقياً يشجع طلاب العلم ويحسن إلى الفقراء أيام القحط . ومن آثاره جامع المؤيد بجوار (باب زويلة) المعروف (ببوابة المتولى) .

وقد خلفه (الأشرف بارسبای) الذي استولت الجنود المصرية في آخر عهده على النصف الشرقي من أسيا الصغرى وبذا أصبحت أملاك مصر تجاور الأتراك العثمانيين بالجزء الغربي من شبه الجزيرة .

واستمر حكم المماليك البحرية نحو مائة وثلاثين سنة من عام ١٢٥٠ إلى عام ١٣٨٢ يتعاقب فيها على عرش مصر أشدهم بأساً وأكثرهم أتباعاً لا يكادون يعترفون بالوراثية لأمر ما عدا قلاوون إذ استمر الحكم في أسرته حوالي مائة سنة ثم جاء المماليك الجراكسة من عام ١٣٨٢ إلى عام ١٥١٧ وظلوا يختلف أقوياءهم على عرش مصر حتى انتهت دولتهم . وكان يحدث في كل من العصرين أن يعظم نفوذ أحد الأمراء فيقتل السلطان الذي لم يكن له غير الاسم أو يخلعه ولم يكن للسلطان عاصم إلا حرسه . فكان يمنحهم إقطاعات واسعة ويفرق عليهم النعم ويجزل لهم العطايا والإحسان حتى أصبح الجزء الأكبر من أرض مصر قطعاً قطعاً لضباط الحرس والجند الذين كانوا أحياناً يعزلون السلاطين ويولونهم . وكان لكل أمير من ضباط الحرس وموظفي القصر وغيرهم حرس من مماليكه يقومون على حراسته والدفاع عنه إذا ما حاصر قصره أمير آخر ويفسدونه بأرواحهم في ميدان القتال .

وكان هؤلاء الأمراء وأعوانهم خطراً على السلطان فإذا تحالف

جماعة منهم عليه سد أعوانهم منافذ القصر وعمد حليف من خدم
السلطان إلى طعنه وعند ذلك تختار هذه الجماعة واحداً منهم للعرش وبذا
ينتهي الأمر . أما إذا قام حزب معارض فتصبح شوارع المدينة ميادين
للقتال ويغلق الأهالي حوانيتهم^(١) ويهرعون إلى منازلهم ثم يقفلون أبواب
الحارات التي كانت تعزل كل حي عن سواه . وقد يستمر ذلك أياماً
يجوب فيها المتحاربون الشوارع العامة وينهب كل فريق منهم بيوت
الأعداء ويسبي نساءهم وأولادهم ويصوب الفريق الآخر السهام ويسدد
الرماح من نوافذ المنازل وسطوحها إلى أعدائه في الطرقات .

وكان السلاطين مثقلين بالواجبات يجلسون للقضاء والفصل فيما
يقدمه لهم عامة الناس من المظالم ويشرفون على كل مكاتبات الدولة من
داخلية وخارجية .

كان المماليك يميلون إلى إقامة الحفلات الرسمية وكانوا مولعين بالرياضة
البدنية كالصيد والرماية وركوب الخيل وألعاب السيف والرمح والسباحة .
أما حياتهم الخاصة فأوضح وصف لها ماورد في كتاب ألف ليلة وليلة
لأن أكثره مستمد من حياتهم في القاهرة ويؤيد ذلك ما خلفوه وراءهم
من قصور نفخة بديعة التنسيق تتجلى فيها آثار الصناعة العربية الدقيقة
من نافورات ومصاييح ومباخر وأباريق وآنية مرصعة بالذهب والفضة
وتحف وطرائف جعلت عصر المماليك أزهى عصور الفن الإسلامي المصري .
ولقد كان المماليك وهم جماعة أجنبية لا تربطهم بالبلاد روابط وطنية

الاحوال
الاجتماعية
والاقتصادية

(١) من الأفعال اللازمة للبناء للجهول قال تعالى : « وجاءه قومه يهرعون إليه » .

أو عائلية يسفكون الدماء ويظلمون الرعية ثم بعدُ هم يستمتعون بمنتجات
الفن الجميل ولكنهم كانوا يسخون بالأقاف على المؤسسات الخيرية
ويشيدون المساجد والقصور التي تعد بحق من آيات الفن وبيالغون في
العناية بالمسكن والملبس والآثا ويشجعون الآداب والفنون بقدر
ما تسمح به أوقات الفراغ من الحروب الحزبية فيما بينهم .

أما عامة الشعب فكانوا يزرعون الأرض ويدفعون الضرائب
ليعيش منها الممالك ويصنعون لهم ما يحتاجون إليه من مختلف الحاجات
وكان قليل منهم يعمل في القضاء وما إليه من الوظائف الدينية وفيما عدا
ذلك لا يتصلون بالهيئة الحاكمة ولا تدخل لهم في شئون الحكم .

ولقد وجدت الصلات التجارية بين الشرق والغرب بعد أن اتصل
الشرق بالغرب في أثناء الحروب الصليبية وتاق الغرب إلى الاستمتاع
بنفائس ما كان ينتجه الشرق من مختلف الطرائف والحاجات وكانت

البضائع تنقل من الشرق إلى الغرب بطرق ثلاث هي : أهمية التجارة

(١) طريق السويس — من المحيط الهندي والبحر الأحمر إلى السويس
ثم إلى القاهرة بالقوافل حيث تشحن في السفن وتسير في فرع
رشيد إلى قرب الرحمانية ثم في ترعة مكان ترعة المحمودية الحالية
إلى الاسكندرية ومنها إلى إيطاليا فاسواق أوروبا .

(٢) طريق اسكندرونة — من المحيط الهندي وخليج البصرة ونهر
الفرات إلى حلب واسكندرونة بطريق القوافل ثم إلى إيطاليا
فاسواق أوروبا .

(٣) الطريق البرى إلى قسطنطينية — بين شرق آسيا وغربها مارا من جنوبى جبال (التاى) ثم محاذيا لبحيرات (بلكاش) و (يكال) و (بحر الخزر) إلى جنوب روسيا ومنتها إلى القسطنطينية ومنها إلى أسواق أوروبا .

ويتضح مما تقدم أن معظم التجارة بين آسيا وأوروبا براً أو بحراً كانت تمر بمصر أو بالشام التابعة لمصر وكان فى استطاعة خلفاء مصر وسلاطينها التحكم فيها كما يشاءون .

وأهم ما كان ينقل من الشرق حريير الصين وبفتة الهند وشاش الموصل والجواهر الكريمة التى تزدان بها تيجان الملوك والأمراء من زمرد وزبرجد وياقوت وماس وغيرها مما يوجد بالشرق وخصوصاً فى الهند ولم تكن أوروبا تعرف سوى الطب العربى وعماده بالطبع العقاقير الشرقية كالتمر هندى والمر والراوند وزيت الخروع والنشادر والسنامكة والصمغ العربى والأفيون وهو المسكن الوحيد فى ذلك العصر والكافور والزعفران وما كانت الكنائس الكاثوليكية وهى لا تحصى عدداً فى غرب أوروبا تستغنى فى طقوسها عن البخور ومصدره الشرق .

وفوق هذا كان الأوربيون يعوزهم غذاء الأغنام شتاء فيذبحون كثيراً من هذه الحيوانات ويحففون لحومها ويفعلون مثل ذلك فى السمك ولم يكن بد من التوابل كاللفل والقرنفل وجوز الطيب والقرفة والزنجبيل ، ولا يقل عن هذه أهمية مواد الصباغة كالعظم (النيلة) وأدوات الزينة والتمر واللازورد .

هذا قليل من كثير من نفائس الشرق وهو يكفي للدلالة على أن
قدراً غير قليل من الكماليات بل والضروريات المنزلية كان يستحضر
من آسيا إلى أوروبا في العصور الوسطى . وكل هذه الكنوز والطرف
كان أكثرها يمر بين السويس والاسكندرية وبقيتها بالشام . وكان
سلاطين المماليك يفرضون عليها في الحالين (التصدير والتوريد) ضرائب
جهركية لا يسهل علينا تصديقها ؛ ضرائب كانت تبلغ ثلث مائتيه
السلع في مصر . وبذلك جمع سلاطين مصر من هذه التجارة أموالاً
طائلة بنوا منها أكبر المساجد وأنعم المدارس والمستشفيات والسبل
وما إليها مما يعد أبداع ما لدينا من الفن العربي وناهيك بجامع السلطان
حسن عظمة وجامع قايتباي تنسيقاً ودقة صنع . بهذه الأموال عاشوا
في نعيم وترف صار مضرب الأمثال وكثر إحسانهم في الأعياد
والمواسم مما كان يخفف غائلة الفقر بين الأهالي واحتفظوا بجلال الملك
وأبهة الدولة ما بقيت مصر والشام ملتقى البائع الشرقي والمشتري الغربي
وكانت الاسكندرية أكبر مركز لتلك التجارة فأقام أكثر الدول
الأوربية بها وكالات تشرف على مصالح تجارتها .

ولما كان الإيطاليون أقرب الأوربيين إلى الإسكندرية لم ينته القرن
الثالث عشر حتى كان نقل التجارة من مصر والشام إلى أوروبا وقفاً عليهم
وكان أسبق مدن إيطاليا (فيزا) ولكنها كانت نظراً لموقعها الطبيعي
دون (جنوى) و (البندقية) اللتين وقعت بينهما المنافسة طويلاً تريد
كل منهما أن تنفرد بتلك الغنيمة العظيمة وما لبثت (البندقية) أن

فازت بفضل قربها واكتفت جنوى بتجارة القسطنطينية ومن البندقية كانت التوابل وبقية سلع الشرق تنقل إلى (أنقرس) و (بروج) ومدن الهندس مما درّ على البنادقة ذهب أوروبا حتى أرى أهلها حكومة وشعبا فامتد ملكهم في وادى نهر (البو) و (دلماسيا) وجزر اليونان وإقريطش (كريت) و (قبرص) وصارت هذه المحطات بينها وبين حلب واسكندرية فلا عجب أن سبقت (البندقية) غيرها في الطباعة والتصوير في أواخر العصور الوسطى .

وقد استمرأ المماليك والإيطاليون هذه المكاسب الكبيرة واشتط الأولون في فرض المكوس ورفع الآخرون الأثمان طلبا لزيادة الأرباح حتى صارت تحف الشرق تباع بأثمان باهظة فضاق المشترون ذرعا ودب الحسد في قلوب بعض الأمم الأوربية . واعملوا الفكر في نيل شطر من تلك الأموال التي ما زالت تتدفق في جيوب المصريين والبنادقة فلم يمد لمعالجة الموقف أحسن من البحث عن طريق جديد يحول التجارة عن مصر والبندقية وقد أدى هذا إلى الاكتشافات الجغرافية .

وعند ما وصل السلطان سليم إلى هذا الحد من الحديث أراد أبو الهول أن يحدد نصيب كل من الحاضرين في تلك الأحاديث فأشار إلى الأستاذ الجامعى أن يستأنف حديثه الذى وقف عند حده حين بدأ السلطان سليم ذكر تاريخ الدولة العثمانية فقال الأستاذ :

المائة الستة

إنه في الوقت الذي فتح فيه الأتراك القسطنطينية ووسعوا فيه أملاكهم في جنوب شرق أوروبا خرج المسلمون من الأندلس وكان الإسلام أبي إلا أن يحدث مدًا في الشرق يصحبه جزر في الجنوب الغربي من أوروبا حيث كانت فرنسا وإنجلترا مشتبكتين في حرب المائة سنة وهي عدة حروب متقطعة بينهما استمرت من ١٣٣٨ إلى ١٤٥٣ وكان السبب فيها أن ملك إنجلترا بعد فقدته ليرمنديا وأنجو في سنة ١٢١٤ كان يطمح في أن يملك (بواتو) و (أكتين) و (غسقونيا) فيعزل جهود ملك فرنسا في سبيل توحيد مملكته سياسيًا.

ولما كان ملوك إنجلترا متمسكين بحقوقهم في هذه الأقاليم وكان ملوك فرنسا مصممين على نشر سلطانهم عليها جميعًا لم يكن بد من وقوع حرب بينهما تنتهي إما بنجاح ملك إنجلترا في إخضاع فرنسا وإعلان نفسه ملكا عليها أو بتمكن ملك فرنسا من طرد الإنجليز نهائيًا وضم أملاكهم الفرنسية إلى فرنسا.

النزاع بين
إنجلترا
وفرنسا

وقد بدأ النزاع بين إنجلترا وفرنسا على إثر انقراض أسرة هيوكايت الحاكمة في فرنسا - بموت الابن الثالث لفليب الرابع في سنة ١٣٢٨ وادعاء أدوارد الثالث ملك إنجلترا حق تتويج نفسه ملكا على فرنسا لأن والدته هي ابنة فليب الرابع؛ ولكن علماء القانون في فرنسا لم يسمعهم

إزاء هذه المطامع إلا أن يعلنوا أن التقاليد الفرنجية القديمة لا تجيز لسيدة أو وريثها اعتلاء عرش فرنسا وعلى ذلك انتخب فليب السادس أول ملوك أسرة فالوا Valois ملكا على فرنسا. ولكن سرعان ما قام النزاع بين مدن فلندرة وبين ملك فرنسا إذ حاولت الاستقلال فأمر ملك فرنسا حاكمها بقمع هذه الحركة وكانت هذه المدن من أغنى مدن أوروبا في العصور الوسطى لاشتهارها بالمنسوجات الصوفية، وكانت تربطها بالبحر علاقات تجارية متينة وكانت إنجلترا تصدر لها أحسن الأصواف التي كانت تعتمد عليها في منسوجاتها ولذلك انحازت هذه المدن إلى جانب ادوارد الثالث عندما أعلن حقه في تاج فرنسا.

الأصواف
الانجليزية

وفي سنة ١٣٣٦ أمر حاكم فلندرة بسجن التجار الانجليز الذين في بلاده ومنع ادوارد الثالث من جانبه تصدير الصوف واستيراد المنسوجات الصوفية لشل الحركة التجارية وسمى في حماية الصناع الفلمنكيين فنقلهم إلى بلاده وأسكنهم إقليم نورفلك Norfolk الذي بدأت تظهر فيه صناعة الأصواف. وكانت السفن الانجليزية تعمل في البحار للاحتفاظ بسيادة الانجليز على البحر بين إنجلترا وفرنسا.

هذه هي مقدمات حرب المائة سنة التي بدأت في فرنسا في سنة ١٣٤٦ عندما هاجم ادوارد الثالث ساحل نورمندي وتوغل في الداخل حتى اقترب من باريس ثم عاد وقابل الفرنسيين في واقعة كرسى Crecy التي انتصر فيها والتي لها أهمية كبرى في التاريخ إذ تبين للعالم أن الصفوف المتراصة من المشاة إذا عملت بالاتحاد وأحكمت استعمال الأقواس

والرماح أمكنها الانتصار على الفرسان بسهولة . وعلى أثر هذه الموقعة أخذ الإنجليز كاليه واستمرت في حوزتهم قرناً من الزمان .

ووقعت الحرب بين الفرنسيين والإنجليز عندما انتشر الطاعون المعروف (بالموت الأسود) واجتاح أوروبا كلها من سنة ١٣٤٨ إلى سنة ١٣٤٩ وأفنى ما يقرب من نصف السكان .

الموت
الأسود
في أوروبا

وفي سنة ١٣٥٦ اشتبك الإنجليز مع الفرنسيين في حرب أخرى انتصر فيها الأمير ادوارد الملقب (بالأمير الأسود) ابن ادوارد الثالث في واقعة (بواتيه) Poitiers وأخذ (حنا) ملك فرنسا أسيراً إلى لندن ونظراً إلى أن هذه الانتصارات لم تكن حاسمة اضطر والده ادوارد الثالث في النهاية إلى عقد معاهدة (برتيني) Bretigny في سنة ١٣٦٠ تنازل فيها عن حقه في تاج فرنسا وعن حقوقه في (نرمنديه) في مقابل أخذه (بواتو) و (غين) و (غسقونيا) و (كاليه) وتبلغ مساحتها ثلث مساحة فرنسا تقريباً يحكمها من غير الاعتراف بسيادة ملك فرنسا عليها .

ولم تستمر هذه المعاهدة طويلاً لأن الأمير الأسود عند ما حكم الأقاليم الجنوبية نيابة عن والده اشتد في معاملة الأهالي الذين يفضلون بطبيعة الحال الحكم الفرنسي على الإنجليزي فقاموا بثورة ضد الإنجليز وشجعهم عليها مرض الأمير الأسود وموته وضعف ادوارد الثالث في شيخوخته ، وتمكن ملك فرنسا شارل الخامس (من سنة ١٣٤٦ إلى سنة ١٣٨٠) من استرداد الأقاليم التي أخذها الإنجليز بالتدريج ولم يبق لهم بعد موت ادوارد الثالث في سنة ١٣٧٧ من الممتلكات في فرنسا سوى كاليه وإقليم صغير حول بوردو .

وقد وقفت الحرب ثانية بين فرنسا وإنجلترا لسوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية في المملكتين :

ففي فرنسا التي كانت ميدانا لهذه الحروب تعطلت الزراعة والصناعة والتجارة وانتشر الجنود وعاشوا بالنهب من مهاجمة البلاد .

أما في إنجلترا فإنه لما قلت الأيدي العاملة بسبب الموت الأسود واحتاج الأشراف إلى عمال في ضياعهم ومزارعهم ارتفعت الأجور لدرجة لجأ معها الأشراف إلى الحكومة فأصدرت قانونا يهدد بسجن من يرفض الأجور القديمة فتدمر رقيق الأرض وثار الفلاحون في سنة ١٣٨١ واجتمع منهم نحو مائة ألف في جنوب وغرب إنجلترا وهاجموا قصور الأشراف وأحرقوها ودمروا ما بها وأبادوا سجلات عبوديتهم وفتحت لهم لندرة الأبواب فدخلوها وقابلوا الملك الصغير رتشارد الثاني ووعدهم بإلغاء الرق ففرقوا؛ ولكن الأشراف قد انتقموا من زعماء الحركة انتقاماً مريعاً .

نورة العيد

وفي سنة ١٤١٥ أعلن هنري الخامس حقه في تاج فرنسا ، التي أراد محاربتها لتقوية مركز أسرته في إنجلترا واستمالة الناس إليه وهاجمها في السنة التالية وانتصر على الفرنسيين في واقعة اجنكورت (Agincourt) بالقرب من (كرسى) وعقدت معاهدة (تروى) (Troyes) في سنة ١٤٢٠ تقرر فيها أن يكون هنري الخامس نائباً عن الملك في فرنسا وأن يتوج ملكاً عليها بعد موت شارل السادس غير أنه في سنة ١٤٢٢ مات الاثنان وترك هنري الخامس ابنه هنري السادس وعمره بضعة أشهر فعين دوق

المودة
للطالبة
تاج فرنسا

بدفورد (Bedford) وصياً على الملك فأحسن القوامه وواصل الانتصار على فرنسا وبمساعيه أعلن هنرى السادس ملكاً على شمال فرنسا إلى نهر اللوار جنوباً فسقط في يدولى العهد فى فرنسا (الدوفن) (Dauphin) الذى لم يجرؤ على تتويج نفسه ملكاً على فرنسا .

وقد قوى مركز هنرى السادس فى فرنسا وبخاصة عندما انضمت إلى جانبه برغندية وهى من أغنى وأقوى المقاطعات فيها وذلك على أثر قتل دوقها فى ولیمه أقامها الدوفن واستطاع الانجليز محاصرة أورليان التى تعتبر مفتاحاً لجنوب فرنسا .

وفى الوقت الذى كانت فيه المدينة مشرفة على التسليم جاءت النجدة ، حيث ظهرت فى شرق فرنسا فتاة قروية تدعى (جان دارك) (Jeanne d'Arc) أعلنت للناس أنها سمعت مناديا يناديها بأن تقوم وتحارب على رأس الجيش الفرنسى لطرد الانجليز من فرنسا والأخذ بيدولى العهد وتتويجه ملكاً على فرنسا فى كنيسة (ريم) (Reims) وأضافت : إن مصدر هذه الرسالة سر إلهى وإنها مدفوعة بالقوة الإلهية لتنفيذ مهمتها فاستخف بدعوتها الناس فى أول الأمر ولكنها نجحت فى مقابلة ولى العهد (الدوفن) الذى أجابها إلى طلباتها ، وكان مجرد وجودها فى وسط الجنود الفرنسية كافياً لإظهار حماسهم وإحياء روح جديدة فيهم لا عهد لهم بها من قبل وهى روح الاستبسال والاستماتة فى سبيل الدفاع عن أرض الوطن (فرنسا) .

وقد سارت جان دارك وهى فى ملابس الرجال على رأس الجيش

جان دارك

الفرنسي الذي هزم الإنجليز في سنة ١٤٢٩ ورفع الحصار عن أورليان بفضل ما أظهره من البسالة والشجاعة والإقدام .

ثم حققت الفتاة باقى برنامجها وتوج (الدوفن) فى كنيسة ريم ملكاً على فرنسا فى نفس السنة ، وأرادت العودة إلى قريتها ولكن ألح عليها الملك بالبقاء فى الجيش حتى يتم طرد الإنجليز فبقيت ودبت فى نفوس القواد عوامل الحسد والغيرة فتركوها تقع أسيرة فى أيدي البرغنديين فباعوها لحلفائهم الإنجليز الذين لم يعاملوها كأسييرة بل كساحرة ملحدة وشكلوا لها كمتها محكمة دينية حكمت عليها بالإحراق ونفذ الحكم فى مدينة زوان .

وبعد ذلك مات دوق بدفورد وأنحاز البرغنديون إلى ملك فرنسا فى سنة ١٤٣٥ فساعد ذلك كثيراً على طرد الفرنسيين للإنجليز فى سنة ١٤٥٣ ولم يبق لهم إلا (كاليه) وبذلك تم توحيد فرنسا سياسياً وبدأ ملوكها يثبتون عرشهم ويقوون سلطانهم فى البلاد حتى أصبحت فرنسا من أقوى الممالك فى أوروبا إذ استطاع لويس الحادى عشر من سنة ١٤٦١ إلى سنة ١٤٨٣ ومن بعده شارل الثامن من سنة ١٤٨٣ إلى سنة ١٤٩٨ أن يحتفظا بجيش دائم وأن يوطدا السلطة الملكية الاستبدادية ، ونجح لويس الحادى عشر من ضم دوقيتى (برغندية) و (بروفس) إلى التاج الفرنسى ولم يبق من الدوقيات المهمة إلا (برطانية) التى ضمها إليه شارل الثامن فى سنة ١٤٩١ بزواجه من وارثتها فأصبحت فرنسا كتلة واحدة قوية .

وفي سنة ١٤٩٤ غزا شارل الثامن إيطاليا وسرت بذلك روح النهضة الحديثة إلى الفرنسيين فخرجوا من العصور الوسطى .

حرب
الوردية
في إنجلترا

أما في إنجلترا فقامت حروب داخلية بين أحزاب الأشراف المختلفة تعرف بحروب الوردتين نسبة إلى الوردة الحمراء وهي شارة أسرة لنكستر والوردة البيضاء وهي رمز أسرة يورك وكانت كل من الأسرتين تدعى أنها أحق بالملك من الأخرى .

وبدأ النزاع عند ما ثار دوق يورك على الملك هنري الثالث وطرده وتوج نفسه في سنة ١٤٦١ باسم إدوارد الرابع (من سنة ١٤٦١ إلى سنة ١٤٨٣) واستمر حتى مات إدوارد الرابع وخلفه إدوارد الخامس في الثانية عشرة من عمره بوصاية عمه دوق جلستر الذي زج به وبأخيه وأقاربه في السجن واعتلى العرش باسم ريتشارد الثالث من سنة ١٤٨٣ إلى سنة ١٤٨٥ ولم يهدأ له بال حتى قضى على ابني أخيه في السجن فسخط عليه الشعب وقام دوق ريتشمند (Richmond) من سلالة إدوارد الثالث من أسرة لنكستر وحارب ريتشارد وانتصر عليه في واقعة (بزورث) (Bosworth) في سنة ١٤٨٥ . وقد قتل ريتشارد في المعركة وأعلن ريتشمند ملكا على إنجلترا باسم هنري السابع وبذلك وضع أساس أسرة (تيودور) (Tudor) في إنجلترا وحسم النزاع بتزوجه من (إليصابات) (Elizabeth) واثرة أسرة يورك .

وبتولى أسرة تيودور الحكم بدأت عوامل النهضة تظهر في إنجلترا وبزغ فجر تاريخها الحديث .

أما في أسبانيا فقد عرفنا كيف اتحدت ممالكها التي كانت تخوض
 غمار حروب شعواء طوال القرن الرابع عشر وعرفنا كيف استولى
 فرديناند ملك (أرغن) Aragon وايزابلا ملكة (قشتالة) على غرناطة
 وهي آخر معقل للمسلمين في أسبانيا . ومن هذا التاريخ حل عهد الملكية
 المطلقة كما حدث في فرنسا وانكلترا وبدأ فرديناند وايزابلا حكمهما
 بالاستبداد المطلق معتمدين على قوة الكنيسة ونفوذها فاستصدرا بادیء
 ذي بدء من البابا في عام ١٤٨٠ أمراً بإعادة محكمة التفتيش تحت اسم
 (الخدمة المقدسة) لتبحث ضمائر الناس وعينا رئيساً لها يدعى (تركادا)
 (Tarquimada) وقد ترك أثراً من أسوأ الآثار في تاريخ القسوة البشرية
 فمحكمة قشتالة قد أحرقت وحدها من الأحياء سبعمائة نسمة وسجنت
 خمسة آلاف كانوا يقاسون أفظع أنواع التعذيب في سجنهم وذلك
 بخلاف من نفي من اليهود جماعات ومن عذب من المسلمين بالرغم من
 معاهدة التسليم التي نصت على أن تترك للمسلمين حرية دينهم .

ولا ريب في أن هذه القسوة قد أضعفت من قوة البلاد فأجبه
 فكر ملوك أسبانيا الكاثوليك إلى مد نفوذهم خارج حدود المملكة
 فشجعت ايزابلا (كريستوف كولبوس) في عام ١٤٩٢ على اكتشاف
 العالم الجديد كما أخذ فرديناند يعمل في السياسة الأوربية إلى أن تولى ابنه
 (شارل) في عام ١٥١٦ ولعب دوراً مهماً في تاريخ أوربا . وشارل هذا
 هو المعروف تاريخاً باسم شرلكان وسيأتي ذكره بعد .

وأما في إيطاليا فلم تتحد ممالكها بل بقيت كما كانت في عهد

الإقطاع ولم تحصل على وحدتها كما حدث في فرنسا وانكلترا وإسبانيا فكانت إيطاليا تشمل جمهورية البندقية ودوقية ميلانو في الشمال وجمهورية فلورنسا والمملكة البابوية في الوسط ومملكة نابولي في الجنوب .

أما البندقية فقد كانت أقوى هذه الممالك وأتقنها نظاماً وأكثرها ثروة بسبب علاقتها التجارية بالشرق وكان لها أسطول تجارى بلغ عدد سفنه ثلاثة آلاف وثلاثمائة سفينة وعدد بحارته ستة وثلاثون ألف بحار وكان يلقب رئيس الجمهورية بالدوج . وكانت هذه الجمهورية أرستقراطية حيث كانت إدارة الحكم فيها للطبقة الأرستقراطية من بين العائلات التي لم يزد عددها على مائتي عائلة وكانت أسماء هذه العائلات مدونة بكتابها الذهبي ولهذا أصبح الدوج منذ القرن الخامس عشر تحت رقابة مجلس العشرة الذي امتدت سلطته إلى جميع شئون الجمهورية وكانت أحكامه تنفذ بطريقة سرية ولكنها مرعية .

وعلى الرغم من هذا الحكم المؤسس على الإرهاب والاستبداد فقد اتسع ملك هذه الجمهورية حتى شمل البندقية واستريا ودلماسيا (Istrie et Dalmatie) على شواطئ الأدرياتيك وأصبحت البندقية صاحبة السيادة على هذا البحر .

ثم أخذت تزاخم جنوة في البحر الأبيض المتوسط غير أن الأتراك أوقفوا تقدمها باستيلائهم على كريت والمورة وجزر الأرخبيل . ولقد أنشأت جمهورية البندقية أولى العلاقات الدبلوماسية فكان سفراؤها أكثر اطلاعاً وعلماء بنوايا البلاد المجاورة لها والتي ارتبطت بها تجارياً .

أما دوقية ميلانو فكانت بلاداً زراعية أسستها في الأصل عائلة فيسكونتي (Les Visconti) التي صاهر منها الدوق دورليان فأصبحت زوجته جدة الملك الفرنسي لويس الثاني عشر ثم انقرضت عائلة فيسكونتي في عام ١٤٤٧ فاستولى على هذه الدوقية فرنسوا سفورزا (François Sforza) وجعل من ميلانو مهداً للنهضة العصرية بكتابها وفنانها ثم انتقلت السلطة في آخر القرن الخامس عشر إلى لورفيج سفورزا الذي سجن صاحب الحق واعتصبه منه ثم استعان بملك فرنسا شارل الثامن فكان هذا باعثاً من بواعث حروب فرنسا في إيطاليا.

أما فلورنسا فقد كانت كالبندقية من أغنى ممالك إيطاليا بسبب تجارتها الزاهية وصناعة غزل الصوف ونسجه وقد اشتهرت بمصارفها المالية وقد تدخلت في السياسة الأوربية بسبب انتشار عملائها في الأسواق المالية الأوربية كما كانت مهداً للكتاب والفنانين ووصلت إلى ذروة مدنيتهما في القرن الخامس عشر حيث كانت مركزاً للنهضة الفكرية وسميت (أثينا الإيطالية).

غير أن نظام الحكم في فلورنسا كان مركّزاً على نظامها الاقتصادي فنشأ بين طبقة الفنانين والصناع الراقين وبين عامة الشعب نزاع دائم للسيطرة والغلبة؛ وأخيراً تهيأت الظروف لرئيس عائلة الميديس (Medicis) الغنية المسمى كوسم (Cosme) للسيطرة على المدينة من عام ١٤٣٥ إلى عام ١٤٦٤ بغير قتال ولا سفك دماء، وكان ذلك لمجرد نفوذه وأهليته وثروته كما فعل بريكليس في أثينا من قبل. غير أن الاضطرابات قامت

بين عائلة الميديس وخصومها واستمرت زمناً ضعفت في غضون نه فلورنسا ولم تستطع أن تلعب دوراً في حوادث القرن السادس عشر .

أما المملكة البابوية التي كانت تمتد من الادرياتيک إلى البحر الأبيض المتوسط فلم تكن سلطة البابا فيها محترمة بل كان كثير من الطامعين يحكمون بأمرهم في كثير من نواحيها وكانت تنازع البابا في روما عائلتان هما عائلة أورسینی وعائلة كولونا (Orsini et Colonna) وأصبح البابا يحاول بسط نفوذه وسلطانه كأنه أمير دنيوی وكان فوق ذلك يسعى ليقبض هو وعائلته الثروات العظيمة ولذلك سمي هذا العهد بعهد الأقارب والأصهار . وكان اسكندر السادس بوجيا (Alexandre VI Borgia) من عام ١٤٩٢ إلى عام ١٥٠٣ أكثر البابوات قحة ومجاعة، وكان على الرغم من مظهره الفتان لا ضمير له ، حيث كان يرى أن الاغتيال والقتل ودس السم من الوسائل العادية للوصول بها إلى أغراضه ، حتى إن الكاتب الشهير مكيا فيل جعله نموذجاً لمؤلفه ، « الأمير » .

أما مملكة نابولي التي تقرب من نصف مساحة إيطاليا فكانت تنتقل من يد إلى أخرى ؛ ولما هم شارل الثامن ملك فرنسا لتثبيت حقوقه التي أوصاه بها والده لويس الحادي عشر وجد الأهالي يرحبون به كأنه منقذ لهم من حكم ملوك أرغن Aragon .

على أن الممالك الإيطالية كانت دائماً متنازعة فلم يوجد فيها وقتئذ جيش وطني ولا روح وطنية ، ولهذا كانت منذ آخر القرن الخامس عشر مسرحاً لحروب الدول الأوربية للاستيلاء عليها بسبب ثروتها وفنونها واتقساماتها الداخلية .

أما ألمانيا فقد بقيت تحت نظام الاقطاع من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر وكانت منقسمة إلى ممالك عديدة بلغت في وقت من الأوقات بين الخمسة والستمائة مملكة تحت أسماء مختلفة من دوقيات، إلى الكترات ، إلى مارجرافيات ، إلى مدائن حرة Duchés électorate Margraviats

ولو أن جميع هذه الممالك كانت مرتبطة ببعضها تحت اسم الامبراطورية الجرمانية ؛ إلا أنها كانت تختلف عن المملكة الفرنسية والانجليزية من حيث إن الامبراطور الجرمانى ينتخبه باقى أمراء ألمانيا بغير حاجة إلى تصديق البابا؛ وقد ترتب على ذلك أن التاج كان ينتقل من عائلة إلى أخرى ، غير أن عائلة هابسبورج تمكنت منذ عام ١٤٣٨ من المحافظة على هذا التاج بين أفرادها ومع ذلك فقد بقيت سلطة الامبراطور محدودة بمجلس الامبراطورية (La Diète de l'Empire) بحيث إنه لم يكن إلا منفذاً لارادة ذلك المجلس الذى كانت تتنازعه أغراض الأمراء المتضاربة ودسائسهم المتنوعة .

ولقد استمرت هذه الفوضى حتى عام ١٣٥٦ حيث نظم الإمبراطور شارل الرابع قواعد الانتخاب بقانون عرف باسم القانون الذهبى . وقد قضى بأن يكون الانتخاب من حق سبعة من الأمراء فقط وهم ملك بوهيميا ودوق السكس ومرجراف برندبورج وكونت (الردون) الرين وثلاثة من رجال الاكليروس وهم أساقفة تريف ومايانس وكولونيا (Trêve, Mayance et Cologne) فكان هذا الانتخاب اشبه شئ بالبيعة التى كانت تحدث من ذوى الرأى والتفوذ عند انتخاب الخلفاء الراشدين فى صدر الإسلام .

وقد خول هذا القانون لكل واحد من هؤلاء حق التصرف المطلق في مملكته فكان ذلك اعترافاً صريحاً بتجزئة الامبراطورية الجرمانية .

هذا ولقد برزت من العائلات الحاكمة في هذه الممالك المتعددة عائلتان هما أسرة الهوهنزولرن وأسرة هابسبورج . أما الأولى فقد كان مقرها في جنوب ألمانيا ثم انتقل إلى نورنبرج (Nuremberg) وكانت دائنة لأحد الأباطرة المسمى سيجموند (Sigismond) وقد عجز عن الوفاء واضطر إلى التنازل لهذه العائلة عن مقاطعة برندبورج في مقابل هذا الدين ، وبذا بدأ الدهر يبسم لهذه العائلة التي وصلت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى ذروة المجد وأصبح أفرادها ملوكاً لبروسيا ثم أباطرة على ألمانيا الحديثة .

أما أسرة الهابسبورج فكان حظها الحسن سريعاً ما اعتلى رودلف عرش النمسا وأصبح أغنى أمراء ألمانيا ؛ وإذا كانت هذه الأسرة قد فقدت تاج النمسا فقرة من الزمن إلا أنها قد استعادت في عام ١٤٣٨ وظلت محتفظة به حتى إن فردريك الثالث اختار ابنه حال حياته ليكون حاملاً للقب امبراطور الرومان الذي بقي لورثته من بعده . وهو الذي خلق في مدة حكمه من عام ١٤٣٩ إلى عام ١٤٩٣ عظمة عائلته المعروفة تاريخياً باسم بيت النمسا (Maison d'Autriche Puissance) وقد اتبع سياسة المصاهرة في تأسيس عظمة هذا البيت فزوج ابنه ماكسيميليان من مريم ابنة شارل الجريء دوق برجونيا ولهذا انضمت إلى أملاك ابنه بلاد الفلندر

والبلاد الواطئة ولو كسمبرج وأرتوا وفرانس كوثيه .
ولما اعتلى ما كسيمليان هذا عرش أليه على النمسا واستريا
وكرانت والتيروول وجنوب الالزاس (وقد استمر ، حكمه من عام ١٤٥٣
إلى عام ١٥١٩) اتبع عين سياسة أليه فى المصاهرة ؛ فزوج ابنه فيليب
الجميل (Philippe le Beau) من حنينة المجنونة (Jeanne la Folle) وهى
ابنة فرديناند وايزابلا (Ferdinand et Isabelle) ملكى الأرغن وقشتالة
ووارثة عرشهما فأنجب هذا الزواج شر لكان المشهور ثم عقد مصاهرة
أخرى مع واردة عرش بوهيميا وهنغاريا وكانت هذه المصاهرات الثلاث
البرجونية والإسبانية والبوهيمية هى التى خلقت عظمة بيت النمسا
وهددت فى أوائل القرن السادس عشر كيان الإمبراطورية الفرنسية
وحققت شعار فردريك الثالث وهو : (لنمسا حكم العالم) .

وعلى الرغم من قوة بيت النمسا وعظمته لم تستطع عائلة هابسبورج
أن تسيطر على المقاطعات السويسرية فمنذ عام ١٢٩١ م اجتمع مندوبو
شوتس واورى واوتروالد (Schwyz, Uri et Unterwald) فى ربوع
روتى (Rütli) وأسسوا تحالفا فيما بينهم انضمت إليه مقاطعات أخرى
مثل لوسرن فى عام ١٣٣٢ (Lucerne) وزوريخ وجلاوس وبرن
فى عام ١٣٥٣ ثم انضمت إليه فى القرن السادس عشر فريبورج وسولور ،
وبال وشافوزن وأبانزل — (Fribourg Soleure, Bâle, Schaffhausen
et Appenzill) — وأصبحت هذه المقاطعات تؤلف اتحاداً تابعاً اسماً
للإمبراطورية . أما فى الواقع فقد كانت المقاطعات مستقلة تماماً ولقد

حافظ أهلها على استقلالهم بقوة جندهم الذين امتازوا بالشجاعة والصفات
المسكينة فأصبحوا يستخدمون كجنود مرتزقة لملوك أوروبا . .

ويظهر لنا من كل ما تقدم أن ألمانيا كانت مثل إيطاليا مقسمة وفي
حالة فوضى سياسية ؛ غير أن هذه الفوضى لم تقف في سبيل تقدم ألمانيا
في التجارة وإنشاء ثروة مدنها التي أصبحت أغليتها مستقلة كأنها ممالك
قائمة بذاتها لكل منها حكومة ومجلس وجيش ويربطها ببعضها حلف
للدفاع عن كيائها من الاعتداءات الخارجية يعرف تاريخياً باسم الحلف

الهانسياتيک (Ligue Hanséatique)

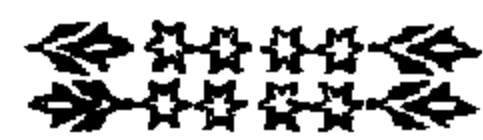
وقد شمل هذا الحلف في أواخر القرن الرابع عشر نحو ثمانين
مدينة كانت أكثر ثروة ورفاهية من غيرها ومن هذه المدن هامبورج
وبريم وداننزيج ولوبيك التي كانت عاصمة لهذا الحلف الذي أسس في
الخارج مراکز تجارية في نوفوجرود في روسيا وبرجن بالنرويج
وبروج في بلاد الفلندر ولوندرافى إنجلترا .

ولقد استتبع هذا التقدم في التجارة تقدماً أدبياً وفنياً فقد كثر
إنشاء الجامعات في ألمانيا منذ القرن الرابع عشر وبلغ عددها في أوائل
القرن السادس عشر نحو الخمس عشرة جامعة ؛ واشتهرت مدينتا نورنبرج
وأجزبورج (Nurenborg et Augosbourg) بالمدينة الجرمانية فأُنشئت
الأولى في أوائل القرن السادس عشر أمثال مارتم بهائم
(Martin Behaim) العالم الفلكي وبيتر فيشر (Peter Vischer)

والبرت دورر (Albert Durer) الرسامين والنحاتين في الفن الجرمانى .

أما اجزبورج فقد كانت تحت تأثير الفن الإيطالى بسبب تجارتها مع جمهورية البندقية وقد أنجبت هولبين من عام ١٤٩٧ إلى عام ١٥٤٣ وكان أكبر فنان فى عصره حتى صار رسام هنرى الثامن ملك إنجلترا . كذلك أنجبت اجزبورج جان جوتنبرج (Jean Gutenberg) الذى كان له فضل اختراع المطبعة، فعم انتشار التعليم وارتقاء الفكر الانسانى، وكان هذا الاختراع من أهم أسباب النهضة الأوربية التى أدت إلى المدنية الحاضرة .

وفى هذا العهد الذى أخذت فيه أوربا تنفض عنها غبار القرون الوسطى وتؤسس الممالك الحديثة فيها تكونت فى مصر دولة جديدة اتصلت بالممالك الإيطالية وكانت صلة التجارة بين الشرق والغرب . وهذه الدولة هى دولة المماليك البحرية والبرجية التى تحدث عنها وعن نشأتها السلطان سليم العظيم . وهنا قال أبو الهول : صه



الحديث العاشر

الاكتشافات الجغرافية

لقد انتهى الحديث التاسع عن حلقات هامة في تاريخ الإنسانية، وإن كان قد لفتني منها أن السلطان سليم قد أفضى إلى ذكر العلاقات التجارية وما كان يقوم به كل من التجار البنادقة وحكومات الممالك في مصر من تسابق في طلب الربح وتحصيل المال، الأولون باجتلاب السلع والتحف الشرقية، والآخرين بفرض المكوس الباهظة، ولقد لفتني أيضاً مثل هذه العلاقات، سيما بين الشرق وما يتخلله من مجاهيل، والغرب، وما فيه من أساطير في تلك العصور الوسطى إلى أن أعود إلى أبي الهول كي استوضحه أمر تلك الاكتشافات التي ذكرت في الحديث السالف ولم يشرحها أحد أو يعلق عليها من إجمالها، فرأيت كأن أبا الهول يومئ برأسه إلى قادم أجنبي في زى الرحالين الجوايين يتمنطق بوطاب قد ملأه بزاده، ووقف عن كشب منا، وعرفت من أبي الهول أن القادم هو (بطرس كوفلهام) (Pedro Covilham)، الذي جاء مصر عام ١٤٨٦م يبحث عن مملكة القس حنا، تلك الأقصوصة التي انتشرت بين أهالي القرون الوسطى عن وجود مملكة عظيمة واسعة الأرجاء، كائنة بالقرب من بلاد الصين أسسها قس اسمه حنا، فالتفت إليه وقلت: --

أيها السيد - لقد دل تعريف أبي الهول عنك أنك جواب رحالة ،
ولقد ذكرت لنا الكتب القديمة أن للعرب نصيباً في الرحلات
والاكتشافات الجغرافية ، وليس هذا بالأمر الغريب لأنه كان للعرب في
أول القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) ملك واسع الأرجاء ، وحضارة
باذخة وارفة الظلال ، كان من مظاهرها نصيبهم في الدراسات الجغرافية .
فنبغ منهم الإدريسي ، راسم أقدم خريطة جغرافية في العالم ، ثم ابن بطوطة
السائح الجواب ، والمقرئ صاحب الخطط . بل والذي يدهشنا حقاً أنه
قد ثبت من الأبحاث العلمية الحديثة وجود كلمات عربية في لغة هنود
أمريكا كالألفاظ المصرية التي ظهرت في لغة العرب . ومن هذه
الرحلات العربية ما لا يعلم الناس عنها إلا النزر القليل ، حتى إنه لم تعد
لها قيمة علمية في الاكتشافات الجغرافية .

من تلك الرحلات قصة التاجر سليمان الذي رحل إلى سور الصين
الشمالي (أو سد ياجوج وماجوج كما يسميه العرب) في عهد الخليفة
العباسي (الواثق) وذلك بين عام ٨٤٢ و ٨٤٥ م ، ومنها قصة سائح من
قريش يدعى ابن وهب الذي كان موضع حفاوة إمبراطور الصين
وإكرامه ، وأخيراً قصة الثمانية الفتيان المسلمين في أسبانيا الذين ركبوا
البحر وأنجسوا نحو الغرب صوب المحيط الأطلسي ثم وصفوا رحلتهم بعد
عودتهم إلى لشبونة ، والتي يظهر منها أنهم وصلوا إلى إحدى جزر الخالدات
أو جزيرة (آسور) أو (مادير) وقد لقب هؤلاء الفتيان بـ (المروزيين)
وعرف الحى الذي كانوا يقيمون فيه باسم (درب المروزيين) ويخيل إلينا

أن قصة هؤلاء الفتيحة كانت شائعة في القرون الوسطى حتى قيل إن كولومبس كان يحفل بها .

ولا ريب أيها الجوّاب الرحالة في أن رحلات العرب كانت تشبه رحلات الترمانيين من حيث إنها كانت مغامرات متقطعة غير متواصلة .
وهنا هش في وجهي قائلًا : —

إن للعرب على أية حال فضلاً كبيراً إن لم يظهر في تدوين رحلاتهم في نقل معارفهم إلينا التي ساعدت من جاء بعدهم من الرحالين فيما عنوا به . ولقد كانت فكرة أهل القرون الوسطى في أوربا أن الأرض مستطيلة أو مستديرة ولكنها ليست كروية ، فلما نقل المسلمون علوم اليونان إليهم وأضافوا إليها معارفهم كما نقلوا استخدام البوصلة في الملاحة البحرية تقدمت عندهم العلوم الجغرافية والفلكية وفن الملاحة البحرية فكان ذلك من أهم الأسباب المساعدة على الاكتشافات الجغرافية . أضف إلى ذلك أن الحروب الصليبية نقلت إلى أهل أوربا أخبار الشرقيين ووصف بلادهم مما دفعهم إلى حب السياحة ، ثم ازدادت رغبتهم في ذلك منذ القرن الثالث عشر عندما قرأوا مغامرات ماركو بولو وإخوته في أسفارهم إلى بلاد الصين واليابان ، غير أن هذه المغامرات لم تكن في مقدور كل إنسان ؛ ذلك لأن السياحة في البحار كانت تكتنفها أخطار عديدة والملاحون معرضون لأمراض كثيرة بسبب سوء التغذية وعدم صلاحية مياه الشرب الآسنة في الجفان (البراميل) وكانوا يعتقدون أنه يوجد في قاع البحار الواسعة أحجار تجذب السفن إليها فتغرقها ، لهذا ولغير هذا

لم يرافق المكتشفون الأولون غيرَ المسجونين من اللصوص والقتلة الذين كانوا يوعدون بالعفو عنهم عند عودتهم .

ويجدر بنا أن نلفت النظر إلى أن تلك السياحات البحرية لم يكن المقصود منها أول الأمر خدمة العلم أو الحصول على تجارة الشرق بل كان الدافع إليها أولاً حب المغامرات فنذ عام ١٠٠٠ ميلادية وصل إلى شواطئ أمريكا الشمالية بعض سكان البلاد السكندينية ثم عادوا ولم يتركوا أثراً في سياحتهم سوى بعض الأقاليم القومية. وفي عام ١٤٠٢ أسس من يدعى جان بتنكور (Jean Bethencourt) مملكة نورمندية في جزر كناريا لم يدم عهدها طويلاً .

فلما فتح الأتراك القسطنطينية في عام ١٤٥٣ وكانت مصر وقتئذ محكومة بدولة المماليك الذين كانوا يسيطرون على التجارة بين الشرق والغرب أخذ تجار البندقية الذين كانوا ينقلون السلع الشرقية من القسطنطينية والاسكندرية إلى أوروبا يتحكمون في أثمان هذه السلع وخصوصاً التوابل التي كان يستهلكها سكان أوروبا بكثرة لحفظ اللحوم والأسماك من العطب قبل أن يعرف العالم طرائق حفظ الأغذية بالثلاجات وغيرها ، وقد ترتب على ذلك أن أخذت فكرة البحث عن طريق آخر للشرق تنمو ، فلما انتصر مسيحيو إسبانيا والبرتغال على المسلمين وطاردوهم في شمال أفريقيا اتجهت فكرة هذين الشعبين إلى السياحة البحرية غرباً لأغراض ثلاثة : أولها تجارى وهو الوصول إلى تجارة الشرق من طريق البحر ، وثانيهما عسكري وسياسي وهو

الإحداق من الخلف بالممالك الإسلامية من هذا الطريق البحري، وثالثها هو البحث عما كانوا يسمونه بمملكة القس حنا ، وهو المهدف الذي عُتُوا به كثيراً .

ففي عام ١٤١٥ نظم الأمير هنري، الإبن الخامس لجان الأول ملك البرتغال ، رحلة بحرية لاكتشاف شواطئ أفريقيا جنوب مراکش ، كما أنشأ في مدينة سان فنسان (Saint Vincent) مدرسة للعلوم الجغرافية الفلكية والملاحة البحرية. ثم هذا الملك جان الثاني حذو الأمير هنري في تنظيم هذه الرحلات وإعدادها في مدة حكمه من عام ١٤٨١ إلى عام ١٤٩٥ الذي قمت في عهده بهذه الرحلة في عام ١٤٨٦ ، ولكني لم أتجه نحو شواطئ أفريقيا غرباً بل عبرت البحر الأبيض إلى مصر حيث أحطت بشيء عن صلة الكنيسة الأرثوذكسية في مصر بشقيقتها الصغرى في الحبشة ، بيد أنه لم يدر بخلاي أن مملكة القس حنا تكون بالقرب من هنا ، إذ المعروف والشائع يومئذ أن هذه المملكة قريبة من الصين. ولهذا توجهت إلى عدن ثم عبرت الخليج الفارسي ووصلت إلى كلكتا بالهند فلم أعثر على مملكة القس حنا ولكني اكتشفت جزيرة القمر ، وهي مدغشقر ، ثم قفلت راجعاً عن طريق مكة والمدينة متذكراً وقد عرفت ثمة الحادث المتداول بين أهل الحجاز الوارد ذكره في القرآن في « سورة الفيل » وهو حادث اعتداء نجاشي الحبشة على شبه جزيرة العرب وإرساله الجيوش ومعها فيل إلى مكة، فلما علمت به عدت فعبرت البحر ثانية ودخلت بلاد الحبشة وفككت رموز قصة مملكة القس

حنا، واستبان لي أن هذا القس الذي ذاع صيته في القرون الوسطى بين سكان أوروبا ما هو إلا النجاشي، وأن مملكته ليست سوى الإمبراطورية الحبشية التي اعتنقت المسيحية في القرن الرابع الميلادي، أي في الوقت الذي حكم فيه الإمبراطور ثيودور الروماني من عام ٣٧٨ إلى عام ٣٩٥ وحظر عبادة الأوثان نهائياً في الدولة الرومانية، وذلك قبل أن يعتنق المسيحية سكان البلاد السكندينية في شمال أوروبا بنحو سبعة قرون.

وفي عام ١٤٨٧ أرسل جان الثاني بعثة أخرى بقيادة دياز (Diaz) فوصل إلى جنوب أفريقيا واكتشف رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٨٨ وفي هذا الوقت انقسمت آراء النوتية (البحارة) فرأى بعضهم أن طريق رأس الرجاء الصالح أقرب الطرق لأهدافهم، ورأى البعض الآخر أن الاتجاه غرباً في الاطلانطي هو أقرب طريق للوصول إلى الصين والهند. ويدلنا هذا الانقسام في الرأي في هذا العهد على أمرين جديرين بالعناية.

فالأمر الأول يدل على أن جماعة النوتية والبحارة كانوا وحدهم يعتقدون وقتئذ بصحة رأي الإغريق والعرب في نظرية كروية الأرض، تلك النظرية التي لم يستطع أهل هذه العصور الوسطى الجهر بها خشية الطرد من الكنيسة حتى إن العالم البولندي نيقولا كوبرنيك (Nicolas Copernic) الذي كان يعلم أن الأرض إنما هي جرم كروي من الأجرام التي تدور حول الشمس لم يجرؤ على نشر اكتشافه خشية محاكم التفتيش، ولذلك لم يطبع كتابه إلا في عام ١٥٤٣ وهو التاريخ الذي

مات فيه وكان ذلك بعد اكتشافه العلمى بست وثلاثين سنة تقريباً .
أما الأمر الثانى فهو أن أهل هذا العصر كانوا يجهلون وجود
القارة الأمريكية وكانوا يظنون أنهم سيصلون بعبورهم الأطلنطى إلى
القارة الاسيوية . وكان كريستوف كولومبوس من شيعة هذا رأى ،
وقدمات بعد اكتشافه العظيم وهو يعتقد أنه قد وصل إلى بعض الجزر
فى القارة الاسيوية ، لا إلى القارة الأمريكية .

وكريستوف كولومبوس هذا قد سافر إلى ايسلاندا فى عام ١٤٧٧
وهى مسكونة بأسلاف النورماندين الذين استوطنوا جرونلاند ووصل
أجدادهم إلى شواطئ أمريكا فى القرن العاشر الميلادى ولم يستطيعوا
الإقامة فيها أكثر من بضع سنوات بسبب ماوقع عليهم من اعتداء
الاسكيمو (Les Esquimaux) وهم السكان الأصليون .

ولا يبعد أن يكون كريستوف كولومبوس قد وصل إليه نبأ رحلة
النورماندين فى صورة الأساطير القديمة التى يمكن أن تكون متداولة
وقسئذ فى تلك الأصقاع .

غير أن الأمر الذى لا شك فيه هو أن كولومبوس حصل على
معلومات من صائدى الأسماك فى اسكتلاندا ، ثم عاد إلى البرتغال وتزوج
بأبنة أحد النوتية الذين كانوا فى خدمة البرنس هنرى ، وكرس حياته لهذا
الاكتشاف الجغرافى وأرسل بمشروعاته إلى بلاط إسبانيا والبرتغال .
وبعد أن تغلب على المصاعب الجملة التى صادفته ابتسم له الدهر عندما
سقطت غرناطة فى أيدي الملكين الكاثوليكين (فرديناند وإيزابلا) فى

٢ يناير عام ١٤٩٢ حيث أمضى كولومبوس في إبريل من نفس هذا العام إتفاقاً مع هؤلاء الملوك استطاع به أن يرأس بعثة في رحلة بحرية اشتركت فيها ثلاث سفن وثمانية وثمانون بحاراً من الأشقياء والمجرمين. وقد وصل في رحلته هذه إلى شواطئ أمريكا في ١٢ أكتوبر ثم عاد إلى ميناء بالوس (Palos) في إسبانيا في ١٥ مارس عام ١٤٩٣ محروساً ببعض من أحضرهم معه من أهالي أمريكا الأصليين الذين كان يسميهم هنوداً ، لاعتقاده أن ما اكتشفه إنما هو بعض جزر الهند ، ثم ذهب نوّاً إلى برشلونة ينبيء فرديناند وإيزابلا بأن كنوز الصين واليابان أصبحت أبوابها مفتوحة على مصراعها لأمر جلالتهما وإذنيهما ، وعلى الرغم من أن كولومبوس قد قام بتلك السياحة نحو أربع مرات فإنه مات وهو يعتقد أنه لا توجد قارة أخرى بين آسيا وأوروبا ، وأن اكتشافه إنما كان إنغالا في بلاد الصين لا في القارة الأمريكية .

وفي هذه الأثناء كان المكتشفون البرتغاليون أوفر حظاً؛ ففي عام ١٤٩٨ وصل فازكو دوجاما (Vasco de Gama) إلى شواطئ ملابار (Malabar) وعاد إلى لشبونة (Lisbonne) يحمل تجارة التوابل .

أما الإسبان فم يتجاوزوا الصخور الثلجية في نيوفوندلاند (Newfoundland) التي كان النورمانديون قد وصلوا إليها قبل ذلك بخمسة قرون .

وأما الإيطاليون فقد وصل الرحالة أمريكوفزبوسي — (Amerigo Vespucci) — وهو إيطالي من مدينة فلورانس إلى شواطئ البرازيل .

ولما لم يجد أثراً لبلاد الهند أطلق اسمه على تلك الأصقاع فسميت
أمريكا من ذلك الحين .

وأخيراً اكتشف الرحالة ماجيلان (Magellan) في عام ١٥١٩ في
أمريكا الجنوبية الثغر الذي سمي باسمه والذي خرج منه إلى المحيط
الهادي الذي سمي بذلك لهدوء مائه ، واستمر في رحلته غرباً زهاء ثمانية
وتسعين يوماً ذاق فيها آلام الجوع والعطش حتى وصل إلى جزر الفيلبين
وقد سميت كذلك تيمناً بابن شر لكان ومات ماجيلان هناك، غير أن البعثة
واصلت رحلتها حتى اكتشفت جزائر مولوك (Moluques) التي تكثر
فيها التوابل، وبعد ذلك اكتشفت جزيرة بورنيو (Bornéo) ولم تكتشف
أستراليا (Australie) إلا في النصف الثاني من القرن السابع عشر بعرفة
الشركة الشرقية الهولندية. وبعد ذلك عادت هذه البعثة من رحلتها إلى
إسبانيا فكانت أعظم بعثة استكشافية استغرقت ثلاث سنوات ،
وصرفت من الأموال ما صرفت ، وأضاعت من الرجال ما أضاعت ،
ولكنها حققت باكتشافاتها للناس جميعاً أن الأرض كروية وأن القارة
التي بدأ باكتشافها كولومبوس ما هي إلا قارة أخرى غير القارة الآسيوية .
ومنذ ذلك العهد أخذت البرتغال وأسبانيا تتاجران مع الهند
وأمريكا ثم تدخل البابا إسكندر السادس لمنع التصادم بينهما بسبب
المنافسة التجارية فرسم حداً فاصلاً يمر بين الدرجة الخمسين من خطوط
الطول غربي جرينوتش وجعل للبرتغال حق الاتجار مع البلاد الواقعة
شرقي هذا الخط وللأسبان حق الاتجار مع البلاد الواقعة غربيه . وبهذا

أصبحت كل أمريكا ما عدا البرازيل من نصيب اسبانيا . أما الهند والأراضي الأفريقية فكانت من نصيب البرتغال .

ومن هذا التاريخ أخذ البرتغاليون يحتكرون تجارة الشرق لأنفسهم قسراً واقتداراً؛ ففي عام ١٥٠٢ أحرق فازكو دوجاما سفناً للعرب كانت راسية في ميناء كلكوتا بعد أن جدد أنوف البحارة وقطع أيديهم وأذانهم . فاتفقت جمهورية البندقية مع أمراء مصر من المماليك والتجار من العرب وأنشأوا أسطولاً في البحر الأحمر لمقاومة البرتغاليين ، غير أن أسطولهم هذا وإن كان قد حاز بعض الانتصارات في أول الأمر إلا أنه حطم تحطيماً نهائياً في عام ١٥٠٩ ففكر البنادقة وقتئذ في شق قناة السويس . غير أن حروب إيطاليا حالت دون تنفيذ هذا المشروع الذي كاد يقضى على البرتغاليين قضاء مبرماً والذي لم ينفذ إلا بعد مضي أربعة قرون تدهورت في غضونهما مصر وجمهورية البندقية معاً ، وبخاصة بعد أن تمكن البوكرج (Albuquerque) وهو خليفة فازكو دوجاما ، من إغلاق البابين الموصولين إلى البحر الأبيض المتوسط بالاستيلاء على عدن في مدخل البحر الأحمر في عام ١٥١٣ ، وعلى ميناء أرموز (Ormuz) في مدخل الخليج العربي في عام ١٥١٥ . ولم تمض على هذا الحادث سنتان حتى أغار الترك على مصر وضمت إلى أملاك تركيا في عهد السلطان سليم الأول في عام ١٥١٧ (كما سبق ذكره) .

هذا ولم يحزن البرتغاليون كثيراً من جهودهم لأنهم كانوا شعباً صغيراً لم يستطع الاحتفاظ بغير المناطق الساحلية؛ فكانت امبراطوريتهم

مكوّنة من محطات ساحلية بها مكاتب ومخازن تجارية ينقلون منها السلع الشرقية إلى لشبونة ثم يبيعونها إلى تجار من الهولانديين الذين تمكنوا في نهاية الأمر من الاستيلاء على أهم هذه المستعمرات في جزر السوند وحلوا فيها محل البرتغاليين .

أما الأسبان فقد وجدوا في الاتيل (Antilles) قبائل همجية فسهل عليهم استعمارها، غير أنهم صادفوا في المكسيك وفي البيرو (Mexique — et Peron) شعوبا متمدينة منذ القدم كما دلت عليهم آثارهم فكانت لسكان المكسيك كتابة تشبه الكتابة الهيروغليفية ولكن كانت آلهتهم كآلهة الشعوب القديمة تقدم إليها الضحايا البشرية بكثرة هائلة ولقد استعمر الأسبان هذه البلاد في مدى أربع سنوات من عام ١٥١٩ إلى عام ١٥٢٢ بمعرفة فرديناند كورتس (Ferdinand Cortez) الذي جاءها سعيا وراء الثروة فتمكن بوضع مئات من جنوده من التغلب على تلك المملكة الواسعة الأرجاء .

ويرجع الفضل في هذا الفتح السريع إلى أن أهالي تلك البلاد كانوا قد خضعوا لعنصر جديد . عرف باسم استيك (Aztique) وكانوا يعتقدون أن آلهتهم سترسل إليهم من ينقذهم (وهو أشبه شيء بالمهدي المنتظر) . فلما رأوا كورتس بخيله التي لم يروها من قبل ، وبمدافعه التي كانت تدوى كالرعد ظنوا أن هذا هو المنقذ الذي أرسل من السماء . هذا : ولم تمض عشر سنوات على فتح بلاد المكسيك حتى بدأ البرتغاليون بفتح مملكة البيرو وكانت محكومة بطبقة ممتازة معروفة

باسم أنكا (Les Incas) وعلى رأسها زعيم معروف بأنه ابن الإله (الشمس) وهي بلاد غنية بذهبها وفضتها، وقد استمع الأسبان المرابطون في برزخ بناما أقاصيص الأهالي عن ثروة البلاد الهائلة فانبهر كل من فرنسوا بيزار (François Pizarre) راعي الخنازير وزميله المارجو (Almargo) وكان في الأصل لقيطاً، للإغارة على تلك البلاد التي كان يتنازعها في ذلك الوقت اثنان من الزعماء. وقد تم الاستيلاء عليها في عام ١٥٣٢ بجرأة نادرة وبجنود لم يزد عددها على السبعين والمائة وبخيل لم يتجاوز عددها السبعين حصاناً. ثم اختلف الغازيان لتلك البلاد فسجن بيزار شريكه المارجو ثم خنقه في سجنه في عام ١٥٣٨ فانقض جند المارجو على بيزا وقتلوه في عام ١٥٤١ ولم تهدأ بعد ذلك الاضطرابات إلى أن أرسل الإمبراطور شربل كان حاكماً من قبله على هذه البلاد التي وضعها تحت سلطته مباشرة في عام ١٥٤٧

أما حكم الأسبان في هذه البلاد فقد كان حكماً بالغاً نهاية القسوة والفظاعة لم تُمح في ظله المدينيات القديمة فقط بل قضى في بعض المقاطعات على جميع السكان من الأهالي الأصليين؛ فقد كان عدد سكان سان دومنيك (Saint Dominique) في عام ١٤٩٢ نحو مليون نسمة لم يبق منهم غير أربعين ألفاً في عام ١٥٠٩ ثم تناقص العدد في خمس سنوات تالية فأصبح ثلاثة عشر ألفاً ثم انقرض الباقون من الوجود بعد ذلك. ولهذا قامت في أسبانيا حركة للدفاع عن هؤلاء التعساء الذين كانوا يسخرون في الأعمال بقسوة وغلظة وفظاعة، وقد أدت هذه الحركة إلى

استخدام العبيد السود الذين جيء بهم من أفريقيا بدل الأهالى الوطنيين وعرفت من هذا التاريخ تجارة النخاسة التى استمرت حتى القرن التاسع عشر والتى ذهبت بأرواح الملايين من سكان أفريقيا .

ولقد كان الإسبان على تقيض البرتغاليين؛ حيث لم يكتفوا باحتلال شواطئ البلاد التى استعمروها ولكنهم توغلوا فى داخلتها واتصلوا بالأهالى الأصليين وصاهروهم ، فكانت ذرايرهم خليطاً جديداً من الشعوب معروفاً تاريخياً باسم ميتيس (Metis) أضف إلى هذا أن اسبانيا كانت قد أنشأت فيها حكومات منظمة فلما زالت امبراطورية الأسبان فى أمريكا بقيت عوائدهم ومدنيتهم ولغتهم منتشرة إلى اليوم فى البلاد التى غزوها كالمكسيك والبيرو وأمريكا الوسطى وجزء عظيم من أمريكا الجنوبية .

وقد نجمت عن تلك الاكتشافات الجغرافية نتائج مهمة فى تاريخ العالم وتطور حضارته كما يأتى :

أولاً — قد انتقلت تجارة العالم من البحر الأبيض إلى المحيط الأطلنطى فتدهورت البندقية وجنوة ومصر وجميع موانئ البحر الأبيض كمرسيليا .

ثانياً — أثرت إسبانيا إثراء عظيم بسبب الذهب والفضة المنهوبة من معابد وقصور بل وقبور البيرو والمكسيك ، هذا ؛ فضلاً عما كان يستخرج من بطون الأرض . ولقد اكتشف فى عام ١٥٤٥ منجم من الفضة فى البيرو يبلغ ارتفاعه سبعمائة متر .

ثالثاً — غلاء المعيشة بسبب هذا الإثراء حتى إن بودان (Bodin)
ذلك المحقق الاقتصادي قال في عام ١٥٦٨ : « إن كل شيء زاد ثمنه عشرة
أضعافه في مدى السبعين سنة الماضية » .

رابعاً — إن إسبانيا قد استغانت بهذه الثروة لتغذية جيشها وأسطولها
وأصبحت بذلك متفوقة على غيرها إلى منتصف القرن السابع عشر .
خامساً — إن هذه الثروة لم تبق في يد الشعب الإسباني الذي اعتمد
عليها فلم يعمل لتقدم الصناعة في بلاده بل كان يبتاع ما يحتاج إليه من
الخارج وبذا انتقلت الثروة إلى الخارج .

سادساً — إن نزوح هذه الثروة إلى خارج إسبانيا قوى في البلاد
الأوربية طبقة الصناع فقويت الطبقة الوسطى التي كان لها شأن عظيم
في تطور العالم في أوربا .

إن هذه الاكتشافات الجغرافية جرّت وراءها اكتشافات عن
الشعوب الإنسانية والمدنيات القديمة وزادت بهذا معلومات العالم
في النباتات والحيوانات الجديدة فوجهت الفكر الإنساني إلى ميدان
البحث في العلوم والمعارف وقربت أوربا من عصر نهضتها وعصر
الإصلاحات الدينية فيها .

ويظهر لنا مما تقدم أن الإنسانية لازالت تخطو في كل عصر
خطوات نحو الرقي والتقدم ، وإذا كانت سفن قدماء المصريين
والبابليين التي كانت تجري في نهري النيل والفرات قد استبدلت بها
سفن الفينيقيين والإيجيين والإغريق والقرطاجيين والرومانيين بسبب

ما أدخل عليها من التحسينات التي اقتضتها ظروف الرحلات في المياه
الواسعة فإن سفن البرتغاليين والإسبانيين حلت محل هذه الأخيرة
وامتازت عنها إتقاناً بسبب الرحلات في المحيطات الواسعة الأرجاء .
وكذلك حلت سفن الهولانديين والإنجليز محل هذه الأخيرة ويخيل
إلينا أن المدينة بعد اليوم سيعقد لواؤها على الطائرات لا على السفن ،
وستعود البحار هادئة لسكنى الأسماك وتصبح الأجواء غاصة بوسائل
النقل الإنساني وينتقل بذلك محور المدينة المستقبلية من البحر إلى الهواء .

تم الجزء الأول



كلمة تقدير

بعد ما فرغت من كتابة هذه الأحاديث عهدت إلى الأستاذ محمد عبد المنعم إبراهيم المحامى ورئيس جماعة الكتاب بأمر القيام على طبعها وتصحيحها وعمل فهرسها .

وفى يوم من الأيام تحدث إلى بالتليفون أن إحدى آيات التوراة محرفة — وكنت قد ضمنتها صلب الكتاب — وعندما نقلها الناسخ فى هامشه أخطأ فسألت الأستاذ عبد المنعم وهل يحفظ التوراة ؟ !

قال : لا وإنما هو عهد بالتصحيح إلى الأستاذ محمد نجيب المطيعى عضو الجماعة — وهو يستظهر كثيراً من نصوص التوراة والإنجيل والقرآن وقد أخذ بقسط وافر فى بحث علوم الحديث واللغة وغيرها . فطلبت منه أن أراه وهنأته على ما أوتى من قوة الحافظة وسعة الاطلاع .

فإلى هذين الشاين أقدم شكرى على ما أسدياه لى من معونة أولهما على ما بذله من جهد فى طبع هذا الكتاب وعمل فهرسه — وثانيهما على مجهوده فى التصحيح ومراعاة جانب الدقة فيه .

عفتة

القاهرة { ١٦ ربيع الآخر سنة ١٣٦٤
٣٠ مارس سنة ١٩٤٥

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

| صفحة | صفحة |
|---|--------------------------------------|
| الرومان القديمة ٥٥ | ١ |
| الحرب البونية الأولى ٦٣ | ٣ |
| » الثانية ٦٤ | ٥ |
| » الثالثة ٦٦ | ٥ |
| روما توسع ممتلكاتها ٦٦ | ٧ |
| عزو مقدونيا وسوريا ٦٨ | ٨ |
| روما تلبس جلد النمر ٦٨ | ٨ |
| عهد الثورة الداخلية ٧٦ | ٨ |
| قيصر في طريق المجد ٧٨ | ٨ |
| الملكية المقنعة ٨٢ | ٩ |
| الأسرة التي حكمت بعد أكتاف ٨٤ | ٩ |
| انقسام الدولة الرومانية ٩٠ | ١٧ |
| سقوط الدولة الرومانية الغربية ٩١ | |
| | الحديث الأول |
| | رؤيا تحتس ٥ |
| | رؤيا يوسف الصديق ٥ |
| | كيف بدأ الحديث ٧ |
| | تقديس الظواهر الطبيعية ٨ |
| | عقائد الهمجية الأولى ٨ |
| | ندنيات الأولى ٨ |
| | مدينة الفراغة ٩ |
| | مدنيات الشرق الأدنى المعاصرة |
| | ندنيات الفراغة ١٧ |
| | الحديث الثاني |
| | ٢٧ |
| | تطور الحضارة عند الإغريق ٢٧ |
| | هيرودوت يتكلم ٢٨ |
| | أنبياء بني اسرائيل ٤٣ |
| | بوذا في الهند ٤٦ |
| | » ومذهبه ٤٨ |
| | كنفشيوس ولاو في الصين ٥٠ |
| | كنفشيوس ومذهبه ٥١ |
| | لاو وتعاليمه ٥٢ |
| | تعاليم بوذا في اليابان ٥٢ |
| | الحديث الثالث |
| | ٥٥ |
| | أبو الهول وأكتاف وحضارة |
| الرومان القديمة ٥٥ | |
| الحرب البونية الأولى ٦٣ | |
| » الثانية ٦٤ | |
| » الثالثة ٦٦ | |
| روما توسع ممتلكاتها ٦٦ | |
| عزو مقدونيا وسوريا ٦٨ | |
| روما تلبس جلد النمر ٦٨ | |
| عهد الثورة الداخلية ٧٦ | |
| قيصر في طريق المجد ٧٨ | |
| الملكية المقنعة ٨٢ | |
| الأسرة التي حكمت بعد أكتاف ٨٤ | |
| انقسام الدولة الرومانية ٩٠ | |
| سقوط الدولة الرومانية الغربية ٩١ | |
| | الحديث الرابع |
| | ٩٢ |
| | يسوع المسيح والنصرانية ٩٢ |
| | إغارات القبائل المتبررة على |
| | الدولة الرومانية ٩٩ |
| | العلاقات الأولى بين الدولة الرومانية |
| | والقبائل المتبررة ١٠٠ |
| | بدء الاغارات وأسبابها ١٠١ |
| | قبائل الهون ١٠٢ |
| | قبائل القوط الشرقيين ١٠٣ |
| | قبائل الانجليز الكسون ١٠٤ |
| | » اللومباردو الفرنجة ١٠٥ |
| | الامبراطور جستنيان في الدولة |
| | الشرقية ١٠٨ |

| صفحة | صفحة |
|---|---|
| ١٣٥ خلافة عمر | ١١٠ حضارة اليمن |
| ١٤٠ خصائص مصر | ١١١ دخول اليهودية اليمن |
| ١٤١ فتح مصر | ١١٢ دخول الاسلام |
| ١٤٣ موقعة عين شمس | ١١٣ البعثة الاسلامية |
| ١٤٣ سقوط بابلون | ١١٣ نزاع الدولتين وانتصار هرقل |
| ١٤٤ موقف الأقباط | ١١٤ الحرب الخامسة |
| ١٤٤ سقوط الاسكندرية | ١١٤ محمد ورسالة |
| ١٤٥ إصلاحات عمر بن الخطاب | ١١٥ كيف انتهت المآسى التاريخية |
| ١٤٦ مقتل عمر | ١١٦ الجسم المريض |
| ١٤٦ خلافة عثمان | ١١٧ إلى الصحراء |
| ١٤٧ إنشاء الأسطول | ١١٨ أبرهة وهدم الكعبة |
| ١٥٠ موقف محمد بن أبي بكر | ١١٩ كيف نزل الوحي |
| ١٥١ خلافة علي | ١١٩ ثبات ووثبات وهجرة |
| ١٥٣ زينة الدنيا | ١٢١ إسلام عمرو وخالد وعثمان بن طلحة |
| ١٥٣ زهد وتكشف | ١٢١ مبادئ الحرية والمساواة |
| ١٥٤ التحكيم | ١٢٢ مكة والمدينة مصريتان |
| ١٥٤ الخوارج | ١٢٣ هاجر واسماعيل وزمزم |
| ١٥٥ مقتل علي | ١٢٥ اتصال الهكسوس بالعرب الاسماعيلية |
| ١٥٧ الحرب السادسة | ١٢٦ بناء اتريس أو يثرب |
| ١٥٧ الدولة الأموية والفتوحات في العالم | ١٢٦ نزوح عرب الجنوب |
| ١٥٩ فتوحات معاوية | ١٢٦ ثورة أبناء إسماعيل |
| ١٥٩ فتح أفريقية | ١٢٨ اقتسام الامتيازات بين بني قصى |
| ١٥٩ عقبة بن نافع | ١٢٨ السدانة في بني شيان |
| ١٦٠ فتح السند وهزيمة الروم | ١٢٩ مرض النبي وخطبته ووصيته |
| ١٦٠ ثورة الحسين | ١٣٠ موقف الشيخين |
| ١٦١ مقتل مسلم بن عقيل بن أبي طالب | ١٣١ الحلفاء الراشدون |
| ١٦١ مقتل الحسين | ١٣١ ردة العرب |
| ١٦٢ تخريب المدينة | ١٣٢ الاسلام عبدو الوم |
| ١٦٢ هدم مكة وموت يزيد | ١٣٣ خلافة الصديق |
| ١٦٢ ابن الحنفية والمختار بن أبي عبيد | ١٣٤ موقعة القادسية |
| ١٦٢ مواسم الحج وما كانت تشهده | ١٣٤ فرار يزيد جرد |
| ١٦٣ أمير أموى | ١٣٤ بناء البصرة والكوفة |

| صفحة | صفحة |
|---|---|
| ١٩٦ كافور الأخشيدي | ١٦٣ حياة الأرواح |
| ١٩٧ عناصر التحلل | ١٦٤ عبد الملك بن مهوان |
| ٢٠٠ الدولة الفاطمية | ١٦٦ مقتل بن الزبير |
| ٢٠١ نشأة الدولة الفاطمية | ١٦٩ الأندلس |
| ٢٠٣ بناء الأزهر | ١٧٢ عمر بن عبد العزيز |
| ٢٠٤ ثورة القرامطة | ١٧٣ فوائد الزكاة |
| ٢٠٦ ضعف الفاطميين | ١٧٣ تعفن |
| ٢٠٨ شذوذ الحاكم | ١٧٤ مهوان بن محمد (الملقب بالجار) |
| ٢١٠ مؤامرة | ١٧٦ النزاع بين العصية العربية والشعوية |
| ٢١٠ نسبة الدروز | |
| ٢١١ آثار الحاكم | |
| ٢١٤ سور القاهرة | |
| ٢١٤ حكم الوزراء | |
| ٢١٥ سياسة طلائع رزيك | |
| ٢١٦ نهاية الخلفاء الفاطميين | |
| ٢١٧ نشأة المملكة البابوية | |
| ٢١٩ دولة الحق الرباني | |
| ٢٢٠ شرلمان الكبير | |
| ٢٢١ دولة شرلمان | |
| ٢٢٢ نظام الطبقات | |
| ٢٢٣ تقسيم دولة شرلمان | |
| ٢٢٤ الترمند | |
| ٢٢٥ نظام الاقطاع | |
| ٢٢٧ نشأة الفروسية في أوروبا | |
| ٢٢٩ الرهينة والأديرة | |
| ٢٢٩ الاخوات الفرنسيكان | |
| ٢٣١ ظهور الممالك الحديثة في أوروبا | |
| ٢٣٩ ألمانيا وإيطاليا | |
| أسباب ضعف الكهنة في عهد | |
| ٢٤١ الاقطاع | |
| التزاع بين البابوية المعصومة | |
| ٢٤١ والامبراطورية المقدسة | |
| ٢٤٣ قوة البابوية | |
| | ١٨٠ الدولة العباسية والدعوة الفاطمية |
| | ١٨١ كيف استمر حكم العباسيين |
| | الفتك والتشقى وأثر الشعراء في |
| | تهيج السخام الكامنة |
| | ١٨٣ اتفاق الرشيد مع شرلمان على حساب |
| | الأندلس |
| | ١٨٤ نهضة الدولة في عهد الرشيد |
| | ١٨٥ دولة بني الأغلب |
| | ١٨٥ نهاية البرامكة |
| | ١٨٦ نهاية الأمين |
| | ١٨٨ المعتصم بالله الأئى أخو المأمون |
| | ١٩٠ الدولة الطولونية |
| | ١٩١ جامع ابن طولون |
| | ١٩٢ صفات ابن طولون |
| | ١٩٢ خمارويه |
| | ١٩٣ استرجاع الشام |
| | ١٩٣ زواج قطر الندى |
| | ١٩٣ أبو الصاكر جيش |
| | ١٩٤ خاتمة الدولة الطولونية |
| | ١٩٤ عودة مصر للخلافة |
| | ١٩٥ الدولة الإخشيدية |
| | ١٩٥ الحرب في سوريا |

| صفحة | |
|------|----------------------------------|
| ٣١٥ | الرومانيون |
| ٣١٥ | الروس والمغول |
| ٣١٨ | نشأة الأتراك العثمانيين |
| ٣٢٥ | الدولة الروسية |
| ٣٣٨ | عهد المماليك في مصر |
| ٣٣٩ | موقعة عين جالوت |
| ٣٣٩ | الظاهر بيبرس |
| ٣٤٠ | إحياء الخلافة العباسية |
| ٣٤١ | السلطان قلاوون : |
| ٣٤٢ | السلطان خليل بن قلاوون |
| ٣٤٣ | الملك الناصر محمد بن قلاوون |
| ٣٤٤ | المماليك البرجية أو المجركية |
| ٣٤٥ | نظام الحكم |
| ٣٤٦ | الأحوال الاجتماعية والاقتصادية |
| ٣٤٧ | أهمية التجارة |
| ٣٥١ | التزاع بين إنجلترا وفرنسا |
| ٣٥٣ | الموت الأسود في أوروبا |
| ٣٥٤ | ثورة العبيد |
| ٣٥٤ | العودة إلى المطالبة بتاج فرنسا : |
| ٣٥٥ | جان دارك |
| ٣٥٧ | حرب الوردتين في إنجلترا |
| ٣٥٨ | الحال في إسبانيا |
| ٣٥٨ | الحال في إيطاليا |
| ٣٦٢ | الحال في ألمانيا |

الحديث العاشر

| | |
|-----|----------------------|
| ٣٦٧ | الاكتشافات الجغرافية |
| ٣٨٢ | كلمة تقدير |

صفحة

الحديث التاسع

| | |
|-----|-------------------------------------|
| ٢٥٠ | الحروب الصليبية والدولة الأيوبية |
| ٢٦٩ | حضارة الاسلام |
| ٢٦٩ | قطرة عامة |
| ٢٧٣ | الحضارة الصناعية |
| ٢٧٤ | تأثير الحضارة الصناعية في أوربا بها |
| ٢٧٤ | الحضارة التجارية |
| ٢٧٥ | ترجمة الفلسفة |
| ٢٧٥ | إخوان الصفاء |
| ٢٧٦ | ابن رشد |
| ٢٧٦ | ابن سينا |
| ٢٧٧ | خطأ ابن خلدون في نظريته إلى العرب |
| ٢٧٧ | صلة الشعوب وأثرها في الحضارة |
| ٢٧٨ | زحف الحضارة الاسلامية من الشرق |
| | زحف الحضارة الاسلامية إلى الشرق |
| ٢٨٤ | الأقصى |
| ٢٨٦ | زحف الحضارة الاسلامية من الغرب |
| ٢٩٢ | ملوك الطوائف |
| ٢٩٣ | دولة المرابطين أو الملتحين |
| ٢٩٤ | دولة الموحدين |
| ٢٩٥ | إمارة غرناطة |

الحديث التاسع

| | |
|-----|--------------------------------|
| ٢٩٧ | ضعف البابوية |
| ٣٠٠ | الانقسام الكبير في الكنيسة |
| ٣٠٤ | نشأة الجامعات في أوروبا |
| ٣١١ | نشأة الممالك في أوروبا الشرقية |

فهرس الأعلام

- (١)
- آتون (لاه) : ١٤ ، ١٣
 آشور (لاه) : ٤٥
 آمون (لاه) : ٨٢ ، ٧١ ، ٣٦ ، ١٩
 إبراهيم (الخليل ع.س) : ٤٤ ، ٢١ ، ٢٠ ، ٤٥ ، ١٢٤ ، ١٢٣ ، ١٢٢ ، ٩٥ ، ٤٥
 ٢٠٥ ، ١٢٦ ، ١٢٥
 إبراهيم بن آدم : ١٩٨
 إبراهيم بن عثمان بن بشار = أبو مسلم الخراساني
 إبراهيم باشا (أمير مصر الفاتح) : ٣٣٣
 إبرهة الأشرم : ٢٥٩ ، ١١٨
 أبلون (لاه) : ٥٦ ، ٣٩
 ابن الأحمر (أبو الحجاج يوسف) : ٢٩٥
 ابن بطوطه (الرحالة) : ٣٦٨
 ابن تيمية (تقى الدين احمد بن عبد الحلیم
 ابن عبد السلام) : ٢٧٢
 ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي) :
 ٢٧٧
 ابن رائق محمد (صاحب الشرطة بفلسطين) :
 ١٩٦ ، ١٩٥
 ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي) :
 ٣٠٨ ، ٢٩٤ ، ٢٧٦ ، ٢٤٧
 ابن زهرون الأندلسي (الشاعر) : ٢٧٦
 ابن الصلاح : ٢٧٢
 ابن عباد الثالث (المعتمد بن المعتضد بالله عباد
 ابن محمد القاضي) : ٢٩٣
 ابن عمار المغربي : ٢٠٩ ، ٢٠٨
 ابن المدبر (صاحب الحراج) : ١٩١ ، ١٩٠
 ابن الموفق (أبو العباس) : ١٩٢
- ابن وهب (رحالة) : ٣٦٨
 ابنة المقوقس : ١٤١
 أبو بكر الباقلاني (عضد الدولة القاضي محمد
 ابن الطيب الأشعري) : ٢٠١
 أبو بكر الصديق (عبد الله بن قحافة) :
 ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٦٥ ، ١٧٧
 أبو جعفر المنصور العباسي : ١٨١ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩
 أبو جهل (الحكم بن هشام المخزومي) : ١٦٥
 أبو الحسن علي بن الإخشيد : ١٩٦
 أبو الحسن علي الظاهر بن الحاكم بأمر الله
 الفاطمي : ٢١١ ، ٢١٠
 أبو زيد سلامة الهلالي : ٢٠٦
 أبو سفيان بن حرب : ١٥٨
 أبو طالب بن عبد المطلب : ١١٩
 أبو العباس السفاح : ١٨١ ، ١٧٩
 أبو عبيدة (عاصم بن الجراح) : ١٣٧ ، ١٣٨
 أبو العتاهية (الشاعر) : ١٩٩
 أبو عبد الله المحتسب : ٢٠٠ ، ٢٠١
 أبو العساكر جيش بن خمارويه : ١٩٣
 أبو العلاء المعري : ٣١٠
 أبو عون بن يزيد : ١٧٩
 أبو فراس (الشاعر) : ٢٠٦
 أبو القاسم أنحور : ١٩٦
 أبو القاسم بن عبيد الله الفاطمي : ٢٠٠
 أبو لؤلؤة المجوسي مولى النخيرة بن شعبة : ١٩٦

إدريس الثاني خفيد الحسن بن علي (ع . س) :
 ١٨٤
 الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد) : ٣٦٨
 إدوارد الأول : ٢٣٨ ، ٢٣٩
 إدوارد الثاني : ٢٣٦
 إدوارد الثالث : ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،
 ٣٥٧
 إدوارد الخامس : ٣٥٧
 إدوارد الرابع : ٣٥٧
 إدوارد الملقب بالأمير الأسود : ٣٥٣
 أدواكر : ٩١ ، ١٠٣ ، ١٠٤
 أديليد (أرملة لوتير) : ٢٤٠
 الأذيفونش السادس — القونس : ٢٩٢ ،
 ٢٩٣ ، ٣١١
 إربان الثاني : ٢٥٢
 إربان الرابع (البابا) : ٢٤٩
 أرتيمس (إلهة) : ٣٩
 أرجوليد : ٣٥
 أردشير الأول : ١٠٩ ، ١١٦
 أرسطاليس — أرسطو (بن نيقوماس المقدوني)
 ٣٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، ١٨٧ ، ٢٤٧ ،
 ٢٦٩ ، ٢٧٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٧
 أركاديوس : ٩٠
 أرملة لتريق (رودريك) : ٢٨٧
 أريوس (اللاهوتي) : ٩٠ ، ١٠٨
 أسامة بن زيد بن حارثة : ١٣٣
 إستيفن لنجتون : ٢٤٧
 أسد الدين شيركوه = شيركوه .
 إسطفان (ملك الصرب) : ٣٢٠
 إسكاني (أسطوري) : ٥٦
 إسكندر الأكبر المقدوني بن فيليبس : ٦ ،
 ٣٦ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ،
 ٧٧ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ١٥٩

أبو محجن الثقفي : ١٣٤
 أبو محمد الشامي المصلوب (الراوي) : ١٩٩
 أبو المسك كافور = كافور
 أبو مسلم الخراساني : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ،
 ١٨٢
 أبو موسى الأشعري : ١٥٤ ، ١٥٥
 أبو نواس (الحسن بن هاني) : ١٩٩
 أبو هاشم بن محمد بن الحنفية : ١٧٦ ، ١٧٧
 أبو هريرة : ١٤٨
 أبو الهول (التمثال العتيق) : ١ ، ٢ ، ٣ ،
 ٤ ، ٥ ، ٧ ، ١٧ ، ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٩٣ ،
 ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ،
 ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
 ١٥٩ ، ١٧٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،
 ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،
 ٢٩٧ ، ٣١٨ ، ٣٥٠ ، ٣٦٦ ،
 ٣٦٧ ، ٣٦٨
 أبو يعقوب يوسف المريق : ٢٩٤
 أيلارد : ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦
 أبو الأول : ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧
 آتون ملك ألمانيا : ٣١٤
 أتيلارئيس الملبشيا : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥
 أتين دوشان (ملك الحجر) : ٣١٤
 أثينا (إله) : ٣٩
 أجريين : ٨٥
 أجست = أوغسطوس
 أجنايف (الجنرال) : ٣٣٥
 أجسكورت : ٣٥٤
 أحمد بن طولون : ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
 ٢١٥
 أحمد بن محمد بن الحنفية : ٢٠٥
 أخاتون — أمينوفيس الرابع : ١٤
 إدجار (ملك أسكس) : ٢٣٥
 إدريس بن عبد الله : ١٨٤

أمورى (عامل الصليبيين بيت المقدس) :
 ٢٥٨ ، ٢٥٧
 أميليوس (إله) : ٥٧ ، ٥٦
 أمينوفيس = أخناتون
 الأمين بن هرون الرشيد : ١٨٥ ، ١٨٦ ،
 ١٨٧ ، ١٩٨
 أناثيوس البطريق : ٩٢
 أناكساجوراس الفيلسوف : ٤٠
 أندرا (إله) : ٤٧
 أنستاس ماري الكرمل (الأب) : ٢٧٥
 أنسيلم اللاهوتي : ٣٠٣
 أنطاكيوس الثالث ملك إنطاكيا : ٦٧
 أنطوان - أنطونيوس - مارك أنطوان : ٥٥ ،
 ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥
 أنطونين الورع (متبني سلقيان) : ٨٦ ، ٨٧
 أنطونيوس المصري (الراهب) : ٢٢٩
 أنوسنت الثالث (البابا) : ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
 ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٢
 أنوشروان = كسرى
 إني (أسطوري) : ٥٦
 أهرمن (إله) : ٣٠
 أهوراحزدا (إله) : ٣٠ ، ٤٥
 أودو «كونت باريس» : ٢٣٢
 أودين (إله) : ١٠٠
 أورخان الكلداني (ملك) : ٢٠ ، ٣١٩
 أوروريس (إله) : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ،
 ١٧ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٥٨
 إيبك التركاني = عز الدين إيبك
 إيجرت (ملك إنجلترا) : ١٠٥ ، ٢٣٥
 إيرين (أم قسطنطين) : ١٨٣
 إيزابلا (ملكة قشتالة) : ٢٩٦ ، ٣٥٨ ،
 ٣٦٤ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤
 إيزيس (إلهة) : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٥٨
 إيفان الثالث : ٣٢٨
 إيفان الخفيف : ٣٢٨
 أيوب الأصبحي : ١٧١ ، ١٧٣

إسكندر بك الألباني : ٣٢٢
 إسكندر الثالث (آل جورجيا) «البابا» :
 ٢٤٥ ، ٣٦١
 إسكندر السادس : ٣٧٥
 أسماء بنت أبي بكر : ١٦٦
 إسماعيل بن إبراهيم (الخليل ع.س) : ١٢٣ ،
 ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨
 الأسود العنسي (ذو الخمار بن عزة) : ١٣٢
 أسوكا : ٥٠ ، ٥١
 الأشرف بارسبای : ٣٤٥
 الأشرف موسى بن طوران شاه : ٢٦٦
 أشعيا (النبي) : ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٤
 أشناس (أبو جعفر التركي) : ١٨٨
 أصحمة (نجاشي الحبشة) : ١١٨
 أغسطوس (الفاخ) : ١٠ ، ٩٤ ، ١٠٠
 أغسطين الراهب : ٢٣٥
 أفروديت (إله) : ٣٩
 أفريقش بن أبرهة : ١١١
 الأفضل شاهنشاه : ٢١٤ ، ٢١٥
 أفلاطون الإلهي : ٤٠ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٢٦٩ ،
 أكتاف (أكتافوس القائد الروماني) :
 ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٧١ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
 ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤
 أكتيوس (القائد الروماني) : ١٠٢
 أكرزيفون : ٣٨
 ألاريك : ٩١ ، ١٠١
 ألبرت دورر : ٣٦٦
 ألبوكرج : ٣٧٦
 ألفرد (ملك اسكس) : ٢٣٥
 ألامارجو : ٣٧٨
 ألزيه ريكلوس : ٢١ ، ٢٢
 الیصابات - زوية : ٣٥٧
 إمبرواز (القديس) : ٩٨
 أمبريكو فيسبوسی : ٣٧٤
 امرو القيس (بن حجر الكندي) : ٣٢١

(ب)

البابا بي الخامس : ٣٣٢

بارسباي = الأشراف بارسباي

بازان — بدهان (عامل كسرى باليمن) :

١١٣ ، ١١٢

ياكوس (إله) : ٩٧ ، ٧٥

باليوغولوس (إمبراطور يزنطى) : ٣٢٢ ،

٣٢٨ ، ٣٢٣

بايزيد الثانى : ٣٢٤

بايزيد الصاعقة : ٣٢٠ ، ٣٢١

بين : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،

٢٢٣ ، ٢٤٢

البخارى (أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم

ابن المغيرة الجعفى : ١٩٨

بختنجر (ملك بابل) : ١٨ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٧١

بدر الجمالى : ٢١٣ ، ٢١٤

بردسان (الكاتب) : ٢٦٩

برقوق — الظاهر سلطان مصر : ١٩١

برناردى سيزه (القس) : ٢٩٨

بروتوس (زعيم روماني) : ٧٩ ، ٨٠

بريكليس (زعيم الديمقراطية) : ٣٦ ، ٣٦٠

بزرجهر (وزير كسرى أبرويز) : ١٨١

بشر بن صفوان الكلبي : ١٧١

بطرس الأكبر : ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢

بطرس (الحوارى القديس) : ٩٦ ، ٩٨ ،

١٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،

٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٣٠٠

بطرس كوفلهام : ٣٦٧

بطرس الناسك : ٢٥٣

بطليموس (المقدونى رأس البطالة) : ٧١ ،

٧٨

ببق (زوج أم احمد بن طولون) : ١٩٠

البلقاء (فرس سعد بن أبى وقاص) : ١٣٤

بلقيس ملكة سبا : ٤٤

بلقيس بنت هدهاد (ملكة اليمن) : ١١١

بلكين بن زيرى الصنهاجى : ٢٠٥

بليساريوس (قائد جستنيان) : ١٠٨

بلين : ٨٨

بجي — بجاي : ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ،

٢٨٤ ، ٢٨٥

بندكت الثالث عشر (البابا) : ٢٢٩ ، ٣٠٢

بنيامين بن يعقوب : ٢١

بهاء الدين بن شداد القاضى : ٢٦٤ ، ٢٦٧ ،

٢٧٨

بودان (عالم اقتصادى) : ٣٨٠

بودوين : ٢١٥ ، ٢٥٥

بودا (سيد هارتا) الحكيم : ٤٢ ، ٤٥ ،

٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ،

٥٤ ، ٢٢٩ ، ٢٦٨ ، ٣٠٤ ، ٣٢٧

بوريس جودونس : ٣٢٩

بوسيدون (إله) : ٣٩

بوقانتور : ٣١٠

بولس (القديس) : ٨٩ ، ٩٦ ، ٩٨

بونابرت = نابليون

بونس بلاتس : ٩٦

بونيفاس الثامن (البابا) : ٢٩٧ ، ٢٩٩

بوهند بن روبرت جكار : ٢٥٤ ، ٢٥٥

بيبرس (الظاهر بيبرس البندقدارى) : ٢٦٧ ،

٣٣٩ ، ٣٤٠

بيتر فينسر : ٣٦٦

بيدرا (مملوك) : ٣٤٣

بيرجوان (مملوك) : ٢٠٨ ، ٢٠٩

بيزوس : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣

بيزيرات : ٣٥

بييرفلوت : ٢٩٩

(ت)

تاركان العظيم Tarquan Superbe : ٩١

تاست : ٨٨

تبع بن حسان الباني : ١١١

تخمس : ١٤٠٩٠٥

تراجان : ٣١٥ ، ٨٦ ، ٨٥

تركادا : ٣٥٨

تساي تونج : ٢٨٥ ، ٢٨٤

تسو : ٥١

توران شاه = طوران شاه

توماس باليوغولوس : ٣٢٨

توماس د اكن : ٣١٠

تيريوس : ٧٥

تيدبر : ٩٤ ، ٩٥

تيت ليف : ٥٧ ، ٥٦

تيتوس : ٨٦ ، ٨٥

تيمورلنك (الأعرج) : ٣٢١ ، ٣٢٠

تيودور الإمبراطور الروماني : ٩٨ ، ٣٧٢

تيو-وريك : ١٠٤

تيودوز : ٩٠

(ج)

جابر بن حيان الطوسي : ٢٧٤

الجاحظ (أبو عثمان الكاتب) : ١٩٩ ، ٢٧٥

جالوت — جليات : ٤٤

جان الأول : ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٧١

جان بنتكور : ٣٧٠

جان الثالث سويسكي : ٣٣٢

جان الثاني : ٣٧٢

جان دارك (فتاة) : ٣٥٥

جان دي بريان : ٢٦٤

جان (الذي لا يخاف) : ٣٢٠

جان السادس : ٣١٢

جان المكدي Jean Sansterre : ٢٣٧

جاي دي لوزنيان : ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١

جيفري (دوق اللورين) : ٢٥٤ ، ٢٥٥

جراسوس : ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٢٨٥

جرم : ١٢٥

جريجوري — غريغوري الحادي عشر : ٣٠٠

جستيان (الإمبراطور) : ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٢١٩

جعفر بن أبي طالب : ١٣٣

جعفر بن موسى الهادي : ١٨٤

جعفر بن يحيى البرمكي : ١٨٥

جعفر الصادق : ٢٠١

جنسريك : ١٠٢

جنكيزخان : ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٧

الجنيد القواويري : ١٩٨ ، ١٩٩

جليات = جالوت

جويتير : ٥٨ ، ٧٠ ، ٧٣

جوتبرج (جان) : ٣٢٣ ، ٣٦٦

جوتيه المدم : ٢٥٣

جوليا : ٧٨

جوليان الإمبراطور : ٩٨ ، ١٠٥

جون — يوحنا ملك إنجلترا : ٢٣٣ ، ٢٤٧

جونوت : ٣١٢

جوهر الصقلي : ١٥٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ٢١٤ ، ٢٧٦ ، ٣٠٥

جيون : ٣١٧

جيوتي الرسام : ٣١٠

(ح)

الحارث بن أسد المحاسبي : ١٩٨

الحارث الرائيش : ١١١

الحاكم بأمر الله القاطمي : ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١

حياب (الغنية) : ١٧٤

الحجاج بن يوسف الثقفي : ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨

حجر بن عدي : ١٥٨

حسان بن التاهية : ١٧١

حسان بن النعمان : ١٦٦

الحسن البصري : ٢٧٥

الحسين بن الإخشيد : ٢٠٤

الحسين بن علي (الإمام) : ١٥٣ ، ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦١ ، ١٦٠ ، ٢٠١

الحسين حفيد الحسن بن علي الإمام : ١٨٤

حفص بن الوليد : ١٧١

حفصة (أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب) : ١٤٩

الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل : ٢٨٩

الحكم الثاني بن عبد الرحمن الناصر : ٢٩١

حليمة السعدية : ١١٨

حمزة بن عبد المطلب (عم النبي) : ١١٩

حمزة بن علي القزاز (داعي الدعوة) : ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٠٨

حمزة فتح الله (الشيخ) : ١٢٤

حمورابي (ملك بابل) : ١٨ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ٤٦

حمير (جد عرب الجنوب) : ١١١ ، ١٢٥

حنظلة بن صفوان : ١٧١

حنا ملك فرنسا بن ادوارد الثالث : ٣٥٣

حنين بن اسحاق : ١٨٧ ، ٢٧٥

حنينة المجنونة : ٣٦٤

حوثرة بن سهل الباهلي : ١٧١

حيرام : ٤٤

(خ)

خالد بن برمك : ١٨٢

خالد بن الوليد : ١٢١ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٧ ، ١٦٥

خديجة بنت خويلد (أم المؤمنين) : ١١٨ ، ١٦٥ ، ١١٩

خريستوف كلبوس = كريستوف

خليل بن قلاوون (سلطان مصر) : ٣٤٢

خارويه أبو الجيش بن أحمد بن طولون : ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥

الخوارزمي (أبو بكر محمد بن العباس الطبرخزي (١)) : ٢٧٤

(د)

داني اللجيري : ٣١٠

داود (الرسول ع. س) : ٤٤ ، ٤٥

دراكون : ٣٤ ، ٣٥

درزي بن محمد : ٢١٠ ، ٢١١

دوج دوندولو : ٢٦٢

دورليان : ٣٦٠

الدوفن : ٣٥٥ ، ٣٥٦

دوق أكتين

دوق بدفورد : ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦

دوق براجنس : ٣١٢

دوق برغونيا : ٣٢٠

دوق جلستر : ٣٥٧

دوق رتشموند : ٣٥٧

دوق فلاندر : ٢٦٣

دوق يورك : ٣٥٧

دومسيان : ٨٥ ، ٨٦

دومينيك = القديس

دون بدرو : ٣١٢

دون كيشوت : ٢٢٨

دون هنري : ٣١٢

دياز : ٣٧٢

ديلوس : ٦٣

ديموكريتس : ٣٨

ديوقلسيان : ٨٩

(١) (الطبرخزي) بفتح الطاء والباء وسكون الراء وفتح الحاء نسبة إلى طبرستان (طبر)
وخوارزم (خزي) وهي نسبة مركبة من بلدي أبيه وأمه وتجد هذه العبارة في كتب العرب
يريدونه لاغيره فخره .

(ذ)

ذو القرنين : ١١١

ذو نواس : ١١٢

ذو النون الإخيمى المصرى : ١٩٨

ذيمتير (إلهة) : ٣٩

(ر)

الراضى بالله (بن المقتدر العباسى) : ١٩٥

رئيس المليشيا = أتيل

ربيعة (وإليه ينسب أكثر العرب الاسماعيلية) :

١٦٥

رتشارد الثانى (ريكاردوس) : ٣٥٤

رتشارد الثالث (ريكاردوس) : ٣٥٧

رتشارد الملقب بقلب الأسد (ريكاردوس) :

٢٣٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢

رستم (بن اسفنديا أحد قواد الفرس) : ١٣٤

الرضى من آل البيت (كل من يقع عليه الاختيار

للخلافة منهم) : ٢٠٠

رع (إله) : ٣ ، ٥ ، ٣٨

رعسيس — رمسيس : ٩ ، ١٩

رمسيس الثانى : ٩

روبرت بروس : ٢٣٩

روبرت جسكار : ٢٦٤

روجير باكون : ٣١٠

روجير الثانى النورماندى : ٢٠٥

رودلف هسبرج : ٢٤٩ ، ٣٦٣

روريك الصقلي : ٣٢٦ ، ٣٢٩

رولان (شاعر) : ٢٢١ ، ٣٠٨

رولون (زعيم النورمان) : ٢٢٥

روما (إلهة) : ٨٢

رومولوس (إله) : ٥٦ ، ٥٧

رومولوس أجستول : ٩١ ، ١٠٣

ريجنولد (قائد من الصليبية) : ٢٥٩

ريكوس = أليزيه ريكوس

ريموس (إله) : ٥٦ ، ٥٧

ريموند (أمير طرابلس) : ٢٥٥

ريموند دوق بروفس : ٢٥٤ ، ٢٥٥

(ز)

زبيدة (أم الأمين) : ١٨٦

الزبير بن العوام : ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ،

١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٦٥

زحل Saturne (إله) : ٥٦ ، ٥٨

زرادشت (حكيم) : ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٧ ،

١٠٩ ، ١١٦

زرياب (المغنى) أبو الحسن على بن نافع غلام

اسحاق الموصلى : ٢٨٩

الزنانى خليفة : ٢٠٦

زهير نائب عقبة بن نافع : ١٦٦

زوس (إله) : ٣٩ ، ٥٨

زويه = صوفيا

زياد بن أبيه : ١٥٨

زيد بن ثابت : ١٤٨

زيد بن حارثة : ١٣٣

زيد بن على زين العابدين : ١٧٦

زينو (الامبراطور) : ١٠٤ ، ٢٧٠

(س)

سارة : ١٢٣

سالروس = شرنايف

سان برنارد : ٢٥٦

سانكو (زعيم إسباني) : ٢٩٢

سبتيم سيفير : ٨٩

سير تاكوس : ٧٧

ست (إله) : ١١ ، ١٢ ، ٥٨

سجاح السكاهنه : ١٣٣

سجسند : ٣٢٠

سرفاتر : ٢٢٨

(ش)

شارل الأصلع Le Chauve : ٢٢٥
 شارل الأول : ٣٣٤
 شارل بن فرديناند : ٣٥٨
 شارل الثامن : ٣٦١، ٣٦٠، ٣٥٧، ٣٥٦
 شارل الثاني عشر : ٣٣١، ٣٣٠
 شارل الجريء : ٣٦٣
 شارل الخامس — شارل كان : ٣٥٣، ٢٤٩
 ٣٧٥، ٣٦٤، ٣٧٨
 شارل دوق أنجو : ٢٤٩
 شارل الرابع : ٣٦٢
 شارل السادس : ٣٥٤
 شارل الساذج Le simple : ٢٢٥
 شارل (كارل) : ٢٢٤، ١٠٧
 شارل مارتل (قارلة) : ١٧٠، ١٠٧، ١٠٦
 ٢٨٨، ٢٧١، ٢٢٧
 شارلمان الكبير : ٢١٧، ١٨٦، ١٨٣، ١٠٦
 ٢١٩، ٢٢٤، ٢٢٣، ٢٢٢، ٢٢١
 ٢٢٥، ٢٢٢، ٢٣٢، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢
 ٢٥٠، ٢٨٩، ٣٠٤، ٣٠٨، ٣١٤
 شاور الوزير : ٢١٦، ٢٥٧، ٢٥٨
 شاول : ٤٤
 شاه (الملك شاه) : ٢٥٤
 شجرة الدر : ٢٦٥، ٢٦٦، ٣٣٩
 شرنايف سويسكي (الجنرال) : ٣٣٤، ٣٣٥
 الشريف الرضي : ٢٠١
 شلدريك : ١٠٥
 شماس (إله) : ٢٤
 شمر برعش : ١١١
 شمشون : ٤٤
 شندراجوبتا : ٥٠
 شونج : ٥١
 شبة القرشي : ١٢٩
 شيركوه (أسد الدين شيركوه) : ٢٥٧، ٢٥٨
 شيرويه بن كسرى أنو شروان : ١١٣

سرى بن شريك : ١٦٩، ١٧١
 سعد الأعسر : ١٩٣
 سعد بن أبي وقاص : ١٣٤، ١٤٦
 سقراط الحكيم : ٤٠، ٤١
 سكايبوس : ٧٤
 سكستوس بن يمي : ٨٠
 سلقيان : ٨٧
 سليمان (النجي ع. س) : ٤٤، ٤٥، ١٠٩
 سليمان باشا : ٣٣٦
 سليمان بن عبد الرحمن : ٢٨٩
 سليمان بن عبد الملك : ١٧١، ١٧٢، ١٧٦
 سليمان بن هشام : ١٨٣
 سليمان (التاجر) : ٣٦٨
 سليمان القانوني : ٣٢٤، ٣٣١، ٣٦٣
 سليم الثاني : ٣٣١، ٣٣٢
 سليم الفاتح (الأول) : ٣١٨، ٣٢٤، ٣٥٠
 ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧٦
 السمح بن مالك : ١٧١، ٢٨٧
 سمية (أم زياد بن أبيه) : ١٥٨
 سويسكي = جان الثالث
 سولون : ٣٥
 سيديون الافريقي : ٦٥، ٦٦، ٧٣، ٧٥، ٨٢
 سيد هارتا = بوذا
 سيدة الملك ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١
 سيرا كولونا : ٢٩٩
 سيرون — شيسرون : ٧٤، ٧٧، ٨٠
 سيف بن ذي يزن : ١١٢
 سيف الدولة الحمداني : ١٩٦، ٢٠٦
 سيف الدين برقوق الظاهر : ٣٤٤
 سيف الدين بن زنكي : ٢٦١
 سيموندي متفورت : ٢٣٨
 سيمون الساحر : ٢٤١
 سيل : ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٢
 سيفيك : ٨٨

(ص)

صالح بن علي : ١٨١

الصالح بن نور الدين : ٢٥٩

الصالح نجم الدين أيوب : ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨

صلاح الدين الأيوبي : ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٣٤٠ ، ٣٣٨ ، ٢٩٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٤

صمويل : ٤٤

صوفيا (زوية) : ١٠٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩

(ض)

الضحاك بن قيس : ١٦٥

ضرغام (حاجب الخليفة العاضد) : ٢١٦ ، ٢٥٧

(ط)

طارق بن زياد : ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٨٧

طالوت : ٤٤

طاليس : ٣٨ ، ٥٠

طاهر بن الحسين : ١٨٧

طريف بن مالك : ١٦٩

طغرل بك : ٢٥٢

طلائع بن رزيك (الملك الصالح) : ٢١٥ ، ٢١٦

طلحة بن عبيد الله : ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٥

طليحة بن خويلد الأسدي : ١٣٢ ، ١٣٣

طوران شاه — توران شاه : ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٣٣٨

طولون : ١٩٠

(ظ)

الظاهر بيبرس = بيبرس

(ع)

العادل أبو بكر بن أيوب : ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦

العادل رزيك : ٢١٦

عاصم بن عمر : ١٧٢

العاضد لدين الله عبد الله بن يوسف الحافظ :

٢١٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩

عاموس : ٤٣

عائشة أم المؤمنين : ١٣١ ، ١٤٩ ، ١٥٢

عبادة بن الصامت : ١٤٣

عباس بن أحمد بن طولون : ١٩٢

عبد الله بن أبي السرح : ١٤٧

عبد الله بن تاشفين : ٢٩٣

عبد الله بن رواحة : ١٣٣

عبد الله بن الزبير : ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٦٤

١٦٥ ، ١٦٦

عبد الله بن زياد : ١٦١

عبد الله بن طاهر بن الحسين : ١٨٧

عبد الله بن قيس : ١٤٨

عبد الله بن عباس : ١٤٨ ، ١٥٤

عبد الله بن عبد الرحمن الداخل : ٢٨٩

عبد الله بن عبد الملك بن مروان : ١٦٧ ، ١٦٨

١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٧٥

عبد الله بن علي العباسي : ١٨٣

عبد الله بن عمر : ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٣

عبد الله بن مروان : ١٧١

عبد الله بن مسعود : ١٤٨

عبد الحميد الثاني : ٣٣٤ ، ٣٣٦

عبد الدار بن قصي : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٦٥

عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بن هشام

ابن عبد الرحمن الداخل : ٢٨٩

عبد الرحمن بن خالد : ١٧١

عبد الرحمن بن عوف : ١١٩ ، ١٤٦ ، ١٤٧

عبد الرحمن بن معاوية الداخل : ٢٨٨ ، ٢٨٩

عبد الرحمن بن ملجم : ١٥٥

عبد الرحمن الغافقي : ١٧٠ ، ٢١٩ ، ٢٨٧

عبد الرحمن الناصر حفيد الأوسط : ٢٩٠ ، ٢٩١

عبد شمس القرشي : ١٦٥

فيدور الأول : ٣٢٩

فيدون : ٣٥

(ق)

قاييل : ٥٨ ، ١٣

قارلة = شارل مارتل

القاسم بن هرون الرشيد : ١٨٥

القائم بأمر الله الفاطمي : ٢٠٢ ، ٢٥٢

قباذ الأول = كسرى قباذ

قتيبة بن مسلم ، ١٦٧

القديس دومنيك : ٢٣٠

القديس بطرس = بطرس

القديس بولس = بولس

القديس القاسم : ٥٢

القديس فرنسيس : ٢٣٠

القديس يوحنا = يوحنا

قرمط (رأس القرامطة) : ٢٠٢

قريش : ١١٩ ، ١٦٥

القس حنا : ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٢

قسطنطين (الامبراطور) : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٨ ،

١٠٠ ، ١٨٣ ، ٢٥٠

قسطنطين باليوغولوس (الامبراطور) : ٣٢٨

قصي بن كلاب : ١٢٨

قضاة : ١٦٥

قطر الندي (بنت خارويه) : ١٩٣

قطز (أحد سلاطين المماليك) : ٢٦٧ ، ٣٣٩

قلاوون : ٣٤١ ، ٣٤٥

قبيز : ٦ ، ٢٩

قيافا (رئيس الكهنة) : ٩٦

قيصر يوليوس = يوليوس قيصر

(ك)

كابيت (رأس أسرة ملكية) : ١١

كاتيليني : ٧٧

كارا كلا : ٨٩

فرديناند كرتس : ٣٧٦

فرديناند (ملك الأرغن) : ٢٩٦ ، ٣٥٨ ،

٣٦٤ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤

الفرزدق (الشاعر) : ١٦١

فرعون : ٦ ، ١٥ ، ١٨ ، ٤٤ ، ١٢٣

فرناز : ٧٨

فرنسوا بيزار : ٣٧٨

فرنسوا سفورزا : ٣٦٠

فريدريك باربروس « ذو اللحية الحمراء » :

١٠٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،

٢٦٠ ، ٣٠٠

فريدريك الثالث : ٣٦٣ ، ٣٦٤

فريدريك الثاني : ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،

٢٦٤ ، ٢٦٥

فريدريك الصقلي : ٣٠٢

فزارة : ١٦٥

فزابازيان : ٨٥

فسكو دوجاما : ٣١١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦

الفضل بن الربيع : ١٨٦

الفضل بن يحيى البرمكي : ١٨٥

ضففور (ملك الصين) : ١٨٦

فليب أغسطس : ٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٢٦٠ ، ٣٠٥

فليب الأول : ٢٣٢

فليب الثاني : ٣١٢ ، ٣٣٢

فليب الجريء : ٢٩٩

فليب الجميل : ٣٦٤

فليب الخامس : ٦٧ ، ٦٨

فليب الرابع : ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٩٧ ،

٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٥١

فليب السادس : ٣٥٢

فليب المقدوني : ٣٦ ، ٦٤

فودان (إله) : ١٠٠

فوكاس (الامبراطور) : ١١٣

القونس = الأذيفونش

كاسيوس : ٧٩ ، ٨٠

كافور (أبوالمسك كافور) : ١٩٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣

كاليجولا : ٨٥

الكامل (السلطان الكامل عثمان) : ٢٤٨ ،

٢٦٤ ، ٢٦٥

كانتون : ٦٨

الكاهنة البربرية : ١٦٦

الكاهنة سجاج = سجاج الكاهنة

كايوس : ٧٥

كتبغا (نائب هولانكو) : ٣٣٩

كرستوف كلبوس : ٣٥٨ ، ٣٦٩

كسرى الأول (أبرويز) : ٢٩ ، ١٨٦

كسرى أنوشروان : ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٧

كسرى قباذ الأول : ١١٠ ، ١١٢

الكسيس بن بطرس : ٣٣٠

الكسيوس (الكسيس بن إسحاق الملاك) : ٢٥٢

٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٢

كعب بن لؤي : ١٢٨

كلود : ٨٥

كلوفيس : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٢٢

الكليم موسى = موسى السكليم

كليمنت الخامس (البابا) : ٢٩٩

كليوباترة : ٥٥ ، ٧٨ ، ٨٠

كنتوس أورليوس : ٧٧

الكندي : ٢٧٥

كنزاد الثالث : ٢٥٦

كنزاد الثاني : ٢٤٠ ، ٢٤٤

كنزاد الرابع : ٢٤٨

كنوت (الملك كنوت) : ٢٣٦

كورس (أو كيخسرو) : ١٨ ، ٤٥

كوسم : ٣٦٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥

الكونت تسكولم : ٢٤١

الكونت جوليان : ١٦٩

كونفشيوس : ٤٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ،

٢٦٨ ، ٣٠٤

(ل)

لاو (حكيم) : ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤

لاوي (بن يعقوب) : ٤٤

ليد (Le pide) : ٨٠

اللورد اللني : ٢٦٥

لوتير : ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٠

لوريج سفورزا : ٣٦٠

لويس الأول (ملك البرتغال) : ٣١٣

لويس التاسع : ٢٣٣ ، ٢٤٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ،

٢٩٩

لويس الثاني عشر : ٣٦٠

لويس الحادي عشر : ٣٥٦ ، ٣٦١

لويس الرابع : ٢٧٦

لويس السابع : ٢٥٦

ليكورج : ٣٤

لينين : ٣٣٠

ليوبولد (دوق النمسا) : ٢٦١

ليو سيلاس (الفيلسوف) : ٣٨

ليون (الأسقف) : ٢١٨

ليون الثالث (البابا) : ٢٢٣ ، ٢٧٦

ليون الثالث (الامبراطور) : ٢١٩

(م)

ماجور : ١٩١

ماجيلان : ٣٧٥

مارتن بيهام : ٣٦٦

مارتن الخامس (البابا) : ٣٠٢

مارتن لوثر : ٢٦٩

مارك أنطوان = أنطوان

مارك أوريل : ٨٥ ، ٨٧

ماركوبولو : ٢٧٩ ، ٣٦٩

الأمون (عبد الله بن هرون الرشيد) : ١٨٥

١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠

مختار باشا الغازي : ٣٣٥
المختار بن أبي عبيد الثقفي : ١٦٢
مدحت باشا (الصدر الأعظم) : ٣٣٥
مراد الأول : ٣٢١ ، ٣٢٠ ، ٣١٩
مراد الثاني : ٣٢٢ ، ٣٢١
مردخ (إله) : ٤٥ ، ٢٣ ، ٢٠
مرقس (القديس) : ٩٢
المرخ — Mars (إله) : ٥٦
مروان بن الحكم : ١٦٤ ، ١٤٩ ، ١٤٧ ، ١٦٤ ،
٢٨٨
مروان بن محمد : ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ،
١٨١
المستعصم بالله العباسي : ٣٣٩ ، ١٨٨
المستنصر بالله : ٣٤٠
المستنصر بن الحاكم : ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،
٢١٤
مسلم بن عبد الملك : ١٦٨ ، ١٦٩
مسلم بن عقيل : ١٦١
مسلمة بن عقبة : ١٦٢
مسلمة الكذاب : ١٣٢ ، ١٣٣
مسيو دي مرجان : ٢٤
مصطفى بن مراد الأول : ٣٢١
مصطفى الثاني : ٣٣٢
مضر (رأس العرب الضرية) : ١٦٥
معاوية بن أبي سفيان : ١٤٧ ، ١٥١ ،
١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥
١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٦٤
المعتصم بالله بن الرشيد : ١٨٨ ، ١٨٩ ،
١٩٥ ، ٢٢٨
المعتضد بالله : ١٩٣ ، ٢٠١
المعز لدين الله الفاطمي : ١٨٠ ، ١٩٧ ،
٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥
٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٥
المغيرة بن شعبة : ١٤٦ ، ١٥٨

ماريا جلوريا (ملكة البرتغال) : ٣١٢ ،
٣١٣
ماريوس : ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ، ١٦٥
ماكسمليان بن فردريك : ٣٦٣
متردات : ٧٦
مترباد : ٨٦
المتنبي (أبو الطيب) : ٢٠٦
المتني بن حارثة : ١٣٣
محمد (صلى الله عليه وسلم) : ١١٢ ، ١١٣ ،
١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤
١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣
١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٦
١٦٢ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ٢٠١ ، ٢٧٠ ،
٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣٢٣
محمد أحمد المهدي (مهدي السودان) : ٢٢٨
محمد الأول (السلطان) : ٣٢١
محمد بن أبي بكر : ١٤٩ ، ١٥٠
محمد بن إدريس (الإمام الشافعي) : ١٦٥
محمد بن اسماعيل المكنوم : ٢٠١
محمد بن تومر : ٢٩٤
محمد بن الحنفية : ١٦٢ ، ٢٠٥
محمد بن سليمان : ١٩٤
محمد بن طفيح الإخشيد : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٢
محمد بن انفاسم : ١٦٧
محمد بن عبد الملك بن مروان : ١٧١
محمد بن علي بن عبد الله العباسي : ١٧٦
محمد الخننجي : ١٩٤
محمد الرابع : ٣٣٢
محمد الفاتح : ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤
محمد عبد النعم إبراهيم : ٣٨٢
محمد علي الكبير : ٣٣٣
محمد المهدي العباسي : ١٨٢ ، ١٨٣
محمد نجيب المطيعي : ٣٨٢
محمود الثاني : ٣١٩ ، ٣٣٣

المغيرة بن عبيد الله الفزاري : ١٧١

المقداد بن الأسود : ١٤٣

المقرئزي (أبو العباس تقى الدين) : ٢١٤ ، ٢٦٨

المقوقس : ١١٨ ، ١٤٣ ، ١٤٥

المنصور بالله الفاطمي : ٢٠٢

المنصور بن أبي عامر : ٢٩١

المنصور بن عثمان الأيوبي : ٢٦٤

المهدي المنتظر : ٢٠١ ، ٣٧٧

المهلب بن أبي صفرة : ١٦٠

موسى بن نصير : ١٦٦ ، ٢٨٧

موسى الكليم : ٦ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١١٩ ، ٢٥٣ ، ١٤٠ ، ١٣٠

موسى الهادي : ١٨٣ ، ١٨٤

الموفق العباسي : ١٩١

مونيتور (إله) : ٥٦ ، ٥٧

المؤيد شيخ الحمودي : ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٤٣

ميخائيل باليوغولوس : ٢٦٣

ميخائيل رومانوف : ٣٢٩

ميخائيل السابع : ٢٥٢

ميروفتجيان : ١٠٥

ميشيل سكوت : ٢٤٧

ميكيا فيللي : ٢١٣ ، ٢٦١

المنوتنو : ٥٢

نابت (حفيد اسماعيل) : ١٢٥

نابليون بوناپرت : ١١ ، ٣٣٣

نارسييس : ١٠٩

الناصر محمد بن قلاوون : ٣٤٣

نائلة زوج عثمان : ١٤٩

النجاشي عاهل الأحباش : ٣٧١ ، ٣٧٢

نحيب المطيعي = محمد نحيب المطيعي

نزار الفاطمي = العزيز بالله

نصر بن سيار : ١٧٨

نفرنيقي (الملكة) : ١٤

نقولا كوبرنيقي : ٣٧٢

نقولا (القيصر) : ٣٢٨

النواوي (أبو زكريا الأنصاري الشافعي

الحافظ) : ٢٧٢

نوجاري : ٢٩٩

نور الدين محمود بن زنكي : ٢١٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩

نيرون (الامبراطور) : ٨٥ ، ٩٨ ، ٢١٨

نيقو : ١٨

نيوتن اسحاق العالم : ٣٩

(هـ)

هايل بن آدم : ١٣ ، ٥٨

هاجر أم اسماعيل : ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧

هارون الرشيد : ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٠٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٥٠

هاسد روبال : ٦٦

هاملكار : ٦٤

هانيبال : ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٣

هتلر (أدولف زعيم الرايخ النازي) : ٢٤٦

هدريان : ٨٥ ، ٨٦

هرقل (الامبراطور) : ١١٣ ، ١١٧ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ٢٧٠

هرقل (البطل) : ٤

الهرمزان (أحد أشرف الفرس) : ١٤٦

هستنجن : ٢٣٦

هشام بن عبد الملك : ١٧٣ ، ٢١٩ ، ٢٨٨

هلد برند = جريجوري السابع

هنري الأمير : ٣٧١

هنري بن فردريك : ٢٤٦

هنري الثالث : ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٧

هنرى الثامن : ٣٦٦

هنرى الثانى : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٣٠٦

هنرى الخامس : ٢٢٤ ، ٣٥٤

هنرى دى برجون : ٣١١

هنرى الرابع : ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٣٠٠

هنرى السابع : ٣٥٧

هنرى السادس : ٣٥٤ ، ٣٥٥

هنرى السكونى : ٢٣٩

هوج كابت : ٢٣٢

هوراس : ٨٢

هورس : ١٢

هولاكو : ١٨٨ ، ٢٦٧ ، ٣٣٩

هولين الرسام : ٣٦٦

هوميروس : ٣١

هونوريوس : ٩٠ ، ١٠١

هيرا (إلهة) : ٣٩

هيراكليس : ٣٨ ، ٥٠ ، ٥٤

هيراكلى : ٥٣

هيروود : ٩٥

هيروودوت : ٢٠ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٧ ، ٣٨

٤٠ ، ٤٢ ، ٥٤ ، ٥٨

هيفايستوس (إله) : ٣٩

هيلانه : ٢٥٠

(و)

الوائق بالله : ١٨٨

ورقة بن نوفل : ١١٩

ولف : ٢٤٤

الوليد أبو العباس بن عبد الملك بن مروان : ١٦٦ ،

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ٢٨٧

الوليد بن مطرف الشيبانى : ١٨٤

الوليد (الثانى) بن يزيد بن عبد الملك : ١٧٣

١٧٤

وليم القاع = غليوم دوق نرمانيا

ويكليف : ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣

(ى)

اليازورى (أحد المالك) : ٢١٢

ياقوت الحموى : ١٤١ ، ٢١٤

يانوس (إله) : ٥٠ ، ٥٨

يحيى بن خالد البرمكى : ١٨٥ ، ١٨٦

يحيى بن زيد الإمام : ١٧٦

يحيى بن سعيد : ١٧٣

يزد جرد : ١٣٤

يزيد بن مزيد الشيبانى : ١٨٤

يزيد بن معاوية : ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣

يزيد (الثالث) بن الوليد : ١٧٤

يزيد (الثانى) بن عبد الملك : ١٧٣ ، ١٧٤

اليسع صاحب سجلماسة : ٢٠١

يعرب بن قحطان : ١٦٥

يعقوب بن كلث : ٢٠٣ ، ٢٠٦

يعقوب بن يوسف المربى : ٢٩٤

يفتاح : ٤٤

يكسوم (القائد الحبشى) : ١١٢

يهوذا : ٢١ ، ٤٤

يهوذا (الاسخريوطى) : ٩٦

يوحنا الممدان : ١٩ ، ٩٥ ، ٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٥٥

يوحنا هوس : ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣

يوسف بن بلكين بن زيرى : ٢٠٥

يوسف بن تاشفين : ٢٩٣

يوسف بن عبد المؤمن : ٢٠٥

يوسف بن يعقوب الصديق : ٥ ، ٦ ، ٢١

يوسف الفهرى : ٢٨٨

يوشع : ٤٣

يوغرتا : ٧٦

يوقنال : ٧٥

يوليوس قيصر : ٦ ، ٥٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ،

٨٠ ، ٨١ ، ٨٢

يوهانترا (ملك البغار) : ٣١٤

فهرس الأماكن

| | |
|---|--|
| الأراضى المقدسة = الحجاز | (١) |
| أربوثة : ٢٨٧ | آثار السلطان قلاوون : ٣٤٢ |
| أرتوا : ٣٦٤ | آسور (جزيرة بالهند) : ٣٦٨ ، ٣١١ |
| الأردن (نهر) : ١٨ ، ٩٥ ، ١٣٨ ، ١٧٤ | آسيا : ٢١٧ ، ٢٥١ ، ٢٨٤ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٣٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٣٧٣ |
| أردهان : ٣٣٦ ، ٣٣٥ | آسيا الصغرى : ١٦٨ ، ٢١٧ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٤٥ |
| أرزن : ١٨٧ | آسيا الوسطى : ٣٢١ ، ٣٢٦ |
| أرسينال = دار الصناعة | آشور : ١٨ ، ٢٠ ، ٢٨٣ |
| أرضروم : ٣٣٥ | أبانزل : ٣٦٤ |
| أرض المعاد : ٢٤ | أبنيون — أفنيون : ٢٩٩ ، ٣٠٢ |
| أرغن — أرغوة Aragon : ٢٩٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦١ ، ٣٥٨ ، ٣٢٠ | أبوصير : ١٧٩ |
| أرفا : ٢٥٤ | إربيس — يثرب = المدينة |
| أرفرانس : ٦٩ | أثينا : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٥٥ ، ٧٩ ، ١٠٩ ، ٢٦٣ ، ٢٨٣ ، ٣٦٠ |
| أرموز : ٣٧٦ | أثينا الإيطالية = فلورانس |
| أرمينية : ٨١ ، ٣١٦ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٤١ | أجزبورج : ٣٦٥ ، ٣٦٦ |
| الأرنو (نهر) : ٦١ | أجنادين : ١٣٨ |
| الأزبكية : ١٤٢ | أجنكورت : ٣٥٤ |
| أزوف : ٣٣٢ | أحد (جبل) : ٢٧٠ |
| إسبارطة : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨٣ | الاحساء : ١٥٥ |
| إسبانيا : ٢٧ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ | أخيتاتون = تل العمارنة : ١٤ |
| ١٦٩ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٦ ، ٢٧٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ | أدرنة : ٣١٩ ، ٣٣٦ |
| | الأفرياتيكا = بحر الأدرياتيك |
| | أوسة : ٢٥٤ ، ٢٧٠ |

ة = القسطنطينية

استراسيا : ١٠٦ ، ٢٣٩

استراليا : ٢٧٥

استريا : ٣٥٩ ، ٣٦٤

أسقفية روما = كنيسة روما

اسكتلندا : ٢٣٩ ، ٣٧٣

اسكس : ٢٣٥ ، ٢٣٦

اسكندرونه : ٣٤٧

الاسكندرية : ٥٠ ، ٥٥ ، ٨١ ، ٩٢ ،

٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٨ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

١٤٧ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٩٠ ،

١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،

٢٠٣ ، ٢١٩ ، ٢٥٨ ، ٢٦٩ ،

٢٧٥ ، ٣٠٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ،

٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧٠

أسكى شهر = دورليم

إسلامبول = القسطنطينية

إسنا : ١٢٦ ، ١٩٠

أسوان : ١٢٦ ، ١٩٢

أسور = آسور

أسيوط : ٢٠٥

أشبيلية : ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥

أصبهان : ١٨٢

الأطلنطى = المحيط الأطلسى

أعلى القرات : ١٨٥ ، ٣٤١

أفانتان = تل أفانتان

أفريقيا (القارة) : ٧٢ ، ٨٠ ، ٢١٧ ،

٢٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩

أفريقيا (الغربية) = شمال أفريقيا

الأفغان — أفغانستان : ٥٠ ، ١٦٠

أفنيون = أبنيون

إفريطس = جزيرة كريت

الأقصر : ١٨

إقليم المنيا : ٢١٦ ، ٢٥٨

الأكربول : ٤٠

الأكرين — أوكرانيا : ٣١٤

إكس : ٦٩

إكس لا شابل : ٢٢١

أكسيوم : ٥٥ ، ٨١

أكيتين : ١٠١ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٥١

الألب : ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ،

الالزاس : ٣٦٤

ألمانيا : ٢٧ ، ٩٩ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ ،

٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ،

٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ ،

٢٦٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ،

٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٣٤ ،

٣٣٦ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥

أمريكا : ٣٥٨ ، ٣٦٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ،

٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩

أمريكا الجنوبية : ٣١١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩

أمريكا الشمالية : ٣٧٠

أمريكا الوسطى : ٩ ، ٥١ ، ٣٧٩

أم دينين : ١٤٢ ، ١٤٣

الأناضول : ١٤٧ ، ١٩٦ ، ٣٤١

الأنبار : ١٨٤

أنتيقارى : ٣٣٦

الأنثيل : ٣٧٧

أنجلترا : (الجزر البريطانية) : بريطانيا : ١١ ،

٢٧ ، ٧٨ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،

١٩١ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،

٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ،

٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،

٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ،

٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،

٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ،

٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥

أنجو : ٢٣٣ ، ٢٤٩ ، ٣٥١

الأندلس : ١٠٢ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٨٣ ،

| | |
|--------------------------------------|----------------------------------|
| أوروبا الوسطى : ٢٣٠ | ٢١٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٧٥ ، |
| أورشليم = بيت المقدس | ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، |
| أورليان : ٣٥٦ ، ٣٥٥ | ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٥١ |
| أورى : ٣٦٤ | أفلاكية : ٦٧ ، ٩٨ ، ١٠٩ ، ١٣٨ ، |
| أوستراسيا = أستراسيا | ١٨٥ ، ٢١٩ ، ٢٥٥ ، ٢٦٧ ، |
| أوتروالد : ٣٦٤ | ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٣٤٠ |
| أيبير : ٦١ ، ٦٣ | أفريس : ٣٥٠ |
| إيران = فارس | أقرة : ٣١٩ ، ٣٢١ |
| إيسلاندا : ٣٧٣ | أنكورية = أقرة |
| إيطاليا : ٢٦ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، | أنيانى : ٢٩٩ |
| ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٠ ، | الأهرام : ٣ ، ١٥ ، ٢٥١ |
| ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، | أور : ٢٠ |
| ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٢١٩ ، | أوربا : ٢٩ ، ٣١ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٦١ ، |
| ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، | ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١٥ ، ١٥٣ ، |
| ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، | ١٦٠ ، ١٨٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ، |
| ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٣٠٠ ، | ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، |
| ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٤٧ ، | ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، |
| ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، | ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، |
| ٣٦١ ، ٣٦٥ ، ٣٧٦ | ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، |
| أيلة : ١٣٨ | ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، |
| إيوان سليمان : ٢٥٥ | ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، |
| (ب) | ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، |
| باب الزهومة : ٢١٦ | ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ، |
| باب زويلة : ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٤٥ | ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، |
| باب الفتوح : ٢١٤ | ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، |
| بابلون = حصن بابلون | ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، |
| بابل : ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٧ ، | ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، |
| ٤٥ ، ٥١ ، ٦٢ ، ٢٨٣ ، ٣٠٠ | ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، |
| باب المتولى = باب زويلة | ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥ ، |
| باب النصر : ٢١٤ | ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، |
| باريس : ٢٧ ، ٤٩ ، ١٧٠ ، ٢٣١ ، | ٣٧٤ ، ٣٨٠ |
| ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٢٩٨ ، | أوربا الشرقية : ٢٣٠ ، ٣١١ ، ٣٣٧ |
| ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، | أوربا الشمالية : ٣٣١ |
| | أوربا الغربية : ٢٣٠ ، ٢٢٦ |

| | |
|------------------------------------|--|
| بدفورد : ٣٥٦ ، ٣٥٥ | ٣٥٢ ، ٣٣٤ ، ٣١٠ ، ٣٠٦ |
| بدنا : ٦٨ | باطوم : ٣٣٦ ، ٣٣٥ |
| البرازيل : ٣٧٦ ، ٣٧٤ ، ٣١٢ ، ٣١١ | بال : ٣٦٤ |
| براغ - براج : ٣٠١ | بالرمو : ٢٤٧ |
| براقتش (من اليمين) : ١١٠ | بالوس : ٣٧٤ |
| البرتغال : ٣١٢ ، ٣١١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٤ | ألبانيا : ٣٢٢ ، ٦٢ |
| ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ | بايزيد : ٣٣٥ |
| ٣٧٦ | بتروجراد = لينتجراد |
| برتيني : ٣٥٣ | البحر الأبيض المتوسط : ٤٢ ، ٣٠ ، ٢٦ |
| برجن : ٣٦٥ | ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٣ |
| بردو : ٣٥٣ ، ٢٩٩ ، ٢٨٧ | ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ١٠٢ |
| برزخ بناما : ٣٧٨ | ١١١ ، ١٣٦ ، ١٤٨ ، ١٦٦ |
| برشلونه : ٣٧٤ ، ٢٨٩ ، ٢٢١ | ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ |
| برغندية - برغندا : ٢٤٩ ، ٢٢٤ ، ١٠٦ | ٣٤٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٧١ |
| ٣٦٠ ، ٣٥٥ ، ٢٨٨ | ٣٧٩ ، ٣٧٦ |
| برقة : ٢٧١ ، ١٩٢ ، ١٦٦ ، ١٦٠ ، ٩٢ | البحر الأحمر : ٣٧٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٤ ، ١١٢ |
| ٢٨٨ | بحر الإديراتيك : ٣٥٩ ، ٣١٣ ، ١٠٤ |
| البرلمان البريطاني : ٢٣٩ ، ٢٣٨ | ٣٦١ |
| برلين : ٣٣٦ | البحر الأسود : ٣٢٢ ، ١٤٧ ، ١٠١ |
| برن : ٣٦٤ | ٣٣٣ ، ٣٢٦ |
| برندبورج : ٣٦٢ ، ٢٤٦ ، ٢٣٩ ، ٢٢٢ | بحر إيجة : ٣١ ، ٣٠ ، ٢٦ |
| ٣٦٣ | بحر البلطيق : ٣٢٦ ، ٣٢٥ ، ٣١٣ ، ٩٩ |
| بروج : ٣٦٥ ، ٣٥٠ | ٣٣١ ، ٣٣٠ |
| بروسة : ٣٢١ ، ٣١٩ | بحر الخزر : ٣٤٨ |
| بروسيا : ٣١٣ ، ٢٨٠ ، ٢٤٦ ، ٢٢٢ | بحر الشمال : ٢٢٤ |
| ٣٦٣ ، ٣٣١ | البحر الصغير (مستنهر من النيل) : ٢٦٥ |
| البروئنس : ٣٥٦ ، ٢٩٩ ، ٢٢٤ | بحر قزوين : ١٨٢ ، ١٠١ ، ٣١ ، ٢٩ |
| بريطاني - بريتاني - برطاني : ٢٣٥ | ٢٨٤ |
| ٣٥٦ ، ٣٠٣ | بحر المانش : ٣٠٢ ، ٢٢٤ ، ٧٨ |
| بريطانيا = إنجلترا | بحر صرصة : ٢٥٢ |
| بريم : ٣٦٥ | البحرين : ٢٠٤ ، ١٥٥ |
| بزورث : ٣٥٧ | بحيرة لادوجا : ٣٢٦ |
| بسارايا : ٣٣٦ | بحيرة وان : ٢٥٢ |
| البسفور : ٣٢٣ ، ١٨٣ | بخاري : ٣٢٧ ، ٢٧٦ ، ١٩٠ ، ١٦٧ |
| بسيون : ١٠ | بدر (بئر بالمدينة) : ٢٧٠ |

| | |
|---|---------------------------------------|
| البصرة : ١٣٤ ، ١٧٧ ، ٢٠٥ ، ٢٧٥ | البلاط الفرنسي : ٢٢٠ |
| بطرسبرج = ليننجراد | بليس : ١٤١ ، ١٤٢ ، ٢٠٨ ، ٢٥٧ |
| بطليوس : ٢٩٤ | بلجيكا : ٢٢١ |
| بطن صر : ٢٨١ | بلغ : ١٤٧ |
| بغداد (دار السلام) : ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٦ | بلغاريا : ١٠٩ ، ٢٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ |
| ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٣ | بلغراد : ٣٣١ ، ٣٣٥ |
| ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ | بلغنا : ٣٣٦ |
| ٢٢١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ | البلقان : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١٣٦ |
| ٢٧٦ ، ٢٧٥ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩ | ٢٦٠ ، ٣١٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٣ |
| ٢٩٠ ، ٣١٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ | ٣٣٥ |
| بغاريا : ١٠٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ | بلنسية : ٢٩٥ |
| بكين : ٣١٦ | بلوختان : ١٦٧ |
| البلاد الإسلامية — الامبراطورية الإسلامية : | بلوزيم : ١٤١ |
| ١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٩٩ | البنجاب : ١٦٧ ، ٢٨٥ |
| ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ | البندقية : ٢٤٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣٣٢ |
| ٢٧٦ | ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ |
| بلاد الرومان : ١٨٢ ، ٢١٧ ، ٢٨٤ | ٣٧٠ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ |
| ٢٨٥ ، ٣٠٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ | بوابة المتولى = باب زويلة |
| ٣٣١ ، ٣٧٢ | بوانو : ٣٥١ ، ٣٥٣ |
| بلاد الساكس : ٢٢٢ | بواتيه : ١٧٠ ، ٢٢٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٨ ، ٣٥٣ |
| البلاد السكندنافية : ٢٢٤ ، ٣٠٦ ، ٣٧٠ | بودابست : ٣٣١ |
| ٣٧٢ | بورديو = برديو |
| بلاد السين : ١٠٦ | بورما : ٥٠ |
| بلاد العرب : ٨ ، ٣٣ ، ١١٢ ، ١١٧ | بورنيو = جزيرة بورنيو |
| ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٧٦ | البوسنة : ٣٣٤ ، ٣٣٦ |
| ٢٧٧ ، ٣٤٥ ، ٣٧١ ، ٣٣٨ | بوفين : ٢٣٣ ، ٢٣٧ |
| بلاد العجم = فارس | بولاق : ٢٠٤ |
| بلاد الغال (فرنسا الآن) : ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ | بولنفا : ٣٣١ |
| ٦٩ ، ٧٨ ، ١٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ | بولندا — بولونيا : ٢٣٠ ، ٣١٣ ، ٣١٦ |
| ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٢٤ | ٣١٧ ، ٣٢٥ |
| بلاد المغرب = شمال أفريقيا | بولونيا (الإيطالية) : ٣٠٦ |
| بلاد المورة : ٣٣٢ | بوهيميا : ٢٤٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٣ |
| بلاد المرسك : ٣٣٤ | ٣٢٥ ، ٣٦٢ |
| البلاد الواطئة : ١٠٠ ، ٢٢١ ، ٣٦٤ | بيت ابن طولون : ١٩٣ |
| بلاط الشهداء : ٢٨٧ | |

ترنسلفانيا : ٣١٥ ، ٣١٤

تروى : ٣٥٤

تريف : ٣٦٢

تسالونيك = سالونيك

تشقند = طشقند

تشكوسلوفاكيا : ٢٢١ ، ٩٩

تل أفاتان — أفاتان : ٥٩ ، ٥٧

تل البلاتان : ٥٧

تل العمارنة = أختياتون

تل الكايتول : ٧٣ ، ٥٦

تل اليهودية : ٩٥

تنيس : ٢١٥

تور : ٢٨٨ ، ٢٧١ ، ٢٢٧ ، ١٧٠

تورنيه : ١٠٥

تولوز : ٢٨٧ ، ١٧١ ، ٦٩

تونس : ١١١ ، ١٦٠ ، ٢٠٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧١

٢٧١

التيبر (نهر) : ٨٥ ، ٥٧ ، ١٦

التيبول : ٣٦٤

تياء : ١٣٨

(ث)

الثغر الأعلى = أرغن

ثور نجيا : ٢٣٩ ، ١٠٦

(ج)

جاسي : ٣٣٣

جامع ابن طولون : ١٩٤ ، ١٩١

جامعات اسبانيا : ٣٠٦

جامعات المانيا : ٣٠٦

جامعات ايطاليا : ٣٠٦

جامعات جنوب أوروبا : ٣٠٦

جامعات شمال أوروبا : ٣٠٦

جامعات فرنسا : ٣٠٦

البيت الحرام : ٢٧٠ ، ١٦٢

بيت المقدس — اورشليم : ٤٥ ، ٤٤ ، ١٨

٧٠ ، ٧٦ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦

١٠٩ ، ١١٣ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩

١٩٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٥ ، ٢١٩

٢٢١ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦

٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣

٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨

البيرو : ٣٧٩ ، ٣٧٧

بيروت : ٢٥٩

بيزا : ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٤٩

بيرانسون : ١٧٠

بيرنطة = القسطنطينية

بيارستان قلاوون : ٣٤١

بين القصرين (من أحياء القاهرة) : ٢٠٣ ، ٣٤٠

بين النهرين — الجزيرة (القرانية) : ٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٨٠

١٣٤ ، ١٥٢ ، ١٧٧ ، ١٨٤ ، ١٨٥

٢٠٦ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٣١

بينون : ١١٠

(ت)

تابسوس : ٧٨

تارانت : ٦٢ ، ٦٣

تاتبرج : ٣٢٥

تبوك : ١٣٨

تراقيا : ١٧٢

الترسانة = دار الصناعة

ترعة المحمودية : ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧

التركستان : ٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٤

٢٨٥ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٧

تركيا : ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣

٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٨٦

جبل خندمة : ١٢٢
 جبل طارق : ٢٧١ ، ٢٩٥
 جبل عمر : ١٢٢
 جبل الملى : ١٢٢
 جبل الهندي : ١٢٢
 جبل يشكر : ١٩١
 جدة : ١٢٢
 جرجان : ١٨٢
 جرمانيا : ١٠٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٤٥ ، ٢٨٤
 جرونلاند : ٣٧٣
 جرينويتش : ٢٧ ، ٣٧٥
 الجزائر (نوميديا قديما) : ٦٩ ، ١٥٥ ،
 ٢٠٥ ، ٢٩٣ ، ٣٧١
 جزائر منورقة : ١٦٩
 جزائر مولوك : ٣٧٥
 جزائر ميورقة : ١٦٩
 جزر الأرخبيل (اليونانية) : ٣٥٩
 الجزر البريطانية = انجلترا
 جزر المالديفات : ٣٦٨
 جزر السوند : ٢٧٤ ، ٣٧٧
 جزر كناريا : ٣٧٠
 جزر الهند : ٣٧٤
 جزيرة بورنيو : ٣٧٥
 جزيرة الروضة : ١٤٣ ، ٣٣٨
 الجزيرة (الفراتية) = بين التهرين
 جزيرة قبرص : ٧٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٣٣٧ ،
 ٣٤٢ ، ٣٥٠
 جزيرة القمر : ٣٧١
 جزيرة كريت (إقريطش) : ٩ ، ٣٠ ، ٣١ ،
 ٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٥٠ ، ٣٥٩
 جزيرة العرب = بلاد العرب
 جلارس : ٣٦٤
 جلستر : ٣٥٧
 حليقة : ٢٩٠

الجامع الأزهر : ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٣٠٥
 جامع الأولياء : ٢١٦
 جامع نساى تونج : ٢٨٤
 جامع السلطان حسن : ٣٤٩
 جامع طلائع بن رزيك : ٢١٦
 جامع طليطلة : ٢٧٣
 جامع الظاهر ببرس : ٣٤٠
 الجامع العمري بقوص : ٢١٦
 جامع قابنباي : ٣٤٩
 جامع القرافة = جامع الأولياء
 جامع قرطبة : ٢٧٣ ، ٢٨٨ ، ٣٠٧
 جامع المؤيد : ٣٤٥
 الجامعة الأزهرية = الجامع الأزهر
 جامعة أكسفورد : ٣٠١ ، ٣٠٦
 جامعة باريس : ٢٤٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ،
 ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٠
 جامعة براغ : ٣٠١
 جامعة بولوني : ٢٤٦ ، ٣٠٦
 جامعة قرطبة = جامع قرطبة
 جامعة كمبردج : ٣٠٦
 جامعة مونبليه : ٢٧٦
 جامعة نابلي : ٢٤٧
 جبال الألب : ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٣١٣
 جبال البرانس : ٦٥ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ،
 ١٧١ ، ٢٢١ ، ٢٧١ ، ٢٨٧
 جبال التاي : ٣٤٨
 جبال الكربات : ١٠٢ ، ٣١٥
 جبال طوروس : ٢٣ ، ١٣٩ ، ١٩٢ ،
 ٢٦٠ ، ٣٣٣
 جبال هملايا = هملايا
 جبال هندوكش : ١٨٥ ، ٢٧٨
 جبل أبي قبيس : ١٢٢
 الجبل الأسود : ٣٣٤ ، ٣٣٦
 جبل الأولمبيا : ٥٦

الجليل : ٩٥ ، ٩٦

جند يسابور = شاهبور

جنوب آسيا : ٢٧٤

جنوب افريقيا : ٣٧٢

جنوب إيطاليا : ٢٢٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٤ ، ٢٧٤

جنوب أوروبا : ٣٠٦ ، ٣٠٨

جنوب الدنمارك : ٢٣٩

جنوب بلاد العرب = اليمن

جنوب روسيا : ٣١٦ ، ٣٤٨

جنوب الشام : ٢٠٤

جنوب الصين : ٣١٦

جنوب فرنسا : ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٣١

جنوة — جنوى : ٣٣٢ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٩

٣٧٩ ، ٣٦٠ ، ٣٥٩

جورجيا : ٣٣١ ، ٣٣٨

الجزيرة : ٣ ، ٢٥٨ ، ٣٤٣

(ح)

حبرة : ١١٠

الحبشة : ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢

الحجاز : ١١٠ ، ١٢٨ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٤

١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٤

٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢٥٧ ، ٢٨٦ ، ٣٧١

حجر رشيد : ٩

حديقة الحيوانات ببارمو : ٢٤٧

حديقة الشواذن بالهند : ٤٩

حديقة كافور : ٢٠٣

حيران — حيران : ٢٣ ، ١٩٢

الحرّة (أرض بركانية بالمدينة) : ١٦٢

الحرم المدني = مسجد المدينة

حصن بابليون : ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤

حصن الكرك : ٢٥٩

خضرموت : ١١٠ ، ١١١

حطين : ٢٥٩ ، ٢٦٠

حلقا : ٢٨١

حلوان (الفارسية) : ١٣٤

حلوان (مصر) : ١٦٥

حلب : ١٩٦ ، ٢١٥ ، ٢٥٩ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠

الحراء : ٢٧٣ ، ٢٩٥

حصص : ١٣٧ ، ١٧٣ ، ٣٤١

حمام بليس : ٢٠٨

الحجيمة : ١٧٦

حنين (التقية) : ٢٧٠

حوش السباع (يفرناطة) : ٢٩٥

حوض الرين = الرين

(خ)

خراسات : ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨

١٧٨

الخرطوم — عاصمة السودان : ٢٢٨ ، ٢٨١

الخرنقش (من أحياء القاهرة) : ٢٠٨

خط الاستواء : ١٢٦

الخليج الفارسي — خليج البصرة : ١٣٤ ، ٤٥

١٦٥ ، ٣٤٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٦

خليج فنلندا : ٣١٣

خليج قرن الذهب : ٣٢٣

الخدق (خندق المدينة) : ٢٧٠

خير (الهند) : ٢٨٥

(د)

الدار البيضاء : ١٥٥

دار السلام = بغداد

دار سينال = دار الصناعة

دار الصناعة : ٢٧٤

دار عثمان : ١٤٩

دار الندوة : ١٢٨

دانترج : ٣٦٥

الدانوب (نهر) : ٨٦ ، ٩٠ ، ٣٢٠ ، ٣٣٦ ، ٣٣٢

| | |
|---|--|
| الرحانية : ٣٤٧ | دجلة (نهر) : ٩ ، ١٨١ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥ |
| رسوف : ٢٦١ | دراو : ١٢٦ |
| رشيد : ٣٤٧ | درب القضاة : ٢١٤ |
| الرقعة — الرقة البيضاء : ١٥٢ ، ١٩٢ | درب المغرورين : ٣٦٨ |
| الرملة : ١٣٨ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ | درجة ٥٠ خط الطول : ٣٧٥ |
| الرها : ٢٥٦ ، ٢٥٤ | الردنيل : ١٧٢ |
| روان : ٣٥٦ | دلتا النيل (مصر السفلى) : ١٠ ، ١٢ ، ١٤٢ ، ١٧٩ ، ٢١٢ ، ٢١٤ |
| روقي : ٣٦٤ | دلتا القبولجا : ١٦٧ |
| رودس : ٣٣١ | فلانسيا : ٣٥٩ ، ٣٥٠ |
| روستشوك : ٢٣٦ | دمشق : ١١٣ ، ١٣٨ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٥٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٨٣ ، ٢٣٩ |
| روسيا : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٦٧ ، ٢٣٠ ، ٢٨٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٦٥ | دمياط : ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ |
| روسيا البيضاء : ٣١٣ | دققة : ٣٤١ |
| روما : ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٧٨ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣١٤ ، ٣١٩ ، ٣٦١ | الدغارك : ٩٩ ، ٢٢٤ ، ٢٣٩ ، ٣٣٠ ، ٣٤٧ |
| رومانيا : ٩٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ | الذفير (نهر) : ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ |
| الرومللي : ٣٣٦ | الذنيستر (نهر) : ٣٢٦ ، ٣٣٣ |
| الري : ١٨٦ | دوريليم — أسكي شهر : ٢٥٤ |
| ريدان : ١١٠ ، ١١١ | دومة الجندل : ١٣٨ ، ١٥٥ |
| ريصا لدو : ٢٩٥ | دير أبي صير : ١٧٩ |
| ريغان : ١١٠ | دير سمعان : ١٧٣ |
| ريفا : ٣١٣ | دير كلوني : ٢٢٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ |
| الرين (نهر) : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٢٤ ، ٣٦٢ | |

(ذ)

ذو المجاز : ٣٣

(ر)

راتسبون : ٢٦٠

رأس الرجا الصالح : ٣١١ ، ٣٧٢

راخين : ٩١ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٩

٢٢٠

الرايخ الألماني : ٢٤٦

سرمن رأى — سامراء — سامرا : ١٨٨
١٩٠ ، ١٩٣

سرقسطة : ٦١ ، ٦٦ ، ٢٢١

سفنج : ١٨٧

سكسونيا : ٢٣٩

سلوفاكيا : ٣١٤

سلوقية : ٢٧٠

سمرقند : ٣٢١

السند : ٢٩ ، ٦٧ ، ١٦٠ ، ١٦٧ ، ٢٧٤ ،
٣٧٧

سنس : ٢٤٥

سوايا : ٢٣٩

سواحل اسبانيا : ٢٨٩

سواحل الشام : ٢٦١

السودان : ٢٢٨ ، ٣٤١

سوريا : ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ،

٨١ ، ١١٦ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٨٧ ،

١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ،

٢١٥ ، ٢٦١ ، ٢٧٤ ، ٣٢٤ ، ٣٣١ ،

٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤

سوق الحجارين : ٢١٤

سولور : ٣٦٤

السويد : ٣٣٠ ، ٣٣١

السويس : ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٧٦

سويسرا : ٢٢١ ، ٣٦٤

سيام : ٥٠

سيريا : ٣٣٠

سيلان : ٥٠ ، ٣٤١

سيليزيا : ٣١٦

سيليزيا السفلى : ٣١٦

السين (نهر) : ٢٢٤

السيناتو (ندوة دهاقين الرومان) : ٥٥ ، ٦٠ ،

٦١ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ،

٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦ ،

٨٧ ، ٨٩

(ز)

الزاب (نهر) : ١٧٩ ، ١٨١ ، ٢٨٨

زاما : ٦٦

زقاق حبل طارق : ٢٧١

الزلاقة : ٢٩٣

زحزم (بئر) : ١٢٣ ، ١٢٤

الزهراء : ٢٩٠

زورنج : ٣٦٤

زين العابدين (حي بالقاهرة) : ١٩١

(س)

ساحل نرمندية : ٣٥٢

ساكس : ٢٢١ ، ٢٤٥ ، ٣٣٠ ، ٣٦٢

سالرنو : ٢٤٧

سالف = كاراسو

سالونيك : ٩٨ ، ٢٦٣ ، ٣٣٤

الساف : ٣١٣

سامراء — سامرا = سرمن رأى

ساموس : ٣٣

سان استفانو : ٣٣٦

سان بطرسبرج : ٣٣٠

سان دومنيك : ٣٧٨

سايس : ١٠

سبأ : ٤٤ ، ١١٠

سبته : ١٦٩

سجستان : ١٤٧

سجلداسه : ٢٠١

سد مأرب : ١١٠ ، ١٢٥ ، ١٢٦

سد يأجوج ومأجوج : ٣٦٨

سدوم : ٤٣

سردينيا (شرطانية) : ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ،

١٠٥ ، ٣٣٤

(ش)

شاحك : ١١٠

شارع بيرجوان : ٢٠٨ ، ٢١٤

شارع بين القصرين = بين القصرين

شارع المنجدين : ٢١٤

شاطيء المحيط الهندي : ٣١١

شافوزن : ٣٦٤

شالون : ١٠٣

الشام : ١١٨ ، ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٣٦

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣

١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦

١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٢

١٩٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٢

٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٧٠ ، ٣٣٩

٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩

شاهبور (نهر إيران) : ٢٧٥

شبه جزيرة إيطاليا = إيطاليا

شبه جزيرة البلونيز : ٣٤

شبه جزيرة سيناء : ٢٣ ، ١٢٣

شبه جزيرة العرب = بلاد العرب

شبه جزيرة اليونان = اليونان

الشحر : ١١١

شرطانية = سردينيا

الشرق : ١١١ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ٢٥١

٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠

٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٨ ، ٣٠٣

٣٠٩ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠

٣٥٩ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٦

شرق آسيا : ٣٤٨

الشرق الأدنى : ٤٢ ، ٥٤ ، ١١٠ ، ٣٤٢

شرق الأردن : ١٨

شرق اسبانيا : ٢٨٨

الشرق الأقصى : ٤٢ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ١١٠

٢٢٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦

شرق أوروبا : ٣١٨ ، ٣٢٥ ، ٣٥١

شرق الصين : ٢٧١

شريش :

شلال أسوان : ١٩٢

الشلال الثاني : ٥

شمال آسيا : ٣٣٨

شمال أفريقيا — المغرب : ٦٢ ، ٧٦ ، ٧٨

١٠٢ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٣٦ ، ١٥٥

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٨٤

١٨٥ ، ١٨٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢

٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢٢٩

٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٧٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨

٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٢٤

٣٧٠ ، ٣٧١

شمال أوربا = البلاد السكندنافية

شمال إيطاليا : ٢٢٠ ، ٢٢٤

شمال بلاد العرب = الشام

شمال سوريا : ١٩٦

شمال الشام : ٢٠٤

شمال الصين : ٣١٥ ، ٣١٦

شمال غربي فرنسا = بريتاني

الشمس المشرقة = اليابان

شوتس : ٣٦٤

(ص)

صحو الصباح = كوريا

صربيا — الصرب : ٦٢ ، ٣١٤ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦

صرواح : ١١٠

الصعيد — مصر العليا : ١٤٢ ، ١٧٩

٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٣٤٣

الصفاء : ١٢٣

صفين : ١٥٢

صفد : ٣٤٠

مقلية : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧

٨٠ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٥٩ ، ١٦٦

(ظ)

ظفار : ١١٠

(ع)

عاصمة السودان = الخرطوم

العالم الجديد = أمريكا

العباسية (حى بانقاهرة) : ١٤٣

عدن : ١١١ ، ٣٧١ ، ٣٧٦

العراق : ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢٣ ،

١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٩ ،

١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،

١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،

١٧٩ ، ١٨٧ ، ١٩٥ ، ٢٥١ ،

٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٧٤

العرافين : ١٦٤

عرفات : ١٢١

العريش : ١٩٥

عسقلان : ٢١٥

عكاظ : ٣٣

عكا : ٢١٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،

٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٣٤٢

عمورة — عمورية : ٤٣ ، ٢٢٨

المواصم (حدود الدولة الإسلامية عصر العباسيين) :

١٨٥ ، ١٩٣ ، ٢٢٢

عين جالوت : ٢٦٧ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ،

٣٣٩ ، ٣٤١

عين شمس : ١٤٣ ، ٢٠٤

(غ)

غابات جرمانيا : ٢٨٤

الغابة السوداء : ١٠٦

غار ثور : ١٢٠

غار حراء : ١١٩

٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ،

٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،

٢٤٩ ، ٢٧٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،

صور : ٢٦ ، ٢٥ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ١٣٨ ،

٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٨٣

صوفيا : ٣٣٦

سيديا : ٢٦ ، ٢٨٣

الصين : ٩ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ،

٥٨ ، ٦٨ ، ١٠١ ، ١٣٤ ، ١٨٦ ،

٢٥١ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،

٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ،

٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٧ ، ٣٤٨ ،

٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤

(ض)

ضاحية الزهراء = الزهراء

ضريح الرسول بطرس = قبر الرسول بطرس

الضواحي الصناعية : ٢٨٢ ، ٢٨٣

(ط)

الطائف : ١١٨ ، ١٣١ ، ١٥٨

طخارستان : ١٦٧

طرابلس (الافريقية) : ١٦٠ ، ٢٧١

طرابلس (الشامية) : ٢٥٥ ، ٢٦٧

طرسوس : ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٣٤٤

طروادة : ٢٧٠ ، ٣١ ، ٥٦

طشقند — تشقند : ٣٢٧

طليطلة : ١٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩ ،

٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

الطواحين (مكان قرب الرملة) : ١٩٢

طوروس = جبال طوروس

طولوشة = تولوز

طيبة (عاصمة الفراعين) : ٩ ، ١٦ ، ١٨ ،

٣٢ ، ٣٣ ، ١٤٢

طيبة (العريية) = المدينة

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
 ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ،
 ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ ،
 ٢٦٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ،
 ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ،
 ٣٣٣ ، ٣٤٣ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ،
 ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ،
 ٣٦١ ، ٣٦٤

فريورج : ٣٦٤

الفتيولا (نهر) : ٩٩

القساط : ١٤٤ ، ١٦٥ ، ٢٠٣ ، ٢٥٨ ،

الفلاندر : ٢٣٣ ، ٢٦٣ ، ٣٥٢ ، ٣٦٣ ،

٣٦٥

قلبه : ٣١٩

القلبين : ٣٧٥

فلسطين : ١٨ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ١١٦ ، ١٣٦ ،

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٨١ ،

١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١٥ ، ٢٥٠ ،

٣٢٤ ، ٣٣٩

فلورنسا : ٣١٠ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ،

٣٧٤

فلندا : ٣١٣ ، ٣٣١

الفوروم : ٦٣ ، ٧٤ ، ٧٧

الفولجا (نهر) : ١٦٧ ، ٣١٥

فوة : ٣٤٣

قيس : ٦١

فيينا : ٣٣١ ، ٣٣٢

فينيقيا : ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٦٢ ،

٢٨٣

القيوم : ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ،

(ق)

القارة الآسيوية = آسيا

القارة الأمريكية = أمريكا

الغرب : ١١١ ، ١١٢ ، ٢٠٣ ، ٢٦٩ ،
 ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،
 ٢٨٦ ، ٣٠٣ ، ٣٤٧ ، ٣٦٦ ،
 ٣٦٧ ، ٣٦٨

غرب آسيا : ٣٤٨

غرناطة : ١٦٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،

٣٥٨ ، ٣٧٣

غسقونيا : ٣٥١ ، ٣٥٣

غمبيا : ٢٩٣

غين : ٣٥٣

(ف)

فارس - إيران : ٨ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٤٧ ،

٥٠ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ،

١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٧ ، ١٦٤ ،

١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٩٥ ، ٢٠٨ ،

٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ،

٢٨٦ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٣٢

الفرات (نهر) : ٩ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٢ ،

٧٠ ، ٨٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ،

١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٩٢ ، ٢٧٥ ،

٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ،

٣٨٠ ، ٣٤٧

فرانكونيا : ٢٣٩

فردان : ٢٣٩

فردون : ٢٢٣

فرسال : ٧٨

فرغانة : ١٦٧ ، ١٩٥

الفرما : ٢١٥

فرنسا : ١١ ، ٢٧ ، ٦٢ ، ٧٨ ، ٩٩ ،

١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ٢٢٠ ،

٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ،

القارة الأوربية = أوربا

القادسية : ١٣٤

قادش : ١٩

القاهرة : ٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،

٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ،

٢٨٣ ، ٣٠٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ،

٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،

٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧

قبة السلطان قلاوون : ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،

قبر الرسول بطرس : ٢٢٠ ، ٢٢١ ،

قبر السلطان قلاوون : ٣٤١

قبر عمر بن عبد العزيز : ١٧٣

قبر المسيح : ٢٢١ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ،

٢٦٥

قبر يوحنا المعمدان : ٢١٩

قرطاجنة : ٢٦ ، ٢٧ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،

٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ،

١٠٢

قرص : ٣٣٥ ، ٣٣٦

قرطبة : ١٦٩ ، ٢٤٧ ، ٢٧٣ ، ٢٨٣ ،

٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،

٣٠٦

قرقشونة : ١٧١

القرم : ٣٢٧ ، ٣٣٣

قزان : ٣٢٨

القسطنطينية — يزنطة — الاسطانة —

اسلامبول : ٩٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،

١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٧ ،

١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٧٢ ، ١٨٣ ،

٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،

٢٢٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،

٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ ،

٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٦ ، ٢٩٧ ،

٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ،

٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ،

٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ،

٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ،

٣٥١ ، ٣٧٠

قشتاله — كستيليا : ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٩٢ ،

٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣١١ ،

٣٤١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٤

قصر الحمراء = الحمراء

قصر الروضة (بقرطبة) : ٢٩٠

قصر عبد الرحمن الداخل : ٢٨٨

قصر المنز الفاطمي : ٢٠٣

القطائع : ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،

قطولوايا : ٢٩٠

قفقاسيا = القوقاز

القلعة : ٣٤١ ، ٣٤٤

قلعة الكايتول : ٦١

قلعة كانوسا : ٢٤٣

قنا : ٢٠٥

قناة السويس : ٣٧٦

قنسرين : ١٩٦

قوتاية : ٣٣٣

قوص : ٢١٦

قوصوه : ٣٢٠

قونية : ٣١٨ ، ٣٣٣

القوقاز : ٣٢١ ، ٣٣٨

القيروان : ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ٢٠٣ ،

قيسارية : ٢٥٩

(ك)

كابيل : ١٤٧

كابو : ٦٦ ، ٧٧

كاراسو (نهر) : ٢٦٠

كاليه : ٣٥٢ ، ٣٥٦

٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٩٨ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،
 ٣١٥ ، ٣٢٢ ، ٣٥٨ ، ٣٧٥
 كنيسة ريمس — كنيسة ريم : ١١ ، ٣٥٥
 ٣٥٦
 كنيسة سان مارك : ٢٤٥
 كنيسة صوفيا = الكنيسة اليونانية
 كنيسة القيامة : ٢٢١ ، ٢٥٠
 الكنيسة الكاثوليكية = كنيسة روما
 كنيسة كنتربري : ٢٤٧
 الكنيسة المصرية : ٣٧١
 كنيسة وستمنستر : ١١
 الكنيسة اليونانية : ١٠٩ ، ٢١٩ ، ٢٣٠ ،
 ٢٥٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٢ ،
 ٣٢٣
 كورتريه : ٢٣٣
 كورسيكا (قوصرة) : ٦٢ ، ٦٤ ، ٨٠ ،
 ١٠٥
 كورنت : ٣٣
 كوريا — صحو الصباح : ٥٣
 الكوفة : ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
 ١٧٩ ، ١٨٢ ، ٢٠٥ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٥ ، ٢٨٣
 كولونيا : ٣٦٢
 كوثيه : ٣٦٤
 كونستازا = كنستازا
 كيف : ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،
 ٣٢٧

(ل)

اللايرانت (قصر) : ٣٢
 لاهور : ٣١٦
 لاون : ٣٠٣

كان : ٩٥
 كانت : ٣٦٤
 كاتون : ٢٨٤
 كنامة : ٢٠٠
 كرا كوروم : ٣١٦
 كربلاء : ١٦١
 كرسي = كرسي
 الكرك : ٢٩٤
 كرلويتز : ٣٣٢
 كرمان : ١٤٧
 كرواتيا : ٣١٤
 كريت = جزيرة كريت
 كرسي — كرسي : ٣٥٢ ، ٣٥٤
 كستلا = قشتالة
 كشمير : ٥٠
 الكعبة — البيت الحرام : ١١٨ ، ١٢٤ ،
 ١٧٤ ، ١٢٩
 كلدة : ١٨
 كلكتا : ٣٧١ ، ٣٧٦
 كليرمنت : ٢٥٢
 كليزيا : ٢٥٤ ، ٢٦٠
 كنستازا : ٣٠١ ، ٣٠٢
 كنيسة بيزنطة = الكنيسة اليونانية
 كنيسة تشاي تونج : ٢٨٤
 كنيسة الحبشة : ٣٧١
 كنيسة الرسول بطرس = كنيسة روما
 الكنيسة الروسية — كنيسة الثلاث : ٣٢٨ ،
 ٣٢٩
 كنيسة روما — الكنيسة الكاثوليكية —
 كنيسة الرسول بطرس — أسقفية روما :
 ١١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ،
 ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
 ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣

محكمة قشالة : ٣٥٨
المحيط الأطلسي — الإطلنطي : ٧٠ ، ١١١ ،
١٨٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٤ ، ٣٦٨ ،
٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩
المحيط الباسفيكي : ٣١٦
المحيط الهادي : ٤٢ ، ٥٤ ، ٣٧٥
المحيط الهندي : ١٢٢ ، ٣١١ ، ٣٤٧
المدائن : ١٣٤ ، ١٨١
مدواس : ٥٠
مدرسة أييلارد : ٣٠٣
المدرسة الايرانية بأدسة : ٢٧٠
مدرسة باريس : ٣٠٣
مدرسة السلطان قلاوون : ٣٤١ ، ٣٤٢
مدرسة شاهبور : ٢٧٥
مدرسة الطب بسالرنو : ٢٤٧
مدرسة الظاهر بيبرس : ٣٤٠
مدرسة مياون : ٣٠٣
مدريد (مجرىط) : ٢٧
المدن الصناعية : ٢٨٢ ، ٢٨٣
مديرية الغرية : ١٠
المدينة — يثرب — طيبة — إتريس : ١١١ ،
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٣٩ ،
١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ،
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ،
١٧٧ ، ١٨٤ ، ١٩٦ ، ٢١٢ ، ٢٥١ ،
٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٣٧١
مدينة زارا : ٢٦٢
مدينة سلوقية : ٢٧٠
مدينة مصر : ١٤٣
مهرجاف : ٣٦٢
مهاكش : ١٥٥ ، ١٦٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ،
٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٩٢ ، ٣٧١
مهي : ٢٢٣
مهييليا : ٦٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٣٧٩

لبانت : ٣٣٢
لتوانيا : ٣٢٥
لركة — لورقة : ٢٩٥ ، ٢٩٦
لشونة : ٣١٢ ، ٣٦٨ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ،
لمبارديا : ٢٤٠
لندن — لندرة : ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٥ ،
اللووار (نهر) : ١٠٦ ، ٢٢٥ ، ٢٨٨ ،
٣٥٥
لويك : ٣٦٥
المورين : ٢٢٤ ، ٢٣٩
لوسرن : ٣٦٤
لوكسمبرج : ٣٦٤
ليجنيز : ٣١٦
لينجراد : ٣٣٠
ليون : ٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ،

(م)

مادير (جزيرة بالهند) : ٣١١ ، ٣٦٨
مأرب : ١١٠
مالطة : ٣٣٦
مايانس : ٣٦٢
مايتز : ٢٢٤
ماتانيا : ١٤
المجر : ١٠٢ ، ٢٤٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ،
٢٣٩ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ،
٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣١ ،
٣٣٢
مجلس فورمس : ٢٤٣
مجلس العموم : ٢٣٨
مجلس اللوردة : ٢٣٨
المجمع الملكي للغة العربية : ٢٧٥
محنة : ٣٣
محاكم النفقيش : ٣٧٢
محكمة النفقيش : ٣٥٨

مرو : ١٧٨

المروة : ١٢٣

المستعمرات البرتغالية : ٣١١

مسجد ابن طولون = جامع ابن طولون

مسجد الرسول : ١٢٩

مسجد صوفيا : ٣٢٣

مسجد عمرو بن العاص : ١٤٤

مسجد غرناطة : ٢٩٥

مسييا : ٨٠ ، ٦٣ ، ٦٢

المفرق : ١٧١ ، ٣٤٢

مصر : ٦ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ،

٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٣ ،

٤٤ ، ٥١ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٨ ، ٨٠ ،

٨٢ ، ٩٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ،

١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،

١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ،

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٣ ،

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٥ ،

١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،

١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،

٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ،

٢١٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،

٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ،

٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ،

٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٨ ، ٣٠٥ ،

٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ،

٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ،

٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٦٦ ،

٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ،

مصر السفلى = دلتا النيل

مصر العليا = الصعيد

معبد الكاينبول : ٧٣ ، ٨١

معبد الكرنك : ١٨

معبد كيرينوس : ٨٢

معين : ١١٠

المغرب الأقصى = شمال أفريقيا

مقاطعات هملايا : ٤٨

مقاطعة الفلاح : ٣١٥

المقس : ٢٠٤

مقدونيا : ٣٧ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٠١ ،

المقياس : ٣٢٨

مكتبة الحاكم : ٢١٣

مكتبة السلطان قلاوون : ٣٤١ ، ٣٤٢ ،

مكران : ١٦٧

الكسيك : ٣٧٧ ، ٣٧٩

مكة : ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ،

١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٧ ،

١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٩٦ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ ،

٢٥٩ ، ٣٤٤ ، ٣٧١

ملابار : ٣٧٤

ملاذ كرد : ٢٥٢

ملتان : ١٦٧

ملجأ السلطان قلاوون : ٣٤٣

ملدافيا : ٣١٥

الممالك الاسلامية = البلاد الاسلامية

الممالك البلقانية = البلقان

المملكة البابوية : ١٢٧

مملكة البيرو = البيرو

مملكة القس حنا : ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ،

مملكة عشيرة الذهب : ٣٢٦

مملكة ميديا : ٢٩

النصورة : ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٣٨ ،

منطقة الخمس مدن : ٩٢

منغوليا : ١٠١ ، ٣١٦

منف — منفيس : ٩ ، ١٨ ، ٥٤

النهديّة : ٢٠٣

نهر التاج : ٢٩٢
 نهر الدانوب = الدانوب
 نهر الدنير = الدنير
 نهر الرون : ١٠٦ ، ٩٩ ، ٦٥
 نهر سالف = كاراسوا
 نهر الشريعة : ٢٧٠ ، ٩٥ ، ٤٤ ، ١٨
 نهر الطونة — نهر الطونة الأوسط : ٩٩ ،
 ١٠١ ، ١٠٣ ، ٢٤٥ ، ٣١٤ ، ٣٣٥
 نهر القرات = القرات
 نهر القولجا = القولجا
 التهروان : ١٥٥
 نهر اليرموك : ٢٧٠ ، ١٣٨
 النوبة : ٣٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٠٤ ، ٥
 النوبة العليا : ٣٤١
 نورفلك : ٣٥٢
 نورنبج : ٣٦٥
 نوس : ٣١
 نوجرود : ٣٦٥
 نوميديا = الجزائر
 نيستريا : ١٠٦
 نيقوبوليس : ٣٢٠
 نيقية Nicée : ٢٦٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٤ ، ١٠٨
 النيل (نهر مصر) : ١٣ ، ١٢ ، ١١ ، ٨
 ١٦ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٢ ، ١٢٤ ، ١٢٧
 ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥٧ ، ١٦٥
 ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥
 ٣٨٠
 نيا : ١٧١
 نينوى : ١١٣ ، ٤٥ ، ١٨
 نيوفوندلاند : ٣٧٤

(هـ)

هانوفر : ٢٢٢
 هجر : ٢٠٥
 هرات : ١٤٧

المورة : ٣٥٩
 موزارة : ٢٨٨
 الموصل : ١٧٩ ، ٢٠٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ،
 ٢٧٤ ، ٣٤٨
 موسكو : ٣١٧ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،
 ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩
 مرتبليه : ٢٧٦
 موتسكليروز : ٣١٢
 موندا : ٧٨
 ميدان الظاهر بيرس : ٣٤٠
 ميدان القلعة : ١٩١
 ميلانو : ٣٦٠ ، ٣٥٩ ، ٢٤٥ ، ١٠٣ ، ٩٨ ، ٨٩
 ميلون : ٣٠٣
 ميليت : ٣٣

(ن)

نابلس : ٢٥٩
 نابلي : ٦١ ، ٢٣٣ ، ٢٤٩ ، ٣٥٩ ، ٣٦١
 ناعط : ١١٠
 نافارين : ٣٣٣
 نانكين : ٣١٦
 نجد : ١١٠
 نجران : ١١٢
 النحاسين (حي بالقاهرة) : ٣٤٢ ، ٣٤٣
 نرمانيا : ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٣٥١ ،
 ٣٥٢ ، ٣٥٣
 النرويج : ٢٣٦ ، ٣٦٥
 نريب : ٣٣٣
 نستاد : ٣٣١
 نقارا — نقارة : ٢٩٢ ، ٣٣٠
 النمسا : ٢٢١ ، ٢٤٥ ، ٢٦١ ، ٣١٣ ،
 ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤
 نهر الأردن = الأردن
 نهر الإسكو : ١٠٥
 نهر البو : ٣٥٠

المهرسك : ٣٣٦

هزنا : ٣١٦

حضبة بوهيميا = بوهيميا

هولاندا : ٩٩ ، ١٠٥ ، ٢٢٤

مبورج : ٣٦٥

هملايا : ٤٨

الهند : ٩ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧ ،

٥٠ ، ٥٤ ، ٦٧ ، ١١١ ، ١٣٤ ،

٢٨٥ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨ ،

٣٧٥ ، ٣٧٦

الهند الشرقية : ٣١١

الهند الصينية : ٢٧٤

الهنا : ٣٥٠

هنگاريا : ٩٩ ، ٢٢١ ، ٢٤٧ ، ٣١٧ ، ٣٢٥ ،

هيكل سليمان : ١٠٩

(و)

وادي الحجون : ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٨

وادي فاطمة = وادي الحجون

وادي القرات : ١٤٦

وادي نهر لالو : ٣٥٠

وادي نهر الشريعة : ٤٤

وادي نهر الطونة : ٣١٤

وادي النيل : ١٧ ، ١٢٧

وارنة : ٣٢٢

واقوصة : ١٣٨

الوجه البحري = دلتا النيل

الوجه القبلي = الصعيد

وستفالي : ٢٢٢ ، ٢٤٥

وسكس : ١٠٤

ويلز : ٢٣٩

(ي)

اليابان — الشمس المشرقة : ٥٠ ، ٤٣ ،

١٢٩ ، ٣٦٩ ، ٣٧٤

يافا : ١٣٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٣٤٠ ،

يثرب = المدينة

يحبص : ١١٠

اليمن : ٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ،

١٢٢ ، ١٦٥ ، ١٨٩ ، ٢١٢ ، ٢٥٩ ،

٣٣١ ، ٣٤١

يبسج : ١٢٦

يوغوسلافيا : ١٠٩ ، ٢٢١

اليونان : ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ،

٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ،

٢٣٠ ، ٢٨٣ ، ٣٠٦ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،

٣٥٠

فهرس الأقوام والأمم

| | |
|--------------------------------------|--|
| ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٥١ ، | (١) |
| ٣٦٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٧ | الآريون : ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٧ ، |
| الأتروسك : ٦١ ، ٧١ | ٥٧ ، ٧٠ ، ٢١٧ |
| الأتنا عشرية : ١٧٧ ، ٢٧٦ | آل برمك : = البرامكة |
| الأتينيون : ٣٢ ، ٣٥ | آل البيت — آل هاشم : ١٣٠ ، ١٣١ ، |
| أحزاب الأشراف = الأشراف | ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، |
| أحفاد شلمان = أسرة شلمان | ١٦٥ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، |
| إخوان الصفاء وخلان الوفاء : ٢٧٥ | ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، |
| الآخوان افرنيسكان : ٢٢٩ ، ٢٣٠ | ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ |
| الادارسة — أبناء إدريس : ١٨٢ ، ١٨٩ ، | آل يعقوب : ٢١ |
| ٢٠٢ ، ٢١٢ | الآباضية (فرقة من الخوارج) = الخوارج |
| الآرثوذكس : ٢٣٠ ، ٣١٥ ، ٣٢٥ ، | أباطرة ألمانيا : ٢٤٦ ، ٣٦٣ |
| ٣٢٦ ، ٣٢٧ | أباطرة بيزنطة : ١١٦ ، ٣٣١ |
| الآرشيك : ٢٨٥ | أباطرة الرومان : ٥٥ ، ٥٨ ، ٧٠ ، ٩١ ، |
| الآرمن : ٢٥٦ | ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٩٩ |
| الآريوسيون : ١٠٨ | أبناء الآلهة = الفراعنة |
| أزد شنوءة (عرب) : ١٦٥ | أبناء الحسن = آل البيت |
| الأساقفة = رجال الاكليريوس | أبناء الحسين = آل البيت |
| أساقفة تريف : ٣٦٢ | أبناء حمير : ١١١ ، ١٢٠ |
| اساقفة كنتبرى : ٢٤٧ | أبناء على = آل البيت |
| أساقفة كولونيا : ٣٦٢ | أبناء لاوى : ٤٤ |
| أساقفة مايانس : ٣٦٢ | أبناء هاجر = العرب الإسماعيلية |
| أسد (عرب) : ١٦٥ | أبناء يهوذا = قبيلة يهوذا |
| الاسبارطيون : ٣٤ ، ٣٦ | الآتابكة : ٢٥٤ |
| الاسبان : ٢٧ ، ٧٩ ، ٩١ ، ٩٩ ، ٢٦٣ ، | الآتراك (الجنس) = الترك |
| ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢٩ ، | الآتراك العثمانيون : ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، |
| ٣٧١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، | ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، |
| ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، | ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، |
| الآستيك : ٣٧٨ | |

أعضاء مجلس كنسترا : ٣٠٢ ، ٣٠١
الإغريق — الروم — اليونان : ٢٦ ، ١٧ ، ٦
٣٥ ، ٣٤ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٣٠ ، ٢٩
٤١ ، ٤٠ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٦
٦١ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٤٧ ، ٤٥ ، ٤٢
٩٠ ، ٨٢ ، ٧٢ ، ٧٠ ، ٦٣ ، ٦٢
١٣٣ ، ١٢٧ ، ١١٧ ، ١١٣ ، ٩٢
١٣٩ ، ١٣٨ ، ١٣٧ ، ١٣٥
١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٣
١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ١٩٨
٢٠٨ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ ، ٢٤٧
٢٦٣ ، ٢٧٢ ، ٢٦٨ ، ٢٨٣
٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٢٦ ، ٣٤٣
٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٣٨١

الأفغان : ١٦٠ ، ٥٠

الأقباط = القبط

الأكديون : ٢٥ ، ٢٤

أكلب (عرب) : ١٦٥

الألمان : ٢٦٣ ، ٢٦٠ ، ٩٩ ، ٩١ ، ٢٧

٣٢٩ ، ٣٢٠ ، ٣١٦ ، ٣١٣

أمراء ألمانيا : ٣٦٢ ، ٢٤٣

أمراء الأندلس : ٢٩٣ ، ٢٩٢

أمراء أوروبا : ٣٢٠ ، ٢٤٨

أمراء رومانيا : ٣٢٢

أمراء سايس : ١٠

أمراء صقلية : ٣٤١

أمراء قشتالة : ٣٤١

الأمراء المسيحيون : ٣٢١

أمراء مصر : ٣٧٦

أمراء المغرب : ٢٨٧

أمراء موسكو : ٣٢٨ ، ٣٢٧

الأمراء والنبلاء = الأشراف

الأمريكيون : ٢٧

الأموريون : ٤٤ ، ٤٣

أنبياء بني إسرائيل : ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٢٣

٣٠٤ ، ٢٦٨ ، ٩٣ ، ٥٤

الأنصار : ١٦٢ ، ١٣١ ، ١٣٠ ، ١٢٩

أسرة أنطونين : ٨٦

أسرة نيودور : ٣٥٨

أسرة جاي دي لوزيان : ٢٦٦

أسرة شلمان : ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٢٤

أسرة فالوا : ٣٥٢

أسرة كابت : ٣٥١ ، ١١

أسرة لنكستر : ٣٥٧

أسرة مروان = بنو مروان

أسرة ميرو فنجيان : ٢٧١

أسرة هابسبرج : ٣٦٥ ، ٣٦٤ ، ٣٦٣ ، ٢٤٦

أسرة هوهنزرن : ٣٦٤ ، ٣٣٤ ، ٢٤٦

أسرة هوهنشتوفن : ٢٦٦ ، ٢٤٩ ، ٢٤٦

أسرة ويتلباخ : ٢٤٥

أسرة يورك : ٣٥٨

اسكتنديون : ٣٢٩

الإسكيو : ٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٣٧٣ ، ٣٦٨

الإسماعيلية (فرقة من الشيعة) : ٢٧٦

الأشراف — البترسيان : ٧٣ ، ٦٠ ، ٥٩

٢٧٩ ، ٢٥٤ ، ٢٤٠ ، ٧٦ ، ٧٤

٢٩٨ ، ٢٨٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨١

٣٥٨ ، ٣٠٨

أشعر (عرب) : ١٦٥

الأشعرية (من مذاهب التكلمين أتباع أبي الحسن

الأشعري) : ١٩٩

الأشوريون : ٤٥ ، ٢٦ ، ٢١ ، ١٩ ، ١٨

أصحاب الأخدود : ١١٢

أصحاب الميثاق (متصوفة) : ١٩٩

أصحاب وحدة الوجود (فلاسفة متصوفة) :

١٩٩ ، ٣٨

أعضاء السيناتو : ٦٥ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٥

٨٠ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٤

٨٩ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٣ ، ٨٢ ، ٨١

أعضاء المجمع الملكي للغة العربية : ٢٧٥

أعضاء مجلس يزا : ٣٠٢ ، ٣٠١

أعضاء مجلس العصرة : ٣٦٠

أعضاء مجلس العموم : ٢٣٩ ، ٢٣٨

الإنكشارية : ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٣٣

الإنجلو : ٢٣٥

الإنجليز : ٢٧ ، ٢٧٤ ، ١٠٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،

٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣

٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٧٢

أهالى أمريكا الأصليون = الأسكيو

أهالى البيرو : ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨

أهالى سكسونيا = السكون

أهالى مدينة انيانى : ٢٩٩

أهل أسبوط : ٢٠٧

أهل الأندلس : ٢٨٧ ، ٢٩٤

أهل أوربا = الأوريون

أهل بابل = البابليون

أهل البندقية = البنادقة

أهل الحجاز : ٣٧٢

أهل الريف : ٢٠٧

أهل الشام — الشوام : ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٧٧

٢٠٥ ، ٣٠٥ ، ٣٤٠

أهل الصفة : ١٤٥

أهل العصور الوسطى : ٣٠٩ ، ٣٧٣ ،

٣٧٤

أهل الغرب = الغربيون

أهل الكوفة : ١٦١

أهل قنا : ٢٠٧

أهل مدين : ٤٤

أهل نجران : ١١٢

أهل ويلز : ٢٣٩

أهل اليمن : ١١٢ ، ١٧٧

الأوريون : ٣٠ ، ١٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،

٢٩٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٣٤٨ ،

٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٣

الأوس (عرب) : ١٦٥

أولاد على = آل البيت

الايحيون : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨١

الإيطاليون : ٦٠ ، ٣٢٩ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧٥

الأيونيون : ٢٦٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩

الأيوليون : ٣٢

الأيونيون : ٣٢ ، ٣٤

(ب)

البابليون : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٦ ،

٣٧ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ١٢٢ ، ٣٨١

بابوات روما : ٢٤٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠

البارث : ٨٠ ، ٢٨٥

الباشكنس : ٢٢١

البترسيان = الأشرف

البرامكة : ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩

البراهمة : ٤٧ ، ٤٨

البربر = قبائل البربر

البرتغاليون : ٣١٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،

٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢

البرغند : ٩١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ،

١٠٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧

البروتستانت : ٢٣٠ ، ٢٦٩

البطالة : ٥١ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٩٢

بكر (عرب) : ١٦٥

البلغار : ٢٣٠ ، ٢٦٣ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،

٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠

البلقان : ٣٢٠

البليب (عامة الشعب) : ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٢ ،

٧٤ ، ٧٦

البنادقة : ٣٥٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٧ ،

بنو الأحمر : ٢٩٥

بنو الاخشيد : ١٩٧

بنو اسرائيل = اليهود

بنو اسماعيل = العرب الاسماعيلية

بنو الأغلب : ٢٠١

بنو أمية : ١٤٩ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٣ ،

١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،

١٨٩، ١٨٨، ١٨٣، ١٨٢، ١٨١

٢٨٧، ٢٧٥، ٢٧٢، ٢٠٠، ١٩٠

٢٩٢، ٢٩٠، ٢٨٨

بو أيوب = الأيوبيون

بنو بويه : ١٨٩ ، ١٩٥

بو تميم : ١٦٥

بوجذيمة بن لؤى : ١٦٥

بنو الحارث : ١٦٥

مؤحمدان = الحمدانيون

مؤذى النون : ٢٩٢

بنو سعد : ١١٨

بنو سهم : ١٦٥

مؤشبة : ١٢٨ ، ١٢٩

بنو عباد : ٢٩٢

مؤالعباس = العباسيون

بنو عبد الدار : ١٢٩

بنو عبد مناف : ١٢٩ ، ١٦٥

بنو عدى : ٢٠٥

بنو غسان = الغسانية

بنو قريش : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢

١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٦٥

بنو قريظة : ١٢٦

بنو قصي : ١٢٨

بنو قينقاع : ١٢٦

بنو محارب : ١٦٥

بنو مؤحمد (من عرب الصعيد) : ٢٠٥

بنو مؤخزوم : ١٦٥

بنو مؤدرار : ٢٠١

بنو مؤهروان : ١٦٤ ، ١٦٨

بنو مؤسلم الحراساني : ١٨٢

بنو مؤنضير : ١٢٦

بنو مؤهاشم = آل البيت

بنو مؤهلال : ١٦٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١١

الولنديون : ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٥

بيت أنجو : ٣١٤

بيت قلاوون : ٣٤٤

بيت النبوة = آل البيت

بيت النسا = أسرة هابسبرج

اليزنطيون = الإغريق

البيكارديون : ٣٠٥

(ت)

التبابعة : ١١١

التيت : ٢٨٤

التتار : ٥١ ، ٥٨ ، ٢٨٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٩

تجار البندقية = البنادقة

الترك : ٦ ، ١١١ ، ١٤٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩

١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩

٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٥٢

٢٧٨ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٧

التشيك : ٣١٣

تغلب (عرب) : ١٣٣ ، ١٦٥

تميم (عرب) : ١٦٥

التوتون : ٣٢٥

التوريادور : ٣٠٨ ، ٣٠٩

التوكلية (من مذاهب التصوفة) : ١٩٩

تيم الادرم : ١٦٥

(ث)

ثمود (من العرب البائدة) : ١٢٥ ، ١٦٥

(ج)

الجبرية (من مذاهب المتكلمين) : ١٩٩

الجيلين Geblin : ٢٤٥ ، ٢٤٦

جديس (عرب) : ١٢٥ ، ١٦٥

جذام (عرب) : ١٦٥

الجرمان — الغنصر الجرمانى : ٩١ ، ٩٩

١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٧

٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٥ ، ٢٧١ ، ٣١٣
جرم (من قبائل الجنوب) : ١٢٦
جساس (عرب) : ١٦٥
جفنة (عرب) : ١٦٥
الجلف Gulf : ٢٤٥ ، ٢٤٦
جامعة الأليجوا : ٢٣٠ ، ٢٣١
جامعة البويار : ٣٢٩
جامعة ديركلوني : ٢٢٩ ، ٢٤١
جامعة القودوا : ٢٣٠
جامعة المنسجرس : ٣٠٩
الجنس الطوراني : ٣١٨
جنود البابا : ٢٤٨
جنود الكنيسة : ٢٥٥
الجهمية (من مذاهب المتكلمين أتباع جهم بن صفوان) : ١٩٩
جهينة (عرب) : ١٢٦ ، ١٦٥
الجوت = القوط

(ح)

حارثة (عرب) : ١٦٥
الحرورية = الخوارج
حزب الزنادقة : ١٨٢
حجاب القصر : ٢٩١
حسيل (عرب) : ١٦٥
الحمدانيون — بنو حمدان : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦
خيفة (عرب) : ١٦٥
الحواريون : ٩٦ ، ٢٤١
الحويون : ٤٤
الحيثيون : ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٤٤

(خ)

الخزرج (عرب) : ١٦٥
خزاعة (عرب) : ١٢٨ ، ١٦٥

خلفاء بغداد : ٢٧٦
الخلفاء الراشدون : ١٣١ ، ١٥٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ٢٩١ ، ٣٦٣
خلفاء سانكو : ٢٩٢
الخلفاء الفاطميون = الفاطميون
الخوارج — الحرورية — الأباضية : ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٩٩

(د)

دارم (عرب) : ١٦٥
الدئل (عرب) : ١٦٥
الدروز : ٢١١
دعاة الحاكم : ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٣
دعاة الشيعة : ٢٧٦
الدخاريون : ٩٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦
الدوريون : ٣٢ ، ٣٤

(ذ)

ذكوان (عرب) : ١٦٥
ذهل بن ثعلبة (عرب) : ١٦٥
ذهل بن شيبان : ١٦٥

(ر)

رجال الكهنوت — القساوسة — الأساقفة :
٤١ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣٦٢
الرعاة = الهكسوس
رعل (عرب) : ١٦٥
روافض النصارى = النساطرة
الرومان : ١٠ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨

السلاف = الصقالبة
 سلالة إدوارد الثالث : ٣٥٧
 سلالة شارلمان = أسرة شارلمان
 السلت : ٩٩
 السلوقيون : ٣١٣
 سليم (عرب) : ١٦٥ ، ١٧٩
 السنيون : ١٩٩
 السودانيون : ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ،
 ٢١٤ ، ٢٧٧
 السوريون : ٦٦
 السومريون : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣١٦

(ش)

الشافعية (من مذاهب الفقهاء أتباع محمد بن
 إدريس) : ١٧٧
 الشركة الشرقية الهولندية : ٣٧٥
 الشرقيون — الشعوب الشرقية : ١٨ ،
 ١٩ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٢ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٢ ، ٣١٠ ، ٣٨٠
 الشعب الأسباني = الأسبان
 شعب عبد شمس (بكسر الشين) : ١٦٥
 شعب عبد الغزي (بكسر الشين) : ١٦٥
 شعب عمورة = الأموريون
 شعب المطلب (بكسر الشين) : ١٦٥
 الشعوب الأولى — الشعوب القديمة : ١٣ ،
 ٣٠ ، ٥٢ ، ١٠٠ ، ٣٧٧
 الشعويون : ١٩٩
 الشوام = أهل الشام
 الشيعة : ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٦ ، ١٧٧ ،
 ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٧٦

(ص)

الصحابة : ٦ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ١٥١
 الصرب : ٣١٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤

٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ،
 ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٤ ،
 ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
 ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١٥٩ ،
 ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٨٥ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٤ ، ٢٤٧ ، ٢٨٥ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٨١
 الرومان الشرقيون — الروم = الإغريق

(ز)

زرارة (عرب) : ١٦٥
 الزناتية = قبائل زناتة
 الزنادقة = حزب الزنادقة
 الزيدية : ١٧٧ ، ٢٧٦

(س)

الساينيون (الساين) : ٧٥
 الساسانيون : ٢٧٠
 الساحرية : ١٩
 الساميون — الفصير السامي : ٢٦ ، ٢٩ ،
 ٧٠ ، ١٣٦ ، ٢٦٩
 سكان أفريقيا : ٣٧٩
 سكان أوربا = الأوريون
 سكان إيطاليا = الإيطاليون
 سكان البلاد السكندرية : ٩٩ ، ٣٧٠ ،
 ٣٧٢
 سكان سان دومنيك : ٣٧٨ ، ٣٧٩
 سكان المكسيك : ٣٧٧
 السكون : ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ٢١٨ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٩
 السلاجقة : ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،
 ٢٥٧ ، ٢٧٨ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ،
 ٣٤٠
 سلاطين العثمانيين : ٣٣١ ، ٣٣٢
 سلاطين مصر : ٣٤٩

الصقالبة — السلاف : ١٠٠ ، ١٠٣ ،
 ١٠٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٩٠ ،
 ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤
 صقالبة الجنوب : ٣١٣
 صقالبة الشمال : ٣١٣
 الصليبيون : ٢١٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،
 ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
 ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،
 ٢٦٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣٤٠ ،
 ٣٤٢

الصنهاجيون = قبائل صنهاجة
 الصينيون : ٥١ ، ٥٣ ، ٢٨٥ ، ٣١٧

(ط)

الطائيون : ٢٠٤
 طبقة الإنكا . Les incas : ٣٧٩
 طريف (عرب) : ١٦٥
 طسم (من العرب البائدة) : ١٢٥ ، ١٦٥
 الطولونيون : ١٩٤
 طيء (عرب) : ١٦٥ ، ٢٠٤

(ظ)

ظفر (عرب) : ١٦٥

(ع)

عائلة أوسيني : ٣٦١
 عائلة براجنس : ٣١٢
 عائلة تسين : ٢٨٤
 عائلة تنج : ٢٨٥
 عائلة رومانوف : ٣٢٩
 عائلة سوى : ٢٨٥
 عائلة شرلمان = أسرة شرلمان
 عائلة كولونيا : ٢٩٩ ، ٣٦١

عائلة فسكونتي : ٣٦٠
 عائلة منج الصينية : ٣١٧
 عائلة الميديس : ٣٦٠ ، ٣٦١
 عائلة هان : ٢٨٤
 عائلة هيسبرج = أسرة هيسبرج
 عائلة الهوهنزرن = أسرة هوهنزرن
 عائلة يوان المنغولية : ٣١٦
 عاد (من العرب البائدة) : ١٢٥ ، ١٦٥
 العالم الإسلامي = المسلمون
 العباسيون : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
 ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
 ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٨ ، ٣١٥ ،
 ٣٣٨ ، ٣٣٩
 عبد القيس (عرب) : ١٦٥
 العبيديون = الفاطميون
 عجل (عرب) : ١٦٥
 العدنانية = العرب الاسماعيلية
 العرب : ١٠٧ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٥ ،
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٨ ،
 ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٦ ،
 ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
 ١٨٩ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ،
 ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ،
 ٢٢٧ ، ٢٤٧ ، ٢٧٦ ، ٢٨٦ ،
 ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ،
 ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ،
 ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٦
 عرب اسبانيا — عرب الأندلس : ٢٢١ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٣
 العرب الاسماعيلية (العدنانية) (أبناء هاجر) :
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٦٤ ، ١٦٥

العرب البائدة : ١٢٥٠ ، ١٦٥

عرب الجنوب = القحطانيون

العرب العارة = القحطانيون

العرب المستعربة = العرب الإسماعيلية

العرب النصرانية : ١٣٣

العشائر المتبربرة = القبائل المتبربرة

عشيرة الذهب : ٣٢٦ ، ٣٢٧

عصبة (عرب) : ١٦٥

عقيل : ١٦٥

العلمانيون = رجال الكهنوت

العلويون = الشيعة

العماليق = الهكسوس

عنزة (عرب) : ١٦٥

العنصر الآري = الآريون

العنصر الأصفر : ١٠١ ، ٣١٤

العنصر الداسي : ٣١٥

العنصر السامي = الساميون

العنصر السلافي = الصقالبة

العنصر القوطي = القوط

العنصر الهندي الأوربي : ٢٨ ، ٦١ ، ٢٧٧

٢٧٨

(غ)

الغال = قبائل الغال

الفرييون : ٢٧٩ ، ٢٨٠

الفساسنة : ١٣٣ ، ١٦٥

غطفان (عرب) : ١٦٥

غم (عرب) : ١٦٥

(ف)

الفاطميون : ١٧٧ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٦

٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦

٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٦ ، ٢٩١

٣٣٨

الفتيان المغرورون : ٣٦٨ ، ٣٦٩

القراعة : ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤

١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣

٣٢ ، ٣٧ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٢

٩٢ ، ١٢٢

الفرس : ١٠ ، ١٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٦

٤٥ ، ٤٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٢

١١٣ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧

١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٦٧ ، ١٧٦

١٧٧ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩

١٩٨ ، ٢٥١ ، ٢٧١ ، ٢٧٢

٢٧٣ ، ٢٧٧

فرسان التوتون : ٢٥٥

فرسان القديس يوحنا : ٢٥٥

فرسان المعبد : ٢٥٥

الفرنجة : ٦ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢

١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٢١٩

٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨

٢٩١ ، ٣٤٣

الفرنسيكان = الاخوان الفرنسيكان

الفرنسيون — الفرنسيين : ٤ ، ٥ ، ٢٧

٣٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ ، ٢٦٣

٢٦٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥

٣١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢٩ ، ٣٥١

٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦

الفرنكونيان : ٢٣٩ ، ٢٤٠

الفرزيون : ٤٤

فلاسفة الإغريق : ٤٠ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١

٥٤ ، ١٨٧

الفلاش — الفلاخ : ٢٠٤ ، ٣٢٠

الفلسطينيون : ٤٤

الفلنكيون : ٣٥٢

الفينيقيون : ٢٦ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٧٠

٣٨٠

(ق)

القبائل الاسماعيلية = العرب الاسماعيلية

القبائل الاسيوية : ٣١٨ ، ٣١٣

قبائل أفريقيا : ٢٩٤

قبائل الأنتيل : ٣٧٨

قبائل البربر (بشمال أفريقيا) : ١٨٤ ،

٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ،

٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٨٨ ، ٢١٤

القبائل التركية = الترك

القبائل الجرمانية = الجرمان

قبائل ربيعة = ربيعة

قبائل زناقة : ٢٠٦ ، ٢٠٥

قبائل سبأ : ١٢٥ ، ١١٠

القبائل الشمالية : ٢٨٤

قبائل صنهاجة : ٢١٢ ، ٢٠٥

قبائل كافر : ٢٧٨

قبائل الكلت : ٣١١

القبائل العربية = العرب

قبائل الغال : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧١ ،

٧٩ ، ٨٨ ، ١٠١

القبائل التبريرة : ١٠ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٩ ،

١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٥ ،

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ٢١٧ ،

٢٧٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٩ ، ٣١١

القبط : ١٤٤ ، ١٧٤ ، ١٨٧

قبيلة بنيامين : ٢١

قبيلة لوزيتانيا : ٣١٢

قبيلة يهوذا : ٢١ ، ٤٤

القحطانيون : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٦٥ ، ٢٨٧

القدرية — القديرون (من مذاهب المتكلمين) :

١٩٩ ، ٥٢

قدماء المصريين = المصريون

القراطة (من المذاهب المنتحلة) : ٢٠٤

القرطاجيون : ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١

قرش = بنو قرش

القيسون = رجال الكهنوت

قشير (عرب) : ١٦٥

قضاة (عرب) : ١٦٥ ، ١٧٩

القوات البريطانية : ٢٦٩

القوط (أعني الغنصر) : ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،

١٠٨ ، ١٧٠ ، ٢٨٦

القوط الشرقيون : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ٢١٩

القوط الغربيون : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ،

١٦٩ ، ٣١١

القياصرة الروسيون : ٣٢٨ ، ٣٢٩

قيس بن ثعلبة (عرب) : ١٦٥

(ك)

الكاثوليك . ١٠٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢ ،

٢٦٩ ، ٣١٥ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٥٩

الكاسيون : ١٨

الكرادلة : ٢٩٩ ، ٣٠١

الكرامية (من مذاهب المتكلمين) : ١٩٩

الكروانيون : ٣١٣

كلاب (عرب) : ١٦٥

الكلدانية : ١٩ ، ٢٠

كنده (عرب) : ١٦٥

كهنة القراعة : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢

(ل)

اللاأدرية (من مذاهب المتكلمين) : ١٩٩

اللاتين : ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦

اللتوانيون : ٣٢٥

لحم (عرب) : ١٦٥

الليبارد : ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ٢٢٠ ،

٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨

اللوردة (الأعيان عند الإنجليز) : ٢٣٨ ، ٢٣٩

ليث (عرب) : ١٦٥

(م)

الماتريديّة (من المتكلمين) : ١٩٩

مازن (عرب) : ١٦٥

مالك (عرب) : ١٦٥

البشرون : ٢١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٦٩

التصوفة : ٩٥ ، ١٩٨

مجاهد (عرب) : ١٦٥

المجربون : ٢٢٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦

٢٥٣ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣

٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٠

٣٣١ ، ٣٣٢

مجلس العموم = أعضاء مجلس العموم

المجوس : ٢٧٠

مذبح (عرب) : ١٦٥

المرايطون — المثلثون : ٢١٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

المرتدون : ١٣٣

المستشرقون : ٣١٠

المسلمون : ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٣٢

١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٣

١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨

١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠

١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٩٠

١٩٧ ، ٢١٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢

٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢

٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠

٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥

٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠

٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥

٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤

٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥١ ، ٣٥٨

٣٦٩ ، ٣٨٠

المسيحيون — النصارى : ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧

١٤٠ ، ١٧٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٩

٢٢٠ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦١

٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٦

٢٨٧ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥

٣٠٠ ، ٣٠٧ ، ٣١٩ ، ٣٢١

٣٢٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٣ ، ٣٧٠

المصريون : ٩ ، ١١ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٨

١٩ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٨٢ ، ٩٢

١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٨٧

١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥

٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤

٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٣٥٠ ، ٣٨٠

المصريون : ١٦٥ ، ٢٨٧

المعتزلة (من مذاهب المتكلمين) : ١٩٩

المغاربة : ٢٩٥ ، ٣٠٥

المغول : ٥١ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٦

٢٨٤ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٦

٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠

٣٢١ ، ٣٢٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩

٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢

المقدونيون : ٦٦ ، ٦٧

المكتشفون : ٣٧٠

المكتشفون الأسبان : ٣٧٤

المكتشفون البرتغاليون : ٣٧٤

المثلثون = المرايطون

الملكانيون : ١٤٢

ملوك إسبانيا : ٣٥٨

ملوك إنجلترا : ٣٥١

ملوك أوروبا : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٨٣ ، ٣٠٠

٣٤١ ، ٣٦٥

ملوك بروسيا : ٢٤٦ ، ٢٨٠ ، ٣٦٣

ملوك الجرمان : ٢٤٥

ملوك الدنمرك : ٢٤٧

ملوك سيلان : ٣٤١

ملوك الطوائف : ١٩٢ ، ٢٩٣
 ملوك فرنسا : ١١ ، ٢٨٠ ، ٣٤٣ ، ٣٥١
 ملوك قبرص : ٢٦٦
 ملوك قشتالة (كستلا) : ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٤٧
 ملوك الحبر الوطنيون : ٣١٤
 ملوك هنتاريا : ٢٤٧
 ملوك اليمن : ٣٤١
 الممالك (الممالك الأتراك) : ٤ ، ١٨٩ ،
 ٢٦٦ ، ٢٩٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ،
 ٣٤٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ،
 ٣٥٠ ، ٣٦٧ ، ٣٧٦
 الممالك البحرية : ٢٦٧ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ،
 ٣١٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ،
 ٣٤٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧
 الممالك البرجية : ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧
 ممالك السلطان : ٣٤٤ ، ٣٤٥
 الممالك السراكية : ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٥
 المهاجرون (من الصحابة) : ١٢٩ ، ١٣٠ ،
 ١٣١ ، ١٦٢
 المؤآيون : ١٨
 الموالى (ممالك العرب في صدر الإسلام) :
 ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٩٠
 الموحدون (أتباع يوسف بن عبد المؤمن) :
 ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢٩٤
 الميتيس : ٣٨٠

(ن)

الزمانديوت : ٢٢٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ،
 ٢٥٤ ، ٢٨٩ ، ٣٢٦ ، ٣٧٠ ،
 ٣٧٤ ، ٣٧٥
 النساطرة (أتباع نسطوريوس) — روافض
 النصارى : ٢٦٩ ، ٢٧٠
 نسل المينوتو : ٥٢
 النصارى = المسيحيون
 نصارى أدسة : ٢٧٠
 نصارى إيران : ٢٧٠
 نصارى الغرب : ٢٥٢

نمر (عرب) : ١٦٥
 النويون : ٣٤١

(هـ)

هذيل (عرب) : ١٦٥
 الهكسوس : ١٦ ، ٢٦ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،
 ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٦٥
 الهلالية = بنو هلال
 هام (عرب) : ١٦٥
 همدان (عرب) : ١٦٥
 هنود أمريكا = الاسكيمو
 الهنود الأوريون = الآريون
 الهولنديون : ٣٢٩ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢
 الهوت : ٥١ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
 ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٧ ، ٢٨٤ ،
 ٢٨٥ ، ٣١٣
 الهليون : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣

(و)

الوثنيون : ٩٠ ، ٩٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ،
 ٢٣٥ ، ٢٥٣
 الوندال : ٩١ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨

(ى)

اليابانيون : ٥٢
 ياجوج وماأجوج : ٣٦٩
 اليوسيون : ٤٤
 اليعاقبة : ١٤٤ ، ٢٦٩
 يوغوسلاف = الصقالية
 اليونان = الإغريق
 اليهود — بنو إسرائيل : ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ،
 ٢٣ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
 ٤٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٧٠ ،
 ٨٦ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
 ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٦٩ ،
 ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢٥٣ ، ٢٧٠ ،
 ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٥٩

تصحیحات

برقت فی أثناء التصحیح ومضات خاطفة من الخطأ المطبعی لم أدركها
وهی لا تخفی رغم قلتها علی فطنة القارئ الأریب ففی :

| | | صفحة سطر | |
|-----------------------|--|----------|-----|
| القیصر یولیوس | (والأولی) یولیوس قیصر | ۱۱ | ۵۵ |
| أنافیوس | (وضبطها) أنائیوس | ۹ | ۹۲ |
| وددت بصرية كسائية | (والأفصح) وددت | ۳ | ۱۱۴ |
| علی یدأبو بکر | (وصوابها) علی یدأبی بکر | ۱۳ | ۱۱۹ |
| وکر | (وصوابها) وکر | ۱۱ | ۱۵۸ |
| أعطوا | (وصوابها) أعطوا | ۱۴ | ۱۵۸ |
| أخوه ا | (ووضعها) أخواه | ۱۸ | ۱۷۸ |
| الرقة | (وضبطها) الرقة | ۴ | ۱۹۲ |
| لیامن شرم ولكنه انتصر | (وتحریرها من غیر الاستدراك « لكنه ») | ۲ | ۳۴۱ |
| تدخل | (وصوابها) تدخل | ۹ | ۳۴۷ |

المصحح

